الكشاف

عن

حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل

للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تحقيق وتعليق ودراسة

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

الجزء الثالث

مكتبة العبيكان

لسان العرب

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

الكشاف

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مَدَنِيَّةٌ [إلاَّ الآيَتَيْنِ الأَخِيرَتَيْنِ فَمَكِّيَّتَانِ]

وَآيَاتُهَا ١٣٠ وَقِيلَ ١٢٩ [نَزَلَتْ بَعْدَ المَائِدَةِ]

لها عدة أسماء: براءة التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة/ ٢٨٣ب، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدة، سورة العذاب، لأنّ فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي: تبرىء منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث(١) عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم، وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: إنكم تسمونها سورة التوبة؛ وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه.

فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟

قلت: سأل عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان ـ رضي الله عنهما ـ فقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية، قال: «اْجعَلُوهَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا» وتوفي رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها؛(٢) فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين (٦٥٨)، وعن أبي كعب: إنما

---

٦٥٨ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) كتاب الصلاة: باب من جهر بها، حديث (٧٨٦ ـ ٧٨٧)، والتِّرمذي (٥/ ٢٧٢): كتاب تفسير القرآن: باب: ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٨٦)، والنَّسائي في فضائل القرآن (٣٢)، وأحمد (١/ ٥٧ و٦٩) وابن أبي داود في «المصاحف» ص (٣٩)، والبيهقي في سُننه الكبرى (٢/ ٤٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢١ و٣٣٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وابن حِبان (١/ ٢٣٢) رقم (٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٥٢ ـ ١٥٣) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٨) إلى إسحاق بن راهويه، وأبي يَعلى الموصلي، والبزار في مسانيدهم، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٧٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر والنحاس في ناسخه، وإلى أبي الشيخ وإلى ابن مردويه في تفسيره.

---

(١) قوله: «تبحث» لعله أي تبحث (ع).

(٢) قوله: «شبيهة بقصتها» هذا الضمير للأنفال، بدليل التشبيه، وإن لم يجر لها ذكر هنا. وعبارة الخازن ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها. . . إلخ (ع).

توهموا ذلك؛ لأنّ في الأنفال: ذكر العهود، وفي براءة: نبذ العهود، وسئل ابن عيينة ـ رضي الله عنه ـ فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، قيل: فإنّ النبي ـ ﷺ ـ قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم؛ ألا تراه يقول: «سلام على من اتبع الهدى» (٦٥٩) فمن دعي إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فأجاب، ودعي[(١)] إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، وأمّا النبذ، فإنما هو البراءة واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم، ولا يقال: لا تفرق ولا تخف، ومترس[(٢)]، ولا بأس: هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة، كلتاهما نزلت في القتال، تعدّان السابعة من الطول[(٣)]، وهي سبع وما بعدها المئون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لقول من قال: هما سورة واحدة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

= قال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وابن حِبان وأحمد وإسحاق وأبو يَعلى والبزار. من طريق يوسف بن مهران. ويزيد الفارسي. عن ابن عباس. قال: «سألت عثمان بن عفان، ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما، فذكر الحديث بطوله سوى قوله: وكانتا تدعيان القرينتين، فلم يذكرها إلا إسحاق.. انتهى.

٦٥٩ ـ أخرجه البخاري (١/٤٦): كتاب بدء الوحي حديث (٧)، ومسلم (٦/٣٤٦ ـ النووي) كتاب الجهاد والسّير: باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، حديث (٧٤/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٤/ ٣٣٥) كتاب الأدب: باب كيف يكتب إلى الذمي، حديث (٥١٣٦)، والتِّرمذي (ح ٥/ ٦٩) كتاب الإستئذان: باب ما جاء كيف يكتب إلى أهل الشرك، حديث (٢٧١٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن أبي سفيان، فذكره.

قال الحافظ: هو في حديث ابن عباس الطويل عن أبي سفيان وهو متفق عليه. وفيه: فقرأ الكتاب: «فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى...» الحديث. انتهى.

---

(١) قوله: «ودعى» لعله: أو دعى (ع).

(٢) قوله: «ومترس» بفتح الميم والتاء وسكون الراء: فارسي، معناه: أمان (ع).

(٣) قوله: «من الطول» الطول ـ بكسر ففتح ـ بمعنى الطويلة. أفاده الصحاح. وعبارة غيره: الطوال.

﴿بَرَآءَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه براءة، و﴿مِّنَ﴾: لابتداء الغاية، متعلق بمحذوف، وليس بصلة؛ كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾: كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون: (براءة): مبتدأ؛ لتخصيصها بصفتها، والخبر: (إلى الذين عاهدتم)؛ كما تقول: رجل من بني تميم في الدار، وقرىء: (براءةً): بالنصب، على: اسمعوا براءة، وقرأ أهل نجران: (من الله): بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف؛ لكثرته، والمعنى: أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه[1] منبوذ إليهم.

فإن قلت/ ٢٨٤أ: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟

قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أوّلاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد، أوجب الله ـ تعالى ـ النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما نجدّد من ذلك، فقيل لهم: اعلموا أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين، وروي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا لا يتعرّض لهم، وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ **[التوبة: ٥]**، وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، فأمّر رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليًا ـ رضي الله عنه ـ راكب العضباء، ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ؟ فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا عليّ سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور، وروي أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق، هبط جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد، لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك، فأرسل عليًا، فرجع أبو بكر ـ رضي الله عنهما ـ إلى رسول الله ـ

---

(١) قال محمود معناه: «أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين. . . إلخ» قال أحمد: ورواه ما ذكره سر آخر هو المرعي، والله أعلم. وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرعاً. ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ لأمراء السرايا حيث يقول لهم: وإذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أو لا؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك، فلأن تخفر ذمتك خير من أن تخفر ذمة الله. فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم.

ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء، قال: نَعَمْ، فَسِرْ وَأَنْتَ عَلَى المَوْسِمِ، وَعَلِيٌّ يُنَادِي بالآي». فلما كان قبل التروية، خطب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي ـ رضي الله عنه ـ يوم النحر عند جمرة العقبة، فقال: يا أيها الناس، إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية (٦٦٠)، وعن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: ألاَّ يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا: عند ذلك يا علي، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف، وقيل: إنما أمر ألاَّ يبلغ عنه إلا رجل منه، لأنّ العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لجاز أن يقولوا: هذا

---

٦٦٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٠) غريب، وفي سيرة ابن هشام بعضه في غزوة تبوك، وكذا في دلائل النبوة للبيهقي، وكذا في تفسير الطبري أ.هـ.

وأخرجه ابن هشام في سيرته (٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤) رقم (١٩١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥)، والطبري في تفسيره (٦/ ٣٠٧) رقم (١٦٣٩١) بسنده عن ابن إسحاق مرسلاً.

وأخرجه أبو يَعلى الموصلي في مسنده (١/ ١٠٠) رقم (١٠٤)، ورواه أحمد في مسنده (١/ ٣) بهذا الإسناد من طريق وكيع بن الجراح، ثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع، عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ بعثه ببراءة إلى أهل مكة. . . فذكره، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٢)، وقال: في الصحيح بعضه ـ رواه أحمد ورجاله ثقات.

قال الحافظ:

(قلت): هذا ملفق من مواضع. فصدره مذكور في مغازي ابن إسحاق. وقوله: «وهم بنو ضمرة وبنو كنانة أي الذين نكثوا إلا من استثنى منهم كما يفهم من ظاهره. وسيأتي بيان ذلك قريباً بعد أحاديث؛ وذلك أن العهد كان في سنة ست والنكث ونزولها والفتح في سنة ثمان؛ كما سيأتي بعد قليل: أن المدة التي بلا نكث كانت ثمانية عشر شهراً. فعلى هذا كان أول النكث. في شهر ربيع الآخر سنة ثمان هذا هو التحقيق في النقل، وأما قوله: «وكان الأمير بها أي في سنة ثمان على مكة وعلى الحج. فهذا ذكره الواقدي في المغازي. وأما قوله: «فأمر أبو بكر على موسم سنة تسع إلى آخره»، فهو في الصحيح من حديث أبي هريرة بمعناه.

وأما قوله: وأتبعه علياً فرواه أحمد، وأبو يَعلى من رواية أبي إسحاق عن يزيد بن منيع عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ «أن النبي ﷺ بعثه ببراءة إلى أهل مكة. فذكر الحديث وفيه فسار ثلاثاً، ثم قال لعلي: الحقه ورد على أبا بكر وبلغها قال ففعل، فلما قدم أبو بكر بكى، وقال: يا رسول الله حدث في شيء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير. لكنني أمرت أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل مني»، وفي المستدرك من طريق جميع بن عمير: «أتيت ابن عمر فسألته عن علي فانتهرني، ثم قال: ألا أحدثك عن علي إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وعمر ببراءة إلى أهل مكة فانطلقا فإذا هما براكب فقالا: من هذا؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: يا أبا بكر هات الكتاب، الحديث. وروى. . . . انتهى.

خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليًّا ـ رضي الله عنه ـ.

فإن قلت: الأشهر الأربعة ما هي؟

قلت: عن الزهري ـ رضي الله عنه ـ أنّ براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من شهر/ ٢٨٤ب ربيع الآخر، وكانت حرماً؛ لأنهم أُومنوا فيها، وحرّم قتلهم وقتالهم، أو على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول؛ لأنّ الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم، ثم صار في السنة الثانية من ذي الحجة.

فإن قلت: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم، وقد صانها الله تعالى عن ذلك؟

قلت: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها، ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: لا تفوتونه وإن أمهلكم، وهو مخزيكم، أي: مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

﴿وَأَذَانٌ﴾: ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها، ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال: عمرو معطوف على زيد، في قولك: زيد قائم، وعمرو قاعد، و«الأذان»: بمعنى: الإيذان، وهو الإعلام، كما أنّ الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

فإن قلت: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟

قلت: تلك إخبار بثبوت البراءة، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فإن قلت: لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟

قلت: لأنّ البراءة: مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان: فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث، ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رجلاً أخذ بلجام دابته فقال:

ما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا، خل عن دابتي (٦٦١)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّ رسول الله - ﷺ - وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «هٰذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ» (٦٦٢) ووصف الحج بالأكبر؛ لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر؛ لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - فهو الحج الأكبر، وعن الحسن - رضي الله عنه -: سمي يوم الحج الأكبر؛ لاجتماع المسلمين والمشركين

---

٦٦١ - أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣١٢) رقم (١٦٤١٩)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥١) رقم (٥٢٢) إلى ابن أبي شيبة في مصنفه في الحج.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة والطبري من رواية شعبة عن الحاكم عن يحيى بن الجزار عن علي: «أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، وسأله عن الحج الأكبر فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها. انتهى.

٦٦٢ - أخرجه البخاري (٤/ ٤٠٢): كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٤٢)، وأطرافه في (٤٤٠٣ - ٦٠٤٣ - ٦١٦٦ - ٦٧٨٥ - ٦٨٦٨ - ٧٠٧٧)، وأبو داود (٢/ ١٩٥): كتاب الحج: باب يوم الحج الأكبر، حديث (١٩٤٥). وابن ماجه (٢/ ١٠١٦): كتاب المناسك: باب رمي الجمار أيام التشريق، حديث (٣٠٥٨)، والبيهقي (٥/ ١٣٩) في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأكثر هذا المتن مخرج في الصحيحين إلا قوله: «إن يوم الحج الأكبر يوم النحر سنة»، فإن الأقاويل فيه عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - على خلاف بينهم فيه، فمنهم من قال: يوم عرفة، ومنهم من قال: يوم النحر، وابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (٢/ ١٤٠)، والطبراني في «المعجم الصغير»: (٢/ ١١٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٢٧٤) في ترجمة سعيد بن عبد العزيز، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣١٥) رقم (١٦٤٦١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٨١) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمر به.

وأخرجه التِّرمذي (٣/ ٢٨٢): كتاب الحج: باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٧) مرفوعاً عن علي به.

و(٣/ ٢٨٢) كتاب الحج باب ما جاء في يوم الحج الأكبر، حديث (٩٥٨) موقوفاً، وقال: وهذا أصح من الحديث الأول. و(٥/ ٢٧٤): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٨٨) مرفوعاً عن علي به، وحديث (٣٠٨٩) موقوفاً.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٣) إلى أبي نعيم في تاريخ أصبهان.

قال الحافظ:

أخرجه البخاري تعليقاً وأبو داود والحاكم من رواية هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر مطولاً، ورواه الطبراني والطبري وأبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم مختصراً من طريق سعيد بن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «أن رسول الله ﷺ رمى الجمرة يوم النحر. وقال: هذا يوم الحج الأكبر»، وفي الباب عن علي - رضي الله عنه، أخرجه التِّرمذي مرفوعاً وموقوفاً. وعن ابن أبي أوفى عند الطبراني. وعن ابن مسعود في تاريخ أصبهان لأبي نعيم في ترجمة عمر بن هارون. انتهى.

فيه، وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر، حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً، وقرىء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: بالكسر؛ لأنّ الآذان في معنى القول، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: عطف على المنوي في: ﴿بَرِيٓءٌ﴾، أو على محل: «إن» المكسورة واسمها، وقرىء: بالنصب، عطفاً على اسم: «إن»، أو لأنّ الواو بمعنى مع، أي: بريء معه منهم، وبالجرّ على الجوار، وقيل: على القسم؛ كقوله: لعمرك، ويحكى أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرؤها، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله، فأنا منه بريء، فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ بتعلم العربية، (٦٦٣) ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾: من الكفر والغدر، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: عن التوبة، أو ثبتم على التولي والإعراض/ ٢٨٥أ عن الإسلام، والوفاء، فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى، ولا فائتين أخذه وعقابه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

فإن قلت: ممّ استثنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾[1]؟

-----

٦٦٣ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٣٨٣)، وعزاه إلى أبي بكر محمد بن القادم الأنباري في كتابه «الوقف والابتداء»، وابن عساكر في تاريخه عن أبي مليكة ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم أعرابي في زمان عمر ـ رضي الله عنه ـ... فذكره.

قال الحافظ:

لم أجده بإسناده وذكره القرطبي في التذكرة عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمن عمر فذكره أتم منه، وزاد في آخره: وأمر بأبي الأسود، فوضع النحو اهـ، والمشهور أن الذي أمر أبا الأسود بوضع النحو علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت مم هذا الاستثناء قلت وجهه أن يكون مستثنى... إلخ» قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله فسيحوا خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ إلى خطاب المشركين في قوله (فسيحوا) ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ وأن الله وأصله واعلموا أنكم غير معجزي وأني، وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتنان في أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله: إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا، وكل هذا من حسنات الفصاحة وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قبل (فسيحوا) مراعاة أن يطابق قوله فأتموا، إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولاً وثانياً ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل الذي ذكرناه، وكلا الوجهين ممتاز بنوع مَن البلاغة وطرف من الفصاحة، والله أعلم.

قلت: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ لأن الكلام خطاب للمسلمين، ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فقولوا لهم: سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم «والاستثناء» بمعنى: الاستدراك، وكأنه قيل: بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا عليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفيَّ كالغادر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن قضية التقوى ألاَّ يسوّى بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك، ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾: لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط، ﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ﴾: ولم يعاونوا، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: عدوّاً، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله ـ ﷺ ـ وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعيُّ على رسول الله ـ ﷺ ـ فأنشد [من الرجز]:

لاَهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الأَتْلَدَا
إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا ... وَقَتَّلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدَا[1]

---

(١) إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ذمامك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا في الحطيم هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... في فيلق كالبحر يجري مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا ... إن شيم خطب وجهه تربدا

لعمرو بن سلام الخزاعي. لما خرج رسول الله ﷺ من مكة أعانت قريش بني بكر على حرب بني خزاعة، ففزع عمرو إليه بالمدينة وأنشده ذلك، فقال ﷺ: لا نصرت إن لم أنصركم. و«لاهم» أصله اللهم، خفف وأظهر في مقام الإضمار للدلالة على التعظيم والتهييج لما أراده. والحلف: العهد. والأتلد: الأقدم. والتفت إلى الخطاب للاستعطاف. وجعله كالأب لهم لمراعاته مصالحهم. وعطف بثمة للترتيب في الإخبار ونزع إليه كناية عن نقض العهد. و«الذمام» العهد. وقيل: جمع ذمة بمعنى العهد أيضاً. وروي «ميثاقك». وأذل، وأقل، بمعنى أذلاء قليلون، فليس مفيداً للزيادة. ويجوز أنه على بابه بالنظر لزعمهم، أي: أذل وأقل مما زعموا فيك وفي قومك. و«الحطيم» معروف، كانوا في الجاهلية يحلفون فيه فيحطم الكاذب. ويروى «بالأتير» والأتير: الطريق، وواحده وتيرة. وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة. و«الهجد» جمع هاجد، وهو المتيقظ من النوم للعبادة. و«العتيد» الحاضر، يقال: عتده تعتيداً، وأعتده إعتاداً: هيأه وأحضره، فهو عتيد وأعتد. وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول، فلعله من عتد إذا حضر. والأصل أعده إعداداً فأبدلت الدال تاء، و«هداك الله» جملة اعتراضية دعائية. و«المدد» الزيادة: أي يأتوا زيادة لنا تعيننا على أعدائنا. وفي الإضافة إلى الله تهييج لهم. و«الفيلق» الجيش المزدحم المتكاثف. كالبحر في الكثرة وسرعة السير. و«المزبد» المخرج للرغوة من شدة السير والغليان. «يسمو» يعلو «صعداً» أي صعوداً. «إن شيم» أي رؤي. وروي بالمهملة: أي أحق، «تربد» أي تغير وصار مغيراً كلون الرماد. =

فقال عليه الصلاة والسلام: «لاَ نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ» (٦٦٤) وقرىء: «لم ينقضوكم»، بالضاد معجمة، أي: لم ينقضوا عهدكم، ومعنى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾: فأدّوه إليهم تاماً كاملاً، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتمّ إليهم عهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

انسلخ الشهر؛ كقولك: انجرد الشهر، وسنة جرداء، و﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾: التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا، ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: الذين نقضوكم وظاهروا عليكم، ﴿حيث وجدتموهم﴾: من حلّ أو حرم، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: وأْسروهم، والأخيذ: الأسير، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾، وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام، ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: كل ممرّ ومجتاز[1]،

---

٦٦٤ ـ أخرجه ابن هشام في سيرته (٤/ ٤ و١٠ ـ ١١) رقم (١٦٥٠ ـ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٦ ـ ٧)، وفي «السنن الكبرى»: (٩/ ٢٣٤)، والطبراني في معجمه الكبير (٢٠/ ٩) رقم (١٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٠٠ ـ ٤٠١). المغازي: باب فتح مكة رقم (٣٦٩٠٢) عن عكرمة مرسلاً، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٦)، ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال عن عكرمة مرسلاً، وذكر القصة والشعر، ورواه الواقدي في كتاب المغازي مطولاً، فذكر القصة والشعر مرسلاً عن جماعة كثيرة؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٥٥ ـ ٥٦).
قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في المغازي والبيهقي في الدلائل من طريقه. قال: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا: «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فذكر القصة مطولة وفيها الشعر. وفيها، فنكثوا في الهدنة نحو سبعة أو ثمانية عشر شهراً. وروى الطبراني من طريق علي بن الحسين حدثتني ميمونة بنت الحارث قالت: «كان بين النبي ﷺ وبين قريش، فذكرت القصة والشعر. وأوردها الواقدي في المغازي مطولاً من طرق ثم قال: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبي أنس عن ابن عباس. قال: قام رسول الله ﷺ وهو يجر طرف ردائه ويقول: «يا عمرو لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي». انتهى.

= والغضب عند نزول المكروه أمارة الشجاعة. وهذا كان سبب فتح مكة.
ينظر تاج العروس: (وتر).

(١) قال محمود: «المرصد المجاز والممر . . . إلخ» قال أحمد: ويكون انتصابه دون جره من الاتساع؛ لأن المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نسبه، ويكون مثل قوله في الاتساع [من المنسرح]:
. . . . كما عسل الطريق الثعلب =

ترصدونهم به، وانتصابه على الظرف؛ كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾: فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر، أو: فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم؛ كقوله [من البسيط]:

خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ(١) . . . .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: دعوهم وإتيان المسجد الحرام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿أَحَدٌ﴾: مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق،

= ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون مرصد مصدراً؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان والمصدر من فعلة واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصليا؛ لأن اقعدوا في معنى ارصدوا، كأنه قيل: وارصدوهم كلّ مرصد؛ إلا أن الظرفية يقويها قوله ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي المكان، والله أعلم.

(١) خل السبيل لمن يبني المنار به ... وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة ... من خبث برزة ألاّ ينزل المطر

لجرير يهجو عمر بن لجأ التميمي. ويروى: خل الطريق. ومنار الطريق: حدوده. يقول له: اترك سبيل المعالي لمن يبني الأعلام فيه ويقيم شعائره ويبين حدوده. شبه الخصال الحميدة بالطريق الجادة بجامع الوصول بكل إلى المراد وعدم الميل عن كل على سبيل التصريحية، وبناء المنار ترشيح: والمراد به: إقامة الشعائر الجميلة وتحسين شأنها لتتبعها الناس. أو نصب دلائل على الكرم لتهتدي إليه العفاة. وبرزة هي أم عمر، وقيل: الأرض الواسعة. وعليه فمنع صرفه ضرورة، ولكن البيت الثاني يؤيد ما قلنا، أي اخرج بأمك القبيحة إلى ما ألجأك إليه القدر الأزلي، وهو ما انطبعت عليه من الخصال الخسيسة. والمراد بالأمر في الموضعين: بيان حاله التي هو عليها لا حقيقة الأمر. ويحتمل أن الأول أمر بترك التفاخر، فتكون صورة الأمر للثاني للمشاكلة، أو بمعنى طلب اعترافه بحال نفسه. وجعله النحويون من قبيل التحذير ومثلوا به لذكر عامل المحذر منه، وهو يزيد على مجرد الأمر بالتخلية بأن بينه وبين ذلك السبيل منافرة حتى صح تحذيره منه. وخفت بضم التاء، ولكن فتحها أبلغ في الهجو. وتكرير اسم برزة للتنكير والتعبير بها، أي أنها شؤم على الناس يخاف منها الجدب.

ينظر ديوانه ١/ ٢١١، وشرح التصريح ٢/ ١٩٥، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٦، والكتاب ١/ ٢٥٤، ولسان العرب (برز)، والمقاصد النحويّة ٤/ ٣٠٧، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/ ٧٨، والرد على النحاة ص ٧٥، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨١، وشرح المفصل ٢/ ٣٠.

فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين[1] ما بعثت له فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ويتدبره/ ٢٨٥ب ويطلع على حقيقة الأمر، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾: بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ وعن السدّي والضحاك ـ رضي الله عنهما ـ: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ذلك الأمر، يعني: الأمر بالإجارة في قوله: (فأجره)، ﴿بِـ﴾ سبب، ﴿أنهم﴾: قوم جهلة، ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾: ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان، حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿كَيْفَ﴾: استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله ـ ﷺ ـ وهم أضداد وغرة صدورهم[2]، يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك، ولا تحدثوا به نفوسكم، ولا تفكروا في قتلهم، ثم استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم، ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾: على العهد، ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾: على مثله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن التربص بهم من أعمال المتقين، ﴿كَيْفَ﴾: تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد[3]، وحذف الفعل؛ لكونه معلوماً؛ كما قال [من الطويل]:

---

(١) قوله: «وتبين» لعله «ويتبين» عطفاً على يسمع (ع).

(٢) قوله: «وغرة صدورهم» أي ملتهبة من الغيظ (ع).

(٣) قال محمود: «كيف تكرار لاستبعاد ثبات... إلخ» قال أحمد السر في تكرار كيف ـ والله أعلم ـ أنه لما ذكره أولاً لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية باستثناء الباقين على العهد وطال الكلام. أعيدت «كيف» تطرية للذكر، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجرد التكرار. بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، والله الموفق.

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَىٰ   فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلِيبُ[(1)]؟!

يريد: فكيف مات، أي: كيف يكون لهم عهد ﴿وَ﴾: حالهم أنهم، ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾: لا يراعوا حلفاً، وقيل: قرابة؛ وأنشد لحسان ـ رضي الله عنه ـ [من الوافر]:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ   كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ[(2)]

وقيل: (إلا): إلهاً، وقرىء: «إيلا»، بمعناه، وقيل: جبرئيل، وجبرئل، من ذلك، وقيل: منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى: الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا، رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الألّ وهو الجؤار، وله أليل: أي: أنين، يرفع به صوته [من البسيط]:

... ... دَعَتْ أَلَلِيهَا......

إذا ولولت[(3)]، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إلّ، وسميت به القرابة؛ لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق، ﴿يُرْضُونَكُم﴾: كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد، وإباء القلوب مخالفة ما فيها من

---

(1) لعمر أبي إن البعيد الذي مضى   وإن الذي يأتي غداً لقريب
وخبرتماني أنما الموت بالقرى   فكيف وهاتا هضبة وقليب
لكعب الغنوي في مرثية أخيه. و«الهضبة» الصخرة العظيمة. وجعل الخطاب لاثنين على عادة العرب ولو لم يوجدا. وإنما بالكسر على الحكاية. أو بالفتح على المفعولية: أي وأخبر شماني أن الموت والوباء في القرى فقط، فكيف تدعيان ذلك وقد مات أخي في هذه البرية. أو كيف مات أخي فيها. والقليب: البئر لأنه قلب ترابه من بطن الأرض إلى ظهرها. وهاتا: إشارة للبرية. ويجوز أنها للهضبة: أي وهذا قليب.
ينظر الكتاب (٣/ ٤٨٧)، المقتضب (٢/ ٢٨٧)، شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ١٣٦)، الأصمعيات (٩٧)، البحر المحيط (٥/ ١٣)، الدر المصون (٣/ ٤٤٦).

(2) لحسان بن ثابت. والإل ـ بالكسر ـ الحلف والعهد والقرابة. والسقب: حوار الناقة. والرأل: ولد النعام. يقول: وحياتك إن قرابتك من قريش بعيدة أو معدومة، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام. ويروى: كآل السيف. والوجه أنه تحريف.
ينظر ديوانه (ص ١٠٥)، لسان العرب (ألل)، ديوان الأدب (٤/ ١٥٥)، كتاب الجيم (٣/ ٢٢٦)، تاج العروس (ألل)، بلا نسبة في مقياس اللغة ١/ ٢١، كتاب العين ٨/ ٣٦١، المخصص (٣/ ١٥١)، الدر المصون (٣/ ٤٤٧).

(3) قوله: «ودعت ألليها: إذا ولولت» في الصحاح: وأما قول الكميت يمدح رجلاً:
وأنت ما أنت في غبراء مظلمة   إذا دعت أللَيها الكاعب الفضل
فيجوز أن يريد الألل، ثم ثنى كأنه يريد صوتاً بعد صوت. اهـ (ع).

الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾: متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم[1]، ولا شمائل/ ٢٨٦أ مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادي عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿اشْتَرَوْا﴾: استبدلوا، ﴿بآيات الله﴾: بالقرآن والإسلام، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وهو اتباع الأهواء والشهوات، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾: فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم، ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾: المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَإِن تَابُوا﴾: عن الكفر ونقض العهد، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾: فهم إخوانكم على حذف المبتدأ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: ونبينها، وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾: وثلبوه وعابوه، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾: فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم؛ إشعاراً بأنهم إذ نكثوا في حال الشرك تمرّداً، وطغياناً، وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام، ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان، والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله، ويقولون: ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر، وذوو الرياسة والتقدّم فيه، لا يشق كافر غبارهم، وقالوا: إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعناً ظاهراً، جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على ألاّ يطعن، فإذا طعن، فقد نكث عهده وخرج من الذمّة، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾: جمع يمين، وقرىء:

---

(١) قوله: «لا مروءة تزعهم» أي تكفهم. اهـ صحاح (ع).

لا إيمان لهم، أي: لا إسلام لهم، أو: لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث، ولا سبيل إليه.

فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ ثم نفاها عنهم؟

قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان؛ وبه استشهد أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أن يمين الكافر لا تكون يميناً، وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: يمينهم يمين، وقال: معناه أنهم لا يوفون بها؛ بدليل أنه وصفها بالنكث، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾: متعلق بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه، وفضله، وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟

قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء[1]، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين؛ وأما التصريح بالياء، فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف[2].

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾: دخلت الهمزة على: (لا تقاتلون)؛ تقريراً بانتفاء المقاتلة، ومعناه: الحض عليها/ ٢٨٦ب على سبيل المبالغة، ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾: التي حلفوها في المعاهدة، ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾: من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، حتى أذن الله ـ

---

(١) قوله: «بين مخرج الهمزة والياء»: لعله «مخرجي الهمزة والياء» (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «أئمة» بهمزتين ثانيتهما مُسَهَّلة بينَ بينَ ولا ألفَ بينهما. والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتخفيفهما من غير إدخال ألف بينهما، وهشام كذلك إلا أن أدْخَلَ بينهما ألفاً. هذا هو المشهور بين القراء السبعة. ونقل الشيخ عن نافع ومَنْ معه، أنهم يُبْدلون الثانية ياء صريحة، وأنه قد نُقِلَ عن نافع المدُّ بينهما، أي بين الهمزة والياء.
قال الشيخ: «وذلك دأبُه في تلحين المقرئين، وكيف تكون لحناً، وقد قرأ بها رأسُ النحاة البصريين، أبو عمرو بن العلاء، وقارئُ أهلِ مكة ابنُ كثير، وقارئُ أهل المدينة نافع؟». قلت: لا يُنْقَم على الزمخشري شيءٌ فإنه إنما قال إنها غير مقبولة عند البصريين، ولا يلزم من ذلك أنه لا يَقْبلها، غاية ما في الباب، أنه نقَلَ عن غيره. وأمَّا التصريحُ بالياء، فإنه معذورٌ فيه لأنه كما قَدَّمْتُ لك، إنما اشْتُهِر بين القراء التسهيلُ بين بين لا الإِبدال المحض، حتى إن الشاطبي جعل ذلك مذهباً للنحويين لا للقراء، فالزمخشري إنما اختار مذهب القراء لا مذهب النحاة في هذه اللفظة. انتهى. الدر المصون.

تعالى ـ له في الهجرة، فخرج بنفسه، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة؛ لأن رسول الله ـ ﷺ ـ جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحدّاهم به، فعدلوا عن المعارضة؛ لعجزهم عنها إلى القتال، فهم البادئون بالقتال، والبادىء أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها، ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بألاّ تترك مصادمته، وأن يوبخ من فرط فيها، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؛ تقرير بالخشية منهم، وتوبيخ عليها، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: فتقاتلوا أعداءه، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح ألاّ يخشى المؤمن إلا ربه؛ ولا يبالي بمن سواه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

لما وبخهم الله على ترك القتال، جرّد لهم الأمر به فقال: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ﴾، ووعدهم ـ ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم ـ أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً، ويخزيهم أسراً، ويوليهم النصر والغلبة عليهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ﴾: طائفة[1] من المؤمنين، وهم خزاعة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هم بطون من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يشكون إليه، فقال: «أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ الفَرَجَ قَرِيبٌ» ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ﴾: قلوبكم[2]؛ لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها؛ فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله ـ ﷺ ـ وصحة نبوّته، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: ابتداء كلام، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك ـ أيضاً ـ فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرىء: و«يتوبَ» بالنصب بإضمار: «أن»، ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم ما سيكون، كما يعلم ما قد كان: ﴿حَكِيمٌ﴾، لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا

---

(١) قوله: «ويشفِ صدور طائفة» هذا لفظ التلاوة، والأنسب ويشفي، عطفاً على ﴿يعذبهم بأيديهم﴾ لأنه من جملة الوعد (ع).

(٢) قوله: «ويذهب غيظ قلوبكم» التلاوة (غيظ قلوبهم) ولعل بعض الناسخين فهم أنه من البشرى، فغيره بلفظ الخطاب. والمتجه (غيظ قلوبهم) لما لقوا، ثم قوله (ويذهب) بالرفع عطف على يعذبهم بأيديكم؛ لأنه من جملة الوعد كما سيشير إليه (ع).

﴿رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَمْ﴾: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة، أي: بطانة، من الذين يضادّون رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين ـ رضوان الله عليهم ـ ﴿وَلَمَّا﴾ معناها: التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾: معطوف على جاهدوا، داخل في حيز الصلة؛ كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين/ ٢٨٧أ منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والوليجة: فعيلة من ولج، كالدخيلة من دخل، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم؛ كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل: فيّ، يريد: ما وجد ذلك مني.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: ما صح لهم وما استقام، ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني: المسجد الحرام، لقوله: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد المسجد الحرام؛ وإنما قيل: مساجد؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد.

والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها، دخل تحت ذلك ألاّ يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد؛ لأنّ طريقته طريقة الكناية؛ كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك، و﴿شَٰهِدِينَ﴾: حال من الواو في: (يعمروا)، والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها، وقيل: هو قولهم: لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك، فطفق عليّ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوبخ العباس بقتال رسول الله ـ ﷺ ـ وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول، فقال العباس: تذكرون مساوينا، وتكتمون محاسننا، فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً: إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب

الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني؛ فنزلت، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: التي هي العمارة، والحجابة، والسقاية، وفك العناة، وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال[1] الثابتة الصحيحة إذا تعقبها، فما ظنك بالمقارن، وإلى ذلك أشار في قوله: (شاهدين)؛ حيث جعله حالاً عنهم، ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة؛ وذلك محال غير مستقيم.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ﴾: وقرىء بالتوحيد، أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رمّ ما استرمّ منها، وقمها وتنظيفها، وتنويرها بالمصابيح، وتعظيمها، واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ الْمَسَاجِدَ فَيَقْعُدُونَ فِيهَا حَلَقاً[2]، ذِكْرُهُمُ/ ٢٨٧ب الدُّنْيَا وَحُبُّ الدُّنْيَا، لاَ تُجَالِسُوهُمْ؛ فَلَيْسَ لله بِهِمْ حَاجَةٌ» (٦٦٥)، وفي

---

٦٦٥ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٤٥) رقم (١٠٤٥٢)، وابن حِبان في المجروحين (١/ ١٩٩) في ترجمة بزيع، وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٩٣).
كلهم من طريق بزيع أبي الخليل الخصاف عن الأعمش عن شفيق بن سلمة عن ابن مسعود فذكره.
وبزيع قال ابن حِبان: يأتي عن الثقات بأشياء موضوعة كأنه المعتمد لها.
وذكره الهيثمي في الجمع (٢/ ٢٧)، ونسبه إلى الطبراني، وقال: فيه بزيع أبو الخليل ونُسب إلى الوضع. وللحديث شاهد آخر أخرجه ابن حِبان (١٥/ ١٦٢ ـ ١٦٣) رقم (٦٧٦١) من طريق عيسى ابن يونس عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود فذكره.
وللحديث شاهد من طريق أنس بن مالك أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قال الحافظ: أخرجه الطبراني من رواية أبي وائل عن ابن مسعود رفعه: «سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون المساجد حلقاً حلقاً، مناهم الدنيا لا تجالسوهم. فليس لله فيهم حاجة»، وفيه بزيع أبو الخليل راويه عن الأعمش عنه وهو متروك، وقال الدارقطني: إنه تفرد به، وفيه نظر. فقد أخرجه ابن حِبان في صحيحه من طريق عيسى بن يونس عن الأعمش بلفظ: «سيكون في آخر الزمان قوم يكون حديثهم في مساجدهم ليس لله فيهم حاجة»، وفي الباب عن أنس رفعه: «يأتي على الناس زمان يتحلقون في مساجدهم، وليس همتهم إلا الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم =

---

(١) قال محمود: «إذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال... إلخ» قال أحمد: كلام صحيح إلا قوله: «إن الكبيرة تهدم الأعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.
(٢) قوله: «فيقعدون فيها حلقاً» في نسخة: فيعدون. وفي أخرى: فيغدون. وليحرر (ع).

الحديث: «الْحَدِيثُ فِي المَسْجِدِ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ البَهِيمَةُ الحَشِيشَ» (٦٦٦) وقال عليه السلام: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: «إِنَّ بُيُوتِي فِي أَرْضِي المَسَاجِدَ، وَإِنَّ زُوَّارِي فِيهَا عُمَّارُهَا، فَطُوبَىٰ لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي، فَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ» (٦٦٧) وعنه عليه السلام: «مَنْ أَلِفَ المَسْجِدَ أَلِفَهُ اللهُ» (٦٦٨)، وقال عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيْمَانِ» (٦٦٩)، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: من

= حاجة»، أخرجه الحاكم من طريق الثوري عن عوف عن الحسن عنه. انتهى.

٦٦٦ ـ قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٥٢) رقم (٣٩٦): لم أقف له على أصل.
قال الحافظ: يأتي في لقمان.

٦٦٧ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٧): غريب ا.هـ. وأخرجه الطبراني في معجمه (٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) رقم (٦١٣٩) من طريق يحيى بن إسحاق التستري عن عامر بن سيار وعن سعيد بن زَرْبِي عن ثابت عن أبي عثمان عن سلمان، فذكره بنحوه.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير وأحد إسناديه رجاله رجال الصحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٩٢)، وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير في تفسيريهما، وإلى البيهقي في شُعب الإيمان عن عمرو بن ميمون الأودي ـ رضي الله عنه ـ قال: أخبرنا أصحاب رسول الله ﷺ . . . فذكره.
قال الحافظ: لم أجده هكذا، وفي الطبراني: عن سلمان عن النبي ﷺ : «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره»، وروى عبد الرزاق ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون. قال: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها»، ومن هذا الوجه. أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد. انتهى.

٦٦٨ ـ أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: (٧/ ١٩٧) رقم (٦٣٧٩)، وابن عديّ في الكامل: (٤/ ١٤٧٠) من حديث عبد الله بن لهيعة، عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري فذكره.
ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٢/ ٢٦) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٥٨): أعله ابن عدي في الكامل بابن لهيعة، ونقل ضعفه عن النَّسائي وابن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد وغيرهم، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٣٩٢).
قال الحافظ: أخرجه ابن عديّ: والطبراني في الأوسط من رواية ابن لهيعة عن دراج بن الهيثم عن أبي سعيد به. انتهى.

٦٦٩ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/ ١٢) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة حديث (٢٦١٧) وفي (٥/ ٢٧٧) كتاب التفسير: باب ومن سورة التوبة حديث (٣٠٩٣) وابن ماجه (١/ ٢٦٣) كتاب المساجد: باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة حديث (٨٠٢) وأحمد (٣/ ٦٨) والدارمي (١/ ٢٧٨) كتاب الصلاة: باب المحافظة على الصلوات، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٩) رقم (١٥٠٢) وابن حِبان (١٧٢١) والحاكم (٢/ ٣٣٢) والبيهقي (٣/ ٦٦) كتاب الصلاة باب فضل المساجد، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٧) كلهم من طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد =

أسرج في مسجد سراجاً، لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه (٦٧٠).

فإن قلت: هلا ذكر الإيمان برسول الله ـ ﷺ ـ؟

قلت: لما علم وشهر أن الإيمان بالله ـ تعالى ـ قرينته الإيمان بالرسول ـ ﷺ ـ لاشتمال كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، وغيرها، عليهما مقترنين، مزدوجين، كأنهما شيء واحد، غير منفك أحدهما عن صاحبه، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله ـ تعالى ـ الإيمان بالرسول ـ عليه السلام ـ وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

= الخدري به.

وقال التِّرمذي: حديث غريب حسن.

وصححه ابن خزيمة وابن حِبان والحاكم والذهبي وأخرجه أحمد (٣/٧٦) وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ٢٨٩) رقم (٩٢٣) عن الحسن بن موسى ثنا ابن لهيعة عن دراج به.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

وقال ابن عديّ: هو منكر وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات».

ـ حديث ابن عباس:

أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب عن ثابت عن مقسم عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه».

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ قال أحمد ويحيى والنَّسائي: سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال أيضاً: وقد عمل جماعة من المتصوفة والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً؛ فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فلله العلم. اهـ.

قال الحافظ: أخرجه التِّرمذي وابن ماجه. وابن حِبان. والحاكم من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد. انتهى.

٦٧٠ ـ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وعزاه إلى سليم الرازي في الترغيب عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال فذكره، كما عزاه إلى الطبراني في مسند الشاميين عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فذكره بنحوه مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

قال الحافظ:

رواه الحارث بن أسامة من رواية الحكم بن سفلة العبدي. عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «من أسرج في مسجد سراجاً لم يزل مرفوعاً»، ومن طريق الحارث أخرجه سليم الرازي في كتاب الترغيب، وفي الطبراني في مسند الشاميين من حديث علي بن أبي طالب رفعه. «من علق قنديلاً في مسجد صلى عليه سبعون ألف ملك .. الحديث بمعناه». انتهى.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، والمؤمن يخشى المحاذير، ولا يتمالك ألاّ يخشاها؟

قلت: هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وألاّ يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران: أحدهما: حق الله، والآخر: حق نفسه، أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل: كانوا يخشون الأصنام، ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء[1]، وحسم لأطماعهم من الانتفاع[2]، بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها، وأملوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى، وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩)﴾

السقاية والعمارة: مصدران من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية، ولا بد من مضاف محذوف تقديره: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾: أهل، ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: وتصدقه قراءة ابن الزبير، وأبي وجزة السعدي[3] ـ وكان من القراء ـ: سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين؛ وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم، ويجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر، وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج، وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل، وقيل: إن عليًّا: ـ رضي الله عنه ـ قال للعباس: يا عمّ، ألا تهاجرون، ألا تلحقون برسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ألست في أفضل من الهجرة: أسقي حاجّ بيت الله، وأعمر المسجد الحرام، فلما نزلت، قال العباس/ ٢٨٨أ: ما أراني إلا تارك سقايتنا، فقال عليه السلام: «أَقِيمُوا عَلَى سِقَايَتِكُمْ؛ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْراً» (٦٧١).

---

٦٧١ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) عن معمر عن الحسن فذكره. =

---

(١) قال محمود: «في هذه الآية تبعيد للمشركين... إلخ» قال أحمد: وأكثرهم يقول إن «عسى» من الله واجبة بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين، والحق فيما قال الزمخشري، ولكن الخطاب مصروف إليهم أي فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة، والعاقبة عند الله معلومة، ولله عاقبة الأمور.

(٢) قوله: «من الانتفاع» لعله «في» كعبارة النسفي (ع).

(٣) قوله: «وأبي وجزة السعدي» في الصحاح: أنه شاعر ومحدث (ع).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

هم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾: من أهل السقاية والعمارة عندكم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: لا أنتم، والمختصون بالفوز دونكم، قرىء: (يبشرهم): بالتخفيف والتثقيل، وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هي في المهاجرين خاصة (٦٧١ مكرر).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٤)﴾

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلا بأن يهاجر، ويصارم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين؛ فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه، أو أبوه، أو أخوه، أو بعض أقاربه، فلا يلتفت إليه، ولا ينزله، ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا، ولحقوا بمكة، فنهى الله ـ تعالى ـ عن موالاتهم (٦٧٢)، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «لاَ

= والثعلبي في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦٠).
قال الحافظ: ذكره الثعلبي عن الحسن بغير إسناد، لكن سنده إليه في أول الكتاب في تفسير عبد الرزاق عن معمر عن عمر، وهو ابن عبيد عن الحسن قال: «نزلت في علي والعباس، عثمان وشيبة تكلموا في ذلك. فقال العباس: ما أراني إلا تاركاً سقايتنا. فقال رسول الله ﷺ فذكره. انتهى.

٦٧١ ـ مكرر: أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عنه.

٦٧٢ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٦٠):
الأول: ذكره الثعلبي في تفسيره، عن جويبر، عن الضحاك عن ابن عباس قال: «لما أمر الله تعالى المؤمنين بالهجرة، وكان قبل فتح مكة من آمن لا يتم إيمانه... إلى آخره».
الثاني: حكاه عن مقاتل قال: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بمكة، فنهاه الله تعالى عن ولايتهم، وسنده إليهما في أول كتابه.
قال الحافظ: ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب. انتهى.

يَطْعَمْ أَحَدُكُمْ طَعْمَ الإِيْمَانِ حَتَّىٰ يُحِبَّ فِي اللهِ وَيَبْغَضَ فِي اللهِ: حَتَّى يُحِبَّ فِي اللهِ أَبْعَدَ النَّاسِ، وَيَبْغَضَ فِي اللهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ» (٦٧٣)، وقرىء: «عشيرتكم»، «وعشيراتكم»، وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وعيد، عن ابن عباس: هو فتح مكة، وعن الحسن: هي عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة، لا ترى أشدّ منها؛ كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس، وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله، والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشائر، والمال، والمساكن، وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرّد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

---

٦٧٣ ـ قاله الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/ ٦١): غريب.
وقال ابن حجر: لم أجده بهذا اللفظ.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٤) عن عمرو بن الحمق؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله... الحديث، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه رشدين وهو ضعيف، وأخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٠): كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨١)، والطبراني في معجمه (٨/ ١٥٩) رقم (٧٦١٣) و(٨/ ٢٠٨) رقم (٧٧٣٦) من طرق عن يحيى بن الحارث عن القاسم، عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ـ فقد استكمل الإيمان... الحديث».
وقال الهيثمي (١/ ٩٥): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما، وقال أبو حاتم: محله الصدق.
وللحديث شاهد من طريق معاذ بن أنس عن النبي ﷺ نحوه سواه، أخرجه أبو يَعلى الموصلي في مسنده؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦١).
قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ، وفي الطبراني عن عمرو بن الحمق أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله، وفي إسناده رشد بن سعد. وهو ضعيف؛ وفي الباب عن أبي أمامة رواه أبو داود. وعن معاذ بن أنس رواه أبو يَعلى وغيره. انتهى.

مواطن الحرب: مقاماتها، ومواقفها[1]، قال [من الطويل]:

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طُحْتَ كَمَا هَوَىٰ ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِي[2]

---

(١) قال محمود: «مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها... إلخ» قال أحمد: لا مانع - والله أعلم - من عطف الظرفين المكاني والزماني أحدهما على الآخر، كعطف أحد المفعولين على الآخر والفعل واحد، إذ يجوز أن تقول ضرب زيد عمراً في المسجد ويوم الجمعة، كما تقول: ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد غير الأول، هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعين بالمفعولين في الحقيقة، فإنك إذا قلت: أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً. لم يشك في أن الضربين متغايران بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة. فعلى هذا يجوز في الآية. والله أعلم - بقاء كل واحد من الظرفين على حاله غير مؤول إلى الآخر، على أن الزمخشري أوجب تعدد الفعل وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأول. وإن كانا عنده جميعاً زمانين، لعلة أن كثرتهم لم تكن ثابتة في جميع المواطن. يريد: ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب للزم ذلك، وهذا غير لازم. ألا تراك لو قلت: أضرب زيداً حين يقوم وحين يقعد، لكان الناصب للظرفين واحداً وهما متغايران، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين عند عدم العطف المتوسط بينهما، والله أعلم.

(٢)
تكاشرني كرهاً كأنك ناصح ... وعينك تبدي أن صدرك لي دوي
لسانك ماذي وعينك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك منطوي
فليت كفافاً كان خيرك كله ... وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي
وكم موطن لولاي طحت كما هوى ... بأجرامه من قلة النيق منهوي
جمعت وفحشًا غيبة ونميمة ... ثلاث خصال لست عنها بمرعوي

ليزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي. والمكاشرة: المضاحكة، واختارها في التعبير إشارة إلى أنها ليست مضاحكة حقيقة يوافقها القلب، وإنما هي إظهار الأسنان فقط أمامه ليريه أنه ناصح الرجل كمرض فسد قلبه، ودوي أي خالص المودة ودوي صدره أيضاً حقد، فهو دوي بالتخفيف كعمي، أو التشديد كغني، على فعل أو فعيل، وعلى التشديد فتخفيفه للوزن. و«الماذي» عسل النحل لأنه يمذى منها، وتسمى الخمرة ماذية لسهولتها. و«العلقم» الحنظل وكل شجر مر وكل شيء مر، أي لسانك كالعسل في حلاوة الكلام. وعينك كالعلقم في كراهية النفس ونفرتها عن كل، حيث تنظر لي نظر الحسود المغتاظ، وشبه الشر والخير ببساطين على سبيل المكنية، والبسط والطي تخييل. واسم ليت ضمير الشأن أو ضمير المخاطب محذوفاً، وخيرك اسم كان، وكفافاً خبرها. وشرك عطف على خيرك. ويجوز أنه من باب التنازع عمّن أجازه في الحروف، لأن «ليت» مقتضية للعمل في خيرك، و«كان» مقتضية للعمل فيه، فأعمل فيه الثاني وحذف ضميره من الأول، لأنه وإن كان عمدة، مشبهة للفضلة في نصبه، وكما أجاز حذفه الكوفيون في باب كان وباب ظن، نعلمه من مفسره، أي: فليت الحال والشأن كان خيرك كله وشرك، كفافا: بالفتح، أي مغنيا كافياً لك عني، ولو كسر «كفافا» على أنه مفاعلة من الكف لجاز، ويكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، مبالغة: أي كافا لك، أو منكفاً عني ما دام «مرتو» يرتوي الماء، أي: يستقيه، يعني دائماً، وكم: خبرية للتكثير، أي كثير من مواطن الحرب لولا وجودي لطحت بكسر الطاء وضمها من باب باع، وقال: أي هلكت فيها كما هوى منهو، أي سقط ساقط من قلة النيق. ويروى: قنة النيق، والمعنى واحد، أي: من رأس الجبل العالي، ومذهب سيبويه أن «لولا» حرف جر إذا وليها ضمير نصب. ومذهب =

وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة: وقعات بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة.

فإن قلت: كيف عطف الزمان والمكان وهو: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ على المواطن؟

قلت: معناه وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أنّ قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: بدل من يوم حنين، فلو/ ٢٨٨ب جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن[١]، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت: «إذ» بإضمار: «اذكر»، وحنين: واد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، الذين حضروا فتح مكة، منضماً إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف، فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب، فكان الجمّ الغفير، فلما التقوا، قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله ـ ﷺ ـ وقيل: قائلها رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وقيل: أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ[٢] وذلك قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، فاقتتلوا قتالاً شديداً

= الأخفش أنه وضع ضمير النصب موضع ضمير الرفع على الابتداء، وأنكر المبرد وروده، وهو محجوج بهذا. وقال أبو علي الفارسي: الفعل ومطاوعه قد يكونان لازمين معاً، كهوى وانهوى، وغوى وانغوى، بدليل نحو هذا البيت. وحمله الجمهور على الضرورة. والقياس: هاو وغاو. وبعضهم على أنهما مطاوعان لأهديته وأغويته، لكن مطاوعه: انفعل لأفعل شاذة، ولو قيل: انهوى مطاوع لهوى به لجاز. لكنه ليس قياسيا، ثم قال له: جمعت غيبة ونميمة وفحشا، فقدم المعطوف للضرورة. وجعله ابن جني مفعولاً معه، وأجاز تقديمه على مصاحبه ممسكاً بذلك، ويمكن أن يكون ضرورة أيضاً. وفيه إشارة من أول وهلة إلى إرادة التعدد والتكثير وثلاث خصال بدل مما قبله، ولست عنها: أي لست بمنزجر عنها، فقدم المعمول للاهتمام، والياء في القافية للإطلاق.

ينظر الكتاب (٢/ ٣٧٤)، المقرب (١/ ١٩٣)، شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ١١٨)، الدر المصون (٣/ ٤٥٧).

(١) قوله: «لم تعجبهم في جميع تلك المواطن» إنما يلزم كون كثرتهم أعجبتهم في جميعها. مع أنه خلاف الواقع لو جعل ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بدلاً من المواطن أيضاً، فتدبر (ع).

(٢) لم أجده بهذا السياق وقوله: إن رسول الله ﷺ قالها: قد ورد أنه قال «لن تغلب اثنا عشر ألفاً عن قلة» في حديث غير هذا. وأما هذا فإن كان المصنف وقع على شيء من ذلك فما كان قوله: «وأدركتهم كلمة الإعجاب بالكثرة ونزل عنهم... إلى آخره» بلائق. وأما قوله: «وقيل قالها أبو بكر» فلم أقف عليه وقوله: «ومن هوازن وثقيف وفي أربعة آلاف غلام مسح» والصواب أن هوازن وثقيفاً كانوا من المشركين والذي في مسلم من حديث العباس «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ـ فذكرت القصة، وفيها تغير ونقص عما ساقه المصنف وليس فيها «فخذا فخذا» وإنما فيه «أن عباساً نادى أصحاب السمرة ونادى أصحاب الشجرة. قال فعطوا عطف البقرة على أولادها، وروى يونس =

وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزلّ عنهم أن الله هو الناصر، لا كثرة الجنود، فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ـ ﷺ ـ وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل، ليس معه إلا عمه العباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ آخذ بلجام دابته، وأبو سفيان ابن الحارث ابن عمه، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه[(١)] ـ ﷺ ـ وما هي إلا من آيات النبوّة، وقال: يا رب، ائتني بما وعدتني، وقال ـ ﷺ ـ للعباس ـ وكان صيتاً: صيح بِالنَّاسِ، فَنَادِي الأَنْصَارَ فَخْذاً فَخْذاً، ثُمَّ نَادِي: يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، يَا أَصْحَابَ البَقَرَةِ» ح، فكرّوا عنقاً واحداً[(٢)]، وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى قتال المسلمين فقال: «هٰذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسَ» ح، ثم أخذ كفًّا من تراب فرماهم به، ثم قال: «انْهَزِمُوا وَرَبِّ الكَعْبَةِ فَانْهَزَمُوا» قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يركض خلفهم على بغلته (٦٧٤) ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ما: مصدرية، والباء: بمعنى: مع، أي: مع رحبها[(٣)]، وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال؛ كقولك: دخلت عليه بثياب السفر، أي: ملتبساً بها لم أحلها، تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه، ونجاتكم لفرط الرعب، فكأنها ضاقت عليكم، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾: ثم انهزمتم، ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: رحمته التي سكنوا بها وآمنوا، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حين وقع الهرب، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا﴾ يعني: الملائكة، وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي أنّ ناساً منهم جاؤوا فبايعوا رسول الله ـ ﷺ ـ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله، أنت/ ٢٨٩أ خير الناس، وأبرّ الناس، وقد سبي

---

٦٧٤ ـ أخرجه مسلم (٦/ ٣٥٥): كتاب الجهاد والسير: باب في غزوة حنين، حديث (٧٦/ ١٧٧٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩).

= بن بكر في زيادة المغازي عن أبي جعفر الرازي بن الربيع يعني ابن أنس «أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة. فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ـ وذكر الآية قال الربيع وكانوا اثني عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة.

(١) قوله: «ورباطة جأشه» الجأش: رواع القلب عند الفزع. ورابط الجأش: من يربط نفسه عن الفرار لشجاعته (ع).

(٢) قوله: «عنقاً واحداً» ويقال هم عنق إليك أي مائلون إليك كذا في الصحاح (ع).

(٣) قوله: «مع رحبها» في الصحاح «الرحب» بالضم: السعة (ع).

أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، قيل: سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إِنَّ عِنْدِي مَا تَرَوْنَ، إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ، اخْتَارُوا: إِمَّا ذَرَارِيكُمْ وَنِسَاءكُمْ، وَإِمَّا أَمْوَالَكُمْ» ح. قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله - ﷺ - فقال: إِنَّ هٰؤُلاَءِ جَاؤُوا مُسْلِمِينَ، وَإِنَّا خَيَّرْنَاهُمْ بَيْنَ الذَّرَارِيِّ وَالأَمْوَالِ فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالأَحْسَابِ شَيْئاً، فَمَنْ كَانَ بيدِهِ شَيْءٌ وَطَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَرُدَّهُ فَشَأْنُهُ، وَمَنْ لاَ فَلْيُعْطِنَا وَلْيَكُنْ قَرْضاً عَلَيْنَا حَتَّىٰ نُصِيبَ شَيْئاً فَنُعْطِيَهُ مَكَانَهُ» ح قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلَّ فِيكُمْ مَنْ لاَ يَرْضَىٰ، فَمروا عُرَفَاءَكُمْ فَلْيَرْفَعُوا ذٰلِكَ إِلَيْنَا» فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا (٦٧٥).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

النجس: مصدر، يقال: نجس نجساً، وقذر قذراً، ومعناه: ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: «من

---

٦٧٥ - أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٢): كتاب الوكالة: باب إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز، حديث (٢٣٠٧ - ٢٣٠٨) وأطرافهما في: (٢٥٣٩ - ٢٥٨٤ - ٢٦٠٧، ٣١٣١، ٤٣١٨، ٧١٧٦، ٢٥٤٠، ٢٥٨٥، ٢٦٠٨، ٣١٣٢، ٤٣١٩، ٧١٧٧) من طريق عروة عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة، فذكراه.

وأخرجه أبو داود (٣/ ٦٣): كتاب الجهاد: باب في فداء الأسير بالمال، حديث (٢٦٩٤) مختصراً، والنَّسائي (٦/ ٢٦٣): كتاب الهبة: باب هبة المشاع، حديث (٣٦٩٠)، وأحمد (٢/ ١٨٤ - ٢١٨)، والطبراني في معجمه الكبير (٥/ ٢٧٠) رقم (٥٣٠٤)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٤٤ - ١٤٥) رقم (١٨٢٣ - ١٨٢٤ - ١٨٢٥) والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤ - ١٩٥).

كلهم من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، فذكره. وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١) رقم (٩٧٤١) من طريق معمر عن الزهري عن كثير بن العباس بن عبد المطلب عن أبيه فذكره. وذكره الثعلبي عن أنس بلفظ المصنف من غير سند؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦٥).

قال الحافظ: ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله، وذكرها البخاري من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرب، وفيه الشعر الذي أنشده زهير. انتهى.

صافح مشركاً توضأ»، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين، وقرىء: «نِجْس»، بكسر النون وسكون الجيم، على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس، وهو تخفيف نجس، نحو: كبد، في كبد، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾: فلا يحجوا، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: بعد حج عامهم هذا، وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر على الموسم؛ وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول عليّ ـ كرم الله وجهه ـ حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم، والمسجد الحرام، وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء ـ رضي الله عنه ـ أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين ألاَّ يمكنوهم من دخوله، ونهيُ المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه[١]، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام، والقيام بمصالحه، ويعزلوا عن ذلك، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحج، وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدراراً، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش[٢]، فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به،/ ٢٨٩ب فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية، وقيل: بفتح البلاد والغنائم، وقرىء: عائلة، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالاً عائلة، ومعنى قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾: الله، إن أوجبت الحكمة إغناءكم، وكان مصلحة لكم في دينكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾: بأحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

---

(١) قال محمود: «هذا النهي راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه» قال أحمد: وقد يستدل به من يقول: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمين، تصدير الكلام بخطابهم في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وتضمينه نصا بخطابهم بقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة، كقوله: لا أرينك ههنا، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(٢) قوله: «وأكثر ميرهم. . . إلخ» المير: إطعام الطعام. ويقال: بلد باليمن. وجرش: موضع منه أيضاً. أفاده الصحاح (ع).

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأنّ اليهود مثنية والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر؛ لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل؛ وأن يدينوا دين الحق، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا، إذا اتخذه دينه ومعتقده، سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه، أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل، ﴿عَن يَدٍ﴾: إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ[١]، فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد، أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة[٢]؛ لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد؛ ولذلك قالوا: أعطى بيده، إذا انقاد وأصحب[٣]؛ ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة، كما يقال: خلع ربقة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ، فمعناه: حتى يعطوها[٤] عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأن قبول الجزية منهم، وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلم جالس، وأن يتلتل تلتلة[٥]، ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية، وإن كان يؤدّيها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة، ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة: تضرب على كل كافر من ذمي، ومجوسي، وصابىء، وحربي، إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري أن رسول الله ـ ﷺ ـ صالح عبدة

(١) قال محمود: «إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ... إلخ» قال أحمد: فيكون كاليد في قوله عليه السلام «لا تبيعوا الذهب... إلى قوله إلا يداً بيد».

(٢) قوله: «أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته وطاوعته. والعامة تقول: واتيته (ع).

(٣) قوله: «وأصحب» أي سهل بعد صعوبة. انتهى صحاح (ع).

(٤) عاد كلامه قال: «وإن أريد به الآخذ فمعناه حتى يعطوها... إلخ» قال أحمد: وهذا الوجه أملأ بالفائدة، والله أعلم.

(٥) قوله: «وأن يتلتل تلتلة» أي يزعزع ويزلزل. وقوله: «يزخ» أي يدفع كما في الصحاح (ع).

الأوثان على الجزية، إلا من كان من العرب وقال لأهل مكة: «هَلْ لَكُمْ فِي كَلِمَةٍ إِذَا قُلْتُمُوهَا دَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَرَبُ وَأَدَّتْ إِلَيْكُمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ» (٦٧٦) وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي/ ٢٩٠أ العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أوّل كل سنة من الفقير الذي له كسب: اثنا عشر درهماً، ومن المتوسط في الغنى: ضعفها، ومن المكثر: ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار، فقيراً كان أو غنيًّا، كان له كسب أو لم يكن.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر؛ كقوله: المسيح ابن الله، وعزير: اسم أعجمي، كعازر، وعيزار، وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه: امتنع صرفه، ومن نوّن، فقد جعله عربيًّا، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين؛ كقراءة من قرأ (أحد الله)، أو لأنّ الابن وقع وصفاً، والخبر محذوف، وهو معبودنا، فتمحل عنه مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة، وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: جاء رسول الله ـ ﷺ ـ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا ذلك (٦٧٧)، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى ـ عليه السلام ـ فرفع الله عنهم التوراة، ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير، وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ: فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه، لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أن هذا القول

---

٦٧٦ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٧٢) عن معمر عن الزهري، أن النبي ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية، إلا من كان من العرب منهم، وقبل الجزية من أهل البحرين، وكانوا مجوساً.
قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/ ٦٥) كأنه حديث مركب، فالأول: رواه عبد الرزاق في تفسيره. أ.هـ وسكت الزيلعي عن الثاني.
قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: أخبرنا معمر عن الزهري بهذا، وزاد «وقيل: الجزية من البحرين وكان مجوساً». انتهى.

٦٧٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) رقم (١٦٦٣٥ ـ ١٦٦٣٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤١٣ و٤١٤)، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس به.
قال الحافظ: قلت: أورد المخرج منضما إلى الذي قبله، ولم يذكر من أخرجه، والصواب: أنه حديث آخر أخرجه. انتهى.

كان فيهم: أن الآية تليت عليهم، فما أنكروا ولا كذبوا، مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قلت: كل قول يقال بالفم فما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان؛ وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير.

والثاني: أن يراد بالقول المذهب؛ كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم؛ لأنه لا حجة معه، ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب؛ وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد، ﴿يضاهون﴾: لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره: يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف، وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله - ﷺ - من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني: أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه - وقيل: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولهم: المسيح ابن الله، قول اليهود: عزير ابن الله؛ لأنهم أقدم منهم، وقرىء: «يضاهؤن» بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها[1] مزيدة كما في عرقىء، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال/ ٢٩٠ب لهم هذا؛ تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: كيف يصرفون عن الحق؟

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

اتخاذهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما حلله، كما تطاع الأرباب في أوامرهم، ونحوه: تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، بل كانوا يعبدون الجن، ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]، وعن عديّ بن حاتم - رضي الله عنه -: انتهيت إلى رسول الله - ﷺ - وفي عنقي صليب من ذهب، فقال:

(١) قوله: «أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة» هذا لا يناسب قوله: «على فعيل» فلعله «أو همزة... إلخ» (ع).

«أَلَيْسوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَهُ فَتُحِلُّونَهُ» ح؟ قلت: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» (٦٧٨) وعن فضيل ـ رضي الله عنه ـ: ما أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة، وأمّا المسيح فحين جعلوه ابناً لله، فقد أهلوه للعبادة؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح ـ عليه السلام ـ: أنه من يشرك بالله، فقد حرّم الله عليه الجنة، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيه له عن الإشراك به، واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في: (وما أمروا): للمتخذين أرباباً، أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحدوه، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد ـ ﷺ ـ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإيضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: ليظهر الرسول ـ عليه السلام ـ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على أهل الأديان كلهم، أو ليظهر دين الحق على كل دين.

فإن قلت: كيف جاز، أبى الله إلا كذا، ولا يقال: كرهت أو أبغضت إلا زيداً[1]؟

---

٦٧٨ ـ أخرجه التِّرمذي (٣٠٩٥).
وتفرد به دون أصحاب الستة.
وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطيف بن أعين، وعطيف ليس بالمعروف.
قال الحافظ: الواقدي من طريق عامر بن سعد عن عديّ بن حاتم بهذا، وأخرجه ابن مردويه من ـجه آخر عن عطاء بن يسار عن عديّ بن حاتم، ورواه التِّرمذي من طريق مصعب بن سعد عن عديّ بن حاتم بهذا وأتم منه، إلا قوله: «فتلك عبادتهم»، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطيف بن أعين، وعطيف ليس بمعروف، وأخرجه ابن أبي شيبة والطبراني والطبري وأبو يَعلى من هذا الوجه رواه البيهقي في المدخل كذلك، وزاد: «فتلك عبادتهم». انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أبىٰ الله إلا كذا ولا يقال كرهت. . . إلخ» قال أحمد: ولا يقال على هذا إن الإباء عدم الإرادة. فكما صح الإيجاب بعد نفي الإرادة، فينبغي أن يصح بعدما هو في =

قلت: قد أجرى: «أبى» مجرى: «لم يرد»؛ ألا ترى كيف قوبل: ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾، وكيف أوقع موقع، ولا يريد الله إلا أن: (يتمّ نوره).

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ؛ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل؛ ومنه قوله [من الرجز]:

إِنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا … يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافَا[1]

يريد: علفاً يشترى بثمن إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾: يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان؛ للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى؛ تغليظاً/ ٢٩١ أ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة؛ وإنما عنى بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «مَا أَدَّى زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ بَاطِناً، وَمَا بَلَغَ أَنْ يُزَكِّي فَلَمْ يُزَكَّ فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِراً» (٦٧٩)،

---

٦٧٩ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٦٦): غريب بهذا اللفظ.
وقد أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٨٣) مرفوعاً بمعناه من حديث محمد بن كثير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً تحت الأرض، وكل ما لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً».
وقال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٧) عن ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو حديث =

= معناها مطلقاً، لأنا نقول لوجود حرف النفي أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٧٦ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّ رجلاً سأله عن أرض له باعها، فقال: أحرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدّى زكاته فليس بكنز (٦٨٠)، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: كل ما أدّيت زكاته، فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤدّ زكاته، فهو الذي ذكر الله ـ تعالى ـ وإن كان على ظهر الأرض (٦٨١).

فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد ـ رضي الله عنه ـ أنها لما نزلت، قال

= البيهقي، وقال الهيثمي: هو في الصّحيح بنحوه، ولكنه موقوفاً على ابن عمر ـ رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أم سلمة:
أخرجه أبو داود (٢/ ٩٥): كتاب الزكاة: باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلى، حديث (١٥٦٤) من طريق ثابت بن عجلان عن عطاء عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي ـ فليس بكنز».
قال الحافظ: أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً، وكل ما لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً». قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن سفيان بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قوله. ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عديّ من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله بسنده مرفوعاً، ولفظه: «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز». قال ابن عديّ: وفيه سويد وغيره يرويه موقوفاً والموقوف رواه عبد الرزاق عن عبيد الله العمري موقوفاً، والشافعي عن ابن عيينة: عن ابن عجلان عن نافع نحوه، وفي الباب عن أم سلمة قالت: «جئت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: ما بلغ الذي يؤدي زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم. انتهى.

٦٨٠ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٨) رقم (٧١٤٦) عن ابن جريج عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج عن بُسر بن سعيد؛ أن رجلاً باع رجلاً حائطاً له... فذكره.
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في الزكاة عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد أن عمر سأل رجلاً عن أرض باعها فقال له... الحديث؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٦٨).
قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد؛ أن رجلاً باع حائطاً أو مالاً بمال عظيم، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أحسن موضع هذا المال ـ الحديث»، ورواه ابن أبي شيبة من طريق أخرى عن سعيد بن أبي سعيد أن عمر سأل رجلاً. فذكره. انتهى.

٦٨١ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٧) رقم (٧١٤١) موقوفاً على ابن عمر من طريق عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. وكذلك الشافعي في مسنده (١/ ٢٢٣) رقم (٦١٢) عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر، فذكر نحوه موقوفاً على ابن عمر.
والبيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٨٢) عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر فذكر نحوه موقوفاً على ابن عمر، وقال البيهقي: هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك رواه جماعة عن نافع، وجماعة عن عبد الله بن عمر وقد رواه سويد بن عبد العزيز وليس بالقوي عن عبد الله بن عمر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أ.هـ وانظر الحديث قبل السابق.
والطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨) رقم (١٦٦٦٤ ـ ١٦٦٦٥ ـ ١٦٦٦٦ ـ ١٦٦٦٧) من طرق =

رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَبًّا لِلذَّهَبِ تَبًّا لِلْفِضَّةِ» ح قالها ثلاثاً، فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجةً تعين أحدكم على دينه» (٦٨٢)، وبقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ تَرَكَ صَفْرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ كُوِيَ بِهَا (٦٨٣)، وتوفي رجل فوجد في مئزره

= عن ابن عمر موقوفاً عليه.

قال الحافظ: تقدم الكلام عليه. انتهى.

٦٨٢ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/٢٧٧): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥) وابن ماجه (١/٥٩٦): كتاب النكاح: باب أفضل النساء، حديث (١٨٥٦)، وأحمد في مسنده: (٥/ ٢٧٨ ـ ٢٨٢) كلهم من طرق عن سالم من أبي الجعد عن ثوبان به قال التِّرمذي: هذا حديث حسن. سألت محمد بن إسماعيل فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا. فقلت له: ممن سمع من أصحاب النبي ﷺ ؟ قال: سمع من جابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وذكر غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أ.هـ.

وأخرجه الطبري في تفسيره عن ثوبان (٦/٣٥٩) رقم (١٦٦٧٧) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٦٩) إلى الطبراني في معجميه الأوسط والصغير؛ كما عزاه إلى الواحدي في أسباب النزول.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٧٣) فلم يذكر فيه ثوبان، وكذلك الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٩) رقم (١٦٦٧٦ ـ ١٦٦٧٨) عن سالم بن أبي الجعد عن عمر به.

قال الحافظ: كذا ذكره مرسلاً. وهو معروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط من طريق موئل بن إسماعيل عن الثوري عن الأعمش ومنصور وعمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان بهذا، ورواه التِّرمذي وأحمد في الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به، وليس فيه: «تبا للذهب تبا للفضة، بل فيه: فقال بعض أصحابه: «لو علمنا أي المال خير فنتخذه» قال البخاري وغيره: سالم لم يسمع من ثوبان، ورواه ابن ماجه وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان قال: «لما نزلت قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبي ﷺ وأنا في أثره فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ـ الحديث»، وفي الباب عن علي أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن سبرة عنه، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه. وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبد الله بن عطية عن عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: «تبا للذهب تبا للفضة»، فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر، فقال: يا رسول الله. فذكر نحوه. انتهى.

٦٨٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧١): روى من حديث أبي ذر، ومن حديث أبي أمامة أ.هـ.

فحديث أبي ذر:

أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٣٥٩)، رقم (١٦٦٧٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٢٠)، والبخاري في تاريخه الوسط وابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٢).

أما حديث أبي أمامة:

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨/١٦٨) رقم (٧٦٣٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بقية وهو مدلس. =

دينار، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كيَّةٌ»، وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال «كيَّتَانِ» (٦٨٤).

قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأمّا بعد فرض الزكاة، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه، ويؤدّي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كـ «عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وعبيد الله» ـ رضي الله عنهم ـ يقتنون الأموال، ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية؛ لأنّ

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٢٠)، وعزاه إلى ابن مردويه في تفسيره.
قال الحافظ:
أخرجه البخاري في التاريخ والطبري وابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد الواحد الثقفي عن أبي النجيب الشامي: «كان نعل سيف أبي هريرة من فضة، فنهاه عنه أبو ذر، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها» وفي الباب عن أبي أمامة، أخرجه الطبراني بلفظ: «ما من عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوي بها»، وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين من رواية أرطأة بن المنذر عن ابن عامر عنه، بلفظ: «ما من أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوي بها». انتهى.

٦٨٤ ـ أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢ و٢٥٣ و٢٥٨)، والطبراني في معجمه (٨/ ١٤٨) رقم (٧٥٧٣ ـ ٧٥٧٤)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٧٤)، والطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٩) رقم (١٦٦٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٨) و(١٠/ ٢٤٣)؛ كلهم من طرق عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة به.
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٣): رواه أحمد بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير شهر ابن حوشب وقد وثق أ.هـ ولم ينسبه الهيثمي إلى الطبراني.
وقال في: (٣/ ١٢٨): رواه الطبراني في الكبير، وبعض طرقه رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وهو ثقة وفيه كلام.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٣١٠) برقم (٨٠٠٨) عن شعبة عن عبد الرحمن بن العداء عن أبي أمامة به، وله شاهد من حديث ابن مسعود:
أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥ و٤١٢ و٤١٥ و٤٢١)، وأبو يَعلى (٨/ ٤١٥ ـ ٤١٦) رقم (٤٩٩٧) من طرق عن عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٣)، وقال: رواه أحمد وأبو يَعلى ورجالهما رجال الصّحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق.
وأخرجه أحمد (١/ ٤٥٧)، وأبو يَعلى: (٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢) رقم (٥٠٣٧)، وابن حِبان (٨/ ٥٤) رقم (٣٢٦٣)؛ كلهم من طرق عن حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود به.
وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٣)، وقال: رواه أحمد وأبو يَعلى والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح.
قال الحافظ: أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وأبو يَعلى، والطبراني، والطبري من طريق شهر بن حوشب عن أبي أمامة بلفظ مروة في الموضعين. ورواه ابن حِبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني. انتهى.

الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه، ولكل شيء حدّ، وما روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما زاد فهو كنز (٦٨٥): كلام في الأفضل.

فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها، وقد ذكر شيئان؟

قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن كل واحد منهما جملة وافية، وعدة كثيرة، ودنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [**الحجرات: ٩**]، وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه: ولا ينفقونها والذهب[١]؛ كما أن معنى قوله [من الطويل]:

.... فَــإِنِّــي وَقَــيَّــارٌ بِــهَــا لَــغَــرِيــبُ[٢]

وقيار كذلك.

فإن قلت: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟

قلت: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلا من فضل عن حاجته، ومن كثر عنده حتى يكنزهما، لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾؟ وهلا قيل: تحمى، من قولك: حمى الميسم[٣] وأحميته، ولا تقول: أحميت على الحديد؟

قلت:/ ٢٩١ب معناه أن النار تحمى عليها، أي: توقد ذات حمى وحرّ شديد، من قوله: (نار حامية)، ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى.

فإن قلت: فإذا كان الإحماء للنار، فلم ذكر الفعل؟

قلت: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت

---

٦٨٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٩) رقم (٧١٥٠)، والطبري في تفسيره: (٦/ ٣٥٨) رقم (١٦٦٧٢ ـ ١٦٦٧٣).
وذكره الثعلبي والبغوي في تفسيريهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٣).
قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق والطبري بإسناده الحاضر، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قبل بحديثين. انتهى.

---

(١) قوله: «والذهب» لعله و«الذهب كذلك» (ع).
(٢) تقدم.
(٣) قال محمود: «إن قلت: هلا قيل تحمى، كما يقال: حمى الميسم وأحميته... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب، والله الموفق.

النار قيل: يحمى عليها؛ لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة، قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: «تحمى»، بالتاء، وقرأ أبو حيوة: «فيكوى» بالياء.

فإن قلت: لم خصت هذه الأعضاء؟

قلت: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم ـ حيث لم ينفقوها في سبيل الله ـ إلا الأغراض الدنيوية، من وجاهة عند الناس، وتقدّم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم؛ كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ» (٦٨٦)، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم، ومآخيرهم، وجنوبهم، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾: على إرادة القول، وقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: كنزتموه لتنتفع به نفوسكم، وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم، ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، وقرىء: «تكنُزون»، بضم النون، أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو: وبال كونكم كانزين.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: فيما أثبته، وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصواباً، وقيل: في

---

٦٨٦ ـ أخرجه مسلم (٤/٩٨): كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث (٥٣/ ١٠٠٦)، وابن ماجه (١/٢٩٩): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، حديث (٩٢٧) من حديث أبي ذر، فذكره.
وأخرجه البخاري (٢/٣٧٨): كتاب الآذان: باب الذكر بعد الصلاة، حديث (٨٤٣) وطرفه في (٦٣٢٩) من حديث أبي هريرة به.
وأخرجه أبو داود (٢/٨٢) كتاب الصلاة: باب التسبيح بالحصى من حديث أبي هريرة وأبي ذر معاً.
قال الحافظ: أخرجه مسلم من طريق أبي الأسود عن أبي ذر: «أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ: قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ـ الحديث. انتهى.

اللوح، ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: ثلاثة سرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وواحد فرد، وهو رجب، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ في خطبته في حجة الوداع: «أَلاَ إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» (٦٨٧) السنة اثنا عشر شهراً: منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، والمعنى: رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قبلها في ذي القعدة، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يعني: أنّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل/ ٢٩٢أ أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً: الأصم ومنصل الأسنة، حتى أحدثت النسيء فغيروا، ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾: في الحرم، ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تالله، ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا، وما نسخت، وعن عطاء الخراساني ـ رضي الله عنه ـ: حلت القتال في الأشهر الحرم براءة من الله ورسوله؛ وقيل: معناه: لا تأثموا فيهن، بياناً لعظم حرمتهن، كما عظم أشهر الحج

---

٦٨٧ ـ أخرجه البخاري (١/ ١٩٠) كتاب العلم: باب قول النبي ﷺ «رب مبلّغ أوعى من سامع» حديث (٦٧)، (١/ ٢٤٠) كتاب العلم: باب ليبلّغ العلم الشاهد الغائب حديث (١٠٥) (٤/ ٦٧٠) كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى حديث (١٧٤١)، (٦/ ٣٣٨) كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين حديث (٣١٩٧)، (٧/ ٧١١) كتاب المغازي: باب حجة الوداع حديث (٤٤٠٦)، (١٠/ ١٠) كتاب الأضاحي: باب الأضحى يوم النحر حديث (٥٥٥٠)، (١٣/ ٢٩) كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» حديث (٧٠٧٨)، (١٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة) حديث (٧٤٤٧).
ومسلم (٣/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٧) كتاب القسامة: باب تغليظ تحريم الدماء حديث (٢٩، ٣٠، ٣١/ ١٦٧٩) وأبو داود (١/ ٥٩٩) كتاب المناسك: باب الأشهر الحرم حديث (١٩٤٨) وابن ماجه مختصراً (١/ ٨٥) المقدمة: باب من بلغ علماً حديث (٢٣٣) وأحمد (٥/ ٣٧، ٤٥، ٤٩) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٨٣٣) والبيهقي (٥/ ١٤٠) كتاب الحج: باب الخطبة يوم النحر، كلهم من طريق محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعاً.
تنبيه: سقط من إسناد ابن الجارود أبي بكرة ولعله سهو من طابع أو ناسخ مرفوع محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ.
وعبد الرحمن ليس هو القائل وليست له صحبة.
قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي بكرة وفي الباب عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه الطبري من رواية موسى بن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف، وهو ضعيف. وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه. انتهى.

بقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ . . . الآية [البقرة: ١٩٧]، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور، ﴿كَآفَّةً﴾: حال من الفاعل أو المفعول، ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: ناصر لهم، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٧)﴾

والنسيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر؛ وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون، شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر؛ وذلك قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة، ولا يخالفوها، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر؛ ليتسع لهم الوقت؛ ولذلك قال عز وعلا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ يعني: من غير زيادة زادوها، والضمير في: يحلونه، ويحرمونه للنسيء، أي: إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا فحرموه في العام القابل، وروي أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إنّ آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول: إن آهلتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه، جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقرىء: (يضل): على البناء للمفعول، و(يَضَل): بفتح الياء والضاد، و(يضل): على أن الفعل لله ـ عزّ وجلّ ـ وقرأ الزهري: «ليوطئوا» بالتشديد والنسيء: مصدر نسأه إذا أخره، يقال: نسأه، نسأ، ونساء، ونسيئاً؛ كقولك: مسه، مساً، ومساساً، ومسيساً، وقرىء بهنّ جميعاً، وقرىء: «النسى»، بوزن الندى، و«النسي» بوزن النهي، وهما تخفيف النسيء والنسء.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؟

قلت: معناه فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ما حرّم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها/ ٢٩٢ ب، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾: خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ أي: لا يلطف بهم بل يخذلهم، وقرىء:

«زين لهم سوء أعمالهم»، على البناء للفاعل، وهو الله، ـ عزّ وجلّ ـ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش، أي: تباطأتم وتقاعستم، وضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه؛ ونحوه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، وقرىء: «اثاقلتم»؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فإن قلت: فما العامل في: «إذا»، وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه[1]؟

قلت: ما دلّ عليه قوله: (اثاقلتم)، أو ما في: (مالكم) من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائماً، وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو، فشق عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك (٦٨٨)؛ ليستعدّ الناس تمام العدة، ﴿مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ أي:

---

٦٨٨ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٤٥٢): كتاب المغازي: باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، حديث (٤٤١٨)، ومسلم (٩/ ١٠٠ ـ النووي): كتاب التوبة: باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث (٥٣/ ٢٧٦٩)، والترمذي (٥/ ٢٨١): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة حديث (٣١٠٢) مختصراً عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه فذكره. =

---

(١) قوله: «وحرف الاستفهام» لعله: وأحرف الاستفهام، بدليل قوله: «مانعة». وقوله: «أن يعمل فيه» لعله: أن يعمل فيه «اثاقلتم».

بدل الآخرة؛ كقوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: ٦٠]، ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾: في جنب الآخرة، ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾: سخط عظيم على المتثاقلين[1]؛ حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً، وقيل: الضمير للرسول، أي: ولا تضروه؛ لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: (قوما غيركم): أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فإن قلت: كيف يكون قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ جواباً للشرط؟

قلت: فيه وجهان.

أحدهما: إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد، فدلّ بقوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في ذلك الوقت.

والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت، فلن يخذل من بعده، وأسند الإخراج إلى الكفار، كما أسند إليهم في قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد؛ ١٣]؛ لأنهم حين هموا بإخراجه، أذن الله له في الخروج، فكأنهم أخرجوه، ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾: أحد اثنين؛ كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٤]، وهما رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يروى أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ لما أمره بالخروج، قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر، وانتصابه على الحال، وقرىء: «ثاني اثنين»، بالسكون، و﴿إِذْ هُمَا﴾: بدل من إذ أخرجه، والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة/ ٢٩٣أ على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا ظَنُّكَ بِٱثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا» (٦٨٩)، وقيل: لما دخلا الغار، بعث الله ـ تعالى ـ حمامتين فباضتا في

= قال الحافظ: متفق عليه من حديث كعب بن مالك. انتهى.

٦٨٩ ـ قال ابن حجر: لم أجده هكذا. أ.هـ والحديث أخرجه البخاري (٧/ ٣٥٥): كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنه، =

---

(١) قال محمود: «في هذه الآية سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم عذاباً أليماً. . . إلخ» قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول أن الضمير في قوله (إلا تنصروه) عقيب ذلك عائد إليه اتفاقاً، والله أعلم.

أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه (٦٩٠)، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللَّهُمَّ، أَعْمِ أَبْصَارَهُمْ» (٦٩١)، فجعلوا يتردّدون حول الغار ولا يفطنون، وقد أخذ الله بأبصارهم عنه، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقد كفر؛ لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة، ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه، والجنود: الملائكة يوم بدر، والأحزاب وحنين، وكلمة الذين كفروا: دعوتهم إلى الكفر، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: دعوته إلى الإسلام، وقرىء: ﴿وَكَلِمَةَ ٱللَّهِ﴾: بالنصب، والرفع أوجه، و﴿هي﴾: فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلوّ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم، ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: خفافاً في النفور لنشاطكم له، وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو خفافاً؛ لقلة عيالكم وأذيالكم، وثقالاً؛ لكثرتها، أو خفافاً

= حديث (٣٦٥٣)، وطرفاه في (٣٩٢٢، ٤٦٦٣)، ومسلم (٨/ ١٦٠ ـ النووي): كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، حديث (١/ ٢٣٨١)، والتِّرمذي (٥/ ٢٧٨): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٦)، كلهم من طريق همام عن ثابت عن أنس عن أبي بكر به.

وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما يعرف من حديث همام تفرد به، وقد روى هذا الحديث حِبان بن هلال، وغير واحد عن همام نحو هذا.

قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا. فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. انتهى.

٦٩٠ ـ أخرجه البزار (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) رقم (١٧٤١).

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٥ ـ ٥٦) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (٢٣٤).

كلهم من طريق أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله سبحانه وتعالى شجرة فنبت على وجه الغار... الحديث».

وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٩) رقم (٩٧٤٣).

قال الحافظ: أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبي مصعب المكي: سمعت أنس بن مالك وغيره: «أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله تعالى صخرة فثبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه فسترته. وأمر حَمَامَتينِ وحشيتين فوقفتا بفم الغار... الحديث» انتهى.

٦٩١ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧٧): قوله ـ عليه السلام ـ: «اللهم أعم أبصارهم»، لم أجده. وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

من السلاح وثقالاً منه، أو ركباناً ومشاة، أو شباباً وشيوخاً، أو مهازيل وسماناً، أو صحاحاً ومراضاً، وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: أعليَّ أن أنفر؟ قال: نَعَمْ، حتى نزل قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] (٦٩٢)، وعن ابن عباس: نسخت بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عمّ، لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه، وقال: يابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، إلا أنه من يحبه الله يبتله، وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا، يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر؛ أي: لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: وسطاً مقارباً، ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: المسافة الشاطة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: «بعِدَت عليهم الشِّقة»، بكسر العين والشين؛ ومنه قوله [من الطويل]:

يَقُولُونَ لاَ تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَهُ وَلاَ بُعْدَ إلاَّ مَا تُوَارِي الصَّفَائِحُ[1]

﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم، والقول مراد في الوجهين، أي: سيحلفون، يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون/ ٢٩٣ب بالله، ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله:

---

٦٩٢ ـ تقدم تخريجه برقم (٤٥٨).

---

(١) يقال «بعد» ككرم وتعب، ومصدرهما: البعد بفتحتين، وبضم فسكون. وقد اشتهر باب تعب في معنى الهلاك، ولا تبعد ـ بالفتح ـ كلمة جارية على لسانهم عند المصيبة، دالة على تناهي الجزع، ولا بعد: معناه لا بعد إلا بعد ما تواريه الصفائح. أو ولا ذو بعد إلا ما تواريه. أو لا بعيد إلا ما تواريه، على أن المصدر بمعنى الوصف. واستعمل «ما» في العاقل، لأن المراد بها الوصف. أو المراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الإدراكات والأرواح. والصفائح: أحجار عراض يسقف بها القبر، أي البعيد، حقيقته هو ما يستره القبر، كناية عن موته.
ينظر البيت في الدر المصون ٤/ ١٠٣.

(لخرجنا): سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات، ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان، كأنهم تمارضوا، وقرىء: لو استطعنا، بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٧]، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: إما أن يكون، بدلاً من سيحلفون، أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب، وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: (لخرجنا) أي: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا، وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم؛ ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾: كناية عن الجناية؛ لأنّ العفو رادف لها[(١)]، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت[(٢)]، و﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾: من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شيئان فعلهما رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى فعاتبه الله، تعالى.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾: ليس من عادة المؤمنين[(٣)] أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان

---

(١) قال محمود: «هذا كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها... إلخ» قال أحمد رحمة الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما أن لا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء: لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) قوله: «ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت» خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرأفة، وفسره المصنف بخطاب الغلظة والقسوة، وشتان مابينهما.

(٣) عاد كلامه: قال: وقوله ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا﴾ =

الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبداً، ولنجاهدنّ أبداً معه بأموالنا وأنفسنا، ومعنى: ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ في أن يجاهدوا، أو كراهة أن يجاهدوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجزل الثواب.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ يعني: المنافقين، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: عبارة عن التحير؛ لأن التردّد ديدن المتحير، كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر، قرىء: «عُدَّةً»، بمعنى: «عُدَّتَهُ»؛ فعل بالعُدَّةِ ما فعل بالعِدَّةِ مَنْ قَالَ: [الطويل]

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا[1]

من حذف تاء التأنيث، وتعويض المضاف إليه منها، وقرىء: «عِدَّةً»، بكسر العين بغير إضافة، وعدّه بإضافة.

فإن قلت: كيف موقع حرف الاستدراك؟

قلت: لما كان قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾: معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو، قيل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾، كأنه قيل: ما خرجوا، ولكن تثبطوا عن الخروج؛ لكراهة انبعاثهم؛ كما تقول: ما أحسن إليّ زيد، ولكن أساء إليّ، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾:

= ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾... الآية قال: معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا... إلخ» قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً؛ فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره، وصلوات الله على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه، إنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة والآداب الجليلة، فقال تعالى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد كالمستأذن له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين التثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه والمناداة، وأسوأ أحوال المتثاقل ـ وقد دعي الناس إلى الغزاة ـ أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرف لسطخه.

(١) تقدم.

فكسلهم، وخذلهم، وضعف رغبتهم في الانبعاث/ ٢٩٤أ، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾: جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة، وقيل: هو قولهم لأنفسهم، وقيل: هو إذن رسول الله ـ ﷺ ـ لهم في القعود.

فإن قلت: كيف جاز أن يوقع الله ـ تعالى ـ في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة، وتعالى الله عن إلهام القبيح[(١)]؟

قلت: خروجهم كان مفسدة؛ لقوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة.

فإن قلت: فلم خطأ رسول الله ـ ﷺ ـ في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟

قلت: لأنّ إذن رسول الله ـ ﷺ ـ لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام الله تعالى؛ ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها، فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله ـ ﷺ ـ الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا، وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله ـ ﷺ ـ قامت عليهم الحجة، ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك؛ حيث هتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وشهد عليهم بالنفاق، وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾[(٢)]؟

قلت: هو ذمّ لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء، والصبيان، والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون، والخالفون، والخوالف، ويبينه قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾: جنس من الاستثناء المنقطع في شيء

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يوقع الله في نفوسهم كراهة الخروج للغزو... إلخ» قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاسدتين: إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين والتقبيح. وقد تكرر بطلان ذلك فاحذره. واعلم أن معتقد أهل السنة أن الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم، لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم؛ إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ المشيئة، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه: قال: «فإن قلت فما معنى قوله مع القاعدين... إلخ» قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً فنقول: لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه، لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك: كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد، الموسومين بهذه السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون: لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله: لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل: لأجعلنك مسجوناً، لمثل هذه النكتة من المبالغة.

كما يقولون؛ لأن الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه؛ كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر، وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً؛ لأنّ الخبال بعض أعمّ العام، كأنه قيل: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، والخبال، الفساد والشرّ، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: ولسعوا بينكم بالتضريب[1]، والنمائم، وإفساد ذات البين؛ يقال: وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد: الإسراع بالتمائم؛ لأنّ الراكب أسرع من الماشي، وقرأ ابن الزبير - رضي الله عنه -: «ولأرقصوا»، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها؛ قال [من الكامل]:

.... وَالرَّاقِصَاتِ إِلَىٰ مِنًى فَالْغَبْغَبِ[2]

وقرىء: «ولأوفضوا».

فإن قلت: كيف خطّ في المصحف: «ولا أوضعوا»، بزيادة ألف؟

قلت: كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحتها ألفاً/ ٢٩٤ب أخرى، ونحو: أولا أذبحنه، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: يحاولون أن يفتنوكم، بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمامون، يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم، ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أي: العنت، ونصب الغوائل، والسعي في تشتيت شملك، وتفريق أصحابك عنك، كما فعل عبد الله بن أبيّ يوم أحد، حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج - رضي الله عنه -: وقفوا لرسول الله - ﷺ - على الثنية ليلة العقبة، وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به، ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل غزوة تبوك، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: ودبروا لك الحيل والمكايد، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك، وقرىء: «وقلبوا» بالتخفيف، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾: وهو تأييدك ونصرك، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وغلب دينه وعلا شرعه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ائْذَن لِّي﴾: في القعود، ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾: ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم، بألاّ تأذن

---

(١) قوله: «بالتضريب» أي بالإغراء (ع).

(٢) ينظر البحر المحيط (٥/ ٥٠)، اللسان «غبب»؛ معجم البلدان (٤/ ١٨٦) «الغبغب»، وبلا نسبة في مقاييس اللغة (٢/ ٦٠)، وتاج العروس (غبب)، الدر المصون (٣/ ٤٧٠).

لي؛ فإني إن تخلفت بغير إذنك، أثمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة؛ فإني إذاخرجت معك، هلك مالي، وعيالي، وقيل: قال الجدّ بن قيس: قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء[1]، فلا تفتني ببنات الأصفر، يعني: نساء الروم؛ ولكني أعينك بمال فاتركني، وقرىء: «ولا تفتني»، من أفتنه، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف، وفي مصحف أبيّ ـ رضي الله عنه ـ: «سقط»؛ لأنّ: «من» موحد اللفظ مجموع المعنى، ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم الآن؛ لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿إِن تُصِبْكَ﴾: في بعض الغزوات، ﴿حَسَنَةٌ﴾: ظفر وغنيمة، ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾: نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك، و﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متسمون به، من الحذر، والتيقظ، والعمل بالحزم، ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل ما وقع، وتولوا عن مقام التحدّث بذلك، والاجتماع له إلى أهاليهم، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾: مسرورون، وقيل: تولوا: أعرضوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «قل هل يصيبنا»، وقرأ طلحة ـ رضي الله عنه ـ: «هل يصيّبنا»، بتشديد الياء، ووجهه أن يكون: «يفيعل»، لا «يفعل»؛ لأنه من بنات الواو؛ كقولهم: الصواب، وصاب السهم يصوب، ومصاوب[2]، في جمع مصيبة، فحق: «يفعل»، منه: «يصوّب»؛ ألا ترى إلى قولهم: صوّب رأيه، إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله[3]: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ مفيد ةمعنى الاختصاص؛ كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة؛ ألا ترى/ ٢٩٥أ إلى قوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾

---

(١) قوله: «إني مستهتر» أي مولع لا أبالي بما يقال في شأني انتهى (ع).

(٢) قوله: «ومصاوب» في الصحاح: أجمعت العرب على همز المصائب، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصلي بالزائد، ويجمع أيضاً على مصاوب، وهو الأصل (ع).

(٣) قوله: «ومن قوله» لعله: ومنه. أو لعله: ومنها. وفي الصحاح: صاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة في أصابه (ع).

أي: الذي يتولانا ونتولاه؛ «ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم»، [محمد: ١١]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وحق المؤمنين ألاّ يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ما هو حقهم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: إلا إحدى العاقبتين، اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب، وهما: النصرة، والشهادة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾: إحدى السوأتين[١]، من العواقب، إمّا: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد وثمود، ﴿أو﴾: بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾: بنا ما ذكرنا من عواقبنا، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾: ما هو عاقبتكم، فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَنفِقُوا۟﴾: يعني في سبيل الله، ووجوه البر، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: نصب على الحال، أي: طائعين أو مكرهين.

فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾؟

قلت: هو أمر في معنى الخبر[٢]؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ

---

(١) قوله: «إحدى السوأتين» لعله: السأويين (ع).

(٢) قلنا: «الأمر» بحث قرآني وقف عنده علماء الفقه والبيان، وأخذوا منه الفقه واجبهُ ومندوبه والمباح منه، أما البيانيون فقد أخذوا منه صورته ومعناه ومراميه في أساليب القرآن، ولهذا سأقف مع المفسر العلامة في صورة الأمر كله ليتجلى لنا مقاصد الأمر في كتاب الله بحسب ما بين المفسر العلامة، وسأسير في المبحث بهذا الترتيب:

١ ـ تعريف الأمر عند البلاغيين هكذا: هو: «طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء» وقد أفاد الزمخشري بقوله: «طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه» بأنه قد يدل الأمر بطريق المقام على معان أخرى، وقد استطاع المفسر العلامة استنباط ما استطاع بفكره الثاقب من خلال دراسة مقامات الأمر في القرآن الكريم.

٢ ـ من هذه المعاني التي أوردها العلامة ما يأتي:

التهكم: كقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فهذا الطلب «وادعو» من الشهداء الجمادات دليل على غاية التهكم بهم.

التبكيت: وقد ورد في قوله ـ تعالى ـ ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] فهذا طلب مع علمه بعجزهم تبكيتا لهم.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ [مريم: ٧٥]، ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً؛ ونحوه قوله تعالى:

= **الاستهزاء**: كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. والمعنى: إن كنتم رجالاً فادفعوا أسباب الموت عنكم.

طلب الثبات: كقوله ـ تعالى ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] فالعبادة من المؤمنين حاصلة فطلبها دليل على أن المراد: اثبتوا وزيدوا.

الإباحة: كما ورد في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [المائدة: ٢] فقد كان محظوراً أيام الإحرام، فإذا حل المحرم أباح الله له الاصطياد.

الحيرة والاضطراب في حال الشدة: كقوله ـ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] فهم قد يئسوا من طلب الماء لكنهم من حيرتهم يطلبون كما يفعل المضطر، فهو يطلب ما لا طلب فيه له.

الاستعجال: كما في قوله ـ عز شأنه ـ ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فهذا استعجال منهم للعذاب.

الدعاء: كقوله ـ سبحانه ـ ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ فهذا دعاء عليهم بالهلاك من الغيظ [والآية من آل عمران: ١١٩].

ومن الدعاء بالواقع لا محالة تضرُّعًا وتذللا لله ما جاء في قوله ـ تعالى ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] فهذا الدعاء: «ليضلوا» ـ «اطمس» ـ «واشدد» من باب الخضوع لله رب العالمين لأن ذلك دافع لا محالة بهم، وقد أبدع الزمخشري في بيان هذا المعنى عند شرحه للآية.

الترغيب في المأمور به، وهذا يتحقق في مقام يأتي فيه النهي عن نقيضه أولاً، ثم يأتي الأمر **لزيادة الترغيب والبعث عليه**، وهذا واضح عند قوله ـ سبحانه ـ:

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود: ٧٤ ـ ٨٥] وهذا البيان أفاده الزمخشري في موضعه.

٣ ـ قد يأتي الأمر بصورة الخبر لسر بلاغي يراد كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦] ومعناه: قاتلوا في سبيل الله والسر وراء هذا الخبر المقيد للأمر أن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يلفت المسلم إلى أنه قد امتثل فصار خبراً أخبر عنه بهذه الصورة، وهذا ما تراه في قوله ـ تعالى ـ أيضاً ـ: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١١].

٤ ـ وقد تعكس هذه الطريقة فيكون النظم بصورة الأمر، والمراد الخبر بحسب السياق والقرائن وذلك أيضاً لسر يراد في المعنى المقصود ومن ذلك:

الإشارة إلى التسوية بين فعل المأمور به وعدمه، وفيه دليل على نهاية السخط أو الرضا **فالأول** كقوله ـ تعالى ـ ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ وهي الآية التي صورتها في هذا المبحث، والمعنى فيه خبر وهو: لن يتقبل منكم الإنفاق طائعين أو مكرهين، وهذا المعنى ـ أيضاً ـ يلاحظ عند قول الله ـ سبحانه ـ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠].

والثاني: وهو ما يدل على غاية الرضا كقول كثير عزة [من الطويل]:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة... ....

فالإساءة والإحسان متساويان فهو في غاية الرضوان، وقد بين هذا الزمخشري عند الآية.

وقد تأتي هذه الطريقة من باب **إهانة المأمور**، وأنه لا يلتفت إلى فعله كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ [الإسراء: ١٠٧]. فالمعنى أنهم لا شأن لهم وأن خيراً منهم قد آمنوا وصدقوا =

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ وقوله [من الطويل]:

= وعملوا صالحاً وهم العلماء...

ويأتي الأمر لإفادة أنه **حتم واجب** لا شيء غيره كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨٢] ومعناه: فيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً جزاء لهم بأفعالهم.

٥ ـ وقد يعبر القرآن عن حدث وقع بصيغة الأمر لمغزى كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] والمغزى فيه: الدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله وإرادته، وهذا خارج عن العادة كأنهم أمروا فامتثلوا.

٦ ـ قد يفيد الأمر التعظيم والتشريف وهذا إذا كان الأمر يفيد العموم كما قوله ـ تعالى ـ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ....﴾ [البقرة: ٢٥] فالخطاب يجوز فيه أن يكون لرسول الله ـ صلوات الله عليه ـ وأن يكون لكل أحد يبشر تشريفاً وتفخيماً، وهذا من الطرق العجيبة في الأمر.

٧ ـ من خصائص الأمر أن يقع عقبه ما يحث عليه ويدعو إليه، وقد أورد العلامة الزمخشري هذا المعنى عند قوله ـ تعالى ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾... فكأنه أراد لعباده أن يتقوه من باب أنه خلقهم بقدرته، وأمرهم بيده، وأن يتقوه في الحقوق التي بينهم لأنهم شجرة واحدة، وهذا ما أورده العلامة المفسر وبينه.

٨ ـ هناك معانٍ للأمر أفادها المفسرون ومنها:

التكوين والتمثيل ويسمى «التسخير» ومعناه أنه أمر تكويني لا امتناع فيه كقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] وهذا ما لحظه الزمخشري كما في التعليق «٥» إلا أن الشوكاني ـ رحمه الله ـ أضاف شيئاً آخر وهو «الحث والتشجيع لما أمر الله لأن الأمر في كل الشؤون لله وحده لا شريك له.

الثبات والإقامة: وقد لمح المفسرون هذا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد ـ ﷺ ـ ١٩] وقد مر هذا المعنى لكن آثرنا ذكره لأن المفسرين قد داروا هذا الأمر ولهم فيه كلام، ولكن المعنى الذي ذكرت هو الواضح البين.

التعجيز: وهذا معنى يراه المفسرون عند قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ومعناه: لن تستطيعوا.

التواضع وحسن الأدب: وقد فهم الشوكاني هذا المعنى عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢] ولهذا قال: «أمره الله ـ سبحانه ـ بخلع نعليه؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب».

هذا، والمعاني في كتاب الله ـ سبحانه ـ وفيرة، ومن تأمل الأمر القرآني في جميع آيات الكتاب مع مراعاة ملابسات الآيات وقرائن السياقات، والمقامات يرى من الأسرار والفتوحات الشيء الوفير، وفي هذا القدر المتواضع إشارة وكفاية، ومن أراد الغاية فعليه بمراجعة كلام أولي النهى من المحققين مفسرين وبلاغيين، والله من وراء القصد.

ينظر شروح التلخيص ٢/٣٠٨، ٣٠٩ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٦٨ وما بعدها، علم المعاني في تفسير فتح القدير للشوكاني فتحي حجازي ٢/٦٤٠، وما بعدها، والنفس ١/٨٤، وفتح القدير للشوكاني ٢/٣٨٨، مفاتيح الغيب للرازي ٨/١١٨، وروح المعاني للألوسي ١/٢٦٥، والبحر المحيط لأبي حيان ١/٢٢١، ٤/٣٢٥، الإيضاح للقزويني ٣/٨٨ وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني ٢٣٩ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٥٢.

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً[1] . . . .

أي: لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك ـ أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قلت: متى يجوز نحو هذا؟

قلت: إذا دلّ الكلام عليه، كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له.

فإن قلت: لم فعل ذلك؟

قلت: لنكتة فيه، وهي أنّ كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوّة محبّتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل بتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل [من الطويل]:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ قُمْتَ بِالسَّيْفِ عَامِداً ... لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ فِي الْوُدِّ[2]

وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه؟

فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبل؟ أهو ترك رسول الله ـ ﷺ ـ تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله ـ تعالى ـ ذاهباً هباء لا ثواب له؟

قلت: يحتمل الأمرين جميعاً، وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، وسمي الإلزام إكراهاً؛ لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق

---

(١) أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت

لكثير صاحب عزة، يقول: امتحنيني في المحبة، وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري هل يتغير حالي، وافعلي ما يجبرك زوجك عليه من شتمي، كما يأتي في كلامه، ولا تتحرجي عنه فإنه مثل إحسانك، ولهذا ذكر الإحسان والمعنى: لا لوم ولا بغض، سواء أسأت أو أحسنت، فالأمر بمعنى الخبر، ثم التفت وقال: ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت، أي تكلفت البغض لنا وأظهرته. ويجوز أن المعنى: لا ملومة أنت ولا مقلية، فالالتفات في قوله: «إن تبغضت؛ فقط.
ينظر ديوانه (١٠١)، أمالي ابن الشجري (١/ ٤٩)، التهذيب، اللسان (حسن)، الدر المصون (٣/ ٤٧٢).

(٢) أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً ... لتضربه لم يستغشك في الود
ولو جئت تبغي كفه لتبينها ... تبادر إشفاقاً عليك من الرد
يرى أنه في الود وانٍ مقصر ... على أنه قد زاد فيه عن الجهد

روي يستفشك «بالشين بدل الثاء. والمعنى متقارب. والسين والتاء للعد، أي لم يعدك خائناً مضراً. وتبينها تقطعها. والإشفاق: الخوف. والواني: المتواني. يقول: إن أخاك الصدق هو الذي لو قصدته بالمكاره لم يعدها غشا منك في المودة، بل يبادرك بكل ما طلبته خوفاً عليك من أذى المنع، يظن أو يعتقد أنه مقصر في الود، مع أنه جاوز فيه الحد، وتكلف غير طاقته.
ينظر الدر المصون (٣/ ٤٧٢).

شاقًّا عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجدّ بن قيس؛ حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله ـ ﷺ ـ: هذا مالي أعينك به فاتركني، ﴿إِنَّكُمْ﴾: تعليل لردّ إنفاقهم، والمراد بالفسق: التمرّد والعتوّ.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: فاعل منع، «وهم»، و«أن تقبل»: مفعولاه/ ٢٩٥ب، وقرىء: «أن تقبل»، بالتاء والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي: «أن يقبل منهم نفقاتهم»، على أن الفعل لله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿كُسَالَىٰ﴾: بالضم والفتح، جمع كسلان؛ نحو: سكارى، وغيارى، في جمع سكران، وغيران؛ وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]، وقرأت في بعض الأخبار أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كره للمؤمن أن يقول: «كسلت»، كأنه ذهب إلى هذه الآية؛ فإنّ الكسل من صفات المنافقين، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه (٦٩٣).

فإن قلت: الكراهية خلاف الطواعية، وقد جعلهم الله ـ تعالى ـ طائعين في قوله: ﴿طَوْعًا﴾ ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون.

قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ـ ﷺ ـ أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الإعجاب بالشيء: أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه، والمعنى: فلا تستحسن، ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١]، فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرّضه للتغنم والسبي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

---

٦٩٣ ـ تقدم في أواخر البقرة.

فإن قلت: إن صح تعليق التعذيب[1] بإرادة الله تعالى، فما بال زهوق أنفسهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؟

قلت: المراد: الاستدراج بالنعم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿لمنكم﴾ لمن: جملة المسلمين، ﴿يَفْرَقُونَ﴾: يخافون القتل، وما يفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تقية، ﴿مَلْجَـًٔا﴾: مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل، أو قلعة، أو جزيرة، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾: أو غيرانا، وقرىء بضم الميم، من أغار الرجل وغار، إذا دخل الغور، وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من: أغار الثعلب، إذا أسرع، بمعنى: مهارب، ومفارّ، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾: أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون، وهو مفتعل من الدخول، وقرىء: «مدخلاً» من دخل، «ومدخلاً» من أدخل: مكاناً يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: «متدخلاً»، وقرىء: «لو ألوا إليه» لالتجؤوا إليه ﴿يَجْمَحُونَ﴾: يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يردّه اللجام، وقرأ أنس ـ رضي الله عنه ـ: «يجمزون»، فسئل؟ فقال: يجمحون ويجمزون ويشتدّون[2] واحد.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿يَلْمِزُكَ﴾: يعيبك/ ٢٩٦أ في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفة قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقسم غنائم حنين، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: «وَيْلَكَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ فَمَنْ يَعْدِلُ» (٦٩٤) وقيل: هو أبو الجواظ، من المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكم!

---

٦٩٤ ـ أخرجه البخاري (١٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦): كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك =

---

(١) قوله: «فإن قلت إن صح تعليق. . . إلخ» مبني على أنه تعالى لا يريد الشر؛ وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: أنه يريده كالخير (ع).

(٢) قوله: «ويجمزون ويشتدون» فيقال: جمز بالجيم يجمز بالكسر: أسرع، وحمز بالحاء يحمز بضمها: اشتد اهـ صحاح فتدبر (ع).

إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لاَ أَبَا لَكَ أَمَا كَانَ مُوسَىٰ رَاعِياً، أَمَا كَانَ دَاوُدُ رَاعِياً» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: «احْذَرُوا هٰذَا وَأَصْحَابَهُ؛ فَإِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ» ح (٦٩٥)، وقرىء: «يلمزُك» بالضم، و«يلمزك» و«يلامزك»، التثقيل والبناء على المفاعلة؛ مبالغة في اللمز، ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأن رسول الله ـ ﷺ ـ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه، وإذا للمفاجأة، أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا للسخط.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (٥٩)﴾

جواب «لو»: محذوف تقديره: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم، وإن قلّ نصيبهم، وقالوا كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ـ ﷺ ـ أكثر مما آتانا اليوم، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾: قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها[(١)]، لا يتجاوزها إلى غيرها؛ كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم؛ ونحوه

= قتال الخوارج للتألف، ولئلا ينفر الناس عنه، حديث (٦٩٣٣)، ومسلم (٤/١٧٣ ـ ١٧٤ ـ النووي): كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث (١٤٨/ ١٠٦٤).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي سعيد، واللفظ للبخاري؛ ولهما: «إذا جاء ذو الحويصرة»، وهو المحفوظ. انتهى.

٦٩٥ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧٩): غريب.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قال محمود: «هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها إلخ» قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذا من إشعار اللام بالتمليك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذي سبقت له فلا اقتضاء فيها لما سواه والله أعلم.

قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد: لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها، وأن تصرف إلى بعضها، وعليه مذهب أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ وعن حذيفة، وابن عباس، وغيرهما، من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك، وعن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحب إليّ، وعند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أنها تفرّق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية، ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: السعاة الذين يقبضونها، ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: أشراف من العرب كان رسول الله ـ ﷺ ـ يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة، «والرقاب»: المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق، ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾: الذين ركبتهم الديون، ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا، ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع عن ماله فهو/ ٢٩٦ب فقير؛ حيث هو غنيّ حيث ماله، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: «إنما الصدقات للفقراء»، معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرىء: «فريضة» بالرفع على: تلك فريضة.

فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة[1]؟

---

(١) عاد كلامه: قال: «فإن قلت لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة... إلخ» قال أحمد: وثم سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائقاً بهم. وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم. ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لالهم. وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك. وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب والله أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال لمالك على أن الغرض بيان المصرف، واللام لذلك لام الملك، فيقول: متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فأما أن يكون التقدير: إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك: أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي؛ لكن الأول متعين، لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول: هذا الشيء مصروف في كذا وكذا، بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتئم مع اللام، وعند الانتهاء إلى «في» يحتاج إلى تقدير =

قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأنّ «في» للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة؛ وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير «في» في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾: فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قلت: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم؟

قلت: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقت خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم؛ حسماً لأطماعهم، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم ومالها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها، صلوات الله عليه وسلامه؟

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع[(١)]، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع؛ كأنّ جملته أذنٌ سامعة؛ ونظيره قولهم للربيئة[(٢)]: عين، وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه (هو أذن)، وأذن خير؛ كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك؛ ودلّ عليه قراءة حمزة: (ورحمة) بالجرّ عطفاً عليه، أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله، ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون؛ حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين؛ مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم، لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء

= مصروفة ليلتئم بها، فتقديره من اللام عام التعلق، شامل الصحة، متعين، والله الموفق.

(١) قال محمود: «الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع... سمي الرجل بالجارحة التي هي آلة السماع... إلخ» قال أحمد: لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كر على طمعهم بالحسم وأعقبهم في تنقصه باليأس منه؛ ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء: القول بالموجب، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتا للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الأطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(٢) قوله: «للربيئة» في الصحاح: الربيئة الطليعة (ع).

عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة، وقيل: إن جماعة منهم ذمّوه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وبلغه ذلك، فاشتغلت قلوبهم، فقال بعضهم: لا عليكم؛ فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا ـ أيضاً ـ فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم، وقرىء: «أذن/
٢٩٧أ خير لكم»، على أن أذن خبر مبتدأ محذوف، وخير كذلك، أي: هو أذن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم(١)، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قلت: لم عدّي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام؟

قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدّي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه؛ لكونهم صادقين عنده، فعدّي باللام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ما أنباه(٢) عن الباء؛ ونحوه: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

فإن قلت: ما وجه قراءة ابن أبي عبلة: «ورحمة» بالنصب؟

قلت: هي علة معللها محذوف تقديره: ورحمة لكم يأذن لكم؛ فحذف لأنّ قوله: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ يدل عليه.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾: الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ـ ﷺ ـ فكانا في حكم مرضيّ واحد؛ كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) قوله: «على سوء دخلتكم» أي مذمتكم. وفي الصحاح أن دخلة الرجل بالضم: باطن أمره اهـ، ولعلها غلبت في المذمة (ع).

(٢) قوله: «ما أنباه عن الباء ونحوه» أي: ما أبعده (ع).

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾: على حذف الخبر، أي: فحق أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، وقيل: معناه: فله، وأنّ: تكرير؛ لأن في قوله: ﴿أَنَّهُۥ﴾: تأكيداً، ويجوز أن يكون: (فأن له): معطوفاً على أنه، على أن جواب: (من) محذوف تقديره: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له[1] نار جهنم، وقرىء: «ألم تعلموا» بالتاء.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

كانوا يستهزؤن بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم؛ حتى قال بعضهم: الله، لا أرانا إلا شر خلق الله، لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وألاَّ ينزل فينا شيء يفضحنا، والضمير في: «عليهم» وتنبئهم للمؤمنين، «وفي قلوبهم»: للمنافقين، وصحّ ذلك، لأن المعنى يقود إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم، فهي نازلة عليهم، ومعنى: «تنبئهم بما في قلوبهم»، كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أي: ليحذر المنافقون.

فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ/
٢٩٧/ب عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾، فما معنى قوله: ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾؟

قلت: معناه: محصل مبرز إنزال السورة، أو أنّ الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بينا رسول الله ـ ﷺ ـ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه،

---

(١) قال السمين الحلبي: وقد رد الشيخ على الزمخشري قوله بأنهم نصوا على أنه إذا حذف جواب الشرط لزم أن يكون فعل الشرط ماضياً أو مضارعاً مقروناً بـ «لم».
والجواب على قوله محذوف، وفعل الشرط مضارع غير مقترن بـ «لم»، وأيضاً فإنا نجد الكلام تاما بدون هذا الذي قدره. وقد نُقل عن سيبويه أنه قال: «الثانية بدل من الأولى»، وهذا لا يصح عن سيبويه فإنه ضعيف أو ممتنع. انتهى. الدر المصون.

فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ـ عليه السلام ـ على ذلك، فقال: «اَحْبِسُوا عَلَيَّ الرَّكْبَ»، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله، لا، والله، ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب؛ ليقصر بعضنا على بعض السفر (٦٩٦) ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾: لم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء؛ حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير؛ وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة؛ فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم، ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾: قد ظهر كفركم باستهزائكم، ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾: بعد إظهاركم الإيمان، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾: بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾: مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو: إن نعف عن طائفة منكم، لم يؤذوا رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يستهزؤا فلم نعذبهم في العاجل، نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله ـ ﷺ ـ مستهزئين، وقرأ مجاهد: «إن تعف عن طائفة» على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف، كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة؛ ولكنه ذهب إلى المعنى، كأنه قيل: إن ترحم طائف فأنث لذلك وهو غريب، والجيد قراءة العامّة: «إن يعف عن طائفة»، بالتذكير، وتعذب طائفة، بالتأنيث، وقرىء: «إن يعف عن طائفة يعذب طائفة»، على البناء للفاعل، وهو الله ـ عزّ وجلّ ـ.

﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أريد به: نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، ثم وصفهم بما يدل على مضادّة حالهم لحال المؤمنين، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾، بالكفر

---

٦٩٦ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/٤٠٩) رقم (١٦٩٣٠ و١٦٩٣١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٤٥٦)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ؛ كلهم عن قتادة به.
قال الحافظ: ذكره الواحدي عن قتادة بغير سند، ووصله الطبري. انتهى.

والمعاصي، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: عن الإيمان والطاعات، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحّاً بالمبارّ، والصدقات، والإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أغفلوا ذكره، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: فتركهم من رحمته وفضله، ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم/ ٢٩٨أ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذ كره رسول الله - ﷺ - للمسلم أن يقول: كسلت (٦٩٧)؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: (كسالى)، فما ظنك بالفسق؟ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقدّرين الخلود، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: دلالة على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة، وألحقهم بالملائكة[1] المكرمين، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار، مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد: ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن؛ خوفاً من المسلمين، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة، ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الكاف محلها رفع على: أنتم مثل الذين من قبلكم، أو نصب على: فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا؛ ونحوه قول النمر [من السريع]:

.... كَـالْـيَـوْمِ مَـطْـلُـوبـاً وَلاَ طَـلَـبَـا[2]

---

٦٩٧ ـ قال الحافظ: تقدم تخريجه في أواخر سورة البقرة. انتهى.

---

(١) قوله: «وألحقهم بالملائكة» مبني على مذهب المعتزلة، من تفضيل الملك على البشر (ع).

(٢) حتى إذا الكلاب قال لها ... كاليوم مطلوباً ولا طلبا

لأوس بن حجر. وقيل: للنمربن تولب، وفيه حذف لا يستقيم إلا به، أي قال لها: لم أنظر كاليوم مطلوباً، والضمير لكلبة الصيد. والكلاب: معلم الكلاب أو الصياد بها، أي ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلهما في غيره بل أعظم، ولعل المراد بالطلب الطالب، ثم يحتمل أن هذا مقول =

بإضمار «لم أر»، وقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾: تفسير لتشبيههم بهم، وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب، وهو ما خلق للإنسان، أي: قدّر من خير، كما قيل له: «قسم»؛ لأنه قسم، ونصيب؛ لأنه نصب، أي: أثبت، والخوض: الدخول في الباطل واللهو، ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾: كالفوج الذي خاضوا، وكالخوض الذي خاضوه. فإن قلت أنى فائدة في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ مغن عنه كما أغنى قوله: ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ على أن يقال: وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟

قلت: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخسس أمر الاستمتاع، ويهجن أمر الرضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم، ويعذب، ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله، وأما: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾: فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: نقيض قوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [**النحل**: ١٢٢].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾: وأهل مدين، وهم قوم شعيب، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: مدائن قوم لوط، وقيل: قريات قوم لوط، وهود، وصالح،/ ٢٩٨ب وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: فما صحّ منه أن يظلمهم، وهو حكيم، لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

= القول، ويحتمل أنه جواب إذا ومقول القول محذوف، إشارة إلى سرعتها: أي قال لها: اذهبي مثلاً.

ينظر ديوانه (٣)، شرح المفصل (١/ ١٢٥)، أمالي الشجري (١/ ٣٦١)، أمالي المرتضى (٢/ ٧٣)، بلا نسبة من أمالي ابن الحاجب (ص ٤٤٠)، الدر المصون (٣/ ٤٨٢).

﴿فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾: في مقابلة قوله في المنافقين، (بعضهم من بعض) ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يوماً، تعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥]. ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ﴾ [النساء: ١٧٣]. ﴿عزيزٌ﴾: غالب على كل شيء قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب، ﴿حَكِيمٌ﴾: واضع كلاً موضعه على حسب الاستحقاق، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد، و(عدن): علم؛ بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١] ويدل عليه ما روى أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ «عَدْنٌ دَارُ اللهِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، لاَ يَسْكُنُهَا غَيْرُ ثَلاثَةٌ: النَّبِيُّونَ، وَالصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: طُوبَىٰ لِمَنْ دَخَلَكِ» (٦٩٨) وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جناته على حافاته، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾: وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب؛ ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه، فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المرّة(1) من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان: أي هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً، وروي: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَقُولُ لأَهْلِ

---

٦٩٨ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره»: (٦/ ٤١٧) رقم (١٦٩٥٩)، والبزّار في مسنده، والدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٧٩) رقم (٥٥٥)؛ كما عزاه الزيلعي إلى ابن مردويه في تفسيره (٢/ ٨٠).
قال الحافظ: أخرجه البزار من طريق زياد بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عنه، وقال: لا نعلمه إلا من هذا الوجه، وزيادة لا يعلم، وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبراني والدارقطني في المؤتلف وابن مردويه من هذا الوجه. انتهى.

---

(1) قوله: «والنفس المرة» أي القوية الشديدة العقل، من المرة بالكسر، وهي القوة وشدة العقل، كما في الصحاح (ع).

الجَنَّةِ هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْطِيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ؟ قَالُوا: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ؟ قَالَ: أُدْخِلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَداً» (٦٩٩).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: بالسيف، ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾: بالحجة[1]، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: «إن لم يستطع بيده فبلسانه/ ٢٩٩أ، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه[2]، فإن لم يستطع فبقلبه (٧٠٠)، يريد الكراهة، والبغضاء، والتبرأ منه، وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أقام رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القران، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد، فقال الجلاس: والله، لئن كان

---

٦٩٩ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ٢٣٤): كتاب الرقاق باب: صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٤٩)، ومسلم (٩/ ١٨٤ ـ النووي): كتاب الجنة. وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبداً، حديث (٩/ ٢٨٢٩) والتِّرمذي (٤/ ٦٨٩)، كتاب صفة الجنة، حديث (٢٥٥٥).

وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي سعيد. انتهى.

٧٠٠ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره»: (٦/ ٤١٩) رقم (١٦٩٧٦)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٨١). وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٢) بنحوه.

كلهم عن ابن مسعود به.

قال الحافظ: أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمرو بن أبي جندب عنه. انتهى.

---

(١) قال محمود: «معناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة. . . إلخ» قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظنا عليه أحيانا، والله الموفق.

(٢) قوله: «فليكفهر في وجهه» في الصحاح «اكفهر الرجل» إذا عبس (ع).

ما يقول محمد حقًا لإخواننا الذين خلفناهم، وهم ساداتنا وأشرافنا، فنحن شر من الحمير، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل، والله إنّ محمداً لصادق، وأنت شرّ من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده، فقال: «اللهم، أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب، وتكذيب الصادق[1]: فنزلت، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾: فقال الجلاس: يا رسول الله، لقد عرض الله عليّ التوبة، والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس، وحسنت توبته (٧٠١)، ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾: وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام، ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾: وهو الفتك برسول الله ـ ﷺ ـ وذلك عند مرجعه من تبوك: تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا (٧٠٢) وقيل:

---

٧٠١ ـ أخرجه ابن هشام في سيرته (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨) رقم (٥٦٤).
وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٢٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٦ ـ ٤٧) رقم (١٨٣٠٣)، والطبري في تفسيره: (٦/ ٤٢١) رقم (١٦٩٨٢ ـ ١٦٩٨٣ ـ ١٦٩٨٤).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٣)، وذكره الثعلبي ثم البغوي في تفسيريهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٨٢).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب. وروى ابن سعد وعبد الرزاق والطبري من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد. فقال الجلاس بن سويد في غزوة تبوك: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير. فقال له عامر بن قيس الأنصاري، وهو ابن عمه ـ فذكره. وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي ليس فيه، كانت أم عمير إلى آخره، بل أوله في قصة تبوك إلى أن قال: وقال الجلاس حين سمع ما أنزل الله في المنافقين. انتهى.
٧٠٢ ـ أخرجه أحمد في مسنده: (٥/ ٤٥٣)، من طريق يزيد بن هارون عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل به.
وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) من طريق محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/ ١١٥)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.
وأخرجه البزار بنحوه (٢/ ٣٥٧) من طريق محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة به.

---

(١) قوله: «تصديق الكاذب وتكذيب الصادق» لعله تصديق الصادق وتكذيب الكاذب. ويمكن أنه جعل نفسه كاذباً، والجلاس صادقاً، لأنه مقتضى ظاهر الحلف (ع).

همَّ المنافقون بقتل عامر؛ لردّه على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبيّ، وإن لم يرض رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾: وما أنكروا وما عابوا، ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى، ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾: هي الآية التي تاب عندها الجلاس، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: بالقتل والنار.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ» فراجعه، وقال: والذي بعثك بالحق، لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ـ ﷺ ـ فقيل: كثر ماله/ ٢٩٩ب حتى لا يسعه واد، قال: «يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ» فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٥).
قال الحافظ:
أخرجه أحمد من حديث أبي الطفيل قال: «لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي: لا يأخذن العقبة أحد، فإن رسول الله ﷺ يسير وحده، فكان النبي ﷺ يسير وحذيفة رضي الله عنه يقود به، وعمار ـ رضي الله عنه ـ يسوق به. فأقبل رهط متلثمين على الرواحل حتى غشوا النبي ﷺ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل. فقال النبي ﷺ لحذيفة: قدقد ـ فلحقه عمار فقال: سق سق حتى أناخ. فقال لعمار: هل تعرف القوم فقال: لا، كانوا متلثمين. وقد عرفت علمة الرواحل. فقال: أتدري ما أرادوا برسول الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: أرادوا أن يمكروا برسول الله فطرحوه من العقبة. فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار ـ رضي الله عنه ـ وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس. فقال: أنشدكم الله، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول الله ﷺ. فقال: ترى أنهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فهم خمسة عشر، ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبزار، وقال: روي من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسناداً.
ورواه ابن إسحاق في المغازي، ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به. وعمار ـ رضي الله عنه ـ يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة، وإذا اثنى عشر راكباً قد اعترضوه فيها قال: فانتهت إلى رسول الله ﷺ فصرخ بهم؛ فولوا مدبرين. انتهى.

بثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله - ﷺ - الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي، فلما رجعا، قال لهما رسول الله - ﷺ - قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة، مرّتين؛ فنزلت، فجاءه ثعلبة بالصدقة، فقال: إنّ الله منعني أن أقبل منك، فجعل التراب على رأسه، فقال: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله - ﷺ - فجاء بها إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر - رضي الله عنه - في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان - رضي الله عنه - (٧٠٣) وقرىء: ﴿لَنَصَّدَّقَنْ وَلَنَكُونَنْ﴾: بالنون الخفيفة فيهما، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: قال ابن عباس - رضي الله عنه -: يريد الحج، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: عن الحسن وقتادة - رضي الله عنهما -: أنّ الضمير: للبخل، يعني: فأورثهم البخل، ﴿نِفَاقًا﴾: متمكناً، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه، والظاهر أن الضمير لله - عزّ وجلّ - والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا[1]، وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق، والصلاح، وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق، وقرىء: «يكذِّبون»، بالتشديد، و«ألم تعلموا»، بالتاء عن عليّ - رضي الله عنه -.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

---

٧٠٣ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٢٨٩: ٢٩٢)، وفي «شعب الإيمان»: (٤/ ٧٩ - ٨٠) رقم (٤٣٥٧)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤ - ٣٥).
والواحدي في «تفسيره الوسيط»: (٢/ ٥١٣ - ٥١٤)، والطبري في «تفسيره»: (٦/ ٤٢٥ - ٤٢٦) رقم (١٧٠٠٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٧) وعزاه إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال، وابن منده والباوردي وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - فذكره.
قال البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٠):
وفي إسناد هذا الحديث نظر، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير والله أعلم.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥):
فيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.
وقال ابن حجر العسقلاني في تخريجه لأحاديث الكشاف أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه؛ كلهم من طريق علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمامة. وهذا إسناد ضعيف جدا. فقال السهيلي عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب قمر البدريين. وعن ابن إسحاق أيضاً في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه. فلعلهما اثنان. انتهى.

---

(١) قوله: «والمعنى فخذلهم حتى نافقوا» فسره بذلك على مذهب المعتزلة، من أنه تعالى لا يخلق الشر (ع).

﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾: ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، تسمية الصدقة جزية وتدبير منعها.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾: محله النصب أو الرفع على الذمّ، ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم، وقرىء: «يُلمزون»، بالضم، ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: المتطوّعين المتبرعين، روي أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ حثّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَفِيمَا أَمْسَكْتَ» فبارك الله له، حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً، وتصدّق عاصم بن عديّ بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ بصاع من تمر، فقال: بت ليلتي أجرّ بالجرير(١) على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع، فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاّ رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه/ ٣٠٠أ ليعطي من الصدقات (٧٠٤)؛

---

٧٠٤ ـ أخرجه البزار من طريقين؛ كما في «مجمع الزوائد»: (٧/ ٣٥) عن أبي سلمة وعن أبي هريرة به.
وأخرجه الطبراني عن أبي عقيل؛ كما في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥ ـ ٣٦)، فذكره.
ومن طريق أبي عقيل أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٢) رقم (١٧٠٢٩).
وعبد الرزاق في تفسيره: (٢/ ٢٨٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٤٣١) رقم (١٧٠٢٤)، والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥١٤)؛ كلهم من طريق قتادة به.
وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٠) رقم (١٧٠١٨ ـ ١٧٠١٩) من طريق ابن عباس به، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦٩) عن أبي هريرة، وعزاه إلى البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه.
كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور». (٣/ ٤٧٠) عن أبي عقيل، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبغوي والطبراني في معجمه، وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة؛ كما ذكره السيوطي في «الدر»: (٣/ ٤٧٠) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٥) فيما رواه عن أبي سلمة وعن أبي هريرة:
رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبي هريرة، والأخرى عن أبي سلمة مرسلة، قال: ولم نسمع أحداً أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عبادة، وفيه عمر بن أبي سلمة وثقه =

---

(١) قوله: «بالجرير» وهو حبل البعير. ويروى: أجر بالجرير الماء كذبهان من أجر. (ع)

فنزلت، ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: إلا طاقتهم، قرىء: بالفتح والضم، ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ كقوله: الله يستهزىء بهم في أنه خبر غير دعاء؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله ـ ﷺ ـ وكان رجلاً صالحاً ـ أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل؛ فنزلت، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله قَدْ رَخَّصَ لِي فَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» (٧٠٥)؛ فنزلت، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: وقد

= العجلي وأبو خيثمة وابن حبان، وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات. أ.هـ.

كما قال الهيثمي (٧/٣٦) فيما رواه عن أبي عقيل: رواه الطبراني ورجاله ثقات، إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه ولا جرحه. أ.هـ.

قال الحافظ:

أخرجه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين ـ الآية﴾ قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية. من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر. فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بن عوف بما جاء به إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. ومن طريق عطية العوفي. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى الناس، فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم، وجاء رجل بصاع من تمر. فقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير ـ الحديث. وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، فأربعة آلاف لي، وأربعة آلاف أقرضها ربي فذكره». وقال عبد الرزاق في تفسيره أخبرنا معمر عن قتادة قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله. وكان له ثمانية آلاف دينار. فتصدق بأربعة آلاف دينار. فقال أناس من المنافقين: إن عبد الرحمن لعظيم الرياء. فقال الله عز وجل: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾، وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر. فجاء بأحدهما. فقال أناس من المنافقين: إن كان الله لغنيا عن صاع هذا. فقال الله عز وجل: ﴿إلا جهدهم﴾، وروى البزار من رواية عمر بن أبي مسلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً، فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف درهم؛ ألفان أقرضها ربي وألفان لعيالي ـ الحديث»، وفيه: «وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، أخرجه عن طالوت بن عبادة عن أبي عوانة عنه، وقال: تفرد طالوت بوصله ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة، ومن طريقه ابن مردويه، وفي المغازي بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمائة وسق من تمر فألقاه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل» انتهى، وقصة أبي عقيل أخرجها إبراهيم الحربي والطبراني والطبري من رواية خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال: «بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر ـ الحديث»، وفي إسناده موسى بن عبدة وهو ضعيف، قلت: قصة أبي عقيل أخرجها البخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري باختصار، وفيه: «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك» وفي رواية: بشيء كثير. انتهى.

٧٠٥ ـ قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق، وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ

ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر[1]، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير؛ قال عليّ بن أبي طالب، عليه السلام [من الرجز]:

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِيَ ابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي[2]

= أ.هـ والحديث أخرجه البخاري (٩/ ٢٣٢).

كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، حديث (٤٦٧٠)، ومسلم (٨/ ١٧٦ ـ النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل عمر ـ رضي الله عنه ـ، حديث (٢٥/ ٢٤٠٠)، عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر، فذكره.
قال الحافظ: لم أجده بهذا السياق وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه»، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام يصلي عليه فأخذ عمر ـ رضي الله عنه ـ بثوبه فقال: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه، فقال: إنما خيرني فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم... الآية﴾، وسأزيده على السبعين فصلى عليه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ فتركت الصلاة عليهم. لفظ مسلم. انتهى.

---

(١) قال محمود: «قد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر... إلخ» قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه، كقول كثير عزة «أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة» كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة أو محسنة؟ وكذلك معنى الآية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه؟ وهل يتفاوت الحالان أو لا؟ قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾.

(٢) لأصبحن العاصي ابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي
مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص
آساد محل حين لا مناص

لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في عمرو بن العاص. وصبحه: سقاه الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحاً بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية. ولأصبحن: تخييل. وسبعين ألفاً: مفعول ثان. والمراد به الكثرة. والعاقدين: جمع عاقد، والمراد: نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم. وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والإشاحة في القتال. والحقاب: ما تلفه المرأة على وسطها، ويطلق على ذات وسطها. والحقيبة: خرج صغير خلف الراكب. والحلق ـ بالكسر ـ: جمع حلقة. والدلاص: الدرع الملساء المضيئة، يوصف به الواحد والجمع. فالمعنى: أنهم لابسو الدروع. أو لا شيء في حقائبهم غيرها. والقلاص فتيات الإبل: أي جمعوا بين النوعين، وجعلهم كآساد =

فإن قلت: كيف خفي على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام[1] وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: «قَدْ رَخَّصَ لِي رَبِّي فَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» ح.

قلت: لم يخف عليه ذلك؛ ولكنه خيل بما قال؛ إظهاراً لغاية رحمته، ورأفته على من بعث إليه؛ كقول إبراهيم، عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفي إظهار النبي ـ ﷺ ـ الرأفة والرحمة: لطف لأمّته، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: الذين استأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ من المنافقين، فأذن لهم، وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم، ونفاقهم والشيطان، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودهم عن الغزو، ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: خلفه، يقال: أقام خلاف الحي، بمعنى: بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم؛ وتشهد له قراءة أبي حيوية: خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه؛ حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال، أي: قعدوا لمخالفته أو مخالفين له، ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: تعريض بالمؤمنين، وبتحملهم المشاق العظام، لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم، وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان؟ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: استجهال لهم؛ لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة

= المحل، أي الجدب؛ ليفيد أنهم جياع وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم، وحق اسم «لا» أن يبنى على الفتح، فيجوز أنه كسره للقافية. والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما في الصحاح، أو حين غير مناص، أو بني على الكسر لنية الإضافة. وشبهه بنزال، أو هو مجرور بمن الاستغراقية مقدرة كما مر في «ولات أوان» ويجوز ـ على بعد ـ أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي لا حين ولا وقت مناص، أي تأخر عن الحرب، ويمكن أن «لا» زائدة بين المتضايفين، كما في «بئر لا حور سري» أي حين مناص الفرسان وفرارهم.

ينظر ديوانه ص (١١٥)؛ وبلا نسبة في المقتضب (٢/ ٢٠٠).

(١) عاد كلامه: قال: «فإن قلت كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أفصح من نطق بالضاد. . . إلخ» قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار ولم يصححه، وتغالى قوم في قبوله حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

الأبد، كان أجهل من كل جاهل؛ لبعضهم [من الطويل]:

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَةَ يَوْمٍ أَرْيُهَا شِبْهُ الصَّابِ
فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَىٰ مَسَرَّةَ سَاعَةٍ وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ[1]

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

معناه: فسيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً، ﴿جَزَآءَۢ﴾/ ٣٠٠ب: إلا أنه أخرج على لفظ الأمر؛ للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره، يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم؛ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك، و﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين، ﴿مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾: قد مرّ تفسيره؛ قرأ مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: مع الخلفين، على قصر الخالفين؛

فإن قلت: (مرة) نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها، وهو دال على واحدة من المرات؟

قلت: أكثر اللغتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهنّ، ثم إنّ قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة، وآخر مرة، وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) للزمخشري. و«الأحقاب» الأزمان الكثيرة المتتابعة، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر. و«الأري» العسل. و«الشبه» المثل. و«الصاب» نبت مر الطعم. وقيل: هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساءة يوم واحد، حالها الشبيه بالعسل هو في الحقيقة شبيه بالحنظل، فكيف الحال بعكس ذلك؟
ينظر التفسير الكبير ١٦/١٤٩، ١٥٠، والبحر المحيط ٥/٧٩، والدر المصون ٣/٤٨٨.

روي أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقوم على قبور المنافقين، ويدعو لهم، فلما مرض ـ رأس النفاق ـ عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه، قال: أهلكك حب اليهود، فقال: يا رسول الله، بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني[1] (٧٠٦)، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده، ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته، فسأله عن اسمه، فقال: أنت عبد الله بن عبد الله، الحباب اسم شيطان (٧٠٧)، فلما همّ بالصلاة عليه، قال له عمر: أتصلي على عدوّ الله؛ فنزلت (٧٠٨) وقيل: أراد أن يصلي عليه فجذبه جبريل (٧٠٩).

---

٧٠٦ ـ أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد به.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
وزاد البيهقي في رواية أخرى عن الواقدي (٥/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦) ثم قال: يا رسول الله، ليس هذا بحين عتاب هو الموت فإذا مت فاحضر غسلي... الحديث».

٧٠٧ ـ قوله ﷺ «الحباب اسم شيطان» أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٤) رقم (١٧٠٣٩)، و(٦/ ٤٣٥) رقم (١٧٠٤٤)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٨، ٤٠٩) رقم (٢٢٦).

٧٠٨ ـ قول عمر: ﴿أتصلي على عدو الله﴾ فقد تقدم تخريجه قبل ذلك بحديثين.
قال الحافظ: لم أجده هكذا، فأما أوله وهو: «كان يقوم... إلى آخره». وأما قصة عبد الله: ففي الجائز من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي ليعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود، فقال: قد أبغضتهم. فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه، فنزع ـ عليه الصلاة والسلام ـ قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله: «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخني»، فزاده الطبراني من طريق معمر عن قتادة قال: «أرسل عبد الله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله، أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني، وسأله قميصه أن يكفن فيه، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل فقال: «ليس هذا بحين عتاب. هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال: وصل علي واستغفر لي»، وفي رواية له فقال له ابنه ـ وكان يقال له: الحباب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله يا رسول الله: أعطه قميصك الذي يلي جلدك» وأما قوله: «الحباب اسم شيطان» فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال: «لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه فقال: إن أبي احتضر، وأحب أن تشهده وتصلي عليه، فقال له النبي ﷺ: ما اسمك؟ قال: الحباب بن عبد الله قال: بلى، أنت عبد الله، إن الحباب اسم شيطان، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه، وأما قول عمر فقد قدمنا أنه في الصحيحين. انتهى.

٧٠٩ ـ حديث جبريل أخرجه أبو يَعلى الموصلي في مسنده (٧/ ١٤٤ ـ ١٤٥) رقم (٤١١٢). والطبري في تفسيره (٦/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠) رقم (١٧٠٦٨) من طريق يزيد الرقاشي عن أنس به، وذكره الهيثمي في =

---

(١) قوله: «لا لتؤنبني» أي تعنفني باللوم.

فإن قلت: كيف جازت له تكرمة المنافق، وتكفينه في قميصه؟

قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له؛ وذلك أن العباس ـ رضي الله عنه ـ عم رسول الله ـ ﷺ ـ لما أخذ أَسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً، وكان رجلاً طوالاً[1]، فكساه عبد الله قميصه (٧١٠) وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد[2] ولكنا نأذن لك، فقال: لا، إن لي في رسول الله أسوة حسنة (٧١١) فشكر رسول الله ـ ﷺ ـ له ذلك، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة، ويعمل بعادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره، لا يشمت به الأعداء (٧١٢)، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون/ ٣٠١أ إلباسه إياه لطفاً لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه

= مجمع الزوائد (٣/ ٤٥): وقال: رواه أبو يَعلى، وفيه يزيد الرقاشي وفيه كلام وقد وثق.
قال الحافظ: أخرجه أبو يَعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس «أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبيّ، فأخذ جبريل بثوبه. وقال: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» ويزيد ضعيف. انتهى.

٧١٠ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٢٥١): كتاب الجهاد والسير: باب الكسوة للأسارى، حديث (٣٠٠٨)، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٣١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وهو وهم منه ـ رحمه الله.
قال الحافظ:
أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً «لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ قميصاً. فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه. قال ابن عتبة كانت له عند النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه. ورواه الحاكم في المستدرك من حديث جابر، وأدرج فيه الكلام الأخير. انتهى.

٧١١ ـ أخرجه الواقدي في المغازي؛ كما في «تخريج الكشاف» للحافظ ابن حجر.
قال الحافظ: أخرجه الواقدي في المغازي: حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان «قال: «كانت قريش يوم الحديبية أرسلت إلىَ عبد الله بن أبي: إن أحببت أن تدخل فتطوف فافعل. وابنه جالس عنده. فقال له ابنه: يا أبت اذكر الله أن تطوف بالبيت قبل رسول الله ﷺ فأبى ابن أبي، وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ كلامه فسر. انتهى.

٧١٢ ـ قال ابن حجر: لم أجده وأصل سؤال ابنه في الصحيح كما تقدم. انتهى.

---

(١) قوله: «وكان رجلاً طوالاً» في الصحاح: الطوال ـ بالضم: الطويل (ع).
(٢) قوله: «إنا لا نأذن لمحمد» أي في دخوله مكة (ع).

بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إِنَّ قَمِيصِي لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً، وَإِنِّي أُؤَمِلُ فِي اللهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي الإِسْلاَمِ كَثِيرٌ بِهٰذَا السَّبَبِ» (٧١٣).. فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله ـ ﷺ ـ (٧١٤) وكذلك ترحمه، واستغفاره، كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتماً عليه.

فإن قلت: فكيف جازت الصلاة عليه؟

قلت: لم يتقدم نهي عن الصلاة عليهم، وكانوا يجرون مجرى المسلمين؛ لظاهر إيمانهم، لما في ذلك من المصلحة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ما أدري ما هذه الصلاة، إلا أني أعلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يخادع (٧١٥) ﴿مَّاتَ﴾: صفة لأحد؛ وإنما قيل: مات، وماتوا بلفظ الماضي ـ والمعنى على الاستقبال ـ على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة، ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾: تعليل للنهي، وقد أعيد قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾؛ لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه، ويتخلص إليه؛ وإنما أعيد هذا المعنى؛ لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ

---

٧١٣ ـ قال ابن حجر: لم أره هكذا. اهـ. وأصله ما أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة (٦/ ٤٤٠) رقم (١٧٠٧٣) قال: ذكر لنا النبي ﷺ كله في ذلك. فقال: «وما يغني عنه قميصي من الله، وإني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه».

قال الحافظ:

لم أره هكذا، وأصله أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبي ﷺ كله في ذلك. فقال: وما يغني عنه قميصي من الله، وإني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه». انتهى.

٧١٤ ـ قال ابن حجر:

لم أره هكذا إلا في مرسل قتادة الذي قبله. انتهى.

٧١٥ ـ أخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث سنيد بن داود كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٩٣).

قال الحافظ:

أخرجه سعيد بن داود في تفسيره من طريقه. قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال «لما مرض عبد الله بن أبي مرضه الذي مات فيه قال للنبي ﷺ امنن علي فكفني في قميصك وصل علي قال: فكفنه في قميصه وصلى عليه. قال ابن عباس: والله ما أدري ما هذه الصلاة كانت: فالله أعلم، وما خادع محمداً إنسان قط». انتهى.

ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ (٨٦) رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٨٩)﴾

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل هي براءة؛ لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾: هي أن المفسرة، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾: ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾: مع الذين لهم علة وعذر في التخلف، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والهلاك، ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهد[1] إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً؛ كقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨]. ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾: تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور؛ لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾: من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ، وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل؛ ولا عذر له، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز في العربية كسر العين؛ لالتقاء الساكنين، وضمها لإتباع الميم، ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل؛ كقوله: يعتذرون إليكم/ ٣٠١ب إذا رجعتم إليهم، وقرىء: «المعذرون»، بالتخفيف، وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه، قيل: هم أسد، وغطفان، قالوا: إن لنا عيالاً، وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا، فقال ـ ﷺ ـ: «سَيُغْنِينِي اللهُ عَنْكُمْ» ح وعن مجاهد: نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرىء: «المعَّذّرون» بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى: اعتذر، وهذا غير صحيح؛ لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد، في المطوّعين، وأزكى وأصدق، وقيل: أريد المتعذرون بالصحة، وبه

(١) قوله: «فقد نهد» أي نهض، كما في الصحاح (ع).

فسر المعذرون والمعذرون، على قراءة ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: الذين لم يفرطوا في العذر، ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: هم منافقو الأعراب الذين لم يجيؤوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبيّ: «كذّبوا»، بالتشديد، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب، ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾: الهرمي والزمني، والذين لا يجدون: الفقراء، وقيل: هم مزينة، وجهينة، وبنو عذرة، والنصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما؛ والحب والبغض فيهما، كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه، ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: على المعذورين الناصحين، ومعنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم، ولا طريق للعاتب عليهم، ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ﴾: حال من الكاف في: (أتوك)، وقد قبله مضمرة؛ كما قيل في قوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد، ﴿تَوَلَّواْ﴾: ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها، وقيل: «المستحملون»: أبو موسى الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤون، وهم ستة نفر من الأنصار، ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض، و«من»: للبيان؛ كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز، ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾: لئلا يجدوا، ومحله نصب على أنه مفعول له، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فإن قلت: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟

قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة، والضعة، والانتظام في جملة الخوالف، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فإن قلت: فهل يجوز/ ٣٠٢أ أن يكون قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ﴾ آستئنافاً مثله، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا، فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: قلت: لا أجد ما أحملكم عليه، إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض، ﴿قُلْتَ﴾: نعم ويحسن، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾: علة للنهي عن الاعتذار؛ لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال[1]، وقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: علة لانتفاء تصديقهم؛ لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾: أتنيبون أم تثبتون على كفركم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾: إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾: فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾: فأعطوهم طلبتهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾: تعليل لترك معاتبتهم، يعني: أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم؛ إنما يعاتب الأديب ذو البشرة، والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء: فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني: وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾: أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم، ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها، وقيل: إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً منافقين فقال النبي ـ ﷺ ـ حين قدم المدينة: «لاَ تُجَالِسُوهُمْ وَلاَ

---

(١) قوله: «وجب عليه الإخلال» أي الترك. يقال: أخل الرجل بمركزه، إذا تركه (ع).

تَكَلَّمُوهُمْ» وقيل: جاء عبد الله بن أبيّ يحلف ألاّ يتخلف عنه أبداً.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾: أهل البدو، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: من أهل الحضر؛ لجفائهم، وقسوتهم، وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾، وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «إِنَّ الجَفَاءَ وَالقَسْوَةَ فِي الفَدَّادِينَ»[1] (٧١٦) ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر، ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما يصيب به مسيئهم، ومحسنهم، ومخطئهم، ومصيبهم من عقابه وثوابه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿مَغْرَمًا﴾: غرامة وخسراناً، والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله ـ عزّ وجلّ ـ وابتغاء المثوبة عنده، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾: دوائر الزمان. دوله وعقبه[2]، لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة،

---

٧١٦ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٤٣٤): كتاب المغازي: باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، حديث (٤٣٨٧)، ومسلم (١/ ٣٠٥ ـ النووي): كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، حديث (٨١/ ٥١).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري في أثناء حديث فيه «وإن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل» كذا للبخاري ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب». انتهى.

---

(١) قوله: «والقسوة في الفدادين» الفدادين: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم. ورجل فداد: شديد الفديد، وهو الصوت: أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال أحمد: «دوائر الزمان: دوله، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه... إلخ» قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء لحال المدعو عليهم ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذي دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر لا على الإطلاق، والله الموفق.

/ ٣٠٢ب﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به؛ كقوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقرىء: «السُّوء» بالضم، وهو العذاب، كما قيل له سيئة، «والسَّوء» بالفتح، وهو ذمّ للدائرة؛ كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأنَّ من دارت عليه ذامّ لها، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة، ﴿عَلِيمٌ﴾: بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد، وغطفان، وتميم، ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: مفعول ثان ليتخذ، والمعنى: أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ كقوله: «اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ» (٧١٧) وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات، ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾: شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه؛ وكذلك: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾، وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان[1] إذا خلصت النية من صاحبها، وقرىء: (قربة): بضم الراء، وقيل: هم عبد الله، وذو البجادين، ورهطه.

---

٧١٧ ـ أخرجه البخاري (٤/ ٤٢٣) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة حديث (١٤٩٧) ومسلم (٢/ ٥٦) كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقته حديث (١٧٦/ ١٠٧٨) وأبو داود (١/ ٤٩٩) كتاب الزكاة: باب دعاء المصدق لأهل الصدقة حديث (١٥٩٠) والنَّسائي (٥/ ٣١) كتاب الزكاة: باب صلاة الإمام على صاحب الصدقة رقم (٢٤٥٩) وابن ماجه (١/ ٥٧٢) كتاب الزكاة باب ما يقال عند إخراج الزكاة حديث (١٧٩٦) وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨١، ٣٨٢) والطيالسي (١/ ١٧٦ ـ منحة) رقم (٨٣٣) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/ ١٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٣٥) وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٣٦١) والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٠) رقم (١١) والبيهقي (٤/ ١٥٧) كتاب الزكاة والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٣١٤ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صل عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل عليه فأتى أبو أوفى بصدقة. فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى» انتهى.

---

(١) قال محمود: «ما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من الله بمكان... إلخ» قال أحمد: وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وأنه مخلد في النار وإن كان موحداً، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً. فاحذره، والله أعلم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا بدراً، وعن الشعبي: من بايع بالحديبية، وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين، ﴿وَ﴾ من ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن، وقرأ عمر ـ رضي الله عنه ـ: «والأنصارُ» بالرفع عطفاً على السابقون (٧١٨)، وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبيّ، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة، (وآخرين منهم): وأوسط الحشر، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وآخر الأنفال، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وروي أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك؟ قال: أبيّ، فدعاه فقال: أقرأنيه رسول الله ـ ﷺ ـ وإنك لتبيع القرظ بالبقيع، قال: صدقت، وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وآوينا وطردتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا (٧١٩)، وارتفع السابقون بالابتداء، وخبره: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ

---

٧١٨ ـ قال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
لم أره هكذا. انتهى.

٧١٩ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٩٦):
رواه الطبري بنقص يسير من طريقين. أ.هـ وقال ابن حجر:
لم أره هكذا. أ.هـ.
والحديث أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٥) رقم (١٧١٣١) من طريق أبي أحمد عن أبي معشر عن محمد بن كعب فذكره. و(٦/ ٤٥٥) رقم (١٧١٣٢) من طريق الحسن بن عطية عن أبي معشر عن محمد بن كعب فذكره. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٨٣) وعزاه إلى أبي الشيخ.
وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث حبيب بن الشهيد عن عمرو بن عامر عن عمر بن الخطاب نحوه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٩٦).
قال الحافظ: لم أره هكذا، وفي الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال: «مر عمر ابن الخطاب برجل يقرأ: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار»، فأخذ عمر بيده. وقال: من أقراك هذا؟ قال: أبي بن كعب فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاء عمر: قال أنت أقرأت هذا هذه الآية؟ قال: نعم، وسمعتها من رسول الله ﷺ قال: لقد كنت أرى أنا رقعنا رقعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق ذلك في أول سورة الجمعة وفي سورة الحشر وفي الأنفال، فذكرها. وروى ابن مردويه من طريق حبيب بن الشهيد عن عمرو بن عامر عن عمر بن الخطاب: «فذكر نحوه وفيه: فقال أبي: لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وأنت تبيع الحبط، فقال عمر: نعم إذن. انتهى.

عَنْهُمْ﴾، ومعناه: رضي عنهم لأعمالهم، ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية/ ٣٠٣أ، وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف: تحتها، بغير «من».

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يعني: حول بلدتكم وهي المدينة، ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: وهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، كانوا نازلين حولها، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدّرت: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أنّ ﴿مَرَدُواْ﴾: صفة موصوف محذوف؛ كقوله [من الوافر]:

أَنَـــا ٱبْـــنُ جَـــلاَ.......... ....

وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ، أو صفة لـ «منافقون»، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره، ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: تمهروا فيه، من مرن فلان عمله، ومرد عليه: إذا درب به وضري، حتى لان عليه ومهر فيه، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أي يخفون عليك مع فطنتك[1]، وشهامتك، وصدق

---

(١) أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا متى أضع الـعـمـامـة تـعـرفـونـي
ومـاذا تـبـتـغـي الـشـعـراء مـنـي وقـد جـاوزت حـد الأربـعـيـن؟
لسحيم بن وثيل الرياحي، كان عبداً حبشيا، فاتهم ببنت مولاه. فقتله. وقيل للمثقب العبدي، ونسب البيت الأول للعرجي. وجلا: صفة لمحذوف، أي ابن رجل جلاً واتضح أمره بالشجاعة، فالفعل لازم. أو جلاغمة الحرب وكشف همها، فهو متعد، وحذف المنعوت هنا ضرورة، لأنه لا يطرد إلا إذا صلح النعت لمباشرة العامل، أو كان المنعوت بعض اسم مجرور بمن، أو في كما مر، وإضافة «طلاع» لما بعده لفظية، فلا تفيده تعريفاً. وتوسيط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت. والثنايا: العقبات الصعبة. استعارها لعظائم الأمور على سبيل التصريح، والطلوع ترشيح «متى أضع» بيضة الحرب على رأسي «تعرفوني» كناية عن نزول الحرب فتثبت شجاعته. وروي «تدري» بدل «تبتغي» وهو افتعال من الدراية، أي: ماذا تستعلم الشعراء مني، والحال أني جاوزت حد الأربعين سنة، وكسر نون الجمع لغة. ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يعربه كالحين.
ينظر الكتاب (٣/ ٢٠٧)، مجالس ثعلب (١/ ١٧٦)، الأصمعيات (١/ ٢٨٣)، شرح المفصل لابن يعيش (١/ ٦١)، المغني (١/ ١٦٠)، الهمع (١/ ٣٠)، الأشموني (٣/ ٢٦٠)، التصريح (٢/ ٢٢١)، الدر المصون (٣/ ٤٩٨).

(٢) قال محمود: «معناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك... إلخ» قال أحمد: وكأن قوله تعالى ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام =

فراستك، لفرط تنوّقهم[1] في تحامي ما يشككك في أمرهم، ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين، لا تشك معه في إيمانهم؛ وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به، فلهم فيه اليد الطولى، ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قيل: هما: القتل، وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة، وعذاب القبر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين، فقال: قام رسول الله ـ ﷺ[2] ـ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اُخْرُجْ يَا فُلَانُ؛ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ، اُخْرُجْ يَا فُلَانُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ» (٧٢٠) فأخرج ناساً وفضحهم؛ فهذا العذاب الأوّل، والثاني عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم، ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: إلى عذاب النار.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين، وكانوا ثلاثة، أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام[3]، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا

---

٧٢٠ ـ أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢) رقم (٧٩٦).
وذكره الهيثمي في الزوائد (٧/ ٣٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقري وهو ضعيف».
وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٧) رقم (١٧١٣٧) وابن مردويه والثعلبي في تفسيريهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٩٧).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٨٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فذكره.
قال الحافظ: أخرجه الطبري وابن مردويه والطبراني في الأوسط من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله: «وفضحهم»، وزاد: «لم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر فاختبأ منهم، ثم دخل المسجد فقال له رجل: يا عمر أبشر، فقد فضح الله المنافقين اليوم. فهذا العذاب الأول، والعذاب الثاني عذاب القبر». انتهى.

= لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به والله أعلم.

(١) قوله: «لفرط تنوقهم» أي تأنفهم. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «فقال قام رسول الله ﷺ» أن القائل هو ابن عباس (ع).

(٣) قوله: «روي أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام» لم أجده.

أنفسهم: بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ـ ﷺ ـ فدخل المسجد فصلى ركعتين ـ وكانت عادته ـ ﷺ ـ كلما قدم من سفر ـ فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا ألاَّ يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ـ ﷺ ـ هو الذي يحلهم، فقال: وأنا أقسم ألاَّ أحلهم حتى أُومر فيهم؛ فنزلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلفتنا/ ٣٠٣ب عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً»؛ فنزلت: خذ من أموالهم (٧٢١) ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: خروجاً إلى الجهاد، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: تخلفا عنه، عن الحسن وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قلت: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به(١)؟

قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأنّ المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر؛ كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطاً، واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما؛ كأنك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً، بمعنى: شاة بدرهم.

---

٧٢١ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة (٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) من طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فذكره.
وأخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف؛ والزيلعي (٢/ ٩٨).
قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم ـ الآية﴾ كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ـ الحديث». انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به... إلخ» قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء المخلوط واللبن مخلوط به، والمدلول عليه لزوماً لا تصريحاً كون الماء مخلوطاً به واللبن مخلوطاً، وإذا قلت: خلطت الماء واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً. وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به. ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره، فقول الزمخشري: «إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيده مع الباء وزيادة» ليس كذلك، فالظاهر في الآية ـ والله أعلم ـ أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل: عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معاً به، والله أعلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، وما ذكرت توبتهم؟

قلت: إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فقد ذكرت توبتهم.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾: صفة لصدقة، وقرىء: تطهرهم، من أطهره بمعنى طهره، وتطهرهم، بالجزم جواباً للأمر، ولم يقرأ: (وتزكيهم)، إلا بإثبات الياء، والتاء في (تطهرهم) للخطاب أو لغيبة المؤنث، والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال، ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة[1] إذا أخذها، وعن الشافعي ـ رحمه الله ـ: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت، وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت، وقرىء: «إنّ صلاتك»، على التوحيد[2]، ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾: يسكنون إليه وتطمئنّ قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بما في ضمائرهم، والغم من الندم لما فرط منهم.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

قرىء: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾: بالياء والتاء، وفيه وجهان.

أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾: إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين.

وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إنما الله سبحانه، والذي يقبل التوبة ويردّها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾

---

(١) قوله: «يدعو المصدق لصاحب الصدقة» المصدق اسم فاعل: الذي يأخذ الصدقات، أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وقرئ إن صلاتك على التوحيد» بدل قراءة صلواتك على الجمع (ع).

﴿وَقُلِ﴾: لهؤلاء التائبين، ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾؛ فإن عملكم لا يخفى ـ خيراً كان أو شراً ـ على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم.

والثاني: أن يراد غير التائبين؛ ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم، قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا/ ٣٠٤أ، لا يكلمون، ولا يجالسون، فما لهم فنزلت.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؟

قلت: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل (٧٢٢)، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾: وعيد لهم، وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾

قرىء: «مرجون، ومرجؤون» من أرجيته، وأرجأته: إذا أخرته، ومنه المرجئة، يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ﴾: إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾: إن تابوا، وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن

---

٧٢٢ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١١٤) رقم (٨٥٧١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٨٧)، من طريق سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن قتادة المازني عن عبد الله بن مسعود به.

وله شاهد من حديث فضالة بن عبيد:

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٨١) من طريق ثور عن وهب بن منبه عن كعب عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه فذكره.

وله شاهد أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمين، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل؛ كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله».

أخرجه البخاري (٣/ ٢٤): كتاب الزكاة: باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب؛ لقوله تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾، حديث (١٤١٠) وطرفه في (٧٤٣٠)، ومسلم (٤/ ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ النووي) كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة عن الكسب الطيب وتربيتها، حديث (٦٣/ ١٠١٤)، والترمذي (٣/ ٤٠): كتاب الزكاة: باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث (٦٦١)، والنسائي (٥/ ٥٧): كتاب الزكاة: باب الصدقة من غلول، وابن ماجه (١/ ٥٩٠): كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة، حديث (١٨٤٢). من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد الله بن قتادة المحاربي عنه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه. . . الحديث. انتهى.

الربيع: أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السواري، وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم، فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأخلصوا نياتهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله (٧٢٣). ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: وفي قراءة عبد الله: «غفور رحيم»، وإمّا للعباد، أي: خافوا عليهم[1] العذاب، وأرجوا لهم الرحمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام: «الذين اتخذوا» بغير واو؛ لأنها قصة على حيالها، وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم، روي أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتيهم، فأتاهم، فصلى فيه، فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام؛ ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سماه رسول الله ـ ﷺ ـ الفاسق، وقال لرسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد: «لا أَجِدُ قَوْماً يُقَاتِلُونَكَ إلاَّ قَاتَلْتُكَ مَعَهُمْ». فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن، خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين، أن استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر، وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ـ ﷺ ـ: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن يصلى لنا فيه، وتدعو لنا بالبركة، فقال ـ ﷺ ـ: «إنِّي عَلَىٰ جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغُلٍ، وَإِذَا قَدِمْنَا إنْ شَاءَ اللهُ ـ صَلَّيْنَا فِيهِ»، فلما قفل من غزوة تبوك، سألوه إتيان المسجد؛ فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشي قاتل حمزة، فقال لهم: «انْطَلِقُوا

---

٧٢٣ ـ قال ابن حجر:

لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك. أ.هـ

والحديث تقدّم تخريجه.

---

(١) قوله: «وإما للعباد أي خافوا عليهم» عبارة النسفي: وإما للشك وهو راجع إلى العباد (ع).

إِلَىٰ هَٰذَا المَسْجِدِ الظَّالِمِ/ ٣٠٤ب أَهْلُهُ فَٱهْدِمُوهُ وَٱحْرِقُوهُ» ح ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين (٧٢٤)، ﴿ضِرَارًا﴾: مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة، ﴿وَكُفْرًا﴾: وتقوية للنفاق، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص[1] بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم، ﴿وَإِرْصَادًا﴾: وإعداداً، (لـ) أجل، ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ

----

٧٢٤ ـ قال ابن حجر: لم أجده بهذا السياق، إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح؛ فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبُنِي مسجد الضرار، وكان في غزوة تبوك، فبينهما تسع سنين. أ.هـ.

أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٤٦٩) رقم (١٧٢٠٠) مرسلاً من طريق ابن إسحاق من رواية الزهري ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠) من طريق ابن إسحاق، وقال: وذكر محمد بن إسحاق في الأوراق التي لم أجد سماعاً فيها من كتاب المغازي عن ثقةٍ من بني عمرو بن عوف.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٤٩٥) من طريق أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري ـ رضي الله عنه ـ، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن مردويه.

وأخرجه ابن هشام في سيرته (٤/ ٢٠٢) رقم (١٨٩١) من طريق ابن إسحاق به.

وذكره الثعلبي بلفظ المصنف بتمامه من غير سند ولا راو، وذكره الواحدي في أسباب النزول وعزاه للمفسرين؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٠١).

كما عزاه الزيلعي لابن مردويه في تفسيره.

وانظر: تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٠١ ـ ١٠٢).

قال الحافظ: قوله «وإما للعباد أي خافوا عليهم

لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر وبُني مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال فيهم عرج جد عبد الله بن حنيف ووديعة بن حزام ومشجع بن حارثة فبنوا مسجداً ـ الحديث من قوله «فبنوا مسجداً إلى مسجد قباء إلى آخره» ذكره ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه عن الزهري ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك ـ الحديث» ولم يذكر في الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن الدخشم ومعن بن عدي لم يذكر وحشيا قاتل حمزة وعامر ابن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال: ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري فذكر نحوه.

وأما كونهم بنوه بسبب أبي عامر فرواه ابن مردويه من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه.

---

(١) قوله: «فيغتص» أي يمتلئ اهـ (ع).

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: وهو الراهب: أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ـ ﷺ ـ وقيل: كل مسجد بني مباهاة، أو رياء، وسمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه؛ فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار، أو رياء، أو سمعة، فإنّ أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً، وعن عطاء: لما فتح الله ـ تعالى ـ الأمصار على يد عمر ـ رضي الله عنه ـ أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وألاّ يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه.

فإن قلت: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، ما محله من الإعراب؟

قلت: محله: النصب على الاختصاص؛ كقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨].

فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؟

قلت: باتخذوا، أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾: ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إِلَّا﴾: الخصلة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أو: الإرادة الحسنى، وهي: الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المصلين، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: هو مسجد قباء، أسسه رسول الله ـ ﷺ ـ وصلى فيه أيام مقامه بقباء، وهي: يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وخرج يوم الجمعة، وهو أولى؛ لأنّ الموازنة بين مسجدي قباء أوقع، وقيل: هو مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن المسجد الذي أسس على التقوى؟ فأخذ حصباء فضرب بها الأرض، وقال: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هٰذَا مَسْجِدُ المَدِينَةِ» (٧٢٥). ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: من أول يوم من أيام وجوده، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قيل: لما نزلت، مشى رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه المهاجرون، حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: «أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ؟» فَسَكَتَ القَوْمُ، ثُمَّ أَعَادَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ ـ ﷺ ـ: أَتَرْضُونَ بِالقَضَاءِ/ ٣٠٥أ؟» قَالُوا نَعَمْ، قَالَ: أَتَصْبِرُونَ عَلَى البَلَاءِ؟

---

٧٢٥ ـ أخرجه مسلم (٥/ ١٨١ ـ النووي): كتاب الحج: باب لا تشد الرحال إلا في ثلاثة مساجد، حديث (٥١٤/ ١٣٩٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٩) من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه به.
وبنحو معناه مختصراً أخرجه النسائي (٢/ ٣٦) كتاب المساجد: باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى من طريق ابن أبي سعيد الخدري عن أبيه فذكره.
قال الحافظ: رواه مسلم بلفظه. انتهى.

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَشْكُرُونَ فِي الرَّخَاءِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ـ ﷺ ـ: مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، فَجَلَسَ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَدْ أَثْنَىٰ عَلَيْكُمْ فَمَا الَّذِي تَصْنَعُونَ عِنْدَ الْوُضُوءِ وَعِنْدَ الغَائِطِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُتْبِعُ الغَائِطَ الأَحْجَارَ الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ نُتْبِعُ الأَحْجَارَ المَاءَ، فَتَلاَ النَّبِيُّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ (٧٢٦) وقرىء: «أن يَطَّهروا»، بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة، ويتبعون الماء أثر البول، وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم، فحموا عن آخرهم.

فإن قلت: ما معنى المحبتين؟

قلت: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه، ويحرصون عليه، حرص المحب للشيء المشتهى له على إيثاره، ومحبة الله ـ تعالى ـ إياهم: أنه يرضى عنهم، ويحسن إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قرىء: «أَسس بنيانه»، «وأُسس بنيانه»، على البناء للفاعل والمفعول، «وأُسس بنيانه»، جمع أساس، على الإضافة، «وأساس بنيانه»، بالفتح والكسر: جمع أس، «وآساس بنيانه» على أفعال، جمع أس ـ أيضاً ـ وأس بنيانه، والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه[1] على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾: أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد، وأرخاها، وأقلها بقاء، وهو الباطل، والنفاق الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى.

---

٧٢٦ ـ قال ابن حجر: وكأنه ملفق من حديثين.

ذكر المخرج أولهما من الطبراني في الأوسط قال: حدثنا الهيثم بن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «دخل رسول الله ﷺ على عمر ومعه أناس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ثلاث مرات، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله، نؤمن بما أتيتنا به ونحمد الله في الرخاء، ونصبر في البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» انتهى، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين ما لا يخفى، وأما الثاني، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس بنحوه. أ.هـ.

والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠/ ١٩٤) حديث (٩٤٢٣).

---

(١) قوله: «فمن أسس بنيان دينه» هذا كما في الحديث «بني الإسلام على خمس» (ع).

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾؟

قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل، قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ «الانهيار» الذي هو للجرف؛ وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها؛ والشفا: الحرف والشفير، وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً، «والهار»: الهائر، وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط، ووزنه: فعل، قصر عن فاعل، كخلف من خالف، ونظيره: شاك وصات، في شائك وصائت، وألفه ليست بألف فاعل؛ إنما هي عينه، وأصله هور، وشوك، وصوت، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدلّ على حقيقة الباطل؛ وكنه أمره، وقرىء: «جرْف»، بسكون الراء.

فإن قلت: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر: «على تقوىً من الله»، بالتنوين؟

قلت: قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث، كتترى فيمن نوّن، ألحقها بجعفر، وفي مصحف أبيّ: «فانهارت به قواعده»، وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار/ ٣٠٥ب فرؤي الدخان يخرج منه، وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم في مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليّ، فوالله، لقد صليت بهم، والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فعذره، وصدّقه، وأمره بالصلاة بقومه.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿رِيبَةً﴾: شكًا في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين؛ وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ فلما هدمه رسول الله ـ ﷺ ـ ازدادوا ـ لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم ـ تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام، فمعنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾: لا يزال هدمه سبب شكّ، ونفاق زائد على شكهم، ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحلّ أثره، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: قطعاً وتفرّق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه، وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع[1]؛ تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز

(١) قوله: «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة (تقطع) بالتشديد، مبنيا للمفعول (ع).

أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار.

وقرىء: يقطع»، بالياء، «وتقطع»، بالتخفيف، «وتَقطع»، بفتح التاء، بمعنى: تتقطع، وتقطع قلوبهم، على أن الخطاب للرسول، أي: إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم، وقرأ الحسن: «إلى أن»، وفي قراءة عبد الله: «ولو قطعت قلوبهم»، وعن طلحة: «ولو قطعت قلوبهم» على خطاب الرسول أو كل مخاطب، وقيل: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى[(١)]، وروي: تاجرهم فأغلى لهم الثمن، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ فجعل لهم الصفقتين جميعاً، وعن الحسن: أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها، وروي أن الأنصار حين بايعوه على العقبة، قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل (٧٢٧)، ومرّ برسول الله ـ ﷺ ـ أعرابيّ وهو يقرؤها فقال: كلام من؟ قال: كلام الله، قال: بيع والله مربح، لا نقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد (٧٢٨)، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: فيه معنى

---

٧٢٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٤٨٢) رقم (١٧٢٨٤).
والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥٢٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٠١).
قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي، وغيره قال: «لما بايعت الأنصار ليلة العقبة فذكره. انتهى.

٧٢٨ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٠٥): ذكره الثعلبي عن الحسن، قال: مر أعرابي بالنبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...﴾ إلى آخرها فقال: كلام من هذا؟ قال: «كلام الله»، قال: بيع والله مربح... إلى آخره، وسنده إلى الحسن في أول كتابه.
قال الحافظ: ذكره الثعلبي هكذا بلا سند عن البصري مرسلاً، لكن سنده إلى الحسن البصري أول =

---

(١) قوله: «في سبيله بالشروى» كالجدوى. في الصحاح والوشاح هي المثل. والظن أنها هنا اسم للاشتراء.

الأمر؛ كقوله: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١١]/ ٣٠٦أ وقرىء: «فيقتلون ويقتلون» على بناء الأوّل للفاعل، والثاني للمفعول، وعلى العكس، ﴿وَعۡدًا﴾: مصدر مؤكد، أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾، كما أثبته في القرآن، ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ؟

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: رفع على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين؛ ويدل عليه قراءة عبد الله وأبيّ ـ رضي الله عنهما ـ: «التائبين»، بالياء إلى: «والحافظين»، نصباً على المدح، ويجوز أن يكون جرًّا صفة للمؤمنين، وجوّز الزجاج أن يكون مبتدأ، خبره محذوف، أي التائبون العابدون من أهل الجنة ـ أيضاً ـ وإن لم يجاهدوا كقوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [النساء: ٩٥] وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره العابدون، وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن: هم الذين تابوا من الشرك، وتبرؤوا من النفاق؛ و﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: الذين عبدوا الله وحده، وأخصلوا له العبادة، وحرصوا عليها، و﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

= كتابه. قلت: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر: «نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد: ﴿إن الله اشترى﴾، فكبر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار. فقال: أنزلت هذه الآية؟ فقال: نعم. فقال بيع رابح. لا نقيل ولا نستقيل»، وأخرجه عبد بن حميد: حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة: «لما نزلت هذه الآية: ﴿إن الله اشترى...﴾ قال رجل من الأنصار: يا لها بيعة، ما أربحها. والله لا نقيل ولا نستقيل»، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: «اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل». انتهى.

قيل: قال ـ ﷺ ـ لعمه أبي طالب: «أَنْتَ أَعْظَمُ النَّاسِ عَلَيَّ حَقًّا، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي يَدَاً، فَقُلْ كَلِمَةً تَجِبُ لَكَ بِهَا شَفَاعَتِي، فَأَبَىٰ، فَقَالَ: لاَ أَزَالُ أَسْتَغْفِرُ لَكَ مَا لَمْ أُنهَ عَنْهُ (٧٢٩) فنزلت.

وقيل: لما افتتح مكة، سأل أي أبويه أحدث به عهداً؟ فقيل: أمك آمنة، فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي؛ فنزلت، وهذا أصح؛ لأنّ موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة، وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا، وذوي قرابتنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾: ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ لأنهم ماتوا على الشرك.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قرأ طلحة: «ما استغفر إبراهيم لأبيه»، وعنه: «وما يستغفر إبراهيم»؛ على حكاية الحال الماضية، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه، وهو قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، ويدل عليه قراءة الحسن وحماد الراوية: «وعدها أباه».

فإن قلت: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار/ ٣٠٦ب للكافر غير جائز حتى وعده؟

قلت: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان، جاز الاستغفار له، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأن العقل يجوّز أن يغفر الله للكافر؛ ألا ترى إلى قوله ـ عليه السلام ـ لعمه: «لأَسْتُغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ» ح وعن الحسن: قيل لرسول الله

---

٧٢٩ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧): كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، وأطرافه في: ٣٨٨٤، ٤٦٧٥ ـ ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع، وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك، فهو في أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، حديث (٣٩/ ٢٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهذا وهم من الحاكم، فالحديث أخرجه البخاري ومسلم.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه في حديث، وعقل الحاكم فاستدركه. انتهى.

ـ ﷺ ـ: إن فلاناً يستغفر لآبائه المشركين، فقال: «وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ» (٧٣٠) فنزلت وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما: مشركان، فقلت له، فقال: أليس قد استغفر إبراهيم (٧٣١).

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾؟

قلت: معناه: فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره؛ فهو كقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: فعال، من أوه كلأل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه، ومعناه: أنه لفرط ترحمه، ورقته، وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر، ويستغفر له، مع شكاسته عليه(1)، وقوله: «لأرجمنك».

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهي عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضلالاً، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان، فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل

---

٧٣٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/١٠٦): غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن.
وقال ابن حجر: لم أجده. انتهى.

٧٣١ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/٢٨١): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة التوبة، حديث (٣١٠١)، والنَّسائي (٤/٩١): كتاب الجنائز: باب النهي عن الاستغفار للمشركين، وأحمد في مسنده: (١/٩٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣١)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٣٥)، وأبو يَعلى في مسنده: (١/٢٨٠) رقم (٣٣٥)، و(١/٤٥٨) رقم (٦١٩)، والطبري في تفسيره: (٦/٤٩٠) رقم (١٧٣٤٨).
قال التِّرمذي: هذا حديث حسن.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/٥٠٥)، وعزاه إلى الطيالسي وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة عن علي به.
قال الحافظ: أخرجه التِّرمذي والنَّسائي والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار من طريق أبي الخليل عن علي قال: «سمعت رجلاً يستغر لأبويه ـ الحديث» انتهى.

---

(١) قوله: «مع شكاسته عليه» أي صعوبته. وفي الصحاح: رجل شكس ـ بالتسكين ـ أي صعب الخلق (ع).

التحريم؛ وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي: أنّ المهديَّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال، والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل[1] كالصدق[2] في الخبر، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؛ كقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوّابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل: معناه: تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه؛ كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]. ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشية واليوم [من الطويل]:

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ/ ٣٠٧أ ....[3]

---

(١) قال محمود: «فأما ما يدرك حظره بالعقل... إلخ» قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه، تابع لمقتضاه. وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

(٢) قوله: «فأما ما يعلم بالعقل كالصدق» مبني على مذهب المعتزلة أن الحكم يعلم بالعقل وعند أهل السنة لا حكم قبل الشرع (ع).

(٣) غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعاجت صدور الخيل شطر تميم

المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح. طفت ـ بالفاء ـ علت وارتفعت. ويروى بالغين، والمراد: العلو أيضاً. وعلماء: أصله على الماء، والمراد: ارتفع قدرهم في العز والمجد وانخفض غيرهم، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر. أو المعنى: أنهم طغوا بالغين على أطغى شيء كالماء، فالماء طاغ على الناس وهم طاغون عليه. وفيه دلالة على الشجاعة. وبكر بن وائل: اسم أبي قبيلة سميت هي باسمه. والوائل: أصله السابق الملتجئ. وعاجت: أي أمالت صدور خيلها. وإيقاع الموج على الصدور، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها. وشطر: أي جهة قبيلة تميم.

البيت لقطري بن الفجاءة ينظر ديوانه ص (١٧٤)، الوساطة (٤٥٠)، ابن الشجري ١/ ٩٧، البحر ٥/ ١١٠، معاني الفراء ٢/ ٣٧٧، شرح شواهد الشافية ٤٩٨، أسرار العربية ص (٤٢٩)، شرح المفصل ١٠/ ١٥٤، ١٥٥، الحماسة ١/ ٢٢١، الدر المصون ٣/ ٥٠٩.

[ومن الطويل]:

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً ... عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحِمْيَرَا[1]

[ومن الطويل]:

إِذَا جَاءَ يَوْماً وَارِثِي يَبْتَغِي الْغِنَىٰ ... يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَىٰ وَلاَ صِفْرِ[2]

---

(١) وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... عشية قارعنا جذام وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

لزفر بن الحرث الكلابي من التابعين شهد وقعة صفين وغيرها. ويقال في المثل: ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة فما هنا تلميح له. والمراد بالعشية: مطلق الزمن لا آخر النهار فقط، لدلالة المقام على ذلك. والمقارعة: المضاربة بالرماح والسيوف. ويروى: ليالي لاقينا. وجذام: اسم قبيلة سميت به، وهي من اليمن كانت تنزل جبال حسمى، يقال: هي أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها. وحمير: أبو قبيلة أيضاً سميت باسمه. ويروى: جذاماً، بالتنوين للضرورة. والنبع: شجر تتخذ منه الرماح. يقول: كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم. فقوله: «كل بيضاء شحمة» استعارة تمثيلية لذلك. وعشية: نصب بحسبنا، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تتكسر. وشبهها بما يصح منه الإباء على طريق الكناية. وأبت تخييل، وبعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخذالهما. وقيل: إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى. فيكون الكلام كله بما فيه من المجاز والكناية، منقول من هيئة التقاء الصفوف في الحرب إلى هيئة التقاء الضيفان مع المضياف وعدم عجزه عن قراهم على طريق التمثيل، لكن العشية على حقيقتها. ومع توجيهنا له بذلك، يبعده قوله: «حسبنا كل بيضاء شحمة» وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة، فإنها مصرحة بأن المعنى محاربتهم إياهم ومكافأتهم لهم.

ينظر الحماسة ١/١٥٥، المغني ٢/٦٣٦، العيني ٢/٣٨٢، التصريح ١/٢٤٩، شرح الألفية لابن الناظم ١٩٧. المقاصد النحوية ٢/٣٨٢، أوضح المسالك ٢/٤٣، الدر المصون ٣/٥٠٩.

(٢) إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الغِنَىٰ ... يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرساً مثل العنان وصارمًا ... حساماً إذا ما هز لم يرض بالهبر

وأسمر خطيًا كأن كعوبه ... نوى القسب قد أربى ذراعاً على العشر

لحاتم الطائي. والمراد باليوم: مطلق الزمن، بخلاف النهار فإنه خاص بالمحدود الطرفين، وهكذا غالب استعمال العرب، والمراد بالغنى: التركة، لأنها سببه. وجمع الكف ـ بالضم ـ: الكف المقبوضة، فهو من إضافة الصفة للموصوف. والملأى: الممتلئة. وصفر الرجل ـ بالكسر ـ وأصفر فهو مصفر: افتقر. والصفر ـ بالضم، وقيل بالكسر ـ: الخالي. والصارم: السيف القاطع. وحسم الشيء: قطعه بالحسام الشديد القطع. ويطلق على الحديد الحد. والهبر: قطع بضعة كثيرة من اللحم. والسمرة: لون بين البياض والأدمة. والخط: موضع تنسب له الرماح الجيدة. والكعب: ما بين العقدتين. والقسب: نوع من التمر صلب النوى. وربا الشيء وأربى: زاد، وقد تقلب باؤه ميماً، كما روي: قد أرمى. وذراعاً: تمييز، أي زاد ذراعاً على العشر الأذرع، فيكون مقداره أحد عشر ذراعاً، والجملة وصف لأسمر. ويحتمل أنها حال من النوى، أي: زاد النوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من النوى، فذراعاً حال في ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه النوى في هذه الحالة، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب. ويجوز أن ذراعاً تمييز محول عن الفاعل، أي: زاد كل =

والعسرة: حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود، والشعير المسوّس، والإهالة الزنخة[1]، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء، حتى نحروا الإبل، واعتصروا فروثها، وفي شدّة زمان، من حمارّة القيظ، ومن الجدب، والقحط، والضيقة الشديدة، ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾: عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي «كاد»: ضمير الشأن، وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرىء: «يزيغ»، بالياء، وفي قراءة عبد الله: «من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم»، يريد المتخلفين من المؤمنين، كأبي لبابة وأمثاله، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون الضمير للفريق: تاب عليهم لكيدودتهم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ومعنى: ﴿خُلِّفُواْ﴾: خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه؛ حيث تيب عليهم بعدهم، وقرىء: (خلفوا) أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم[2]، وقرأ جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ: «خالفوا»، وقرأ الأعمش: «وعلى الثلاثة المخلفين»، ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾: برحبها، أي: مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم؛ كأنهم لا يجدون فيها

= ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب. يقول: إذا طلب وارثي تركتي يجد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصاً عليها، فقوله: «جمع كف» كناية عن ذلك غير ممتلئة عند من يحب المال، وغير خالية عند ملاقي الأبطال، ويجد الثاني بدل من الأول. وشبه فرسه بالعنان في الضمور والمكانة إذا هز أي حرك، كناية عن الضرب به، وشبهه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل: أي يجد فرساً ضامراً وسيفاً قاطعاً ورمحاً طويلاً أو صلباً. وجزم المضارع في جواب إذا وهو قليل.
ينظر الديوان (٤٦).
ينظر البحر ٥/١١١، الدر المصون ٣/٥٠٩.

(١) قوله: «والإهالة الزنخة، أي الدهن المنتن. وحمارّة القيظ بتشديد الراء شدة حره اهـ من الصحاح (ع).

(٢) قوله: «أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم» الخالفة: الذي لا خير فيه. وخلوف الفم: تغيره: اهـ من الصحاح (ع).

مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ، ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: وعلموا، ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ﴾: سخط، ﴿ٱللَّهِ إِلَّآ﴾: إلى استغفاره، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾: ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا ـ أيضاً ـ فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة، روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم، فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله، فقال: يا أهلاه، ما بطأني ولا خلفني إلا الضنّ بك لا جرم، والله لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال، فقال: يا نفس، ما خلفني إلا حب الحياة لك، والله، لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به، قال الحسن: كذلك/ ٣٠٧ب والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها، وعن أبي ذرّ الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ـ ﷺ ـ ماشياً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لما رأى سواده: «كُنْ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ النَّاسُ: هُوَ ذَاكَ، فَقَالَ: رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرّ، يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ» (٧٣٢)، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب، والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ـ ﷺ ـ في الضحّ والريح، ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله ـ ﷺ ـ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب، فقال: كن أبا خيثمة فكانه، ففرح به رسول الله ـ ﷺ ـ واستغفر له (٧٣٣)، ومنهم من بقي لم يلحق به، منهم الثلاثة، قال كعب: لما قفل

---

٧٣٢ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك: (٣/ ٥٠ ـ ٥١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
والبيهقي في دلائل النبوة: (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٩٣) رقم (١٨٧٩).
كلهم عن ابن إسحاق عن بريدة عن ابن كعب عن ابن مسعود به.
أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم، والبيهقي في الدلائل، قال: حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال: «لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف ـ فذكره مطولاً» انتهى.

٧٣٣ ـ أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣)، وابن هشام في سيرته (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨) رقم (١٨٧٠).
قال الحافظ:
أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند، وذكره الواقدي في المغازي: حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن =

رسول الله ـ ﷺ ـ سلمت عليه فردّ علي كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: «لَيْتَ شِعْرِيَ مَا خَلَّفَ كَعْباً؟ فَقِيلَ لَهُ: مَا خَلَّفَهُ إلاَّ حُسْنُ بُرْدَيْهِ وَالنَّظَر فِي عَطْفَيْهِ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ، مَا أَعْلَمُ إلاَّ فَضْلاً وَإسْلاَماً» ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتنكر لنا الناس، ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة، أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع[(١)]: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً، وكنت كما وصفني ربي، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾: وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي، وانطلقت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني، وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يستنير استنارة القمر: «أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» ثم تلا علينا الآية (٧٣٤)، وعن أبي بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح؟ فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

= أبي مالك عن أبيه عن جده قال: سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك. فذكر القصة الطويلة، وفيه: وكان أبو خيثمة ويسمى عبد الله بن خيثمة ـ السالمي رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ عشرة أيام، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار ـ فذكره وأخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم: «أن أبا خيثمة سالم ـ فذكره. وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبي عن أبيه قال: تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله ﷺ فدخلت حائطاً ـ فذكر الحديث نحوه»، وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل: «فلما بلغ تبوك قال النبي ﷺ: ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه: فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب. فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة. انتهى.

٧٣٤ ـ تقدم تخريجه.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عبد الله بن كعب بن مالك مطولاً، وقال فيه: فقال رجل من بني سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت ـ الحديث» قال المخرج: الوهم فيه من المصنف. وأخرجه أحمد وفيه: فقال رجل من قومي: يا رسول الله، فلقه برداه والنظر من عطفيه» وأفاد الواقدي في المغازي: أن الذي قال ذلك عبد الله بن قيس. انتهى.

---

(١) قوله: «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة اهـ من الصحاح (ع).

﴿ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾

﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقرىء: «من الصادقين» وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقيل: هم الثلاثة، أي: كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظموا في جملتهم، واصدقوا مثل صدقهم، وقيل: لمن تخلف/ ٣٠٨أ من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ولا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه، اقرؤوا إن شئتم: «وكونوا مع الصادقين» (٧٣٥) فهل فيها من رخصة؟ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعزُّ نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت[1] فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها، ولا يقيموا لها وزناً،

٧٣٥ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وإنما تواترت الروايات بتوفيق أكثر هذه الكلمات، فإن صح سنده؛ فإنه صحيح على شرطهما. أ.هـ
وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠١) رقم (٤٧٨٧) كلاهما من طريق أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود به.
وأخرجه الواحدي في تفسيره (٢/ ٥٣٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) رقم (١٧٤٧٠)؛ كلاهما من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود موقوفاً ولم يرفعه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥١٧) وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عديّ وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود به.
وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وإسحاق بن راهويه في مسنده؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١١٢).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبيه، موقوفاً، وكذا أخرجه إسحاق في مسنده عن وهب، ورواه البيهقي في الشعب مختصراً. ورواه الحاكم مرفوعاً، من رواية أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رفعه: «لا يصلح الكذب من جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه». انتهى.

(١) قوله: «تتهافت» أي تتساقط (ع).

وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربئوا[1] بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما دل عليه قوله: «ما كان لهم أن يتخلفوا»، من وجوب مشايعته؛ كأنه قيل ذلك الوجوب، (بـ) سبب: ﴿أنهم لا يصيبهم﴾: شيء من عطش، ولا تعب، ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيظهم ويضيق صدورهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾: ولا يرزؤونهم شيئاً بقتل، أو أسر، أو غنيمة، أو هزيمة، أو غير ذلك، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾: واستوجبوا الثواب، ونيل الزلفى عند الله؛ وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة، لا الوطء بالأقدام والحوافر؛ كقوله ـ عليه السلام ـ: «آخِرُ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بوج»[2] (٧٣٦)، والموطىء إمّا مصدر كالمورد، وإمّا مكان، فإن كان مكاناً فمعنى يغيظ الكفّار: يغيظهم وطؤه، والنيل ـ أيضاً ـ يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً، وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزأه ونقصه، وهو عام في كل ما يسوؤهم وينكبهم ويلحق بهم ضررًا، وفيه دليل على أن من قصد خيراً، كان سعيه فيه مشكوراً من قيام، وقعود، ومشي، وكلام، وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أنّ

----

٧٣٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢/١١٣): روي من حديث يَعلى بن مرة، ومن حديث خولة:
أ.هـ أما حديث يَعلى بن مرة:
فأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٥) رقم (٧٠٤) عن يَعلى بن مرة به.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٥٧) وقال: رواه أحمد والطبراني، إلا أنه قال: آخر وطأة وطئها رب العالمين. ورجالهما ثقات.
وأما حديث خولة: فأخرجه التِّرمذي (٤/٣١٧): كتاب البر والصلة: باب ما جاء في حب الولد، حديث (١٩١٠)، ولم يذكر التِّرمذي فيه الوطأة، وقال: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً من خولة.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٥٧) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات إلا أن عمر بن عبد العزيز لا أعلم له سماعاً من خولة.
قال الحافظ: أخرجه أحمد وابن سعد والطبراني والبيهقي في الأسماء من حديث يَعلى بن مرة الثقفي في أثناء حديث، وأخرجه إسحاق والبيهقي أيضاً والطبراني من رواية عمر بن عبد العزيز قال: زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم. انتهى.

---

(١) قوله: «يربئوا» أي يرتفعوا. اهـ من الصحاح (ع).
(٢) قوله: «بوج» هي بلد بالطائف اهـ صحاح (ع).

المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي ـ ﷺ ـ لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب (٧٣٧)، وأمدّ أبو بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ المهاجر بن أبي أمية، وزياد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم (٧٣٨)، عند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين/ ٣٠٨ب، وقرأ عبيد بن عمير: «ظماء» بالمدّ، يقال: ظمىء ظماءة وظماء، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾: ولو تمرة، ولو علاقة سوط ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو في الأصل: «فاعل» من ودى إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض، يقولون: لا تصلّ في وادي غيرك، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾: ذلك من الإنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾: متعلق بكتب، أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾

اللام: لتأكيد النفي، ومعناه أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن[1].

---

٧٣٧ ـ والحديث أخرجه البخاري (٦/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦): كتاب فرض الخمس: باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. . .، حديث (٣١٣٦) وأطرافه في (٣٨٧٦، ٤٢٣٠، ٤٢٣٣)، ومسلم (٨/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ـ النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب، وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم ـ رضي الله عنهم ـ حديث (١٦٩/ ٢٥٠٢).
قال ابن حجر: لم أره هكذا، وقد عزاه الطيبي لأبي داود والتِّرمذي، وفي الصحيحين عن أبي موسى: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم. . . الحديث. أ.هـ. وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١١٤):
وذهل الطيبي فعزاه لأبي داود والتِّرمذي فقط. أ.هـ.

٧٣٨ ـ أخرجه ابن أبي شيبة؛ كما في «تخريج الكشاف» لابن حجر:
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب: «أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبي جهل ممداً للمهاجرين أبي أمية، وزياد بن أسد. فانتهوا إلى القوم وقد فتح عليهم. قال: فأشركهم في الغنيمة» رواه الواقدي في المغازي: حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم عن عقبة عن الحرث بن فضيل قال: لما جاء كتاب زياد بن لبيد ـ فذكر نحوه انتهى.

---

(١) قال محمود: «معناه أن نفير الكافة لطلب العلم غير ممكن. . . إلخ». قال أحمد: قوله ﴿وَمَا كَانَ =

وفيه أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب، لوجوب التفقه على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾: فحين لم يمكن نفير الكافة، ولم يكن مصلحة، فهلا نفر، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾: ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾: وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه: إنذار قومهم، وإرشادهم، والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمّونها من المقاصد الركيكة، من التصدّر، والترؤس، والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم، ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوّ داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم(١) إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم؛ فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجل: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً، ووجه آخر، وهو: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا بعث بعثاً ـ بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد ـ استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف، وقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾: الضمير فيه: للفرق الباقية بعد الطواف، النافرة من بينهم، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾: ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما/ ٣٠٩أ حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ

= ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ على التفسير الأول: أمر لا نهي. وعلى الثاني: خبر والمراد به النهي، لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله لكان جائزاً أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية. وأما في الثاني فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكناً بل واقعاً، فنهوا عن إطراح التفقه بالكلية وأمروا به أمر كفاية والله أعلم. قال أحمد: ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف، فإني تفقهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

(١) قوله: «وانقلاب حماليق أحدهم» الحماليق: هي ما يسوده الكحل من باطن الجفن. وقيل: ما غطته الأجفان من بياض المقلة. اهـ من الصحاح (ع).

﴿ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿يَلُونَكُم﴾: يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم[1]، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب؛ ونظيره: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقد حارب رسول الله ـ ﷺ ـ قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن قتال الديلم؟ فقال: عليك بالروم، وقرىء: (غلظة) بالحركات الثلاث، فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة، ونحوه، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدّة العداوة، والعنف في القتل والأسر، ومنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]. ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوّه.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾: فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾: السورة، ﴿إِيمَٰنًا﴾: إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين، واعتقادهم زيادة الإيمان: بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به، وأيكم: مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: «أيكم»، بالفتح على إضمار فعل يفسره، (زادته): تقديره: «أيكم زادت زادته هذه إيمانا»، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ لأنها أزيد لليقين والثبات، وأثلج للصدر، أو: «فزادتهم عملاً»، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾: كفراً مضموماً إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جدّدوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً، ازداد كفرهم، واستحكم، وتضاعف عقابهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ

(١) قال أحمد: «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم... إلخ» قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين: إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا. وإما من عينهم الإمام لذلك وإن بعدت بهم الدار. وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر.

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قرىء: «أو لا يرون»، بالياء والتاء، ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يبتلون بالمرض، والقحط، وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون، ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا يذكرون، ولا يعتبرون، ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ ويعاينون أمره، وما ينزل الله عليه من نصرته، وتأييده، أو يفتنهم الشيطان، فيكذبون، وينقضون العهود مع رسول الله ـ ﷺ ـ فيقتلهم وينكل بهم، ثم لا ينزجرون، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي(١)، وسخرية به قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرف؛ فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذاً يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين/ ٣٠٩ب ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: لا يتدبرون حتى يفقهوا.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: من جنسكم، ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر مايتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد عليه شاق ـ لكونه بعضاً منكم ـ عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه، والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: منكم ومن غيركم، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقرىء: «من

(١) قال محمود: «معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي. . . إلخ» قال أحمد: يحتمل الدعاء كما فسره. ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم أي منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبراً لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له في قوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء، تعين عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف، كقوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) وكقوله ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أنفسكم»، أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ـ ﷺ ـ وفاطمة، وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك، فاستعن، وفوّض إليه؛ فهو كافيك معرّتهم[1]، ولا يضرونك، وهو ناصرك عليهم، وقرىء: (العظيمُ): بالرفع، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبيّ بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَا نَزَلَ عَلَيَّ القُرْآنُ إلاَّ آيَةً آيَةً وَحَرْفاً حَرْفاً، مَا خَلاَ سُورَةَ بَرَاءَة وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ؛ فَإِنَّهُمَا أُنْزِلَتَا عَلَيَّ وَمَعَهُمَا سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ مِنَ المَلاَئِكَةِ» (٧٣٩).

---

٧٣٩ ـ تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وينظر حديث رقم (٣٤٦).
قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه. انتهى.

---

(١) قوله: «فهو كافيك معرتهم» المعرة: الإثم، كذا في الصحاح (ع).

سُورَةُ يُونُس

مَكِّيَّةٌ، [إلاَّ الآياتِ ٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَهِيَ مَائَةٌ وَتِسْعُ آيَاتٍ [نَزَلَتْ بَعْدَ الإِسْرَاءِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾

﴿الٓر﴾: تعديد للحروف على طريق التحدي، و﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثة؛ قال الأعشى [من الكامل]:

وَغَـرِيـبَـةٍ تَـأْتِـي الـمُـلُـوكَ حَـكِـيـمَـةٍ ... قَـدْ قُـلْـتُـهَـا لِـيُـقَـالَ: مَـنْ ذَا قَـالَـهَـا؟[1]

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾: اسم كان، وعجباً: خبرها، وقرأ ابن مسعود: عجب، فجعله اسماً وهو نكرة و(أن أوحينا): خبراً وهو معرفة؛ كقوله [من الوافر]:

.... يَـكُـونُ مِـزَاجَـهَـا عَـسَـلٌ وَمَـاءُ[2]

---

(١) للأعشى. أي: ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها، أو حكيم قائلها، فهو من الإسناد للسبب، لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة. قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذي قالها. وذا: اسم إشارة في لغة الحجاز، واسم موصول في لغة طيء، وهي أقرب هنا، فجملة «قالها» صلة الموصول.

ينظر: ديوانه (٧)، القرطبي (٨/ ٣٠٥)، الهمع (١/ ٨٤)، الدرر (١/ ٥٩).

(٢) كـأن سـبـيـئـة مـن بـيـت رأس ... يـكـون مـزاجـهـا عـسـل ومـاء

عـلـى أنـيـابـهـا أو طـعـمُ غـض ... مـن الـتـفـاح هـصـره اجـتـنـاء

لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر. والسلافة: أول ما يسيل من ماء العنب. ويروى «سبيئة» أي مشتراة: يقال: سبأ الخمر كنصر، إذا اشتراها. ويروى خبيئة: أي مصونة في الخابية. وبيت رأس: =

والأجود أن تكون «كان»: تامة، وأن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك: أكان عند الناس عجباً؟

قلت: معناه: أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم[1]، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون/ ٣١٠أ: العجب أنّ الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار، ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإســـراء: ٩٥]، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب ـ أيضاً ـ لأنّ الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار؛ لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة، والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب، والمنكر في العقول: تعطيل الجزاء، ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: أن: هي المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا أنذر الناس، و﴿أَنَّ لَهُمْ﴾: الباء معه محذوف، ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ

= قرية بالشام. وقيل المراد بالرأس الرئيس، وشرابها أطيب من غيره، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة. و«عسل» اسمها مع أنه نكرة، وكان القياس العكس فقلب للضرورة. وجوزه ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب. وقال الفارسي: إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية. وروي برفع الكلمات الثلاث، على أن اسم كان ضمير الشأن. وقول ابن السيد: بزيادة «كان» هنا: غير مرضٍ؛ لأن زيادة المضارع لا ترتكب إلا عند الضرورة، ويروى بنصب العسل فقط، فهو خبر ورفع ماء. بتقدير: وخالطها ماء. وجملة الكون صفة سلافة. وعلى أنيابها: خبر «كأن» المشددة. والمزاج: ما يمزج به غيره. والمراد بالأنياب: الثغر كله. والغض: الطري الرطب. والهصر: عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجني ثمره. والتهصير: مبالغة فيه. وروي «الجناء» بدل «الاجتناء». وهو بالقصر مصدر. لكن مد هنا ضرورة. وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلي، من باب الإسناد للسبب. وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف، أي: هصر غصنه. ويروى: أو طعم غصن، فلا تجوز في تهصيره. لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف. أي طعم ثمر غصن. شبه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصته الجاني ليجتنيه، إشارة إلى أنه مجني الآن لم يمض عليه شيء من الزمان، وتلويحاً لتشبيه محبوبته بالأغصان في الرقة واللين والميلان.

ينظر: ديوانه (٥٩)، والكتاب (١/ ٢٣)، والمغني (٥٠٥)، والهمع (١/ ١١٩)، والدرر (١/ ٨٨).

(١) قوله: «من أفناء رجالهم» في الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو (ع).

﴿رَبِّهِمْ﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة[1].

فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟

قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وباعاً؛ لأنَّ صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق؛ دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لَسِحْرٌ﴾: ومن قرأ: «لساحر»؛ فهذا إشارة إلى رسول الله - ﷺ - وهو دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبيّ: «ما هذا إلا سحر».

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿يُدَبِّرُ﴾: يقضي، ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لئلا يلقاه ما يكره آخراً، و﴿ٱلْأَمْرَ﴾: أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟

قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه، وملكه بخلق السموات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير، وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة؛ لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره؛ وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: دليل على العزة والكبرياء؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ١٨]، و﴿ذَٰلِكُمُ﴾: إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلك العظيم[2] الموصوف بما وصف به هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة، ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: وحده/ ٣١٠ب، ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما

---

(١) قال محمود: «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة... إلخ» قال أحمد: ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(٢) قوله: «ذلك العظيم» لعله ذلكم (ع).

أنتم عليه، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد؛ لقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٦]، ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾: استئناف، معناه: التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو: أنّ الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرىء: «أنه يبدؤ الخلق»، بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله، أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه، وقرىء: وعد الله، على لفظ الفعل، «ويبدىء»، من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقًّا، أي: حقّ حقًّا بدأ الخلق؛ كقوله [من الطويل]:

أَحَـقًّـا عِـبَـادَ اللهِ أَنْ لَـسْـتُ جَـائِـيـاً وَلاَ ذَاهِـبـاً إِلاَّ عَـلَـيَّ رَقِـيـبُ[1]

وقرىء: حق أنه يبدؤ الخلق؛ كقولك: حق أنّ زيداً منطلق، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، وهو متعلق بيجزي، والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم، أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأنّ الشرك ظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاة: ظلام أنفسهم، وهذا أوجه؛ لمقابلة قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

الياء في ﴿ضِيَاءً﴾: منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرىء: «ضئاء» بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: «عقا»، والضياء أقوى من النور، ﴿وَقَدَّرَهُ﴾: وقدّر القمر، والمعنى: وقدّر مسيره، ﴿مَنَازِلَ﴾: أو قدّره ذا منازل؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. ﴿وَالْحِسَابَ﴾: وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي، ﴿ذلك﴾: إشارة إلى المذكور، أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق

---

(١) أحقا عباد الله أن لست جائياً ولا ذاهباً إلا علي رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل: أنت مريب

لعبد الله بن الدمينة الخثعمي. وقيل: لقيس بن الملوح. قال المرزوقي: أحقا انتصب عند سيبويه على الظرفية، كأنه قال: أفي الحق ذلك، لأنهم كثيرا ما يقولون: أفي الحق كذا. وعند المبرد على المفعولية المطلقة، أي أحق ذلك حقا، لأنه مصدر، وعباد الله: منادى. وروي: أن لست وارداً ولا صادراً. والمعنى واحد. والرقيب: المانع من لقاء الحبيب. ويجوز أن يراد به ما في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي مناظر حاضر أو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.
ينظر: ديوانه ص (١٠٣)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٣٦٤)، وشرح الأشموني (٢/ ٣٠٢)، والبحر (٥/ ١٢٤)، والطبري (١٥/ ٢١).

الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً، وقرىء: «يفصل»، بالياء.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

خصّ المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف، ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي؛ كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]. ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها، فبنوا شديداً، وأمّلوا بعيداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾: يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة[(١)] على سلوك السبيل المؤدّي إلى/ ٣١١أ الثواب؛ ولذلك جعل: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: بياناً له وتفسيراً؛ لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، ومنه الحديث: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَكُونُ لَهُ نُوراً وَقَائِداً إِلَى الجَنَّةِ، وَالكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ

---

(١) قال محمود: «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة... إلخ» قال أحمد: هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر، وأنى له ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإن الله لم يعلل بغير الإيمان وإن جرى لغيره ذكر أو لا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه. وشبهته أن الإيمان المجهول سببٌ مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب، وهو ممنوع؛ فإن الضمير إنما يعود على الذوات لا باعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال وأشكال، والله الموفق.

قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ النَّارَ» (٧٤٠).

فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية، والتوفيق، والنور ويوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح، فصاحبه لا توفيق له ولا نور، قلت: الأمر كذلك؛ ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه، ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: دعاؤهم؛ لأن «اللهمّ»: نداء لله، ومعناه: اللهمّ، إنا نسبحك؛ كقول القانت في دعاء القنوت: اللهمّ، إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: على معنى أنْ لاَ تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة؛ إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح، ﴿أنِ﴾: يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومعنى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: أنّ بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، «وأن» هي المخففة من الثقيلة، وأصله: «أنه الحمد لله»، على أن الضمير للشأن؛ كقوله [من البسيط]:

.... أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ(١)

---

٧٤٠ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١١٧) رقم (٣٤٦٣٢)، من طريق أبي خالد الأحمر عن عمرو ابن قيس عن عطية عن ابن عمر موقوفاً. وأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٤) رقم (١٧٥٧٣)، من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة مرفوعاً. ومن طريق الطبري ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٣٨)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة به.
ونقله الثعلبي عن مجاهد ومقاتل عن النبي ﷺ، وسنده إليهما في أول كتابه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١١٩).
قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أخرج من قبره ـ فذكره»، وروى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال: «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة. فذكر نحوه بتمامه ـ انتهى.

---

(١) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول
في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن هالك كل من يحفى وينتعل
للأعشى ميمون بن قيس. والحانوت: محل البيع والشراء. والمراد: محل بيع الطعام والشراب. =

وقرىء: «أنَّ الحمدَ لله»، بالتشديد، ونصب الحمد.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

أصله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾: تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾: موضع تعجيله لهم الخير(1)؛ إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعني: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه، ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأميتوا وأهلكوا، وقرىء: «لقضي إليهم أجلهم»، على البناء للفاعل، وهو الله ـ عزّ وجلّ ـ وتنصره قراءة عبد الله: «لقضينا إليهم أجلهم».

فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾/ ٣١١ب وما معناه؟

قلت: قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾: متضمن معنى نفي التعجيل؛ كأنه قيل: ولا نعجل

= يتبعني شاو: أي غلام يشوي اللحم. مشل: أي مسرع. شلول: خفيف في العمل: شلشل: بالضم، أي ماض في الخدمة وقضاء الحوائج: شول ـ ككتف ـ خفيف في العمل. وقيل: مخرج للحم من القدر. في فتية: أي حال كوني مع فتيان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم. أو في بياض الوجوه وتهللها. والأول أنسب بقوله: قد علموا أنه، أي الحال والشأن. هالك وفان كل حاف: غير لابس للنعل، ومنتعل: لابس له، وهما كناية عن الفقير والغني، وإذا استويا في الغنى فلا معنى للبخل الذي لا يوجب البقاء. ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم.
ينظر ديوانه ص ١٠٩، والأزهية ص ٦٤، والإنصاف ص ١٩٩، وتخليص الشواهد ص ٣٨٢، وخزانة الأدب ٥/٤٢٦، ٨/ ٣٩٠، ١٠/ ٣٩٣، ١١/ ٣٥٣، ٣٥٤، والدرر ٢/ ١٩٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٧٦، والكتاب ٢/ ١٣٧، ٣/ ٧٤، ١٦٤، ٤٥٤، والمحتسب ١/ ٣٠٨، ومغني اللبيب ١/ ٣١٤، والمقاصد النحويّة ٢/ ٢٨٧، والمنصف ٣/ ١٢٩، وبلا نسبة في خزانة الأدب ١٠/ ٣٩١، ورصف المباني ص ١١٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ٧١، والمقتضب ٣/ ٩، وهمع الهوامع ١/ ١٤٢.

(1) قال محمود: «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير. . . إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة. والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة. أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره: نبتم نباتاً، ولا يزيدون على ذلك، وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فكرته، هل قرن المصدر في كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا ـ تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة ـ والله أعلم ـ في اقتران قوله (نباتاً) بقوله (أنبتكم) التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أي إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به والله أعلم.

لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فنمهلهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم؛ إلزاماً للحجة عليهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

﴿لِجَنْبِهِ﴾: في موضع الحال؛ بدليل عطف الحالين عليه، أي: دعانا مضطجعاً، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلت: معناه: أنّ المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها ـ إن كان منبطحاً عاجز النهض[١] متخاذل النوء[٢]، أو كان قاعداً لا يقدر على القيم، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب ـ إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة[٣] بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأنّ الإنسان للجنس، ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الإبتهال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به، ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾: كأنه لم يدعنا، خفف وحذف ضمير الشأن؛ قال [من الهزج]:

.... كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ[٤]

---

(١) قوله: «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً: قام (ع).

(٢) قوله: «متخاذل النوء» في الصحاح: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بجهد ومشقة (ع).

(٣) قوله: «والمسحة» في الصحاح: وعلى فلان مسحة من جمال (ع).

(٤) ونحر مشرق اللون ... كأن ثدياه حقان

أي: ورب نحر. ويروى بالرفع عطفاً على شيء تقدم، أي ولها. والنحر: موضعُ القلادة من الصدر. ويروى: وصدر مشرق، أي أبيض مضيء. ويروى: وصدر مشرق النحر. ويروى: ووجه مشرق اللون، وكأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقال أبو حيان: لا حاجة للإضمار عند الإهمال. وروي: كأن ثدييه بالإعمال مع التخفيف وهو قليل. وإضافة الثديين لضمير النحر للملابسة ولضمير الوجه على تقدير مضاف» أي: ثديا صاحبته. والحقان: تثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه، يوضع فيه أعز الأشياء. وقيل تثنية حقة، وحذفت منه التاء.

ينظر الإنصاف ١/١٩٧، وأوضح المسالك ١/٣٧٨، ولسان العرب (أنن)، والكتاب ٢/١٣٥، وخزانة الأدب ١٠/٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٤، والدرر ٢/١٩٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٨٢، وشرح التصريح ١/١٣٤، وشرح شذور الذهب ص ٣٦٩، وتخليص الشواهد =

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك التزيين، ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾: زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لمَّا﴾: ظرف لأهلكنا، والواو في ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾: للحال، أي: ظلموا بالتكذيب، وقد جاءتهم رسلهم بالحجج، والشواهد على صدقهم وهي المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾: يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا؛ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقًّا؛ تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك، ﴿نَجْزِى﴾: كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله - ﷺ - وقرىء: «يجزي»، بالياء، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾: الخطاب للذين بعث إليهم محمد - ﷺ - أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا، ﴿لِنَنظُرَ﴾: أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم، و﴿كَيْفَ﴾: في محل النصب بتعملون لا ينتظر؛ لأنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله.

فإن قلت: كيف جاز النظر على الله - تعالى - وفيه معنى المقابلة(١)؟

قلت: هو مستعار للعلم المحقق، الذي هو العلم بالشيء/ ٣١٢أ موجوداً شبه بنظر الناظر، وعيان المعاين في تحققه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

= ص ٣٨٩، والجني الداني ص ٥٧٥، وشرح ابن عقيل ص ١٩٧، وشرح قطر الندى ص ١٥٨، وشرح الأشموني ١/ ١٤٧، والمقاصد النحوية ٢/ ٣٠٥، والمنصف ٣/ ١٢٠٨، وهمع الهوامع ١/ ١٤٣، والدر المصون ٢/ ٣٩٠.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى... إلخ» قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزغتين عقيدة طائفة من القدرية، يقولون: إن الله لا يرى ولا يُرى، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً. وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده، والله الموفق.

﴿عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا: ﴿أْتِ بِقُرْءَانٍ﴾: آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾: بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾: ما ينبغي لي وما يحل؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦]. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾: من قبل نفسي، وقرىء: بفتح التاء من غير[(١)] أن يأمرني بذلك ربي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك، إلا متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدِّلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ تبديل ولا نسخ، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾: بالتبديل والنسخ من عند نفسي: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾؟

قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، ويقولون: افترى على الله كذباً، فينسبونه إلى الرسول، ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأنّ العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلت: لعلهم أرادوا: «ائت بقرآن غير هذا أو بدّله»، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته، وأراد بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾: ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدّله.

قلت: يردّه قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.

فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟

قلت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل، فإمّا أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) قوله: «من غير» لعله «أي من غير» (ع).

﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو: أن يخرج رجل أمي لم يتعلم، ولم يستمع، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ/ ٣١٢ب بين ظهرانيكم[١] أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به، ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: «ولا أدراتكم به»، على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته، في معنى: أعطيته وأرضيته؛ وتعضده قراءة ابن عباس: «ولا أنذرتكم به»، ورواه الفراء «ولا أدرأتكم به»، وبالهمز، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج، ورثأت الميت وحلأت[٢] السويق؛ وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد؛ ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة.

والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأدرأته إذا جعلته دارئاً، والمعنى: ولاجعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بلام الابتداء؛ لإثبات الإدراء، ومعناه: لو شاء الله، ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري؛ ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة، ورآني لها أهلاً دون سائر الناس، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾، وقرىء: (عمراً) بالسكون، يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعاً وكهلاً، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: «ائت بقرآن غير هذا» من إضافة الافتراء إليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: يحتمل أن يريد: افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء.

---

(١) قوله: «ظهرانيكم» في الصحاح: ظهرانيهم ـ بفتح النون (ع).
(٢) قوله: «وحلأت» أي جعلته حلواً (ع).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضر، وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة، معاقباً على المعصية، وكان أهل الطائف: يعبدون اللات، وأهل مكة: العزى، ومناة، وهبل، وأسافا، ونائلة، ﴿و﴾: كانوا ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: وعن النضر بن الحَارِث: إذا كان يوم القيامة، شفعت لي اللات والعزى، ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟

قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنّ الذي أنبؤوا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل/ ٣١٣أ بما لا يعلمه، وقرىء: «أتنبؤون»، بالتخفيف، وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تأكيد لنفيه؛ لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم، ﴿تُشْرِكُونَ﴾: قرىء بالتاء والياء، وما: موصولة أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم؛ وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير؛ لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا

لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر، بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه؛ وذلك لفرط عنادهم، وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ؛ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني؛ أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾: نزول ما اقترحتموه، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم، طفقوا يطعنون في آيات الله، ويعادون رسول الله ـ ﷺ ـ ويكيدونه؛ و«إذا» الأولى: للشرط، والآخرة: جوابها، وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؟

قلت: بلى، دلت على ذلك كلمة المفاجأة؛ كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رءوسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم، والمعنى: أن الله ـ تعالى ـ دبر عقابكم، وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾: إعلام بأنّ ما تظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم، وقرىء: «يمكرون»، بالتاء والياء، وقيل: مكرهم قولهم سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: «إنَّ الله ليصبح/ ٣١٣ب القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا» (٧٤١).

---

٧٤١ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١١/ ٦٦٢): هكذا رواه المصنف موقوفاً، وهو مرفوع، رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، والطبري في تفسيره في سورة الواقعة، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي؛ كلهم من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة، أو ليمسيهم بها، فيصبح قوم بها كافرين، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» أ.هـ. والحديث أخرجه الطبري (١١/ ٦٦٢) رقم (٣٣٥٦١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قرأ زيد بن ثابت: «ينشركم»، ومثله قوله: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر[1]، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟

قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه

= قال الحافظ:

أخرجه إسحاق والطبري: والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم، اليمني عن أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها، فيصبح بها قوم كافرون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد: فذكرت الحديث لسعيد بن المسيّب فقال: ونحن سمعناه من أبي هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا». انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية... إلخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسنها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وقد استدل الزمخشري بها لأبي حنيفة في أن الصغير يبتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشري: ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيا به. واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجعول غاية هو حمله ما في حيز «حتى» من البلوغ مقروناً بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الإبتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد، فلا يحصل المجموع إلا بعد الإبتلاء. ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها، مضافاً إلى ما ذكر معه. ونحن نعلم أن كونهم في الفلك ـ وذلك أحد ما جعل غاية ـ متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك والله أعلم. وإنما بسطت القول ههنا لفواته ثم، فجدد بما مضى عهداً.

الحادثة، وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، والظنّ للهلاك[1]، والدعاء بالإنجاء.

فإن قلت: ما جواب «إذا»؟ قلت: جاءتها، فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؛ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به، فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح، فإن قلت: ما وجه قراءة أمّ الدرداء: «في الفلكي»، بزيادة ياء النسب؟ قلت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جَرَيْنَ﴾: للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد، في فعل أخي فعل[2]، وفي قراءة أمّ الدرداء: «للفلك»، أيضاً؛ لأنّ الفلكي يدلّ عليه، ﴿جَآءَتْهَا﴾: جاءت الريح الطيبة، أي: تلقتها، وقيل: الضمير للفلك، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: من جميع أمكنة الموج، ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أهلكوا جعل إحاطة العدوّ بالحي مثلاً في الهلاك، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه، ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾: على إرادة القول، أو لأن: (دعوا): من جملة القول، ﴿يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يفسدون فيها، ويعبثون متراقين في ذلك، ممعنين فيه، من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، والبغي لا يكون بحق؟

قلت: بلى، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، (٧٤٢) كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ببني قريظة، قرىء: «متاع

---

٧٤٢ ـ أخرجه البخاري (٨/ ٦٧): كتاب المغازي: باب حديث بني النضير، حديث (٤٠٢٨)، ومسلم (٦/ ٣٣٤ ـ النووي): كتاب الجهاد والسير: باب إجلاء اليهود من الحجاز، حديث (٦٢/ ١٧٦٦) وأبو داود (٣/ ١٥٧): كتاب الخراج والإمارة والفيء، حديث (٣٠٠٥).
كلهم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر به.
قال الحافظ: متفق على معناه من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ انتهى.

---

(١) قوله: «والظن للهلاك» عبارة النسفي: بالهلاك (ع).
(٢) قوله: «كالأسد في فعل» أي كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحتين، كأسد في أسد، جاز مجيء «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك، وذلك لأن «فعلاً بفتحتين و«فعلاً» بالضم أخوان، لأنهما يشتركان في الشيء الواحد، كالعرب والعرب والعجم والعجم، والرهب والرهب. فما جاز في أحدهما لا يمنع في الآخر، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم، لأنهما أخوات. كذا في الصحاح، فتأمله.

الحياة الدنيا»، بالنصب.

فإن قلت: ما الفرق بين القراءتين؟

قلت: إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدأ الذي هو: (بغيكم)، و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْۖ﴾: صلته؛ كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: ٧٦]، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم، يعني: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت: فـ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ خبر غير صلة، معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم، و﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على: هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي - ﷺ - أنه قال: «لاَ تَمْكُرْ وَلاَ تُعِنْ مَاكِراً، وَلاَ تَبْغِ وَلاَ تُعِنْ بَاغِياً، وَلاَ تُنْكِثْ وَلاَ تُعِنْ نَاكِثاً» (٧٤٣)، وكان يتلوها، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أَسْرَعُ الخَيْرِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأَعْجَلُ الشَّرِّ عِقَاباً البَغْيُ وَاليَمِينُ الفَاجِرَةُ» (٧٤٤) وروي: «ثِنْتَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا: البَغْيُ،

---

٧٤٣ - أخرجه ابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق» (ص ٢٥٢) رقم (٧٢٥)، من طريق يونس بن يزيد عن الزهري مرسلاً قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تُعن ماكراً؛ فإن الله يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾، ولا تبغ ولا تُعنْ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾، ولا تنكث ولا تُعن ناكثاً فإن الله تعالى يقول: ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾.

وأخرج الحاكم بعضه في مستدركه (٢/٣٣٨) عن عيينة بن عبد الرحمن الغطفاني سمعت أبي يحدث عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تعن باغياً، فإن الله يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه أ.هـ. وعن الحاكم أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٨٥) رقم (٦٦٧١).

ومن طريق ابن المبارك رواه الثعلبي في تفسيره في سورة فاطر؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢١).

قال الحافظ:

أخرجه ابن المبارك في الزهد: أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري: قال «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تعن ماكراً، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ ولا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾؛ ولا تنكث ولا تعن ناكثاً، فإن الله تعالى يقول: ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾، وفي مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبي بكرة مرفوعاً: «لا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ انتهى.

٧٤٤ - أخرجه ابن ماجه (٢/١٤٠٨): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ١٠ - ١١) رقم (٤٥١١٢) كلاهما من طريق معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين به.

وله شاهد من حديث أبي بكرة:

أخرجه أبو داود (٤/٢٧٦): كتاب الأدب: باب في النهي عن البغي، حديث (٤٩٠٢)، والترمذي =

وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» (٧٤٥)، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «لو بغى جبل على جبل لدك الباغي» (٧٤٦)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه [من البسيط]:

= (٤/ ٦٦٤ ـ ٦٦٥): : كتاب صفة القيامة، حديث (٢٥١١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٦) و(٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ. والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٨) برقم (٦٧)؛ كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكرة به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والثعلبي في تفسيره كلاهما عن مكحول به؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٢).
قال الحافظ:
أخرجه إسحاق في مسنده عن جرير عن برد بن بسار عن مكحول رفعه: وأعجل الخير قراباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة، تدع الديار بلاقع، ولأبي يعلى من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته، «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم. وأسر الشر عقوبة البغي». انتهى.

٧٤٥ ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٥٩١)، وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٢٢)، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه، والطبراني في معجمه.
قال الحافظ:
أخرجه إسحاق في مسنده، والطبراني من حديث عبد الله بن أبي بكرة عن أبيه. والبخاري في الأدب المفرد من رواية بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده رفعه: «كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت». انتهى.

٧٤٦ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٥/ ٢٩١) رقم (٦٦٩٣) عن الأصم عن محمد بن إسحاق قال: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهماً دكًا».
قال البيهقي: تابعه فطر عن أبي يحيى القتات. وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٢/ ٧٧٧) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : لو بغى جبل على جبل لخر الجبل الذي بغى عليه.
قال ابن عديّ: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذئب لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات بالبواطيل، وقال ابن حِبان: كان يروي الموضوعات من الثقات لا يحل الرواية عنه. أ.هـ.
وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية أيضاً (٢/ ٧٧٧) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكًا.
قال أبو حاتم: كتبت عنه نحو خمس مائة حديث كلها موضوعة، ولعله قد وضع على الأئمة أكثر من ثلاثة آلاف حديث.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٤٤) وعزاه إلى ابن مردويه عن كل من ابن عباس وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
وأخرجه ابن المبارك في كتاب «البر والصلة»؛ والبخاري في الأدب المفرد؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٣) عن ابن عباس موقوفاً.
قال الحافظ:
أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبي يحيى القتات: سمعت =

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ فَارْبَعْ فَخَيْرُ فَعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَىٰ جَبَلٌ يَوْماً عَلَىٰ جَبَلٍ لانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ[١]

وعن محمد بن كعب: «ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: البغي، والنكث، والمكر»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف، وزين الأرض بخضرته ورفيفه[٢]، ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾: كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل: (ازّينت): تزينت، فأدغم، وبالأصل قرأ عبد الله، وقرىء: «وأزينت»، أي: أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت، أي: صارت ذات زينة، «وازيانت»، بوزن ابياضت، ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾: متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لغلتها، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم، ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾: فجعلنا زرعها، ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾:

= مجاهداً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً. ورواه ابن المبارك في الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسلاً. ورواه البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس. ورواه ابن مردويه عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة أحمد بن الفضل. وقال: إنه كان يضع الحديث. انتهى.

(١) كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بغي أخيه عليه، وكرر لفظ البغي تنفيراً عنه، وشبهه بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه في العاقبة وربما هلك، وربع يربع، إذا لم يتجاوز قدر نفسه. فاربع: أي الزم قدرك واعدل في فعلك. والفعال ـ بالفتح ـ: غالب في فعل الخير. والمراد هنا مطلق الفعل، أي: فخير عمل المرء أقومه، فلو بغى جبل على جبل يوماً من الأيام لعوقب واندك منه أعاليه. ويلزم منه اندكاك أسافله. وهذا عقد قول ابن عباس رضي الله عنهما: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي.

(٢) قوله: «ورفيفه» أي يرمقه وتلألؤه. وشجر رفيف: إذا تندت أوراقه، كذا في الصحاح (ع).

كأن لم يغن زرعها، أي: لم ينبت[1] على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه، وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: «كأن لم يغن»، بالياء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: «كأن لم تتغن بالأمس»؛ من قول الأعشى [من المتقارب]:

. . . . طَوِيلَ الثَّوَاءِ طَوِيلَ التَّغَنّ[2]

والأمس: مثل في الوقت القريب؛ كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: الجنة، أضافها إلى اسمه؛ تعظيماً لها، وقيل: السلام: السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشوّ السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ **[الواقعة ٢٦]**، ﴿وَيَهْدِى﴾: ويوفق، ﴿مَن يَشَآءُ﴾: وهم الذين علم أنّ اللطف يجدي عليهم؛ لأنّ مشيئته تابعة لحكمته، ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المثوبة الحسنى، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وما يزيد على المثوبة وهي التفضل؛

---

(١) قوله: «أي لم ينبت» لعله لم يثبت. وفي الصحاح: غني بالمكان أي أقام، وغني أي عاش.

(٢)
وكنت امرأ زمناً بالعراق ... طويل الثواء طويل التغن
فأنبئت قيساً ولم آته ... على نأيه ساد أهل اليمن
فجئتك مرتاد ما أخبروا ... ولولا الذي خبروا لم ترن

للأعشى، يستمنح قيس بن معد يكرب ويقول: وكنت رجلاً طويل الثواء في العراق، طويل التغني فيه دهراً طويلاً»، فزمناً: ظرف. ويجوز قراءته: زمناً، كحذر: أي هرم. والثواء: الإقامة. وغني بالمكان يغنى، كرضي يرضى: أقام ومكث. وقد يقال: تغنى تغنياً كترضى ترضياً، إذا تمكث وتلبث. فالتغني - بالتشديد -: مصدر حذفت لامه عند الوقف وإن كان حذفها قليلاً فأنبئت قيساً والحال أني لم أجئه: مع أنه ناء أي بعيد عني، أي مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض، فجملة «ساد» في محل المفعول الثاني، ثم بعد ما قدم المدح التفت إلى خطابه بقوله: فجئتك مرتاداً ومتعرفاً ومتطلباً لما أخبروا به من كرمك وجودك، وإضافة مرتاد للموصول لا تفيده التعريف؛ لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظيا، فصح وقوعه حالاً، ولولا الذي خبروني به لم تنظرني عندك ولم أجئ إليك. وروي: ولم أبله، من بلاه يبلوه إذا اختبره. وروي خبر أهل اليمن أي أنبئته والحال أني لو أختبره أفضل أهل اليمن، فجئتك مختبراً لحالك.
ينظر: ديوانه ص (٢٥).

ويدل/ ٣١٤ب عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨]، وعن عليّ - رضي الله عنه -: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «الحسنى»: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها، وعن الحسن - رضي الله عنه -: «عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»، وعن مجاهد - رضي الله عنه -: «الزيادة: مغفرة من الله ورضوان»، وعن يزيد بن شجرة: «الزيادة: أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة[1] أن الزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى -[2] وجاءت بحديث مرقوع[3]: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نُودُوا: أَنْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيُكْشَفُ الحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ، مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً هُوَ أَحَبَّ إِلَيهِمْ مِنْهُ» (٧٤٧) ﴿وَلَا يَرْهَقُ

---

٧٤٧ - أخرجه مسلم (٢/١٩ - ٢٠ - النووي): كتاب الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه وتعالى حديث (١٨/٢٩٧) والتّرمذي (٤/٦٨٧): كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في رؤية الرّب تبارك وتعالى، حديث (٢٥٥٢)، وقال: هذا حديث إنما أسنده حماد بن سلمة ورفعه، وابن ماجه (١/٦٧) المقدمة، حديث (١٨٧).

كلهم من طريق ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ به.

قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٢٤):

والعجب أن التّرمذي لما روى هذا الحديث في كتابه، لم يحسنه ولم يصححه ولا قال: وفي الباب عن أحد من الصحابة، وإنما قال: هكذا رفعه حماد بن سلمة، وقد رواه سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله، لم يذكر فيه عن صهيب، عن النبي ﷺ أ.هـ.

---

(١) قوله: «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة، خلاف المعتزلة في ذلك (ع).

(٢) ذكر محمود في الزيادة تفاسير كثيرة، ثم قال: «وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى... إلخ». قال أحمد: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة: مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علماً، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاؤوا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، حملاً له على أنه جاء به من عنده، فلأهل السنة إذاً أسوة بصاحبها، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق. وإن في قوله تعالى على أثر ذلك ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ مصداقاً لصحة هذا التفسير، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأل الله الكفاية. فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم، منهم شقي وسعيد.

(٣) قوله: «بحديث مرقوع بالقاف، أي مفترى، كذا قيل. وهو في مقابلة المرفوع بالفاء، أي المضاف إلى النبي ﷺ».

﴿وُجُوهَهُمْ﴾: لا يغشاها، ﴿قَتَرٌ﴾: غبرة فيها سواد، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: ولا أثر هوان وكسوف بال، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكاراً بما ينقذهم منه برحمته؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٤١]، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، وكيف يتلاءم؟

قلت: لا يخلو، إمّا أن يكون: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾: معطوفاً على قوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإمّا: أن يقدّر: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وهذا أوجه من الأوّل؛ لأنّ في الأوّل عطفاً على عاملين، وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرىء: «يرهقهم ذلة»، بالياء، ﴿مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، ﴿مُظْلِمًا﴾: حال من الله، ومن قرأ (قطعاً) بالسكون من قوله: (بقطع من الليل)، جعله صفة له؛ وتعضده قراءة أبيّ بن كعب: «كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم».

فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل، فما العامل فيه؟

قلت: لا يخلو إمّا أن يكون: (أغشيت) من قبل إن (من الليل): صفة لقوله: (قطعاً)، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وأما: أن يكون معنى الفعل في: (من الليل)[1].

= قال الحافظ:

قال الطيبي: قوله «مرفوع» هو عنده بالقاف، أي مرقع معدي. وهو عند أهل السنة بالفاء اهـ. وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. ورواه الترمذي وقال: كذا رفعه حماد بن سلمة. وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قوله. انتهى. وفي الباب عن أبي موسى مرفوعاً أخرجه الطبراني في مسند الشاميين. وللطبري. وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه بإسنادين ضعيفين. وعن أبي بكر الصديق أخرجه إسحاق في مسنده من رواية عامر بن سعد عنه. وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضاً. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «أما الوجه الأول فهو بعيد، لأن الأصل أن يكون العامل في =

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿مَكَانَكُمْ﴾: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم[(١)]، و﴿أَنتُمْ﴾: أكد به الضمير في مكانكم؛ لسدّه مسدّ قوله: الزموا، ﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾: عطف عليه، وقرىء: (وشركاءكم) على أنّ الواو بمعنى: مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل؛ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: ففرّقنا بينهم، وقطعنا أقرانهم، والوصل[(٢)] التي كانت بينهم في الدنيا، أو: فباعدنا بينهم بعد/ ٣١٥أ الجمع بينهم في الموقف، وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم؛

= الحال هو العامل في ذي الحال، والعامل في «مِنَ اللَّيْلِ» هو الاستقرار «وأَغْشِيَتْ» عامل في قوله: «قِطَعاً» الموصوف بقوله: «مِنَ اللَّيْلِ» فاختلفا، فلذلك كان الوجه الأخير قطعاً مستقرة من الليل أو كائنة من الليل في حال إظلامه». قُلْتُ: ولا يَغْنِي الزمخشري بقوله: إنَّ العامل «أُغْشِيَتْ» إلا أنَّ الموصوف وهو قِطَعاً» معمول لـ «أُغْشِيَتْ»، والعامل في الموصوف هو عامل في الصفة، والصفة هي «مِنَ اللَّيْلِ» فهي معمولة لـ «أُغْشِيَتْ»، وهي صاحبة الحال، والعامل في الحال هو العامل في ذي الحال فجاء من ذلك أن العامل في الحال هو العامل في صاحبها بهذه الطريقة، ويجوز أن يكون «قِطَعاً» جمع: قِطْعَةٍ أي: اسم جنس فيجوز حينئذٍ وصفه بالتذكير نحو «نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»، والتأنيث نحو: «نَخْلٍ خَاوِيَةٍ»، وأما قراءة الباقين فقال مكي وغيره: «إن مُظْلِماً». حال من «اللَّيْلِ» فقط، ولا يجوز أن يكون صفة لـ «قِطَعاً» ولا حالاً منه، ولا من الضمير في «مِنَ اللَّيْلِ»، لأنه كان يجب أن يُقالَ فيه: مُظْلِمَة قُلْتُ: يعنون أن الموصوف حينئذٍ جمع، وكذا صاحب الحال، فتجب المطابقة، وأجاز بعضهم ما منعه هؤلاء وقالوا: جاز ذلك، لأنه في معنى الكثير، وهذا فيه تَعَسفٌ، وقرأ أُبَيٌّ: «تَغْشَى وُجُوهَهُمْ قِطَعٌ» بالرفع «مُظْلِمٌ» وقرأ ابن أبي عبلة كذلك، إلا أنه فتح الطاء وإذا جعلت «مُظْلِماً» نعتاً لـ «قِطَعاً» فتكون قد قدمت النعت غير الصريح على الصريح، قال ابن عطية: فإذا كان نعتاً يعني: «مُظْلِماً» نعتاً لـ «قِطَعٌ» فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعد هذا وتقدير الجملة: قطعاً استقر من الليل مظلماً على نحو قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وتقديره له بـ «الزموا» ليس بجيد، إذ لو كان كذلك لتعدى كما يتعدى ما ناب هذا عنه، فإنّ اسم الفعل يعامل معاملة مسماه، ولذلك لما قدروا «عَلَيْكَ» بمعنى: الزم عدوه تعديته نحو: «عَلَيْكَ زَيْداً» وعند الحوفي: «مَكَانَكُمْ» نصب بإضمار فعل، أي: «الزموا مكانكم أو اثبتوا». قُلْتُ: فالزمخشري قد سبق بهذا التفسير، والعذر لمن فسّره بذلك أنه قصد تفسير المعنى، وكذلك فسره أبو البقاء فقال: «مَكَانَكُمْ» ظرف مبني لوقوعه موقع الأمر، أي: «الزموا». وهذا الذي ذكره من كونه مبنيا فيه خلاف للنحويين منهم من ذهب إلى ما ذكر، ومنهم من ذهب إلى أنها حركة إعراب، وهذان الوجهان مبنيان على خلاف في أسماء الأفعال هل لها محل من الإعراب أو لا؟ فإنْ قُلْنا: لها محل كانت حركات الظرف حركات إعراب، وإن قُلْنَا لا موضع لها كانت حركات بناء، انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «أقرانهم» مفرده «قرن» بالتحريك وهو حبل يقرن به البعيران، كما في الصحاح. قوله: «والوصل» مفرده «وصلة» أي اتصال وذريعة، كما في الصحاح أيضاً (ع).

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]. وقرىء: فزايلنا بينهم؛ كقولك: صاعر خدّه وصعره، وكالمته وكلمته، ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: إنما كنتم تعبدون الشياطين؛ حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِن كُنَّا﴾: هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وهم: الملائكة، والمسيح، ومن عبدوه من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله ـ عزّ وجلّ ـ تشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم، ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان، ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾: تختبر وتذوق، ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن؛ أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، وعن عاصم: «نبلو كلَّ نفس»، بالنون ونصب كل، أي نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها: إن كان حسناً فهي سعيدة، وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى: نفعل بها فعل الخابر؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء، وهو العذاب: كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرىء: «تتلو»، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأنَّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شر، ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾: ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرىء: «الحقَّ»، بالفتح على تأكيد قوله: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح؛ كقولك: الحمد لله أهل الحمد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يرزقكم منهما جميعاً[1]، لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه/ ٣١٥ب فيما أنتم بصدده من الضلال، ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾: إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله، ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ يعني: أن الحق والضلال، لا واسطة بينهما؛ فمن تخطى الحق، وقع في الضلال، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثل ذلك الحق، ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق؛ فكذلك حقت كلمة ربك، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾: أي: تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بدل من الكلمة، أي: حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن، أو: أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وهم غير معترفين بالإعادة؟

قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً؛ رادّا للظاهر البين، الذي لا مدخل للشبهة فيه؛ دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾،

---

(١) قال محمود: «معناه أي من يرزقكم منهما جميعاً... إلخ» قال أحمد: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم، يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى؛ ومنه قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾[1]، وقرىء: «لا يهدّي» بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال، والأصل: «يهتدي»، فأدغم، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت؛ لالتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء؛ لاتباع ما بعدها، وقرىء: «إلا أن يهدي» من هداه وهدّاه للمبالغة، ومنه قولهم: تهدي، ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق، بما ركب في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم، ووفقهم، وألهمهم؛ وأخطر ببالهم، ووقفهم على الشرائع؛ فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كـ «الملائكة، والمسيح، وعزير»، يهدي إلى الحق مثل هداية الله، ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذي لا يهدي، أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه، ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾: إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: بالباطل؛ حيث تزعمون/ ٣١٦ أ أنهم أنداداً لله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾: في إقرارهم بالله، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾: في معرفة الله، ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: وهو العلم، ﴿شَيْـًٔا﴾، وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة، وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر: الجميع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾: وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء، وقرىء: «تفعلون»، بالتاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

---

(١) قوله ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ من قولهم: هدي بنفسه. أم من لا يهدي، كيرمي. وقوله: بفتح الهاء... إلخ: بقيت القراءة بكسرها مع التشديد، وقد أشار إليها بقوله: «أو كسرت» والقراءة كيرمي لحمزة وعلي. وبالفتح مع التشديد للمكي والشامي. وبالكسر معه لعاصم. والأصل: يهتدي. وهي قراءة عبد الله، أفاده النسفي (ع).

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾: افتراء، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن﴾: كان ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، وهو: ما تقدمه من الكتب المنزلة؛ لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [فاطر: ٣١]، وقرىء: «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب»، على: ولكن هو تصديق وتفصيل، ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ﴾: وما صحّ وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفتري ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤].

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟

قلت: هو داخل في حيز الاستدراك؛ كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين، وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون: (من رب العالمين): متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون: (لا ريب فيه): اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: بل أيقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قُلۡ﴾: إن كان الأمر كما تزعمون، ﴿فَأۡتُواْ﴾: أنتم على وجه الافتراء، ﴿بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾: فأنتم مثلي في العربية والفصاحة، ومعنى: (بسورة مثله) أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرىء: «بسورة مثله»، على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله، ﴿وَٱدۡعُواْ﴾: من دون الله، ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾: من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله، يعني: أنّ الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: أنه افتراء، ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ﴾: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم؛ وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشىء على التقليد من الحشوية، إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ـ وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة ـ أنكرها ما في أوّل وهلة،/ ٣١٦ب واشمأز منها قبل أن يَحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾؟

قلت: معناه: أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل[1]؛ تقليدا للآباء، وكذبوه بعد التدبر؛ تمرداً وعناداً، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع؛ ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه لما كرّر عليهم التحدّي، ورازوا قواهم[2] في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾: يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم: من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ، ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: بالمعاندين، أو المصرين.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: وإن تموا على تكذيبك[3]، ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾[4]: معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن،

---

(١) قال محمود: «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل... إلخ» قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذراً ما للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «ورازوا قواهم» أي جربوها وخبروها. أفاده الصحاح (ع).

(٣) قوله: «وإن تموا على تكذيبك» أي مضوا عليه ولم يرجعوا عنه. أفاده الصحاح (ع).

(٤) يقول ـ سبحانه ـ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾... نقول: هذا الأسلوب وهو حديث الاستفهام من

وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلة

= أقوى الأساليب الإنشائية الواردة في القرآن الحكيم، ولذا وجب في هذه التعليقات أن نحدد مسارات تكون منارات للسالكين، وإرشادات للباحثين، فنقول وبالله التوفيق:

١ ـ **تعريف** الاستفهام عند اللغويين: هو طلب الفهم، أي معرفتك الشيء بالقلب، أو فهمه الأمر، وفهمه إياه، وجعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فافهمته، وفهمته تفهيماً. «وهذا كله من لسان العرب ونحوه مادة: فهم».

وأما في الاصطلاح فكما قال السعد في مطوله: «وهو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور».

وبالمقارنة بين المعنيين نلاحظ اتصالاً وثيقاً.

وقد وزع البلاغيون الأدوات على النحو التالي:

١ ـ ما يكون للتصور والتصديق وهو «الهمزة» وحدها.

٢ ـ ما يكون للتصديق فقط وهو «هل» وحدها.

٣ ـ ما يكون للتصور فقط وهو «تسع أدوات على التوالي: من، ما، أي، كم، متى، أين، أنى، أيان، كيف».

وسنذكر المعاني الواردة في القرآن الكريم بهذه الأدوات مع ملاحظة أن الاستفهام الحقيقي لم يقع إلا حكاية عن العباد، وأما ما ورد عن الله مباشرة فله معانٍ تستطيع أن تكشف عنها بطريق المقام، ورعاية مدارج الأساليب، وسأضع لهذه المعاني رؤوساً تكون باباً يلج منه الدارسون، والباحثون.

٢ ـ **المعنى الحقيقي**: وقد رأينا هذا المعنى مع «هل» في قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

فهذا الاستفهام تراه على طريق طلب الفهم وهو المعنى الاصطلاحي لأنه حكاية ـ عن الحواريين وما أرادوه من نبيهم عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وفي الآية كلام طويل وأخذ ورد، ولكل وجهة هو موليها، ومن أراد الغاية فعليه بأسفار العلوم في البلاغة والتفسير، وهاك بعضها:

«المطول للسعد ٢٢٦، الإيضاح للقزويني بتحقيق خفاجي عليه ٥٨/٣، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي مع شرح المرشدي عليه ١/ ١٧٤، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣/ ٣٠٠، والفتوحات الإلهية للجمل على الجلالين ٥٤٢/١، وحاشية الصاوي على الجلالين ١/ ٢٧٤، وفتح القدير للشوكاني ١٧/٤، وتفسير أبي السعود ٢/ ٤٩٧ وما بعدها».

٣ ـ **المعاني المجازية** تتوالد هذه المعاني مفرعة على المعنى الحقيقي بمعونة المقام، وقرائن الأحوال، ومتتبعات التراكيب يقول السكاكي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ: واعلم أن هذه الكلمات كثيراً ما يتولد منها أمثال ما سبق ـ أي من كلامه ـ بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هنا؟، ومن هذا؟ المجرد الاستخفاف والتحقير، وما لي؟ للتعجب وسأحاول بقدر جهدي أن أقف مع هذه المعاني على النحو التالي:

التقدير وهو: حمل المخاطب على الإقرار والإذعان بمضمون الجملة وإلجائه إلى ذلك» وهذا تحديد السعد، وهو التعريف اللغوي ـ أيضاً ـ.

ويأتي هذا المعنى مع: الهمزة، هل، من، ما، أي، كيف والأمثلة على التوالي: يقول ـ سبحانه ـ =

الصدق، وأعلام النبوّة، ولكنهم لا يصدقون، ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع

= ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] يقول ـ عز شأنه ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فهذا الاستفهام ـ هل عسيتم ـ لتقرير ما هو متوقع عنده، والإشعار بأنه كائن واعتنى بذلك المعنى بواسطة الشرط كما أفاده الشوكاني ـ رحمه الله ـ ويقول ـ جل جلاله ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] فهذا النظم القرآني فيه أمر لرسول الله ﷺ أن يقررهم بمن رب السموات والأرض، فسكتوا حذراً من الإلزام فكان الجواب من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ نيابة عنهم: الله.

ويقول ـ عز من قائل ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧]. والقصد من السؤال: تقرير هذا الشأن ليقول: هي عصاي حتى إذا حدثت المعجزة بعد التثبت منها نبه إلى حاله الجديد، وأنه أصبح رسول الله.

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٧، ١٨، ١٩] والمغزى في هذا الاستفهام: التقرير ليخضع له، وليعبده حق عبادته.

ويقول ـ جل جلاله ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣، ٤٤] فهذا الختام بطريق الاستفهام يحمل معنى. التقرير وهو معانٍ أخرى كالتسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ والعظة، والوعد والوعيد.

وفي هذه الآيات ونظائرها مباحث قوية منشورة في كتب التفسير «ينظر فتح القدير ١/٢٦٤، ٢/١١٧، ٥/٨٧، ٣٤٤، ٣/٣٥٧، ٧٤، ٣٦، ٥/٣٨٤، ٤٥٨، ٤٥٦، تفسير ابن كثير ١/٣٠٠، النسفي ٢/١٢، الشهاب على البيضاوي ٢/٣٢٨، الرازي ٦/١٨٤».

الإنكار: وهو الجحود، وقد عرفه البلاغيون بأنه الأمر الذي ينفيه المتكلم، فإذا سمع قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠] علم أن معناها: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان في الثواب، ففي هذا النفي إنكار أن يكون جزاء الإحسان غير الإحسان.

ومع هذا النفي والإنكار ترى معاني أخرى تلمح من خلال المقام، والدارس لها تلوح له المعاني التي يتبناها المقام ولا يتم بدونها القصد من الكلام.

وقد ورد هذا المعنى مع الأدوات الآتية:

الهمزة ـ هل ـ من ـ ما ـ كيف ـ متى والأمثلة لها من القرآن هكذا:

١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] «وأم هذه منقطعة، وفيها معنى الهمزة التي للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده، وفي الآية كلام للمفسرين يراجع في محله.

ومع هذا المعنى تراهم يذكرون المعاني الدائرة في فلكه كالاستبعاد، والتسلية لرسول الله ﷺ والثبات، والوعد والوعيد...

٢ ـ ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ حتى قوله ـ تعالى ـ ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٣، ١٥٤] والتقدير: ما لنا شيء من الأمر، وبهذا ترى الإنكار واضحاً في قولهم الذي أخبر به رب العالمين الخبير بما في نفوسهم، وعلى هذا =

الصم، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا

= يكون الاستفهام للإنكار، والقائلون هم المنافقون وإفادة الجملة الاسمية للثبوت والاستمرار يقوي هذا الإنكار. وقد جعله «أي الاستفهام» استرشاديا من الحاضرين جمع من المفسرين وعلى رأسهم العلامة الألوسي في روح المعاني.

وبعضهم جعله استفهاماً حقيقيا بدليل أن الجواب بالإثبات حيث جاء على هذا النحو «قل إن الأمر كله لله» وترى هذا لأبي حيان، ورده الألوسي بأنه خلاف الظاهر، والجواب المذكور إثبات للنصر على أتم وجه وأبلغه.

ومع هذا الإنكار تشم رائحة «التمني» ولا مانع من جمع المعاني إذا تحملها النظم، والقرآن حمال أوجه.

٣ ـ ويقول ـ سبحانه ـ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٩].

والأداءة «من» أفادت «الإنكار» في الأسلوبين ومعه «التوبيخ» لهؤلاء المجادلين عن غيرهم بالباطل في الدنيا، فمن ذا الذي يدافع عنهم يوم يقوم الأشهاد؟ وهذا ما فهمه الشوكاني وتستطيع مراجعة معاني هذه الأدوات «الهمزة ـ هل ـ من» في المراجع الآتية:

فتح القدير للشوكاني ١/٥١١، ١/٣٩١، ٢/٤٨٥، ٤٨٦، ومختار الصحاح مادة (نكر) واللسان: مادة (هلل)، ومغني اللبيب لابن هشام وحاشية الأمير عليه ٢/٢٧، والمطول للسعد ٢٣٨، وروح المعاني للألوسي ٢/١٠٣، ١٠٤، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢/٢٩٩، ومفاتيح الغيب للرازي ٣/٢٨٢.

٤ ـ ويقول ـ عز وجل ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فهذا الاستفهام بطريق «ما» للإنكار بمعنى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه وقد أحله الله لكم؟، فالإنكار ينصب على عدم الأكل مما ذبح ذبحاً شرعيا، وقد فصل الله ما هو محرم منها ما عدا حال الاضطرار فإن الأخذ بأخف الضررين واجب مشروع، وذلك فضل الله الكريم على عباده الضعفاء.

وقد أكد الإنكار بالجملة الحالية ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقد جعل العلامة القرطبي في تفسيره هذا الاستفهام للتقرير، وليس بظاهر، فما ذكره الشوكاني عن كونه للإنكار أحكم، وهذا ما وافق عليه كثير من المفسرين، وأضاف أبو حيان أن يفيد أمراً آخر وهو «التوبيخ» على عدم الأكل من الحلال.

وخلاصة ما في الآية: أن الاستفهام للإنكار وهو التوبيخ وقد يفيد التقرير وغيره مما يتحمله المقام.

وقد جاء **الإنكار** يتضمن **النهي** في قوله ـ عز شأنه ـ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٥٠] فهذا الإنكار المفاد من الآية يحمل معنى «لا تستعجلوه فإنه آت» وهو نهي.

٥ ـ ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨] فهذا الاستفهام المصور بالأداة «**كيف**» للإنكار والتعجب، لأن الله ـ جلت حكمته ـ قد أحياهم من عدم وأنعم عليهم بعد عُدْم، وأماتهم في نهاية آجالهم، ثم يحييهم للحساب والجزاء فكيف يكفرون بعد كل هذا؟، فهذا كله يفيد: الإنكار والتعجيب، ومعه التوبيخ، والاستبعاد، وفي الآية مبالغة، بحسب المقام.

٦ ـ وهذا إنكار بالأداة «متى» في قول الله ـ سبحانه ـ: =

وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر،

= ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨] ومقام الآية للإنكار، لأن القائلين هم الكفار الذين إذا هددهم رسول الله ﷺ بنزول العذاب يقولون: متى هذا الوعد؟ إنكاراً واستبعاداً وقدحاً في نبوة النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وفي هذا **الاستفهام** مع ما سبق: **استعجال** للوعيد، **واستهزاء** بهم، وقيل إنه على سبيل **التكذيب** لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وخلاصة هذا كله: إن الاستفهام يفيد الإنكار ولا مانع من تحمل معانٍ أخرى تنبع من المقام وتدور في فلك الإنكار، ومن يراجع الاستفهام في كتاب الله مع الغوص في بحار معانيه يؤتيه الله ـ سبحانه ـ فتحاً عجيباً.

«ينظر فتح القدير ٢/١٥٦، ٤٥١، ١/٥٩، ٢/٤٤٩، ١/٤٤١، والنسفي ٢/٣٠، ٣١، ١/٣٨، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٤/١١٩، وروح المعاني للألوسي ٨/١٤، ١٠/١٢٩، ١٣١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٢٥٩٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/٢١١ ومفاتيح الغيب للرازي ٨/٣٧٦».

التوبيخ والتهكم:

يقال: وبخ فلان فلاناً: هدده ولامه وأنبه كما يفهم من اللغة وهو المقصود بلاغة ويقال: تهكم به: استهزأ به، وبهذا يكون التوبيخ والتهكم متقاربين في المعنى، ولهذا نرى التعبير بهما في المباحث البلاغية فيقال ـ كما هو عند المفسرين، هذا توبيخ لهم وتهكم بهم. وهذا المعنى ينتشر في القرآن الكريم انتشاراً واسعاً حتى رأى المفسرون أنه أوسع المعاني انتشاراً في أساليب الإنشاء؛ ذلك أنه يعالج النفوس المريضة، ويهذب الطبائع الغليظة وهذا ما يناسب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد استعمل في هذا المقصود مجموعة من أدوات الاستفهام، ودخل فيه من أساليب الإنشاء الأخرى الأمر، والنهي، والنداء.

أما أدوات الاستفهام التي استعملت للتوبيخ والتهكم فهاك عن التوالي بعد الهمزة: هل، من، ما، كم، كيف، متى، أين، أيان. فلم يسقط من أدوات الاستفهام إلا «أنى» التي معناها: كيف أو من أين، فقد سقطت لفظاً لا معنى، وهذا المفهوم في هذا المعنى يفيد أن هذا المقصد له تأثيره التام على النفوس وطب القلوب في كثير من المقامات.

هذا، ونظراً لاتساع هذا البحث سأورد مثالاً من كثير من الآيات لكل أداة على الترتيب السابق.

فالتوبيخ بالهمزة لقوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤] وقد بين العلماء في الآية أن الاستفهام **للتوبيخ** ومعه **التعجب والإنكار، والتقرير مع المبالغة** وإن كان الباحث يرى التقرير غير ظاهر خلافاً لبنية المعاني التي يتسع لها المقام والكلام. وقد يأتي مع التوبيخ التعجيز كقوله ـ سبحانه ـ:

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: ١٠] ففي الحديث معهم **توبيخ** على ما يقولون **وتعجيز** لهم بما طلب منهم ولا يستطيعون.

أما **التوبيخ بهل** فتراه في قول الله ـ سبحانه ـ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١] فقوله ـ جلت حكمته ـ «فهل أنتم منتهون» يفيد الزجر البليغ بالاستفهام ليس =

واتحسب انك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى العمي ـ وهو فقد البصر ـ فقد

= التوبيخي، ولهذا قال سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ لما سمع هذه الآية: «انتهينا» وقد رأى المفسرون بعد البحث المتأني في الآية هذه المعاني:
١ ـ إفادة الأمر والمعنى: انتهوا.
٢ ـ المبادرة إلى الانتهاء وسرعة التنفيذ.
٣ ـ التقريع والتوبيخ.
٤ ـ الزجر والتحذير مع تحريك العقل لفهم هذا الأمر.
ومن أراد المزيد فعليه بالمراجع الآتية:
«ينظر النسفي ١/٣٠١، حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/ ٢٨٠، الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٥٢٣، روح المعاني للألوسي ٧/١٧، حاشية الصاوي على الجلالين ١/ ٢٦٤، ٢٦٥، مفاتيح الغيب للرازي ٦/١٢٩، وما بعدها، لسان العرب مادة (وبخ ـ هكم) وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٧٤.
والتوبيخ بمن كما في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].
فهذا الاستفهام «بمن» يفيد: التقريع والتوبيخ، ويرى بعض الأعلام ومنهم أبو السعود أنه يفيد **الإنكار** عليهم لهذا الدعاء للأصنام وأن أحداً يساويهم في هذا الضلال ولا مانع من المعاني البلاغية التي تتحملها الآية فالقرآن حمال أوجه، ولا تزاحم بين الأسرار وقد يرى في آية أخرى معنى التعريض، وهذا واضح عند قوله ـ تعالى ـ:
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] فهذا الاستفهام بحسب توجيه الخطاب يتحمل المعاني الآتية:
١ ـ ذم أهل الكتاب لأنهم كتموا حال الأنبياء، ودعوا لما هو مخالف لهم.
٢ ـ توبيخهم على كتمانهم صفة خاتم النبيين.
٣ ـ لو توجه هذا الكلام للمسلمين لكان تقريعاً لهم إذا كتموا هذه الشهادة، وفيه **تعريض** بأهل الكتاب.
والتوبيخ بما في قوله ـ سبحانه ـ يحدثنا عن بني إسرائيل:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] فهذا الاستفهام الخاتم للآية تذييل يفيد معاني كثيرة، وخلاصتها كما هو مثبوت في كلام العلماء: أن الاستفهام يفيد:
التوبيخ، والتهديد، والتكذيب في ادعاء قولهم: «نؤمن».
وقد يأتي مع التوبيخ: التعجيب والتشنيع كما في ختام الآية:
﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].
ويأتي **التوبيخ بأي** الاستفهامية في قوله ـ تعالى ـ:
﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].
ومع التوبيخ البين معانٍ أخرى لحظها العلماء وهي: **التعريض، والوعد، والوعيد ويأتي التوبيخ بكم** كقوله ـ تعالى ـ:
﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١١].

البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس . . . .

= فهذا الاستفهام «بكم» الاستفهامية تفيد: **التقريع والتوبيخ مع التقرير**، ويصح أن تكون خبرية لإفادة التكثير في الآيات فإذا لم يؤمنوا مع كثرتها كان ذلك دليلاً على شدة كفرهم، وهذا توبيخ لهم ـ أيضاً ـ من هذا السبيل.

«ينظر فتح القدير ٥/ ١٤، ١/ ١٤٨، ١١٣، ٢/ ٤٤٥، ٢/ ٢٧٢، ٥/ ١١٧، ١/ ٢١٢، والنسفي ٤/ ١٤٠، ٢/ ٨٨، ١/ ١٠٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤/ ١٩٥، ٧/ ٣٨٣، ٣/ ٢٦١، ٢٦٢، روح المعاني للألوسي ١/ ٢٣٤، ٣٢٥، ٩/ ١٢٩، ٢/ ٩٩، حاشية الشهاب ٢/ ٢٠٥، والجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٢٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٢٦».

ويأتي **التوبيخ بكيف** كقوله ـ تعالى ـ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] والتوبيخ للكفار لأنه في يوم القيامة لا يجد هؤلاء شهيداً لهم مع وجود شهداء للمؤمنين، ولهذا المعنى بكى رسول الله ﷺ حينما سمع الآية من سيدنا عبد الله بن مسعود وقد بحث المفسرون بذوقهم هذا الاستفهام، ولكل وجهة، وجملة ما حصلته منهم أن هذا الاستفهام بمعونة المقام يفيد: **التوبيخ، والتفخيم والتهويل، والتبشير** لرسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ كما أن فيه **وعداً** للمؤمنين، **ووعيداً** للكافرين.

ويأتي **التوبيخ بمتى الاستفهامية** كقوله ـ سبحانه ـ:

﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ الآيات إلى قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء ٤٩، ٥٠، ٥١] وهو **استهزاء منهم وسخرية**، وفيه **إنكار وتعجيب واستبعاد**، ولكل مقام معنى يناسبه.

ونرى هذا المعنى مع **«أين»** كقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢] ووجه التوبيخ أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو حاضرة ولكنهم لا ينتفعون بها فوجودها كالعدم.

وقد لمح الزمخشري في الآية معنى **التحسير** لأن المقام فيه خزي لهم، وهذا التحسير يتولد من التوبيخ، وبهذا يفيد الاستفهام: التوبيخ ويدور معه التحسير.

ويأتي هذا المغزي مع **«أيان»** في قوله ـ تعالى ـ:

﴿قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ [الذاريات ١٠، ١١، ١٢] فهذا الاستفهام **للاستهزاء والتكذيب** ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة المصنفات الباحثة في معاني القرآن ككتب التفسير والبلاغة خصوصاً التي تعنى باستخراج درر كتاب الله الحكيم ومن أهمها هذه المراجع:

«فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٦٧، ٣/ ٨٤، ٨٥، ٢/ ١٠٧، ٥/ ٨٤ وينظر روح المعاني للألوسي ففيه كفاية وغناء ٥/ ٣٣، ٣٤، ١٥/ ٩٢، ٧/ ١٢١، ١٢٢، والنسفي ١/ ٢٢٦، ٢/ ٣١٧، ٢/ ٧، وسنن الترمذي مراجعة: عبد الرحمن عثمان ٤/ ٣٠٤، ٣٠٥، ففيه أبواب تفسير القرآن. ومفاتيح الغيب للرازي ٥/ ٢١٧، ١٠/ ١١، ١٢، ٦/ ٢٥٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ١٨٦٢، ١٨٦٣، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٣٩ والإيضاح للقزويني مع حواشي ٣/ ٧٣ وما بعدها، والمطول للسعد ٢٣٥ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٥٠ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لمحمد أبي موسى ٣٥٦ وما بعدها، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي متناً وشرحاً ومعه شرح المرشدي ١/ ١٨٥ وما بعدها».

التفخيم: أي تفخيم المستفهم عنه كذا جاء قوله ـ تعالى ـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبأ: ١] والمعنى =

= فيه: عن أي شيء يتساءلون؟ أي هو أمر عظيم له حظره، وقد بين المفسر هذا شافياً.

الاستبعاد: وهذا ما لمحه المفسرون في قوله ـ سبحانه ـ حكاية عن زوجة نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وهو استبعاد من جهة العادة التي طبع الله الناس عليها، ولهذا أنكرت الملائكة عليها تعجبها «أتعجبين من أمر الله».

المبالغة في طلب الفعل والحض عليه: وقد أورد هذا المعنى الزمخشري عند قوله ـ تعالى ـ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وقد بينت ما في الآية آنفاً.

التعبير: وهذا ما ورد في قوله ـ تعالى ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] لأنهم أهل كتاب وعلم فكيف يبغون هذا الحكم؟.

التعجب: وهذا ما يلمح في قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] لأنه قد أوضح الله لهم الحكم في التوراة فكيف يبغون تحكيمك؟ **إفادة إن المستفهم عن أمره مشهور** ذائع كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] وفيه تشويق إلى سماع هذا النبأ.

الاستبطاء: وهذا ما لمحه العلماء في قوله ـ تعالى ـ حكاية ـ عن اجتماع سحرة فرعون والناس معهم ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠] فهذا الاستفهام فيه استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم وحثهم على المسارعة.

لفت المسؤول إلى المسؤول ليتبينه تمهيداً الإحداث أمر عظيم فيه كما في قوله ـ سبحانه لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: ١٧] فالقصد إلى بيان عظمة المولى ـ عز وجل ـ في هذه العصا وهي خشبة يابسة من قلبها حية بقدرته جل وعلا ـ، وهذا ما يفعله السحرة، لكن شتان بين قدرة القادر، وفعل الساحر العاجز. وهناك معانٍ أخرى في حاجة إلى فحص كلام المولى في مقاماته المختلفة، ومن أراد المراجعة فعليه بالمصنفات التي جمعت الاستفهام في القرآن الكريم، وفي ذلك رسائل جامعية في جامعة الأزهر وسواها.

وبعد أن بينت بعض المعاني المجازية أقول: هل أشار الزمخشري إلى وجه تحصيل هذه المعاني من أدوات الاستفهام؟ وكيف دلت هذه الأدوات عليها؟ بطريق الحقيقة أم بالمجاز أم بطريق أنها من مستتبعات التراكيب؟

والحقيقة أننا لا نجد جواباً شافياً عند الزمخشري، وقد تعسف المتأخرون في العلاقات بين الاستفهام بأداته والمعنى المراد كما بيناه.

والعلامة الزمخشري كان دائماً يقصد إلى المعنى المراد ولا يلتفت إلى وجه الاستعمال.

«يراجع البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى ٣٥٦ وما بعدها» كما تنظر المراجع السابقة بصفحاتها.

هذا ما كان من أمر الاستفهام في معناه الحقيقي وما يرمز إليه من معانٍ مجازية جاءت من طبيعة المقام ومستتبعات التراكيب، وفيما سردته إشارة لما أراد الغاية والهداية، وفي المراجعات فوائد ومهمات، أما جواب الاستفهام فقد ركزه العلامة أبو موسى في مصنفه البلاغة القرآنية بصورة لطيفة موجزة مغنية، وخلاصة ذلك في النقاط الآتية:

١ ـ يأتي الجواب غير مباشر لملاحظة دقيقة كالزيادة والتعميم عما يتطلبه السؤال في مقام الابتهاج والافتخار، وهذا ما لحظه الزمخشري عند قوله ـ سبحانه ـ:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١] وكان يكفي في الجواب: أصناما كما جاء الجواب في قوله ـ تعالى ـ: =

ويتظنن[1]، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصمّ والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ . . . أَفَأَنتَ﴾[2]: دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله ـ عزّ وجلّ ـ بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل، إلا هو وحده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال/ ٣١٧أ الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب؛ ويجوز: أن يكون وعيداً للمكذبين، يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

= ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] ولكن المولى القدير الخبير أتى بما تكنه صدورهم وعبرت عنهم أفواهم.

٢ ـ وقد يأتي الجواب مؤكداً على أحد معاني السؤال تاركاً سواه كما في قوله ـ تعالى ـ:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طـه: ٨٣، ٨٤] فالسؤال عن سبب العجلة وجوابه بنحو، طلب زيادة.

رضاك ـ مثلاً ـ، ولكن الجواب جاء بهذا النظم لبيان العذر والعلة، وأنه لم يوجد منه تقدم كبير وإنما هو كتقدم رأس الوفد، ثم جاء جواب السؤال ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

٣ ـ وقد يكون في الجواب تهديد لينطبق على ما في السؤال من إنكار، ويلحظ هذا في قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠] فهم منكرون البعث متهكمون بقولهم هذا، فلا أن يكون الجواب قويا واقعاً لباطلهم.

٤ ـ وقد يكون الجواب غير ما في السؤال، لأن السؤال عن شيء واضح مشهور، ثم ينبني على هذا الجواب كلام يوجبه المقام، ولهذا يكون ذكر الكلام بهذا الطريق توكيد لجواب السؤال وتقرير له ويتضح هذا في قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] والجواب العادي لهذا السؤال: مرسل، ولكنهم جعلوا هذا الجواب معلوماً لا يحتاج إلى بيان وإنما الكلام الذي يجب أن يعلموه هو: إنا آمنا به، ولهذا جاء جواب الكثرة عليهم «إنا بالذي آمنتم به كافرون» فوضعوا «آمنتم به» موضع «أرسل به» لأنهم حولوا البيان إلى ما يجب.

هذا ما كان من أمر الجواب للسؤال القرآني وأسراره، والمدقق يلاحظ أنماطاً بلاغية عجيبة؛ لأن الذي نظم آيات القرآن هو العليم بأسرار النفوس، الخبير بما تنطوي عليه الصدور، ونحن بتوفيق الله لنا نصل إلى بعض هذه المعاني، فالقرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة التزداد، وصدق رب العالمين إذ يقول فينا:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]

«يراجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د. محمد أبو موسى ٣٦٦ وما بعدها».

(١) قوله: «ويتظنن» أي يعمل ظنه. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور؛ لهول ما يرون، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً؛ وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم؛ لشدّة الأمر عليهم.

فإن قلت: (كأن لم يلبثوا)، و(يتعارفون)، كيف موقعهما؟

قلت أما الأولى: فحال من «هم»، أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة؛ لقوله: «كأن لم يلبثوا إلا ساعة»؛ لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قَدْ خَسِرَ﴾: على إرادة القول، أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله ـ تعالى ـ على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم[1] وبيعهم الإيمان بالكفر، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾: للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: جواب نتوفينك، وجواب نرينك محذوف، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟

قلت: ذكرت الشهادة، والمراد: مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبلة: «ثَمَّ»، بالفتح، أي: هنالك، ويجوز أن يراد: أنّ الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة؛ حين ينطق جلودهم، وألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، شاهدة عليهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾: يبعث إليهم؛ لينبههم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق، ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾: هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾: بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه، ﴿قضي بينهم﴾ أي: بين النبي ومكذبيه، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، أو لكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسولٌ تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ

(١) قوله: «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح: وضع الرجل في تجارته وأوضع ـ على ما لم يسم فاعله ـ وضعاً فيهما، أي خسر (ع).

بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له، ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾: من مرض أو فقر، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: من صحة أو غنى، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: استثناء منقطع: أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله، وحدّ محدود من الزمان، ﴿إِذَا جَآءَ﴾: ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين/ ٣١٧ب: «فإذا جاء آجالهم».

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

﴿بَيَٰتًا﴾: نصب على الظرف، بمعنى وقت بيات.

فإن قلت: هلا قيل: ليلاً أو نهاراً؟

قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نَهَارًا﴾ معناه: في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب؛ ونحوه: ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأعراف: ٩٨]، الضمير في ﴿مِنْهُ﴾: للعذاب، والمعنى: أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه: التعجب؛ كأنه قيل: أي شيء هول شديد[1] يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من»: للبيان في هذا الوجه، وقيل: الضمير في (منه): لله تعالى.

فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟

قلت: تعلق بأرأيتم؛ لأنّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

---

(١) قوله: «أي شيء هول شديد» لعله أي شيء أتى هولاً شديداً.

فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه[1]؟

قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام؛ لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: جواباً للشرط؛ كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم تتعلق الجملة بأرأيتم، وأن يكون: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ جواب الشرط، و﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: اعتراضاً، والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨]. ﴿الآن﴾: على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به، ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرىء: «آلان»، بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام، ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾: عطف على «قيل» المضمر قبل «آلآن».

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

﴿ويستنبئونك﴾: ويستخبرونك فيقولون، ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾: وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: «آلحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء؛ لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل؛ وذلك أنّ اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحق، والضمير للعذاب الموعود، و﴿إي﴾ بمعنى: «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى: «قد» في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: «إيوَ»، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

﴿ظَلَمَتْ﴾: صفة لنفس على: ولو أنّ لكل نفس ظالمة، ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما في

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل ماذا تستعجلون منه... إلخ»؟ قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمر. والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة، والله أعلم.

الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها، وجميع منافعها على كثرتها، ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾: لجعلته فدية لها، يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه/ ٣١٨أ ـ أيضاً ـ بمعنى: فداه، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدّة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء، ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب؛ كما ترى المقدّم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة[1]، ويبقى جامداً مبهوتاً، وقيل: أسرّ رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سرّ الشيء، لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره، وليس هناك تجلد، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر الظلم، ثم أتبع ذلك الإعلام بأنّ له الملك كله؛ وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يغتر به المغترون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد، ﴿وَ﴾: هو ﴿شِفَآءٌ﴾ أي: دواء، ﴿لِّمَا فِى﴾: صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: لمن آمن به منكم، أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا؛ والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين؛ لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح؛ فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا، وقرىء: «فلتفرحوا»، بالتاء وهو الأصل والقياس[2]، وهي قراءة رسول الله ـ ﷺ ـ فيما روي،

---

(١) قوله: «لا ينبس بكلمة» أي لا يتكلم. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إنها لغة قليلة» يعني: أن القياس أن يؤمر المخاطب بصيغة (أفعل) وبهذا الأصل، قرأ أُبي «فافرحوا» وهي في مصحفه كذلك، وهذه قاعدة كلية، وهي: أن الأمر باللام يكثر في الغائب والمخاطب المبني للمفعول، مثال الأول: «ليقم زيد» وكالآية الكريمة =

وعنه: «لِتَأْخُذُوا مَضَاجِعَكُمْ» (٧٤٨) قالها في بعض الغزوات، وفي قراءة أبيّ: «فافرجوا»، ﴿هُوَ﴾: راجع إلى ذلك، وقرىء: «مما تجمعون»، بالياء والتاء، وعن أبيّ بن كعب أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ فقال: «بكتاب الله والإسلام» (٧٤٩)، وقيل: «فضله»: الإسلام، «ورحمته»: ما وعد عليه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَرَءَيْتُم﴾: أخبروني، و﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: «ما» في موضع النصب بأنزل، أو بأرأيتم، في معنى: أخبرونيه، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: أنزله الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام؛ كقولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: متعلق بأرأيتم، وقل: تكرير للتوكيد، والمعنى: أخبروني: آلله أذن لكم في التحليل/ ٣١٨ب والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك

- - - - - - - - - - - - - - - - -

٧٤٨ ـ أخرجه التِّرمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣) من طريق مالك بن يخامر السكسكي عن معاذ بن جبل مرفوعاً، وهو حديث طويل.
وقال الحافظ: هذا طرف من حديث أخرجه التِّرمذي من حديث معاذ بن جبل قال: «أبطأ عنّا رسول الله ﷺ في صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع، ثم خرج فأقيمت الصلاة، فصلى بنا صلاة تجوزها، فلمّا سلّم قال: كما أنتم على مصاعكم ـ الحديث» انتهى.

٧٤٩ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (٦/ ٥٦٨) موقوفاً على أبي سعيد الخدري رقم (١٧٦٨٣)، وهلال بن يساف رقم (١٧٦٨٥ ـ ١٧٦٨٦ ـ ١٧٦٨٧ ـ ١٧٦٨٨) و(٦/ ٥٦٩) موقوفاً أيضاً على قتادة رقم (١٧٦٩٠)، والحسن رقم (١٧٦٩١)، ومجاهد رقم (١٧٦٩٢)، وابن عباس رقم (١٧٦٩٥)، وزيد ابن أسلم رقم (١٧٦٩٩ ـ ١٧٧٠٠).
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً على الخدري وعلي وابن عباس؛ كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن عباس؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٨)، وعزاه أيضاً إلى ابن مردويه في تفسيره.
قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله﴾ فذكره. وعن ابن سعيد كذلك أخرجه الطبري، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قل بفضل الله وبرحمته» قال: بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة». انتهى.

= في قراءة الجمهور. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لتأخذوا مضاجعكم» لعل الرواية «مصافكم» (ع).

إليه، ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريراً للافتراء، وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألاَّ يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: منصوب بالظنّ، وهو ظنّ واقع فيه، يعني: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم؛ حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: «وما ظنّ»، على لفظ الفعل، ومعناه: وأي ظنّ ظنوا يوم القيمة، وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكأن قد كان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالوحي، وتعليم الحلال والحرام، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾: «ما» نافية، والخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ «والشأن»: الأمر، وأصله: الهمز، بمعنى: القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده، والضمير في: ﴿مِنْهُ﴾: للشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ـ ﷺ ـ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل، كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأنّ كلّ جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له، أو لله ـ عزّ وجلّ ـ وما ﴿تَعْمَلُونَ﴾: أنتم جميعاً، ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: أيّ عمل كان، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: شاهدين رقباء نحصي عليكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه، ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾: قرىء بالضم والكسر: «وما يبعد، وما يغيب»، ومنه: الروض العازب، ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾: القراءة بالنصب والرفع، والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء؛ ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أو على لفظ: (مثقال ذرّة)، فتحاً في موضع الجرّ؛ لامتناع الصرف: إشكال، لأنّ قولك: «لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب» مشكل.

فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، وقد فسر ذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فهو توليهم إياه، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبير أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ/ ٣١٩أ سُئل: من أولياء الله؟ فقال: «هُم الَّذِينَ يُذْكَرُ الله بِرُؤْيَتِهِمْ» (٧٥٠) يعني: السمت والهيئة، وعن ابن

---

٧٥٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٢٨): هكذا ذكره المصنف مرسلاً، وقد رُوِي مرسلاً ومسنداً. أ.هـ.

قلتُ: وروى أيضاً موقوفاً.

فالمسند:

أخرجه النّسائي في تفسيره لسورة يونس (١/ ٥٧١) رقم (٢٥٥)، وابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق»: (ص٧٢) رقم (٢١٨)، والطبراني في «الكبير»: (١٢/ ١٣) رقم (١٢٣٢٥)، والواحدي في تفسيره (٢/ ٥٥٢).

كلهم من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٩) وقال: رواه الطبراني عن شيخه الفضل بن أبي روح ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. أ.هـ.

كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٢٨) إلى الحكيم التّرمذي في نوادر الأصول والبزار في مسنده.

وأمّا المرسل:

فأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٧/ ٧٩) رقم (٣٤٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦) و(٧/ ٢٣١)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧٢٣)، وابن المبارك في الزهد ص (٧٢) رقم (٢١٧)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٢٩).

كلهم من طرق مختلفة عن سعيد بن جبير مرسلاً.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته لأبي الشيخ عن سعيد بن جبير مرسلاً.

وأما الموقوف:

فأخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧١٨) بسنده عن مقسم وسعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٦)، وزاد نسبته إلى الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:

أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٧٩): كتاب الزهد: باب مَنْ لا يُؤبه له، حديث (٤١١٩)، وأحمد (٦/ ٤٥٩)، وعبد بن حميد (ص ٤٥٧) رقم (١٥٨٠ ـ منتخب) والطبراني في الكبير (٢٤/ =

عباس ـ رضي الله عنه ـ: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: سمعت النبيّ ـ ﷺ ـ يقول «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِباداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ» قالوا: يا رسول الله، خَبِّرْنَا مَنْ هُمْ، وَمَا أَعْمَالُهُمْ؟ فَلَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ، قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللهِ عَلَىٰ غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلا أَمْوَالٍ يَتَعَاطُونَهَا، فَوَاللهِ، إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» ثم قرأ الآية (٧٥١)، (الذين آمنوا): نصب أو

= ١٦٧ ـ ١٦٨) رقم (٤٢٣ ـ ٤٢٤ ـ ٤٢٥)؛ كلهم من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ . . . الحديث. وقال البوصيري في «الزوائد»: (٣/ ٢٧٣): هذا إسناد حسن وشهر بن حوشب وسويد بن سعيد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات. أ. هـ.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٦) بعد أن نسبه لأحمد وحده: وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح. أ. هـ والحديث ذكره السيوطي في «الدر»: (٣/ ٥٥٧)، وزاد نسبته للحكيم التِّرمذي وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد به وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن غنم مرفوعاً:

أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) عن سفيان عن ابن أبي الحسين عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذ رُئوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون البراء العنت».

وعبد الرحمن بن غنم مختلف في صحبته، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين.

وله شاهد آخر من حديث عمرو بن الجموح مرفوعاً:

أخرجه أحمد (١/ ٤٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/ ٩٢)، وقال: «وفيه رشدين بن سعد، وهو منقطع ضعيف».

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٧)، وزاد نسبته إلى الحكيم التِّرمذي.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عنه به، وابن مردويه من طريق يحيى الحمامي عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله، والبزار من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب يذكر ابن عباس. قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأولياء قال: الذين إذا رئوا ذكر الله. قال البزار: رواه غير محمد عن يعقوب بغير ابن عباس. انتهى.

٧٥١ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢٨٨): كتاب البيوع: باب في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٨٦) رقم (٨٩٩٨ ـ ٨٩٩٩)، ثم قال: وأبو زرعة عن عمر مرسل أ. هـ. والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٦) رقم (١٧٧٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥)، والواحدي في تفسيره (٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣٠).

كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب، فذكره.

وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، والعلاء بن زياد، وأنس، وأبي الدرداء. =

رفع على المدح، أو على وصف الأولياء، أو على الابتداء والخبر لهم البشرى، والبشرى

= فحديث أبي هريرة:
أخرجه النَّسائي في التفسير (١/ ٥٧٤)، وابن حِبان في صحيحه (٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) رقم (٥٧٣)، وأبو يعلى في مسنده: «(١٠/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦) حديث (٦١١٠)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٥) رقم (١٧٧٢٨) كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زُرعة عن أبي هريرة به.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة به.
وأما حديث أبي مالك الأشعري:
أخرجه أحمد (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٦/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧) رقم (٩٠٠١)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) رقم (٦٨٤٢)، وابن المبارك في «الزهد»: ص (٢٤٨ ـ ٢٤٩) رقم (٧١٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٠١) رقم (٢٠٣٢٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٢٩) رقم (٣٤٣٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٦) رقم (١٧٧٣٠)؛ كلهم من طريق ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري به.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٩)، وقال: رواه أحمد كله، والطبراني بنحوه... ورجاله وثقوا. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٨)، وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي مالك الأشعري به.
وأما حديث ابن عمر:
فأخرجه الحاكم في مستدركه: (٤/ ١٧٠، ١٧١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٧).
وأما حديث العلاء بن زياد:
فأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي: (٢/ ١٣١).
وقال ابن حجر: وعن العلاء بن زياد مرسلاً، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٩).
وأما حديث أنس:
فأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (١/ ٣٦٧) رقم (٤٠٩)، وقال ابن حجر: وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان.
وأخرجه ابن عديّ في الكامل، والعقيلي في الضعفاء وأعلاه بواقد، قال ابن عديّ: لم يصح حديثه، ونقل العقيلي عن البخاري نحوه، قال: ولا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣١).
وأما حديث أبي الدرداء:
فذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٠)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري، وأبو نعيم في أوائل الحلية، والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبي زرعة عن عمر به. قال البيهقي: أبو زرعة عن عمر مرسل.
ورواه ابن مردويه من وجه آخر يذكر أبي هريرة بين أبي زرعة وعمر، ورواه النَّسائي وابن حِبان من =

في الدنيا: ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبيّ ـ ﷺ ـ: هي «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ» (٧٥٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ المُبَشِّرَاتُ» (٧٥٣) وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذر:

= وجه آخر عن أبي زرعة عن أبي هريرة. فلم يذكر عمر. وفي الباب عن أنس أخرجه ابن عديّ والعقيلي، والبيهقي في الشعب أيضاً في العاشر منه، وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي. وهما ضعيفان. وعن أبي الدرداء أخرجه الطبراني وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط. وعن أبي مالك الأشعري. أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني والبيهقي وفيه شهر بن حوشب، وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه. وعن العلاء بن زياد مرسلاً. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. انتهى.

٧٥٢ ـ أخرجه التِّرمذي (٢٢٧٥) وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٨٣): كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (٢/ ١٢٣): كتاب الرؤيا: باب في قوله تعالى «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، وأحمد (٥/ ٣١٥، ٣٢١) من طريق يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت به.
وأخرجه التِّرمذي (٢٢٧٣)، وأخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٢)، والحميدي (٢/ ١٩٣)، حديث (٣٩١، ٣٩٢)، من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه التِّرمذي وابن ماجه، والحاكم والبيهقي وأحمد، وإسحاق من طريق أبي سلمة عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، رجاله ثقات: إلا أنه معلول؛ فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة، وقد أخرجه التِّرمذي والحاكم أيضاً عن أبي سلمة قال: نبئت عن عبادة، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبد الرحمن المرسي عن عبادة. وأخرجه التِّرمذي أيضاً وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة، وأبو يعلى والطبراني والبيهقي من طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، قال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، زاد بعضهم: «وفي الآخرة الجنة» قال ابن أبي حاتم عن أبيه: هذا الرجل لا يعرف. وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ: «سألت رسول الله ﷺ فذكر مثل حديث عبادة»، وعن جابر بن عبد الله بن رباب أخرجه البزار، وابن عديّ ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عنه مرفوعاً في قوله تعالى: (لهم البشرى). الحديث.
وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر. قال: جابر هذا هو ابن رباب. كذا قال فأخطأ. وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أبي هريرة، أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبي صالح عنه. قيل: انفرد به عمار. لكن أخرجه النَّسائي في الكنى من رواية إسحاق بن عبد الرحمن بن عمر: أن الأعمش حدثه، فذكره. وقال: أبو إسحاق لا أعرفه. والحديث خطأ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه النَّسائي، وأبو يعلى من رواية دراج عن عبد الرحمن بن جبير عنه. وزاد: «الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة». انتهى.

٧٥٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٥): رُوِي من حديث حذيفة بن أسيد، ومن حديث أبي =

قلت لرسول الله ـ ﷺ ـ: الرجل يعمل العمل لله، ويحبه الناس، فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ» (٧٥٤)، وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]،

= الطفيل ومن حديث أم كرز الكعبية. أهـ.

أما حديث حذيفة بن أسيد:

أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٠) رقم (٣٠٥١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٧٦)، وقال: رواه الطبراني والبزار، ورجال الطبراني ثقات. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى ابن مردويه وأما حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة:

فأخرجه أحمد في مسنده: (٥/ ٤٥٤)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٥) إلى البخاري في تاريخه الوسط في باب العين المهملة في ترجمة عثمان بن عبيد، وإلى الطبراني في معجمه، وإلى أبي يعلى الموصلي في مسنده.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٦)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. أ.هـ.

وأما حديث أم كرز الكعبية:

فأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٨٣)، كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٦)، وأحمد (٦/ ٣٨١)، والدارمي (٢/ ١٢٣): كتاب الرؤيا: باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، والحميدي (١/ ١٦٧) رقم (٣٤٨)، وابن حِبان (١٣/ ٤١١) رقم (٦٠٤٧)، والطبري في تفسيره (٦/ ٥٧٩) رقم (١٧٧٤٧).

كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي زيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية به. وذكره البوصيري في «الزوائد» (١/ ١٤٢)، وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وللحديث شواهد أيضاً من طريق عائشة وأبي هريرة وابن عباس.

فأما حديث عائشة:

فأخرجه أحمد (٦/ ١٢٩) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٠) وزاد نسبته إلا ابن مردويه.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه البخاري (١٤/ ٤٠١): كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث (٦٩٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٢/ ٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٩١ ـ بتحقيقنا) رقم (٣١٦٥)؛ كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة بنحوه مرفوعاً، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦١).

وأما حديث ابن عباس:

فأخرجه ابن حِبان (١٣/ ٤١٠ ـ ٤١١) رقم (٦٠٤٥ ـ ٦٠٤٦) بنحوه.

٧٥٤ ـ أخرجه مسلم (٨/ ٤٣٨ ـ النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (١٦٦/ ٢٦٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٢): كتاب الزهد: باب الثناء الحسن، حديث (٤٢٢٥) كلاهما من طريق أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر به.

قال الحافظ: في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم بلفظ: «فتحبه وتحمده الناس عليه» انتهى.

وأمّا البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]، و﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾، وقرىء: «ولا يحزنك»، من أحزنه، ﴿قَوْلُهُمْ﴾: تكذيبهم لك، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: استئناف بمعنى: التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقيل: إنّ العزة لله جميعاً، أي: إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منها لاهم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ **[المجادلة: ٢١]**، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]. وقرأ أبو حيوة: «أن العزة»، بالفتح، بمعنى: لأن العزة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: يسمع ما يقولون، ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان؛ وإنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له في ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى ربهم/ ٣١٩ب ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألا يكون له ندًّا وشريكاً، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل، تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر، ومعنى: «وما يتبعون شركاء»، أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمونها: شركاء؛ لأنّ شركة الله في الربوبية محال، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾: ظنهم أنها شركاء، ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾: يحزرون، ويقدرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً، ويجوز أن يكون: (وما يتبع): في معنى الاستفهام، يعني: وأي شيء يتبعون، و(شركاء): على هذا نصب بيدعون، وعلى الأوّل بيتبع، وكان حقه، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء

شركاء، فاقتصر على أحدهما؛ لدلالة[1]، ويجوز أن تكون «ما»: موصولة معطوفة على: «من»؛ كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم، وقرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «تدعون»، بالتاء، ووجهه أن يحمل: (وما يتبع) على الاستفهام، أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم نبه على عظيم قدرته، ونعمته: الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة؛ بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم، ومكاسبهم، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: سماع معتبر مذّكر.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء، ﴿هو الغني﴾: علة لنفي الولد؛ لأنّ ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيًا، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾: ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: (إن عندكم) على أن يجعل القول مكاناً للسلطان؛ كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أنّ كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي ذكره الزمخشري قد ردّه مكي بن أبي طالب وأبو البقاء، أما مكي فقال: انتصب «شركاء» بـ «يدعون» ومفعول «يتبع» قام مقامه «إن يتبعون إلا الظن» لأنه هو، ولا ينتصب الشركاء بـ «يتبع»، لأنك تنفي عنهم ذلك والله قد أخبر به عنهم. انتهى. الدر المصون.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: بإضافة الولد إليه، ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم/ ٣٢٠أ هذا منفعة قليلة في الدنيا؛ وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي - ﷺ - بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿كَبُرَ عَلَيْكُم﴾: عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ويقال: تعاظمه الأمر، ﴿مَّقَامِى﴾: مكاني، يعني: نفسه، كما تقول: فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقيل الظل، ومنه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ بمعنى: خاف ربه، أو قيامي(١) ومكثي بين أظهركم مدداً طوالاً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو مقامي(٢) وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظواالجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم؛ ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى - صلوات الله عليه - أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾: من أجمع الأمر وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه؛ قال [من الكامل]:

.... هَـلْ أَغْـدُوَنْ يَـوْمـاً وَأَمْـرِيَ مُـجْـمَـعُ؟(٣)

---

(١) قوله: «أو قيامي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم (ع).

(٢) قوله: «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قيامي (ع).

(٣) يا ليت شعري والحوادث جمة ... هل أغدون يوماً وأمري مجمع

قوله: «والحوادث جمة» أي كثيرة. جملة اعتراضية. وأغدون: مؤكد بالنون الخفيفة. وأمري مجمع: أي منوي مجزوم بامتثاله. أو المعنى: وشملي مجتمع بعد تفرقه، وهي جملة حالية مغنية عن خبر أغدون. أو خبرها. وزيدت الواو لتوكيد الربط. وأجمع يتعلق بالمعقول، وجمع يتعلق بالمحسوس.

ينظر: إصلاح المنطق ص ٢٦٣، وأمالي المرتضى ١/ ٥٥٩، والخصائص ٢/ ١٣٦، والدرر ٤/ ٢٠، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨١١، ولسان العرب (جمع)، ١٤/ ٣٥٧ (رمى)، ومغني اللبيب ٢/ =

والواو بمعنى: «مع»، يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، وقرأ الحسن: «وشركاؤكم» بالرفع، عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل؛ لقيام الفاصل مقامه؛ لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيداً وعمرو، وقرىء: «فاجمعوا» من الجمع، وشركاءكم: نصب للعطف على المفعول، أو لأنّ الواو بمعنى: «مع»، وفي قراءة أبيّ: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟

قلت: على وجه التهكم؛ كقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟

قلت: أمّا الأمر الأوّل: فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه، وابذلوا وسعكم في كيدي؛ وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً.

وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم أهلكوني؛ لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة، أي: غمًّا وهمًّا، والغم والغمة: كالكرب والكربة.

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره؛ ومنها قوله عليه السلام: «وَلاَ غُمَّةَ فِي فَرَائِضِ الله» (٧٥٥) أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً[(١)] عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾: ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إليَّ قطعه وتصحيحه؛ كقوله

---

٧٥٥ ـ ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»: (١/ ٩٩ ـ ١٠٠) في فصل فصاحته ﷺ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأقيال، وفيه: «ولا يوصم في الدين ولا غمة في فرائض الله، وقال: الغمة السترة، أي لا تستر في فرائض الله، بل ظاهر بها. انتهى.

= ٣٨٨، ونوادر أبي زيد ص ١٣٣، وهمع الهوامع ١/ ٢٤٧، وتاج العروس (جمع)، وتهذيب اللغة ١/ ٣٩٦.

(١) قوله: «مستوراً عليكم» لعله أراد ملتبساً، فلذا قال عليكم، كما أشار إليه النسفي (ع).

تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أو أدّوا إليّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: ولا تمهلوني، وقرىء: «ثم أفضوا إليّ»، بالفاء، بمعنى: ثم انتهوا إليّ بشرّكم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي: أصحروا به إليّ وأبرزوه لي، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي/ ٣٢٠ب، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾: فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾: وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]: الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً، ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به، والمراد: أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرىء ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه؛ وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فتموا على تكذيبه[1]، وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها؛ وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾: يخلفون الهالكين بالغرق، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ـ ﷺ ـ عن مثله، وتسلية له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: من بعد نوح، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ يعني: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾: فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه، ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾: يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأنّ الخذلان يتبعه؛ ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ

---

(١) قوله: «فتموا على تكذيبه» أي استمروا. أفاده الصحاح (ع).

﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿من بعدهم﴾: من بعد الرسل، ﴿بآياتنا﴾: بالآيات التسع، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾: عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: كفاراً ذوي آثام عظام؛ فلذلك استكبروا عنها، واجترؤوا على ردّها، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾: فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهَارون، ﴿قَالُوٓاْ﴾: لحبهم الشهوات، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً.

فإن قلت: هم قطعوا بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ على أنه سحر(١)، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟

قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾: أتعيبونه وتطعنون فيه، وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه؛ ونحو القول: الذكر، في قوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول: أتقولون، وهو ما دل عليه قولهم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: كأنه قيل/ ٣٢١أ: أتقولون ما تقولون، يعني: قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: كما قال موسى للسحرة: «ما جئتم به السحر، إنّ الله سيبطله»، ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: لتصرفنا، واللفت والفتل: أخوان، ومطاوعهما الالتفات والانفتال، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، يعنون: عبادة الأصنام، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملك؛ لأنّ الملوك موصوفون بالكبر؛ ولذلك قيل للملك: الجبار، ووصف بالصيد والشوس؛ ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله [من الخفيف]:

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيهِ ... جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ(٢)

---

(١) قال محمود: «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبين على أنه سحر... إلخ» قال أحمد: وفي الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً والله أعلم.

(٢) لعبد الله بن قيس الرقيات. وقيل: لقيس الرقيات يمدح مصعباً، سمي قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نسوة، كل منهن تسمى رقية. وملك: وصف كحذر، فلذلك نصب «ملك رأفة» على المصدر. وروي «ملكه ملك» على المبتدأ والخبر. وضمير «فيه» للمصدر، أي: ليس في ملكه =

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمّهما، وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبرا؛ كما قال القبطي لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدّقين لكما فيما جئتما به، وقرىء: «يطبع»، و«يكون لكما»، بالياء.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾: ما موصولة واقعة مبتدأ، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾: خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر(١) لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله، وقرىء: «آلسحر»، على

= جبروت منه، أي من مصعب. ويحتمل أن الضميرين له. والجبروت: مبالغة في الجبر والقهر، أي: ليس فيه ذلك كغيره، فهو أعظم الملوك.

(١) قال محمود: «ما موصولة مبتدأ، والسحر خبر أي الذي جئتم به... إلخ» قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤوا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً. وإنما يستفاد ذلك مما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريمه التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإنا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤوا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء. وأما القراءة الثانية ففيها ـ والله أعلم ـ إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أو لا ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ حكاية لقولهم، ويكون ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ هو الذي قالوه، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً: بدؤوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقا، والاستهزاء بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الإخبار. ألا ترى أنهم يقولون في قوله: آأنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله: مخبراً أنت أم سالم؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا: إن هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأول. ومعنى العبارتين ومآلهما واحد. وإما أن لا يكونوا قالوا سوى (أسحر هذا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وبت القول أنه سحر. وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه، ولم يؤده بعبارة أخرى. وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني. وحاصل هذا البحث: أن قول موسى عليه السلام ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنما حكي فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً، فقال: ما جئتم به السحر؟ على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد: أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ على الوجهين: الخبر الاستفهام، على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أن مؤدى =

الاستفهام، فعلى هذه القراءة «ما»: استفهامية، أي: أيّ شيء جئتم به، أهو السحر؟ وقرأ عبد الله: «ما جئتم به سحر»، وقرأ أبيّ: «ما أتيتم به سحر»، والمعنى: لا ما أتيت به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة، ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: لا يثبته ولا يديمه، ولكن يسلط عليه الدمار، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: ويثبته، ﴿بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: بأوامره وقضاياه، وقرىء: «بكلمته»، بأمره ومشيئته.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾: في أوّل أمره، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه؛ وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه؛ خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية: امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؟

قلت: إلى فرعون، بمعنى: آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: يريد أن يعذبهم، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لغالب فيها قاهر، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ، بادعائه الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾: صدقتم به وبآياته، ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾: فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون، ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا/ ٣٢١ب نفوسهم لله، أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت بك قوّة، ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: إنما

= الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر. وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب، أو إضمار مفعول تقولون. استشكالاً لوقوع الاستفهام محكيا بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر. وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل عرى التمسك، فإنه من دقائق النكت. والله الموفق.

قالوا ذلك؛ لأنّ القوم كانوا مخلصين، لا جرم أنّ الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾: موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

تبوّأ المكان: اتخذه مباءة؛ كقولك: توطنه، إذا اتخذه وطناً، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته[1] مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه، ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ﴾: تلك ﴿قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة، وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة؛ لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة.

فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أوّلاً، ثم جمع، ثم وحد آخراً؟

قلت: خوطب موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أن يتبوّءا لقومهما بيوتاً، ويختاراها للعبادة؛ وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى ـ عليه السلام ـ بالبشارة التي هي الغرض؛ تعظيماً لها وللمبشر بها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

الزينة: ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب، وفضة، وزبرجد، وياقوت».

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾؟

---

(١) قوله: «بمصر بيوتاً من بيوته» لعل الضمير لمصر (ع).

قلت: هو دعاء بلفظ الأمر[1]؛ كقوله: (ربنا اطمس)، (واشدد)، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكرّراً وردّد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة[2] إلا نبوّا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله ـ اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم/ ٣٢٢أ بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون[3] فيه، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونوا ضلالاً[4]، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أحق بذلك وأحق، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه؛ حسرة على ما فاته من قبول نصيحته، وحرداً[5] عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه، ومعنى الشدّ على القلوب، الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: جواب للدعاء الذي هو: «اشدد»، أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: دعاء معترض بين المعطوف

---

(١) قال محمود: «قلت هو دعاء بلفظ الأمر... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً. ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام للتعليل؛ وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجور أن يملي لهم في الضلالة ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعاً له، كما تقدم له في تأويل قوله (ليزدادوا إثماً) وكأين من آية غراء رام أن يسترغرتها ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله وكان عند الله وجيهاً.

(٢) قوله: «وعن النصيحة» لعله وعلى (ع).

(٣) قوله: «يتسكعون» في الصحاح: «التسكع» التمادي في الباطل (ع).

(٤) قوله: «وليكونوا ضلالاً» هذا على قراءة (ليضلوا) بفتح الياء. والقراءة المشهورة (ليضلوا) بضمها. وعبارة النسفي: ليضلوا الناس عن طاعتك اهـ (ع).

(٥) قوله: «وحرداً عليه» في الصحاح: الحرد ـ بالتحريك: الغضب (ع).

والمعطوف عليه، وقرأ الفضل الرقاشي: «أئنك آتيت؟» على الاستفهام، و«اطمس» بضمّ الميم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قرئ: دعواتكما، قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح ـ عليه السلام ـ في قومه ألف عام إلا قليلاً ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا؛ فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح ـ عليه السلام ـ ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقرىء: «ولا تتبعانِ»، بالنون الخفيفة، وكسرها؛ لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، وبتخفيف التاء من تبع.

﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قرأ الحسن: «وجوزنا» من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعشى [من الكامل]:

وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِبَالَ قَبِيلَةٍ[(١)] ....

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: «وجوّزنا بني إسرائيل في البحر»؛ كما قال [من الطويل]:

---

(١) وإذا تجوزنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالاً

للأعشى. وشبه عهود الأمان التي يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال، بجامع التوثق بكل على طريق التصريحية. أي: وإذا تجشمنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها؛ فإيقاع التجوز على الحبال: مَجاز عقلي، أخذت ناقتي من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالاً، أي عهوداً للتوصل للقبيلة الأخرى، وهكذا. وإسناد الأخذ لها مجاز عقلي، ويكفي في الملابسة مجاورتها له حين الفعل. وإنما أسنده إليها للمبالغة، وتخييل أنها تعرف الممدوح وفضله، فهي المسامرة إليه بنفسها. وروي يجوزها. وجبال بالجيم، فمعنى أخذت: قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالاً غير تلك. وعلى كل، ففيه دليل على صعوبة الطريق.
ينظر البيت في ديوانه (٦٥)، وتأويل مشكل القرآن ٤٦٥، ومجاز القرآن ١/١٠١، واللسان (حبل)، ومجمل اللغة ١/٢٦٢، وزاد المسير ١/٤٣٣، وتاج العروس ٧/٢٧٠، وتهذيب اللغة ٥/٧٨، والدر المصون ٢/١٧٧.

. . . . كَمَا جَوَّزَ السَّكِّيَّ فِي الْبَابِ فَيْتَقُ[1]

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾: فلحقهم، يقال: تبعته حتى أتبعته، وقرأ الحسن: «وعدوّا»[2]، وقرئ: أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان؛ وإنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت، كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه؛ حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿ءَآلْـَٔنَ﴾: أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق[3]، وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى أنه حين قال: (آمنت)، أخذ جبريل من حال البحر[4]، فدسه في فيه (٧٥٦)، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه/ ٣٢٢ب لا

---

٧٥٦ ـ أخرجه التّرمذي (٥/٢٨٧): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)، والنّسائي في التفسير (١/٥٧٨)، وأحمد في مسنده (١/ ٢٤٠ ـ ٣٤٠) والحاكم في مستدركه (١/ =

---

(١) ولا بد من جاز يجيز سبيلها كما جوز السكي في الباب فيتق

للأعشى يصف مفازة الغزل فيها الملحق عن بني عكاظ كما يأتي قريباً. يقول: ولا بد لمريد قطعها من جاز: أي قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها. وجازه يجوزه: سلكه. وأجازه يجيزه: أسلكه. وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيهما. والسكي: المسمار، نسبة للسك، وهو تضبيب الباب وتسميره. والفيتق: النجار؛ لأنه يفتق الخشب بالمسمار. ويروى: كما سلك السكي، أي: لا يعد من معين، ينفذه فيها كما أنفذ النجار المسمار في الباب. وعبر بالماضي ليدل على أن المشبه به معهود للسامع.

ينظر البيت في ديوانه ص ٢٧٣، ولسان العرب (فتق)، (سكك)، وتهذيب اللغة ٩/ ٦٣، ٤٣١، وكتاب الجيم ٣/ ٦٦، ومقاييس اللغة ٤/ ٤٧١، وكتاب العين ٥/ ٢٧٢، وتاج العروس (فتق)، (سكك)، وبلا نسبة في المخصّص ٥/ ١٣٢، ١٠/ ٢٥، ١٢/ ٢٦١.

(٢) قوله: «وقرأ الحسن وعدوا» في الصحاح: عدا عدواً وعدواً وعداء اهـ. وقد مر في قوله تعالى ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ (ع).

(٣) قال محمود: «معناه أتؤمن الساعة في وقت اضطرارك حين أدركك الغرق. . . إلخ» قال أحمد: ولقد أنكر منكراً، وغضب لله ولملائكته كما يجب لهم، والله الموفق.

(٤) قوله: «من حال البحر قدسه» أي طينه الأسود. أفاده الصحاح. وفي الحديث «قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه» كذا في الخازن (ع).

ينفعه، وأمّا ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين[1] لله

= ٥٧)، (٢/ ٣٤٠)، (٤/ ٢٤٩) وصححه، وابن حِبان في صحيحه (رقم ١٧٤٥ ـ موارد)، والطيالسي في منحة المعبود (٢/ ٨٤) رقم (٢٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦٠٥) رقم (١٧٨٧٢ ـ ١٧٨٧٣ ـ ١٧٨٧٦)، وإسحاق بن راهويه والبزار في مسنديهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣٨).

كلهم من طرق عن شعبة عن عديّ بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قال التِّرمذي (٥/ ٢٨٧): هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم (٢/ ٣٤٠): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس».

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٦٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس به.

وله طريق آخر عن ابن عباس:

أخرجه التِّرمذي (٥/ ٢٨٧): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧)، وأحمد (١/ ٢٤٥ ـ ٣٠٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢١٦) رقم (١٢٩٣٢)، وعبد بن حميد ص (٢٢٢) رقم (٦٦٤ ـ منتخب)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦٠٥) رقم (١٧٨٧٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ١٠٢) رقم (٤٢٠٨) كلهم من طرق عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به.

قال التِّرمذي: هذا حديث حسن.

وذكر السيوطي في «الدر المنثور»: (٣/ ٥٦٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس به.

وأخرجه الطبري أيضاً في تفسيره عن ابن عباس موقوفاً:

فأخرجه الطبري (٦/ ٦٠٦) رقم (١٧٨٧٩، ١٧٨٨١)، من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٤٥) رقم (٩٣٩٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦٠٥) رقم (١٧٨٧٤)، والسهمي في: «تاريخ جرجان» ص (١٠٦) رقم (٣٠٦)، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣٩)؛

كلهم من طريق حكّام بن سَلْم عن عنبسة عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه.

وله شاهد أيضاً من حديث ابن عمر:

أخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٣٩) من طريق نصر بن محمد بن سليمان بن أبي ضمرة السلمي عن أبيه عن عبد الله بن أبي قيس عن ابن عمر مرفوعاً نحو حديث أبي هريرة. =

---

(١) قوله: «الباهتين لله» في الصحاح «بهته» إذا قال عليه ما لم يفعله (ع).

وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر، فهو كافر؛

= وذكره المتقى الهندي في: «كنز العمال» (٢/ ٢٥) رقم (٢٩٩٦)، وزاد نسبته لابن عساكر عن ابن عمر به.

وله شاهد أيضاً من حديث أبي أمامة:

ذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٣/ ٥٦٩)، وعزاه إلى أبي الشيخ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ به.

قال الحافظ:

قوله «والذي يحكي»... إلى قوله: «لأن الرضا بالكفر كفر»، هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله. فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه التِّرمذي وصححه، والنِّسائي وابن حِبان والحاكم وإسحاق والبزار وأبو داود والطيالسي؛ كلهم من رواية شعبة عن عديّ بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي ﷺ قال: «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله فيرحمه الله» لفظ التِّرمذي والباقين. نحوه، وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبزار والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، بلفظ: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وله طريق أخرى أخرجها يحيى بن عبد الحميد الحمائي في مسنده عن أبي خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال جبريل ـ عليه السلام ـ للنبي ﷺ: وذكر فرعون «فلقد رأيتني وأنا لأكبر فمه بالحمأة مخافة أن تدركه الرحمة، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين، وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال لي جبريل: «لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في في فرعون؛ مخافة أن يقول ربي الله، فتدركه رحمة الله»، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول قال لي جبريل: يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال: ما علمت لكم من إله غيري. وإذ نادى فقال: أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشو فاه؛ مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبي ضمرة عن عبد الله بن أبي قيس عنه.

قلت: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري؛ وذلك أن فرعون كان كافراً كفر عناد؛ ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه، فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر على غيه وطغيانه؛ فدس في فمه الطين؛ ليمنعه التكلم بما يقتضي ذلك، هذا وجه الحديث. ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر، بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد، وأيضاً فإيمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقاً بقلبه لا يقبل؛ لأنه وقع في حال الاضطرار؛ ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى: ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾، وفيه إشارة في قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾. انتهى.

لأن الرضا بالكفر كفر ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: من الضالين المضلين عن الإيمان؛ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، وروي أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقه، وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق، ناوله جبريل خطه فعرفه (٧٥٧)، ﴿نُنَجِّيكَ﴾: بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: «ننحيك»، بالحاء: نلقيك بناحية مما يلي البحر؛ وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر، قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور، ﴿بِبَدَنِكَ﴾: في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملاً سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدناً من غير لباس، أو بدرعك؛ قال عمرو بن معد يكرب [من الوافر]:

أَعَـاذِلُ شِـكَّـتِـي بَـدَنِـي وَسَـيْـفِـي ... وَكُـلُّ مُـقَـلَّـصٍ سَـلِـسِ الْـقِـيَـادِ[1]

وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: «بأبدانكَ» وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني: ببدنك كله وافياً بأجزائه، أو يريد: بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها، ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق، وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون، ولا يموت أبداً. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وكأن مطرحه كان على ممرّ من بني إسرائيل حتى قيل: لمن خلفك، وقيل: (لمن خلفك): لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية: أن تظهر للناس عبوديته ومهانته، وأنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه ـ عزّ وجلّ ـ فما الظنّ بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك، فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا

---

٧٥٧ ـ ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).

---

(١) لعمرو بن معد يكرب، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب. يقول: يا عاذلة، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسي المكتنز اللحم المدبج الخلق. وقيل: المقلص الطويل القوائم الهين القود. ويروى: سهل القياد. والمعنى واحد. وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية، وأتى بأداة العموم في الفرس لأنه الذي يكثر تغييره.
ينظر: ديوانه (٦٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٨٩).

بحالك وبهوانك على الله، وقرئ: «لمن خلقك»، بالقاف، أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته، ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين ـ لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا ـ لادعائك/ ٣٢٣أ العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت ـ آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أنّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: منزلاً صالحاً مرضيًا وهو مصر والشام، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾: في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤوا التوراة، وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب، اختلافهم في صفته ونعته، وأنه هو أم ليس به، بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: مع قوله في الكفرة: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠](١).

قلت: فرق عظيم بين قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ بمعنى: الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً، ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمعنى: أن الله ـ عزّ وجلّ ـ قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب،

(١) قال محمود: «إن قلت كيف قال له عليه السلام: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ مع قوله في الكفرة ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾... إلخ؟ قال أحمد: ولو قال هذا المفسر: إن نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسؤولين لا ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ فأمر بالسؤال والجواب جميعاً ـ لكان أقوم وأسلم، والله أعلم.

ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم؛ لأنّ أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد ـ عليه السلام ـ ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً ـ وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءاتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات، والبراهين القاطعة، أنّ ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب؛ كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٦ ـ ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة؛ ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لاَ أَشُكُّ وَلاَ أَسْأَلُ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ» (٧٥٨) وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لا والله، ما شك طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقيل: خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته/ ٣٢٣ب، ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك؛ كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: «إن» للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل، يعني: لا نأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: «فاسأل الذين يقرؤون الكتب».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به

---

٧٥٨ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦١٠) رقم (١٧٩٠٧ ـ ١٧٩٠٨) كلاهما عن معمر عن قتادة به.
وذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٣/ ٥٧١).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق، ومن طريق الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية، قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» انتهى.

الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدّر ومراد[1]، تعالى الله عن ذلك.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾: فهلا كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾: واحدة من القرى التي أهلكناها، تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبيّ، وعبد الله: «فهلا كانت»، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾: استثناء من القرى؛ لأنّ المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي؛ كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ بالرفع على البدل؛ هكذا روي عن الجرمي والكسائي، روي أن يونس ـ عليه السلام ـ بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح، وعجوا[2] أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: «إن أجلكم أربعون ليلة»، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك، آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم، ويسوّد سطوحهم، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم، حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر، وقد وضع عليه أساس بنائه فيردّه، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: «يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت» فقالوها، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم، إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

---

(١) قوله: «لا كتابة مقدر ومراد» مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر. وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيراً كان أو شرا (ع).

(٢) قوله: «وعجوا» أي رفعوا أصواتهم. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾: مشيئة القسر[١] والإلجاء[٢]، ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾: على وجه الإحاطة والشمول، ﴿جَمِيعًا﴾: مجتمعين على الإيمان/ ٣٢٤أ مطبقين عليه لا يختلفون فيه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت؛ وإيلاء الاسم حرف الاستفهام؛ للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه؛ وإنما الشأن في المكره من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرّون عنده إلى الإيمان؛ وذلك غير مستطاع للبشر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتسهيله، وهو منح الألطاف، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: قابل الإذن بالرجس، وهو الخذلان[٣]، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون، وهم المصرون على الكفر، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وسمي الخذلان: «رجساً» وهو العذاب؛ لأنه سببه، وقرىء: «الرجز»، بالزاي، وقرئ: «ونجعل»، بالنون.

---

(١) قوله: «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح، وإيمان الكل أصلح، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا: إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير للعباد، فلم يلزم وقوع المراد، ولو أراده إرادة إجبار لوقع، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، ولزوم وقوع المراد لا ينافي تخيير العباد، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله، كما تقرر في التوحيد.

(٢) قال محمود: «المراد مشيئة القسر والإلجاء» قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلساً، وخلط الباطل بالحق مدلساً. ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر ـ إذ مقتضى «لولا» امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم ـ أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر والإلجاء، ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع؛ إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل. بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله، نعوذ بالله من زيغ الشيطان وإضلاله، والله الموفق.

(٣) قوله: «وهو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله (ع).

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: من الآيات والعبر، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾: والرسل المنذرون، أو الإنذارات، ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: «وما يغني»، بالياء، و«ما»: نافية، أو استفهامية.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وقائع الله ـ تعالى ـ فيهم، كما يقال: «أيام العرب»: لوقائعها، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾: معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ومن آمن معهم، كذلك ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم، ونهلك المشركين. و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾: اعتراض، يعني: حقّ ذلك علينا حقًّا، وقرئ: «ننجّ»، بالتشديد.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يا أهل مكة، ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾: وصحته وسداده، فهذا ديني فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف، لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: وإنما وصفه بالتوفي، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى، فيعبد دون ما لا يقدر على شيء، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك، بما ركب فيّ من العقل، وبما أوحى إليّ في كتابه، وقيل: معناه: إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه ـ أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم ـ فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري، واقطعوا غنى أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى؛ كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف: الجارّة مع: «إن»، و«أن»، وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع/ ٣٢٤ب بما تؤمر.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

فإن قلت: عطفُ قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ على: (أن أكون)؛ فيه إشكال؛ لأنّ «أن»: لا تخلو من أن تكون التي للعبارة، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة، وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو: (أقم)، لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب.

قلت: قد سوّغ سيبويه أن توصل: «أن» بالأمر والنهي، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال، (أقم وجهك): استقم إليه، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً، و﴿حَنِيفًا﴾: حال من الدين، أو من الوجه.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذاً: جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر، كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان، وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ هو الضارّ النافع، الذي إن أصابك بضرّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

فإن قلت: لم ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني؟

قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة، والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدلّ بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ والمراد

بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه، واللام وعلى: دلا على معنى النفع والضر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم على ما أريد؛ إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ﴾: على دعوتهم، واحتمال أذاهم، وإعراضهم، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾/ ٣٢٥أ: لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي» (٧٥٩) يعني: أني أُمرت في هذه الآية

----

٧٥٩ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٤٠): غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي، عن أنس بغير سند، أ.ه‍. وفي الصحيحين عن عبد الله بن بن زيد بن عاصم:
أخرجه البخاري (٨/ ٣٦٩): كتاب المغازي: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمانٍ، حديث (٤٣٣٠) وطرفه في (٧٢٤٥)، ومسلم (٤/ ١٦٦ ـ ١٦٧ ـ النووي): كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٣٩/ ١٠٦١) كلاهما من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم به وله شاهد أيضاً من حديث أسيد بن حضير:
أخرجه البخاري (١٤/ ٤٩٤): كتاب افتن: باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»، حديث (٧٠٥٧)، ومسلم (٦/ ٤٧٦ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم، حديث (٤٨/ ١٨٤٥)، والتِّرمذي (٤/ ٤٨٢): كتاب الفتن: باب في الأثرة وما جاء فيه، حديث (٢١٨٩)، والنَّسائي (٨/ ٢٢٤): كتاب آداب القضاة، باب ترك استعمالْ من يحرص على القضاء؛ كلهم من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به. قال التِّرمذي: وهذا حديث حسن صحيح.
قال ابن حجر تعليقاً على حديث أسيد بن حضير: ومن حديث أسيد بن حضير ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة غنائم حنين أ.هـ وله طريق آخر عن أسيد بن حضير:
أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٧٩) من طريق يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به.
وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قال الحافظ: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة =

بالصبر على ما سامتني الكفرة، فصبرت، فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة، قال أنس: فلم نصبر، وروي أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب، قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بعْدِي أَثَرَةً» ح، قال معاوية: فماذا قال؟ قال: «فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي» ح، قال: فاصبر؛ قال: إذن نصبر. (٧٦٠) فقال عبد الرحمنِ بْنُ حَسَّان [من الوافر]:

أَلاَ أَبْـلِـغْ مُـعَـاوِيَـةَ بْـنَ حَـرْبٍ ... أَمِـيـرَ الـظَّـالِـمِـيـنَ نَـثَـا كَـلامِـي
بِـأَنَّـا صَـابِـرُونَ فَـمُـنْـظِـرُوكُـمْ ... إِلَـىٰ يَـوْمِ الـتَّـغَـابُـنِ وَالْـخِـصَـامِ[1]

عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُونُس أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِيُونُسَ وَكَذَّبَ بِهِ، وَبِعَدَدِ مَنْ غَرَقَ مَعَ فِرْعَونَ» (٧٦١).

= غنائم حنين. انتهى.

٧٦٠ ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٦/ ٥٦ ـ ٥٧) رقم (٧٤٨٨) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب؛ أن معاوية لما قدم المدينة... الحديث».
وأخرجه إسحاق بن راهويه والحاكم في مستدركه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ١٤١).
قال الحافظ: أخرجه إسحاق بن راهويه. ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل؛ أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري: فقال معاوية: تلقانا الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار، فما يمنعكم أن تلقوني؟ قال: لم تكن لنا دواب، فقال معاوية: فأين النواضح. قال أبو قتادة. عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال: أما إنكم سترون بعدي أثرة. قال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نلقاه. قال: فاصبروا حتى تلقوه. فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك ـ فذكر البيتين. وقال: يا أمير المؤمنين. انتهى.

٧٦١ ـ تقدم وينظر حديث (٣٤٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: تقدم إسناده في آل عمران. ويأتي في آخر القرآن. انتهى.

---

(١) لعبد الرحمن بن حسان، حين دخل معاوية بن أبي سفيان بن حرب المدينة، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة، ثم دخل عليه فقال له: مالك تخلفت؟ فقال: لم يكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية، فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني. قال: فاصبروا. قال: إذاً نصبر. والثناء يقال للخير، وقد يقال للشر. والنثا: خاص بالشر. وروي «نثا كلامي» ومنظروكم: ممهلوكم. أي أنت وقومك. والتغابن: ظهور الغبن للعمال في تجارات الأعمال. والخصام: المخاصمة والمجادلة، أي إلى يوم القيامة.

سُورَةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ الآيَاتِ ١٢ و١٧ و١١٤ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائةٌ وثلاثٌ وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: نظمت نظماً رصيناً محكماً، لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من «حكُم»: بضم الكاف، إذا صار حكيماً، أي: جعلت حكيمة؛ كقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحَكَمَةَ لتمنعها من الجماح؛ قال جرير [من الكامل]:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[1]

وعن قتادة: أُحكمت من الباطل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة، وآية آية، وفرقت في التنزيل، ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بين ولخص، وقرئ: ﴿أَحۡكَمۡتُ ءَايَٰتِهِۥ ثُمَّ فَصَّلۡتُ﴾ أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: «ثم فصلت» أي: فرّقت بين الحق والباطل.

فإن قلت: ما معنى ثم؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل،

---

(١) لجرير، يقول: يا بني حنيفة «امنعوا سفهاءكم عني كما تمنع الدابة بالحكمة، فإن غضبي عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، فخوفه عليهم كناية عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، عليكم غضبي.
ينظر ديوانه (٥٠)، اللسان: حكم، الدر المصون (١/ ١٨٤).

وكتاب: خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت: صفة له، وقوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن؛ لأنَّ المعنى: أحكمها حكيم وفصلها، أي: بينها وشرحها/ ٣٢٥ب خبير عالم بكيفيات الأمور.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾: مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم ألاّ تعبدوا إلا الله، ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة؛ ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم منه نذير؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ والضمير في (منه): لله ـ عزّ وجلّ ـ أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته؛ كقوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؟

قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا، والاستغفار: توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فصلت: ٣٠]، ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾: يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: إلى أن يتوفاكم؛ كقوله: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ النحل: ٩٧]، ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾: ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل، وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه، أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات، ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: وإن تتولوا، ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾: هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل، وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: «وإن تُولوا»، من ولي.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه، ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم، ونظير إضمار يريدون ـ لقود المعنى[1] إلى إضماره ـ الإضمار في قوله تعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، معناه: فضرب فانفلق، ومعنى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ويزيدون الاستخفاء[2] حين يستغشون ثيابهم ـ أيضاً ـ كراهة لاستماع كلام الله تعالى؛ كقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده، روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطق حلو، وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله/ ٣٢٦أ ﷺ مجالسته ومحادثته، وهو يضمر خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين، وقرئ: «تثنوني صدورهم»، واثنونى: «افعوعل» من الثني، كاحلولي من الحلاوة، وهو بناء مبالغة، قرئ: بالتاء والياء، وعن ابن عباس: «لتثنونى»، وقرئ: «تثنونّ» وأصله: «تثنونن» «تفعوعل» من الثن[3] وهو ما هش وضعف من الكلأ، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: «تثنئن»، من اثنأن: «افعأل» منه، ثم همز كما قيل: ابيأضت، وادهأمت، وقرئ: «تثنوي»، بوزن ترعوى.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ بلفظ الوجوب[4] وإنما هو تفضل؟

---

(١) قوله: «لقود المعنى» أي لتأدية المعنى (ع).

(٢) قوله: «ويزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله: ومعنى ألا حين الخ. كما قال أولاً، يعني ويريدون (ع).

(٣) قوله: «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر: يبس الحشيش.

(٤) قال محمود: «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب... إلخ» قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن الله ـ عز وجل ـ لما وعدهم فضله ـ ووعده خبر، وخبره صدق ـ وجب وقوع الموعود: أي يستحيل في العقل أن لا يقع. للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور. هذه

قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كنذور العباد، والمستقرّ: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع؛ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة، ﴿كل﴾: كل واحد من الدواب، ورزقها، ومستقرّها، ومستودعها في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض، وارتفاعه فوقها إلا الماء، وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، وقيل: وكان الماء(1) على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام، كانت أحوج إليه وإلى إمساكه، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: متعلق بخلق، أي: خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب: المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم، يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟

قلت: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؛ لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين: فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟

قلت: الذين هم أحسن عملاً هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم؛ تشريفاً لهم، وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم، وعن النبي ﷺ:

= قاعدة أهل الحق. وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والله الموفق.

(1) قوله: «وقيل: وكان الماء» لعله «كان» بدون واو. ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء (ع).

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَأَوْرَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللهِ» (٧٦٢)، قرئ: «ولئن قلت إنكم مبعوثون»، بفتح الهمزة، ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق/ ٣٢٦ب عنك تشتري لنا لحماً، وأنك تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم: لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن: «قلت» معنى: «ذكرت»، ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أنّ السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر؛ تشبيهاً له به، أو أشاروا[1] بهذا إلى القرآن؛ لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً، فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: «إن هذا إلا ساحر»، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿ٱلْعَذَابَ﴾: عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين، ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: إلى جماعة من الأوقات، ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾: ما يمنعه من النزول؛ استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء، و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾: منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها؛ إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: وأحاط بهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

---

٧٦٢ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/٧) رقم (١٨٠٠٣) من طريق داود بن المحبر عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن عبد الله بن عمر به.
وأخرجه الثعلبي في تفسيره، وداود بن المحبر في كتابه «العقل»؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٤٥/٢).
قال الحافظ: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل، والحرث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر، وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول. انتهى.

---

(١) قوله: «أو أشاروا بهذا» لعله: وأشاروا (ع).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: للجنس، ﴿رَحْمَةً﴾: نعمة من صحة وأمن وجدة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾: ثم سلبنا تلك النعمة، ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾: شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر، ولا تسليم لقضائه، ولا استرجاع، ﴿كَفُورٌ﴾: عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نَسَّاءٌ له، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائب التي ساءتني، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾: أشر بطر، ﴿فَخُورٌ﴾: على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾: آمنوا، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين، لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكاد يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم، واستهزائهم، واقتراحهم، بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم؛ مخافة ردّهم له وتهاونهم به، ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾: بأن تتلوه عليهم، ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾: مخافة أن يقولوا/ ٣٢٧أ، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾: يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم.

فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟

قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد: السيادة والجود الثابتين المستقرّين، فإذا

أردت الحدوث قلت: سائد، وجائد، ونحوه، كانوا قوماً عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي [من الطويل]:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا[1]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾

(أم): منقطعة، والضمير في: ﴿افْتَرَاهُ﴾ لما يوحى إليك، تحداهم أوّلاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد، ﴿مِّثْلِهِ﴾ بمعنى: أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له، ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾: صفة لعشر سور، لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاودهم[2] على دعواهم، وأرخي معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إليّ، وأنّ الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم ـ أيضاً ـ بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب: فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟

قلت: معناه: مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ﴾؟

قلت: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأنّ رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدّونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ؛ كقوله [الطويل]:

---

(١) للعكلي. والشحوب تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعيل».

ينظر: البحر المحيط (٥/٢٠٧)، روح المعاني (١٢/١٩)، الدر المصون (٤/٨٣).

(٢) قوله: «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسايرهم (ع).

فَـإِنْ شِـئْـتُ حَـرَّمْـتُ الـنِّـسَـاءَ سِـوَاكُـمُ ....(١)

ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في: (لم يستجيبوا): لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه، ﴿وَ﴾: اعلموا عند ذلك، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا﴾: الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾/ ٣٢٧ب: مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد، ومعنى: (فهل أنتم مسلمون): فهل أنتم مخلصون؟

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾: نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية، كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدّق: فعلت حتى يقال، فقيل: ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: «يوفّ»، بالياء على أن الفعل لله ـ عزّ وجلّ ـ «وتوفَّ إليهم أعمالهم» بالتاء، على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: «نوفي»، بالتخفيف، وإثبات الياء؛ لأنّ الشرط وقع ماضياً؛ كقوله [من البسيط]:

.... يَـقُـولُ: لاَ غَـائِـبٌ مَـالِـي وَلاَ حَـرِمُ(٢)

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة؛ إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا،

(١) تقدم.
(٢) تقدم.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرىء: «وبطل» على الفعل، وعن عاصم: «وباطلاً» بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية، وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلاً، أي: باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة[1]، أي: لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً، وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على برهان من الله، وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويتبع ذلك البرهان، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن، (منه): من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدّم ذكره آنفاً، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾: ومن قبل القرآن، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان ـ أيضاً ـ من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: «كتابَ موسى» بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أنّ القرآن/ ٣٢٨أ حق، (ويتلوه): ويقرأ القرآن، (شاهد منه): شاهد ممن كان على بينة؛ كقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: ويتلو من قبل القرآن والتوراة، ﴿إِمَامًا﴾: كتاباً مؤتمّا به في الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني من كان على بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: يؤمون بالقرآن، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: أهل مكة، ومن ضامهم من المتحزّبين على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾، وقرئ: «مُرية»، بالضم، وهما الشك، ﴿مِّنْهُ﴾: من القرآن أو من الموعد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) قوله: «فمن كان على بينة» عبارة النسفي: كمن كان. وعبارة الخازن: أفمن كان على بينة من ربه، أي كمن كان يريد... إلخ (ع).

كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: يحبسون في الموقف، وتعرض أعمالهم، ويشهد عليهم، ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فواخزياه، ووافضيحتاه، والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشراف، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد، وهم الثانية؛ لتأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وقرئ: «يضعف»، ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع[(١)]، ولعل بعض المجبرة[(٢)] يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع[(٣)] به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من

---

(١) قال محمود: «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم. . . إلخ» قال أحمد: أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلته حيث يقول: فيوعوع بها على أهل العدل، يعني الآية المذكورة. وهذه سقطة عظيمة، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة، وإنما تلا كتاب الله تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة. وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير. ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه قال: ما كانوا يستطيعون السمع، وهو طاعته. وما كانوا يبصرون. وأما في الآخرة فإنه قال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾.

(٣) قوله: «فيوعوع به» في الصحاح: الوعوعة صوت الذئب.

أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ فكيف يصلحون للولاية؟ وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: اعتراض بوعيد، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: من الآلهة وشفاعتها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: فسر في مكان آخر، ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: واطمأنوا إليه، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة؛ ومنه قولهم للشيء: الدنيء/ ٣٢٨ب الخبيت؛ قال [من الخفيف]:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ ... قِ وَلاَ يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيتُ[(١)]

وقيل: التاء فيه بدل من الثاء.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع[(٢)]، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع[(٣)]، على أن تكون الواو في: (والأصم)، وفي: (والسميع): لعطف الصفة على الصفة؛ كقوله [من السريع]:

.... الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ[(٤)]

---

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو... إلخ» قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فإن امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين، وإنما ينظر ببيت امرىء القيس على الوجه الثاني، فإن مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولكن في صفتين متعددتين، والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

(٣) قوله: «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله: والذي (ع).

(٤) تقدم.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ يعني: الفريقين، ﴿مثلاً﴾: تشبيهاً.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير، ومعناه: أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾: بالكسر، فلما اتصل به الجارّ، فتح كما فتح في: (كأن) والمعنى: على الكسر، وهو قولك: إنّ زيداً كالأسد، وقرئ: بالكسر على إرادة القول، ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾: بدل من: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: أرسلناه بألاَّ تعبدوا، ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، أو تكون: «أن»: مفسرة، متعلقة بأرسلنا أو بنذير، وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟

قلت: مجازي مثله؛ لأنّ الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر؛ لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور، واضطلعوا بها وبتدبيرها، أو لأنهم يتمالؤون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة[1]، أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾: تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة[2]، وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر، لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشر، والأراذل جمع الأرذل؛

---

(١) قوله: «والمجالس أبهة» كسكرة: عظمة (ع).

(٢) قال محمود: «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة... إلخ» قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي. ولكنه ترك الهمز استثقالاً؛ إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوه ولا أسوة. والثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه. ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية. وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به، والله أعلم.

كقوله: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] «أحاسنكم أخلاقاً»، وقرئ: «بادي الرأي»، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أوّل الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أوّل رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا: أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر؛ وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم، وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه/ ٣٢٩أ إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله، ﴿مِن فَضۡلِۭ﴾: من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾: فيما تدّعونه

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أخبروني، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾: على برهان، ﴿مِّن رَّبِّي﴾: وشاهد منه يشهد بصحة دعواي، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾: بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة.

فإن قلت: فقوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾: ظاهر على الوجه الأوّل، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟

قلت: الوجه: أن يقدّر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة؛ ومعنى «عميت»: خفيت، وقرئ: «فعميت» بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبي: فعماها عليكم.

فإن قلت: فما حقيقته؟

قلت: حقيقته: أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى «فعميت عليكم البينة» فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أبيّ؟

قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله[1] وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ يعني: أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً، ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً؛ كقولك: أنلزمكم إياها، ونحوه: (فسيكفيكهم الله)، ويجوز: فسيكفيك إياهم، وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم، ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً، والإسكان الصريح: لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر، والضمير في قوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: راجع إلى قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وقرئ: و«ما أنا بطارد الذين آمنوا»، بالتنوين على الأصل.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾؟

قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلال ذلك مما تقرفونهم به[2] من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكر،/ ٣٢٩ب وما عليّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون؛ ونحوه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم . . .﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، ﴿تَجْهَلُونَ﴾: تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل؛ من قوله [من الوافر]:

أَلا لا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا ....[3]

(١) قوله: «فخلاهم الله» لم يفسره بمعنى أخفاها، لأن الله لا يفعل الشر عند المعتزلة، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن (ع).

(٢) قوله: «ذلك مما تقرفونهم به» أي ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح (ع).

(٣) ألا لا يـجـهـلـن أحـد عـلـيـنـا فـنـجـهـل فوق جـهـل الـجـاهـلـيـنـا
لعمرو بن كلثوم من معلقته، و«ألا» استفتاحية تفيد التوكيد ـ و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهي.
أي: لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر، ونجهل: نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهي. =

أو تجهلون بلقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم، ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾: من يمنعني من انتقامه، ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾: وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: معطوف على: ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه، كما تقولون؛ مساعدة لكم ونزولاً على هواكم، ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يقال: ازدرته عينه، واقتحمته عينه.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾: معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته؛ كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: من العذاب المعجل.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إليّ؛ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه، ﴿إِن شَآءَ﴾ يعني: إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «فأكثرت جدلنا».

فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟[1]

= وسمي جزاء الجهل جهلاً مشاكلة، أي: فنجازيه فوق فعله بنا، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.
البيت من معلقته المشهورة ينظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (١٠٢)، والتبيان في علم المعاني والسريع والبيان (٣٤٨)، والبحر (١/١٨٦)، القرطبي (١/١٤٥) والدر المصون (١/١٢٦).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين... إلخ» قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت. وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط. والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث. وإن أكلت ثم شربت =

قلت: قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾، وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني.

فإن قلت: فما معنى قوله:[1] ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؟

قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به: سمي إرشاداً وهداية، وقيل: ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يهلككم من غوى الفصيل غوّى، إذا بشم فهلك[2]، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله، ومواعظه، وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾: وإجرامي بلفظ المصدر/ ٣٣٠أ والجمع؛ كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم؛ ونحو: جرم وأجرام، قفل وأقفال؛ وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامي، والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته، فعليّ عقوبة إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا عليّ[3]، ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿لَن يُؤْمِنَ﴾: إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع، ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾: إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزن حزن بائس مستكين؛ قال [من البسيط]:

مَا يَقْسِمُ اللهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ ... مِنْهُ وَأَقْعِدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ[4]

= حنث. وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي للذي يليه، ثم جعلهما معاً جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا نطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت، والله أعلم.

(١) قوله: «فإن قلت فما معنى... إلخ» السؤال وجوابه مبني على مذهب المعتزلة: أن الله لا يخلق الشر. أما على مذهب أهل السنة فالإغواء على ظاهره: خلق الغي ـ أي الضلال ـ في القلب (ع).

(٢) قوله: «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخم. يقال: بشمت من الطعام ـ بالكسر. وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن (ع).

(٣) قوله: «وتتألبوا علي» أي تتجمعوا. أفاده الصحاح (ع).

(٤) لحسان، يقال: ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به. والبال القلب أو الشأن. يقول: =

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك، وإيذائك، ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن لله معه أعيناً تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وألاً يحول بينه[1] وبين عمله أحد من أعدائه، و﴿وَوَحْيِنَا﴾: وأنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر»، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: ولا تدعني في شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك، وقضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه؛ كقوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦].

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء[2] في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزَّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبيًا، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ يعني: في المستقبل، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع، فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو: إن تستجهلونا، فإنا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي أنّ نوحاً ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج،

= ما يقسمه الله لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه، أي مما قسمه الله لك. واقعد كريماً غير مهان طيب الحال والشأن، أو مستريح القلب من نصب الدنيا. وروي: وأقعد بقطع الهمزة، من أقعد المتعدي، فكريماً حال على الأول، ومفعول على الثاني، وفيه تجريد.

ينظر: ديوانه ص ١٤٧، ولسان العرب (بأس)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ٢٦١، وتاج العروس (بأس)، وأساس البلاغة (بأس)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٢٨، والمخصّص ١٢/ ٣١٧.

(١) قوله: «وأن لا يحول بينه» لعله: وأن يحول (ع).

(٢) قوله: «برية بهماء» أي لا يهتدي فيها الطريق. ويقال: الممر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا في الصحاح.

وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب/ ٣٣٠ب، والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ـ عليه السلام ـ وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة، وقيل: إنّ الحواريين قالوا لعيسى ـ عليه السلام ـ: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفًّا من ذلك التراب، فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، قال: فضرب الكثيب[1] بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ: هكذا أهلكت؟ قال: لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت، قال: حدّثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً، ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾: في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا، وهو الغرق، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾: هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟

قلت: لقوله: «ويصنع الفلك»، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت: «حتى» بيصنع، فما تصنع بما بينهما من الكلام؟

قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه.

فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل: (سخروا): جواباً، و(قال): استئنافاً، على

---

(١) قوله: «قال فضرب الكثيب» أي راوي هذه القصة، لكنه غير معلوم (ع).

تقدير سؤال سائل، أو تجعل: (سخروا)، بدلاً من (مرّ)، أو صفة: (لملأ)، و(قال): جواباً، ﴿وَأَهْلَكَ﴾: عطف على اثنين، وكذلك: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلاّ للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه[1] وإرادته به - تعالى الله عنه ذلك - قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانُوا ثَمَانِيَةً: نُوحٌ وَأَهْلُهُ، وَبَنُوهُ الثَّلاثَةُ، وَنِسَاؤُهُمْ» (٧٦٣)، وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال، ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل: (بسم الله): باركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله/ ٣٣١أ، أو قائلين: بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف؛ كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في: (بسم الله): من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول، والكلامان: أن يكون: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾: جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم[2]؛ كقوله [من الطويل]:

... ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا ....[3]

---

٧٦٣ - أخرجه قال الزيلعي في تخريج الكشاف: (١٤٦/٢): غريب. أ.هـ وقال ابن حجر: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم. فجمعهم ثمانية. أ.هـ أخرجه الطبري (٤٢/٧) رقم (١٨١٨٩) موقوفاً على قتادة. قال الحافظ: لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم؛ فجميعهم ثمانية. انتهى.

---

(١) قوله: «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والإرادة ولو شراً (ع).

(٢) قال محمود: «ويجوز أن يقحم الاسم... إلخ» قال أحمد: نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحماً، والله أعلم.

(٣)
تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا: هو المرء الذي لا صديقه ... أهان ولا خان الأمين ولا غدر

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقرئ: ﴿مجراها ومرساها﴾: بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين، وقرأ مجاهد: «مجريها ومرسيها»، بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله.

فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضبة؟

قلت: معناه: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال؛ كقوله [من الوافر]:

وَجَاءُونَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا ....(1)

= إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

للبيد بن ربيعة العامري، يوصي ابنتيه أسماء ويسرة. وتمنى: ماض، أو مضارع حذف منه إحدى التاءين، والاستفهام إنكاري وهو كناية عن تحتم الموت. ويوماً: ظرف لحان. والمراد به: مطلق الزمن. وأن يموت: فاعل. وخمش وجهه خمشاً: جرحه بأظفاره، أي: لا تبالغا في الجزع حتى تفعلا ذلك، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه. وصديقه: مفعول مقدم، وإلى الحول: متعلق بقولا، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه. وقيل: أقحمه إشارة إلى أنه لا أمان لهما بعد موته، وفي «ثم» إيماء إلى أنه لم يسلم الآن، وإنما ذلك بعد الحول، والمراد أنه لا يخطر ببالهما ولا يحزنا عليه بعد ذلك، فعبر عنه بسلام الموادعة الذي يلزمه الافتراق، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة. ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت، ثم قال: ومن يبك مصابه حولاً كاملاً فقد أبلغ في العذر، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه، أي: وأنتم كذلك.

ينظر ديوانه ص ٢١٤، الأغاني ١٣/ ٤٠، خزانة الأدب ٤/٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤٢، الخصائص ٣/ ٢٩، لسان العرب (غدر)، شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٤، العقد الفريد ٢/ ٧٨، ٣/ ٥٧، بغية الوعاة ١/ ٤٢٩، الدرر ٥/ ١٥، المقاصد النحوية ٣/ ٣٧٥، المنصف ٣/ ١٣٥، الأشباه والنظائر ٧/ ٩٦، شرح الأشموني ٢/٣٠٧، شرح عمدة الحافظ ص ٥٠٧، والمقرب ١/ ٢١٣، همع الهوامع ٢/ ٤٩، ١٥٨، بلا نسبة في أمالي الزجاجي ص ٦٣، شرح ديوان الحماسة ٢/ ٨٩٤، تأويل المشكل ٢٥٥، مجاز القرآن ١/ ١٦، الطبري ١/ ٨٠، النكت والعيون ١/ ٤٧، الدرر ١/ ٥٢، فتح القدير ٢/ ٤٠٩.

(1) وَجَاءُونا بهم سكر علينا ... فأجلى القوم والسكران صاحي

السكر والسكر: كالبعد والبعد، و«بهم سكر» جملة حالية. و«علينا» متعلق بسكر: أي جاءنا القوم غضاباً علينا، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه. والحال أن السكران منهم مفلق من سكره. ويروى «فأجلى اليوم» أي زال ومضى، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم: أي لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره، لعلمه أنه ليس أهلاً لذلك، فأجلى هنا لازم.

وهو لعتي بن مالك العقيليّ في تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٣٣، وبلا نسبة في لسان العرب (سكر)، وديوان الأدب ٢/ ٢٣٣، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٦، وإصلاح المنطق ص ٨٧، وتاج العروس (سكر)، وأساس البلاغة (سكر).

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم، لما نجاكم.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾؟

قلت: بمحذوف دلّ عليه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ أي: تجري وهم فيها، ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره[١]، وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال؛ ألا ترى إلى قول ابنه: «سآوي. إلى جبل يعصمني من الماء». قيل: كان اسم ابنه: كنعان، وقيل: يام، وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: «ابنها»، والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: «ابنه»، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته؟ فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إنّ الله حكى عنه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: (من أهلي)، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمّه وجهان:

أحدهما/ ٣٣١ب: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقرأ السدي: «ونادى نوح ابناه»، على الندبة والترثي، أي: قال: يا ابناه، والمعزل: مفعل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل:

(١) قوله: «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جدا وارتفع. ومنه يقال: بحر زاخر.

كان في معزل عن دين أبيه، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قرئ بكسر الياء؛ اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: يا بنيا، أو سقطت الياء والألف؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾: إلا الراحم وهو الله تعالى[1]، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفوراً رحيماً في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء، قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم، يعني: السفينة، وقيل: «لا عاصم»، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله؛ كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [**الطارق**: ٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [**الحاقة**: ٢١] وقيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾: استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم؛ كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقرئ: ﴿إِلَّا مَن رُّحِمَۚ﴾: على البناء للمفعول.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز[2] على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾، و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ثم

---

(١) قال محمود: «المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم... إلخ» قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس. وزاد الزمخشري خامساً؛ وهو لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمارد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز، وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «نداء الأرض والسماء بما ينادي به العاقل... إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحياناً، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحده فيها، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ الآية. والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين. ومنه [من الرجز]:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيّب يمدح عضد الدولة [من الرجز]:

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعني لا تمدح نفسك فإنك المنفرد بالممادح، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها.

أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾، و﴿أَقْلِعِي﴾: من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمته، وجلالته، وثوابه، وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء، والبلع: عبارة عن النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: من غاضه إذا نقصه، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: واستقرّت السفينة، ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾: وهو جبل بالموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يقال: بعد بعداً وبعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك؛ ولذلك اختص بدعاء السوء، ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل/ ٣٣٢أ قادر، وتكوين مكون قاهر، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: (ابلعي)، و: (أقلعي)؛ وذلك، وإن كان لا يخلى الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرّت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي أنها مرت بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أنّ نوحاً صام يوم الهبوط، وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

نداؤه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾، مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: (رب)، فكيف عطف: (قال رب) على: (نادى) بالفاء؟

قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ

رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤] بغير فاء، ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾: وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكام وأعدلهم[(١)]؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، ويجوز أن يكون من الحكمة، على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى: النسبة كما قيل: دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وأنّ نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب[(٢)] وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك ـ وإن كان أمس أقاربك رحماً ـ فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمّه، كقولها [من البسيط]:

.... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْـبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[(٣)]

وقيل: الضمير: لنداء نوح، أي: إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد[(٤)]؟

---

(١) قال محمود: «قال أي أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم... إلخ» قال أحمد: ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى: أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأقضاهم في الوصف، وأن يزاد عليهم، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة: أي هو الذي يقضي بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه أو إقليمه. وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم علي» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم: قاضي القضاة، وأقضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب.

(٢) قوله: «من الأباعد في المنصب» لعله تحريف، وأصله في النسب (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قال محمود: «فهلا قيل: إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفي عنه... إلخ» قال أحمد: ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: إني لا أملك لكم من الله شيئاً، أو قال ذلك كل واحد منهم بخصوصه.

قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وآذن بذلك أنه إنما أنجى/ ٣٣٢ب من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك؛ كقوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحريم: ١٠]، وقرئ: عمل غير صالح أي عمل عملاً غير صالح. وقرئ: «فلا تسئلنّ»، بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فإن قلت: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟

قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة، ووعظه ألاّ يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده[1] أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق، تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له، وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟

قلت: إن الله ـ عز وعلا ـ قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب؛ لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وألاّ تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من

---

(١) قال محمود: «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده... إلخ» قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول: لما وعد نوح أولاً تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً. وأما قوله ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين. والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم.

المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب ألاً يشتبه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾

﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾: من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته؛ تأدباً بأدبك، واتعاظاً بموعظتك، ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾: ما فرط مني من ذلك، ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾: بالتوبة عليّ، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: أعمالاً.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾

وقرئ: «يا نوح اهبط»، بضم الباء، ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾: مسلماً محفوظاً من جهتنا، أو مسلماً عليك مكرّماً، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾: ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ: «وبركة»، على التوحيد، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾: يحتمل أن تكون من للبيان، فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأنّ الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لإبداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وَأُمَمٞ﴾: رفع بالابتداء، و﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم سنمتعهم؛ وإنما حذف؛ لأنّ قوله: (ممن معك) يدل عليه، والمعنى: أنّ السلام منا، والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح ـ عليه/ ٣٣٣أ السلام ـ أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه، وممن كان معه في السفينة، وعن كعب بن محمد القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر، وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلاً، منهم من رحم، ومنهم من عذب، وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم: هود، وصالح، ولوط، وشعيب.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾

﴿تِلۡكَ﴾: إشارة إلى قصة نوح ـ عليه السلام ـ ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك، ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾: من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي

كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت، ﴿فَٱصْبِرْ﴾: على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك، ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه، ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾: في الفوز والنصر والغلبة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾: معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذ لم يكن ذلك شأنهم، ولا سمعوه، ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً، و﴿هُودًا﴾: عطف بيان؛ و﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: «غيرِه»، بالجرّ صفة على اللفظ، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾: تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء، ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها، ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك، قيل: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: آمنوا به، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: من عبادة غيره؛ لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، «والمدرار»: الكثير الدرور، كالمغزار؛ وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر، وزيادة القوّة؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع، وبساتين، وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين(١) بما أوتوا من شدّة القوّة، والبطش، والبأس، والنجدة، مستحرزين بها من العدوّ، مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوّة في المال، وقيل: القوّة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم، وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنه وفد على معاوية، فلما خرج، تبعه بعض حجابه، فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشر بنين، فبلغ/ ٣٣٣ب ذلك معاوية، فقال: هلا سألته ممَّ قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله

(١) قوله: «وكانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح: الدل قريب من الهدى، وهما من السكينة والوقار (ع).

الرجل؟ فقال: ألم تسمع قول هود ـ عليه السلام ـ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: ولا تعرضوا عني، وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه، ﴿مُجْرِمِينَ﴾: مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، مع فوت آياته الحصر، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾: حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه؛ إقناطاً له من الإجابة.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿اعْتَرَاكَ﴾: مفعول نقول، وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدّك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين[(١)]، وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر، وأوتاد الشرك؛ وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام، سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً، والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادّة؛ وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة[(٢)] أراد أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت[(٣)]، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه؛ حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب، من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة؛ وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم؛ ونحو ذلك قال نوح ـ عليه السلام ـ

---

(١) قوله: «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة (ع).

(٢) قوله: «وضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلعه (ع).

(٣) قوله: «لا يبالون بالبهت» رمي الشخص بما ليس فيه (ع).

لقومه: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، أكد براءته من آلهتهم، وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أني لا أفعله.

فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟[(١)]

قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة/ ٣٣٤أ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد على أني لا أحبك؛ تهكماً به، واستهانة بحاله، ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطاناً، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾: أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار؛ فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معزتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضرّ ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي؟

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

ولما ذكر توكله على الله، وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فإن تتولوا.

---

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... إلخ» قال أحمد: وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاده لله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهاد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده في هذا المقام معهم. ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟

قلت: معناه: فإن تتولوا، لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾: كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾: بتوليكم، ﴿شَيْئًا﴾: من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضارّ والمنافع؛ وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: «ويستخلف»، بالجزم، وكذلك: «ولا تضروه»، عطفاً على محل: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾، والمعنى: إن يتولوا، يعذرني، ويستخلف قوماً غيركم، ولا تضروا إلا أنفسكم، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيب عليه مهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها، حافظاً لها، وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضارّ، لم يضر مثله مثلكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم، نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ؛ وذلك أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ بعث عليه السموم، فكانت تدخل في أنوفهم، وتخرج من أدبارهم، فتقطعهم عضواً عضواً، وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ، وقوله: «برحمة منا»، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾: إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض، فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾/ ٣٣٤ب؛ لأنهم إذا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسل الله، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده، ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، يريد: رؤساءهم، وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم، ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل، جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، تكبهم على وجوههم في عذاب الله، و﴿أَلَا﴾: وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم؛ تهويل لأمرهم وتفظيع له، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم.

فإن قلت: ﴿بُعْدًا﴾ دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟

قلت: معناه: الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له؛ ألا ترى إلى قوله [من المديد]:

إِخْـــوَتِـــي لا تَـــبْـــعَـــدُوا أَبَـــداً وَبَـــلَـــى وَاللهِ قَـــدْ بَـــعِـــدُوا[1]

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾: عطف بيان لعاد.

فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان[2]، والبيان حاصل بدونه؟

قلت: الفائدة فيه: أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً، وتجعل فيهم أمراً محققاً، لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأنّ عاداً عادان: الأولى: القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى: إرم.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ

---

(١) إخـــوتـــي لا تـــبـــعـــدوا أبـــداً وبـــلـــى والله قـــد بـــعـــدوا
مـــا أمـــرّ الـــعـــيـــش بـــعـــدكـــم كـــل عـــيـــش بـــعـــدكـــم نـــكـــد
لـــيـــت شـــعـــري كـــيـــف شـــربـــكـــم؟ إن شـــربـــي بـــعـــدكـــم ثـــمـــد

لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. وتقول العرب: بعد بالضم في ضد القرب، وبالكسر في الهلاك، ومضارع الأول مضموم، ومضارع الثاني مفتوح. وما في البيت منه. وما أمر: تعجب، وشبهت العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكنية، وإثبات المرارة تخييل. أو استعارتها للنقص على طريق التصريحية. والنكد: العسر الضيق المنغص. والثمد: الماء القليل الذي لا مادة له فينقطع سريعاً. ورجل مثمود، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ما عنده. والمعنى: أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل، وعبرت بذلك لمشاكلة ما قبله. ويروى لها بعد البيت الأول:

لـــو تـــمـــلـــتـــهـــم عـــشـــيـــرتـــهـــم لاقـــتـــنـــاء الـــعـــز أو ولـــدوا
هـــان مـــن بـــعـــض الـــرزيـــة أو هـــان مـــن بـــعـــض الـــذي أجـــد
كـــل مـــا حـــي وإن أمـــروا واردو الـــحـــوض الـــذي وردوا

ومعنى تملتهم: عاشوا معهم مليا من الزمان، وأقحمت «من» مع إغباء «بعض» عنها، للدلالة على تبغيض البغض. و«ما» مقحمة، بني كل حي مبالغة في العموم. وأمروا بالكسر: كثروا. والحوض: تمثيل للموت.

ينظر: شرح شواهد المغني (٥٤٣/٢)، ومغني اللبيب (١٩٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (٩١٢).

(١) قال محمود: «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد... إلخ» قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى تناسب الآي بذلك، فإن قبلها ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقبل ذلك حفيظ وغليظ، وغير ذلك مما هو على وزن فعيل المناسب لفعول في القوافي، والله أعلم.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ
إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى
دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟
رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: وأمركم بالعمارة، والعمارة: متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادي، فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل [من البسيط]:

لَيْسَ الفَتَى بِفَتًى لاَ يُسْتَضَاءُ بِهِ   وَلاَ تَكُونُ لَهُ فِي الأَرْضِ آثَارُ[1]

وقيل: «استعمركم من العمر»، نحو: استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون استعمر في معنى: أعمر؛ كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أعمركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم.

والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده، فكأنما أعمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره، ﴿قَرِيبٌ﴾: داني الرحمة

---

(١) قوله: «بفتى» خبر ليس. و«لا يستضاء به» صفته. ويجوز أنه حال من الفتى الأول، شبهه في حسن الرأي وهداية المستشير بسراج منير. ويمكن أن شبهه بكوكب في السماءَ، ليقابل الأرض بعده. والجامع ما مر. ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر، كما أن المشبه به يكشف ظلمة الليل، وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل. روي أنه قيل لمعاوية: لم أكثرت من حفر الأنهار وغرس الأشجار وإحياء القفار؟ فقال: ما حملني عليه إلا هذا البيت، فالآثار هي ما كان يفعله. ويحتمل أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء.

سهل المطلب، ﴿مُّجِيبٌ﴾: لمن دعاه وسأله، ﴿فِينَا﴾: فيما بيننا، ﴿مَرْجُوًّا﴾: كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لننتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول، انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدّمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا، وتوافقنا على/ ٣٣٥أ ما نحن عليه، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: حكاية حال ماضية، ﴿مُرِيبٍ﴾: من أرابه إذا أوقعه في الريبة، وهي قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من «أراب الرجل»: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي، قيل: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾: بحرف الشك، وكان على يقين أنه على بينة؛ لأنّ خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدّروا أني على بينة من ربي، وأني نبيّ على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾: إذن حينئذ[1]، ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي، وتحملونني عليه غير أن أخسركم، أي: أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون، ﴿ءَايَةً﴾: نصب على الحال، قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قلت: فبم يتعلق: ﴿لَكُمْ﴾؟

قلت: بآية حالاً منها متقدّمة؛ لأنها لو تأخرت، لكانت صفة لها، فلما تقدمت، انتصبت على الحال، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾: عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً؛ وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم، ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾: استمتعوا بالعيش، ﴿فِى دَارِكُمْ﴾: في بلدكم، وتسمى البلاد: الديار؛ لأنه يدار فيها، أي: يتصرف، يقال: ديار بكر، لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون: من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف، وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقولك: يوم مشهود؛ من قوله [من الطويل]:

وَيَــــوْمٍ شَــــهِـــدْنَـــاهُ... ....[2]

---

(١) قوله: «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة (ع).

(٢) ويـوم شـهـدنـاه سـلـيـمـاً وعـامـراً قـلـيل سوى الطعن النهال نوافله

يقول: ورب يوم شهدنا فيه، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين: الأول الضمير، والثاني: سليماً، أي قبيلتهما «قليل» صفة ليوم. و«نوافله» فاعل به، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعي حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا ينالون من قومه إلا الطعن، تهكماً بهم، فالاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع. ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته، فهو متعدد أيضاً. والنهال: جمع ناهل، أي ريان أو عطشان على التشبيه هنا، فهو من الأضداد، ووصف =

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفى به، فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول. وكالمصدوقة بمعنى: الصدق، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن؛ كقوله [من الطويل]:

عَلَىٰ حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا .... (1)

فإن قلت: علام عطف؟

قلت: على نجينا؛ لأنّ تقديره: ونجيناهم من خزي يومئذ، كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي: من ذله، ومهانته، وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة، وقرئ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾، و(لثمود): كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحيّ أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى: القبيلة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)﴾

= الطعن بأنه ناهل مجاز عقلي؛ لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس. والمعنى: أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.

البيت لرجل من بني عامر في الدرر ٣/ ٩٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٦، ولسان العرب (جزى)، الأشباه والنظائر ١/ ٣٨، وخزانة الأدب ٧/ ١٨١، ٨/ ٢٠٢ و١٠/ ١٧٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٨، مغني اللبيب ٢/ ٥٠٣، والمقتضب ٣/ ١٠٥، والمقرّب ١/ ١٤٧، وهمع الهوامع ١/ ٢٠٣، وأمالي ابن الشجري ١/ ٦، الكامل ٢١ والدر المصون ١/ ٢١٤.

(١) على حين عاتبت المشيب على الصبا   فقلت: ألما أصح والشيب وازع؟

للنابغة الذبياني، وبنى حين على الفتح لإضافته إلى مبني، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلي. والمعنى: عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا، أي الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله: «فقلت» بيان للعتاب، أي: إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا، والحال أن الشيب زاجراً لي عن موجب العتاب، والاستفهام توبيخي: أي لا ينبغي ذلك، ووزعته فاتزع: كففته فامتنع؛ فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج، وأوزعني: ألهمني ما يصلح شأني.

ينظر شرح المفصل ١/ ٤٥٨، وشرح الأشموني ٢/ ٢٥٦، شرح شواهد المغني ٢/ ٨١٦ و٨٨٣، والدر المصون ٢/ ١٧.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾

﴿رُسُلُنَآ﴾: يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ وملكان معه، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر/ ٣٣٥ب، ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد، ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾: سلمنا عليك سلاماً، ﴿سَلَٰمٞۖ﴾: أمركم سلام، وقرئ: «فقالوا سلما قال سلم»، بمعنى: السلام، وقيل: «سلم وسلام»، كحرم وحرام؛ وأنشد [من الطويل]:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ ... كَمَا اكْتَلَّ بِالبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ[1]

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾: فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو: فما لبث مجيئه، والعجل: ولد البقرة، ويسعى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ البقر، ﴿حَنِيذٖ﴾: مشويّ بالرضف[2] في أخدود، وقيل: (حنيئذ): يقطر دسمه، من حنذت الفرس، إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً؛ ويدل عليه: ﴿بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]، يقال: نكره، وأنكره، واستنكره، ومنكور: قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرك، ولكن منكر، ومستنكر، وأنكرك، قال الأعشى: [البسيط]

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا[3]

قيل: كان ينزل في طرف من الأرض، فخاف أن يرويدوا به مكروهاً[4]، وقيل: كانت

---

(١) لذي الرمة غيلان بن عقبة، يقول: مررنا بديار المحبوبة ميّ، فقلنا إيه، أي حدثي واستأنسي، فأسرنا سلم، أي سلامة وأنس، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة. واكتل اكتلالاً: لمع لمعاناً واللوائح الظواهر: صفة للغمام، لتعدده معنى.
ينظر البيت في البحر المحيط ٥/ ٢٤٢، ومعاني الفراء ٢/ ٢١، وروح المعاني ١٢/ ٩٤، والطبري ١٥/ ٣٨٣، واللسان (سلم)، والدر المصون ٤/ ١١٢.

(٢) قوله: «مشوي بالرضف» أي الحجارة المحماة، كما في الصحاح (ع).

(٣) للأعشى. ويقال: أنكره ونكره: جهله ونفر منه: أي جهلتني المحبوبة، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل: إن أبا عبيدة سمع بشاراً ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول: إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه، فتعجب أبو عبيدة من فطنته، كأنه صح عنده إنكاره.
ينظر ديوانه (١٣٧)، والمحتسب ٢/ ٢٩٨، والخصائص ٣/ ٣١٠، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٣، والبحر المحيط ٥/ ٢٤٢، وروح المعاني ١٢/ ٩٠، والتهذيب ١٠/ ١٩١، وإعراب النحاس ٢/ ٢٩٢، والدر المصون ٤/ ١١٣، الموشح ٥٢، الصحاح (نكر)، التاج (نكر)، الأغاني ١٦/ ١٨.

(٤) قال محمود: «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهاً. . . . إلخ» قال أحمد: وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس =

عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر: أنه أحسّ بأنهم ملائكة، ونكرهم؛ لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه؛ ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم، ولم يعرف فيم أرسلوا، (فأوجس): فأضمر[1]؛ وإنما قالوا: (لا تخف)؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم، وفي مصحف عبد الله: «وامرأته قائمة» وهو قاعد، ﴿فَضَحِكَتْ﴾: سروراً بزوال الخيفة[2]، أو بهلاك أهل الخبائث، أو: كان ضحكها ضحك إنكار؛ لغفلتهم، وقد أظلهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك؛ فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: ضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: (فضحكت) بفتح الحاء، ﴿يَعْقُوبَ﴾: رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي: من بعده، وقيل: الوراء: ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم، من الوراء، وكان ولد ولده، وقرئ: (يعقوب): بالنصب، كأنه قيل: «ووهبنا لها إِسْحَاق»، ومن وراء إِسْحَاق يعقوب؛ على طريقة قوله [من الطويل]:

لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلاَ نَاعِبٍ ....[3]

= منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاؤوا. الثاني: في الحجر قوله ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فلم يطمئنوا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاؤوا فيه. الثالث: في الذاريات ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ﴾ فهو أيضاً كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي إبراهيم، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.

(١) عاد كلامه. قال: «ومعنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري والله أعلم، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة. والله الموفق للصواب.

(٢) عاد كلامه. قال: «وضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة... إلخ» قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد (يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب) فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله الموفق.

(٣) تقدم.

الألف في: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾: مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في: «يا لهفاً»، و«يا عجباً»، وقرأ الحسن: «يا ويلتي»، بالياء على الأصل، و﴿شَيۡخًاۖ﴾: نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة، وقرئ شيخ، على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي: بدل من المبتدأ، وشيخ: خبر، أو يكونان معاً خبرين، قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، ولإبراهيم مائة/ ٣٣٦أ وعشرون سنة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾: أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله؛ وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها فـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها(١) ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة - صلوات الله عليهم - في قولهم: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب، وأمر الله: قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾: كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب؛ فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: «الرحمة النبوة»، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم، ﴿حَمِيدٞ﴾: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ﴿مَّجِيدٞ﴾: كريم كثير الإحسان إليهم، وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص؛ لأن (أهل البيت): مدح لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾﴾

(الروع): ما أوجس من الخيفة، حين نكر أضيافه، والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخرف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة.

فإن قلت: أين جواب لما؟

قلت: هو محذوف كما حذف قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ [يوسف: ١٥]، وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: كلام مستأنف دال على الجواب، وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتدأ فقال: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ وقيل في: (يجادلنا)، هو: جواب لما؛ وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد «إن»: الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه:

(١) قوله: «ولا يزدهيها» في الصحاح: زهاه وازدهاه: استخفه وتهاون به (ع).

أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا، والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إياهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون، رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير[1]، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غير عجول على كل من/ ٣٣٦ب أساء إليه، ﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير التأوّه من الذنوب، ﴿مُّنِيبٌ﴾: تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب، والرأفة، والرحمة، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة، والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: على إرادة القول، أي: قالت له الملائكة، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾: الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: وهو قضاؤه، وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مردّ به بجدال، ولا دعاء، ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، روي أنّ الله تعالى قال لهم: «لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات»، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها، يقال: يوم عصيب، وعصوصب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شدّه.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَ

---

(١) قوله: «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون.

﴿يُهْرَعُونَ﴾: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها؛ فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل: معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾؛ أراد أن يقي أضيافه ببناته؛ وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوّجوهنّ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي، وهما كافران (٧٦٤)، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه: وقرأ ابن مروان: «هنّ أطهر لكم»، بالنصب، وضعفه سيبويه، وقال: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: (هن أطهر): بالنصب فقد تربع في لحنه؛ وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و(هنّ): فصل، وهذا لا يجوز؛ لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذي الحال، وقد خرّج له وجه لا يكون

---

٧٦٤ ـ أخرجه الطبراني في معجمه (٢٢/٤٢٦) رقم (١٠٥٠)، وابن هشام في سيرته (٢/ ٣٢٣) رقم (٨٠٩)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة»: ص (٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩)؛ وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٩/٢١٨ ـ ٢١٩)، وقال: رواه الطبراني وإسناده منقطع.
قال الحافظ:

قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح: يقال ضقت بالأمر ذرعاً، إذا لم تعلقه ولم تقر عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد؛ فكأنك تريد: مددت يدي إليه فلم تنله.

قلت: قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش، وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبي العاص بن الربيع بنت رسول الله ﷺ وكذا عتبة بن أبي لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالاً وأمانة، وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه، فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة آمنت خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة بن أبي لهب بنته رقية. فلما دعا قريشاً إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمداً من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبي العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب. ففارق رقية. وزوجوه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعدة عثمان بن عفان. فذكر قصة أبي العاص وأسره ببدر»، وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة: «أن النبي ﷺ زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبي لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين. انتهى.

(هنّ) فيه فصلاً؛ وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ، و(بناتي هنّ): جملة في موضع خبر المبتدأ؛/ ٣٣٧ أ كقولك: هذا أخي هو، ويكون: (أطهر): حالاً، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بإيثارهنّ عليهم، ﴿ولا تخزون﴾: ولا تهينوني، ولا تفضحوني، من الخزي، أو: ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء، ﴿فِي ضَيۡفِيٓ﴾: في حق ضيوفي؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره، فقد خزي الرجل؛ وذلك من عَراقة الكرم وأصالة المروءة، ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾: رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء، وقرئ: «ولا تخزون»، بطرح الياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم، وإظهاراً لشدّة امتعاضه[1] مما أوردوا عليه؛ طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده، وعندهم ألاَّ مناكحة بينه وبينهم، ومن ثمّ: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾: مستشهدين بعلمه، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾؛ لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابريّ[2]، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأنّ نكاح الإناث من الباطل؛ فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة، ﴿لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: عنوا إتيان الذكور، وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾

جواب «لو»: محذوف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: لو أنّ لي بكم قوّة، لفعلت بكم وصنعت، يقال: مالي به قوّة، ومالي به طاقة؛ ونحوه: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، ومالي به يدان؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقلّ به، والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قويّ أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته؛ ولذلك قالت الملائكة؛ وقد وجدت عليه ـ: إنّ ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ «رَحِمَ الله أَخِي لُوطاً، كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٧٦٥) وقرئ: (أو آوي): بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل:

---

٧٦٥ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٦١): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف =

---

(١) قوله: «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر: غضب منه وشق عليه، كذا في الصحاح (ع).
(٢) قوله: «وما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين: نوع من الثياب رقيق، منسوب إلى سابور من الأكاسرة، كذا بهامش. وفي الصحاح: عرضت له الشيء. أي أظهرته له وأبرزته إليه. يقال: عرضت له ثوباً مكان حقه. وفي المثل: عرض سابري؛ لأنه ثوب جيد يشترى بأول عرض ولا يبالغ فيه.

لو أن لي بكم قوّة أو أويا؛ كقولها [من الوافر]:

لَـلُـبْـسُ عَـبَـاءَةٍ وَتَـقَـرَّ عَـيْـنِـي .... (1)

وقرئ: (إلى ركن): بضمتين، وروي أنه أغلق بابه حين جاءوا أو جعل يرادّهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)﴾

= تحيي الموتى﴾، حديث (4537)، ومسلم (1/ 460 ـ النووي): كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث (238/ 151)، ومسلم أيضاً (8/ 134 ـ النووي): كتاب الفضائل: باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث (152/ 151)، وابن ماجه (2/ 1335) كتاب الفتن: باب الصبر على البلاء، حديث (4026)؛ كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث.

---

(1) لـبـيـت تـخـفـق الأرواح فـيـه ... أحـب إلـي مـن قـصـر مـنـيـف
ولـبـس عـبـاءة وتـقـر عـيـنـي ... أحـب إلـي مـن لـبـس الـشـفـوف

لميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره، وكنت قبله في العباءة، فقالت ذلك، أي: لبيت الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلي من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح في جمع ريح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد في عيد، خوف الاشتباه بالعود. ولبس: عطف على ما قبله. ورواية «للبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عيني مع ذلك وسروري، أحب إلي من لبس الشفوف وسخونة عيني وحزني. والشفوف ـ جمع شف ـ: الرقيق من الثياب، كأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوفاً. نحل جسمه. وشفه يشفه بالكسر شفا: نحله.

ينظر خزانة الأدب 8/ 503، 504، والدرر 4/ 90، وشرح التصريح 2/ 244، ولسان العرب (مسن)، والمقاصد النحوية 4/ 397، ومغني اللبيب 1/ 267، وشرح شواهد المغني 2/ 653، والمحتسب 1/ 326، وسرّ صناعة الإعراب 1/ 273، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1477، وشرح شذور الذهب ص 405، وشرح شواهد الإيضاح ص 250، والكتاب 3/ 45، والمقتضب 2/ 27، وشرح الأشموني 3/ 571، وشرح المفصل 7/ 25، وشرح عمدة الحافظ ص 344، وشرح ابن عقيل ص 576، وشرح قطر الندى ص 265، وخزانة الأدب 8/ 523، والرد على النحاة ص 128، والأشباه والنظائر 4/ 277، وأوضح المسالك 4/ 192، والجنى الداني ص 157، ورصف المباني ص 423، والصاحبي في فقه اللغة ص 112، 118، والدر المصون 1/ 355، فتح القدير 2/ 53.

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب، قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه ـ وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا ـ فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله/ ٣٣٧ب تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، فصاروا لا يعرفون الطريق؛ فخرجوا وهم يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط قوماً سحرة، ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله، لم يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره، قرئ: ﴿فَأَسْرِ﴾: بالقطع والوصل، و﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: بالرفع والنصب، وروي أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، وقرئ: ﴿ٱلصُّبُحُ﴾: بضمتين.

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب؟

قلت: استثناها من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ والدليل عليه قراءة عبد الله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك»، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء، وإن كان الفصيح هو البدل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر ألاّ يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت، هدّة العذاب التفت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها، وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها؛ فإن هواها إليهم، فلم يسر بها، واختلاف القراءتين؛ لاختلاف الروايتين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنككل؛ بدليل قوله: «حجارة من طين»، وقيل: «هي من أسجله»؛ إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين؛ ويدل عليه قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان، ﴿مَّنضُودٍ﴾[1]: نضد في السماء نضداً معدّاً للعذاب، وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً، ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: معلمة للعذاب، وعن الحسن: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد: اسم

---

(١) قوله: «منضود» في الصحاح: نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً، أي: وضع بعضه فوق بعض (ع).

من يرمي به، ﴿وَمَا هِيَ﴾: من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل، عليه السلام؟ فقال: يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة (٧٦٦)، وقيل: الضمير: للقرى، أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم، ﴿بِبَعِيدٍ﴾: بشيء بعيد، ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى، فكأنها بمكان قريب منه.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ يريد: بثروة واسعة، تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه،/ ٣٣٨أ، كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصله: من إحاطة العدوّ.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟

قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.

فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء(١)، فما فائدة قوله أوفوا؟

قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنّ في

---

٧٦٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤٨/٢): غريب، وذكره الثعلبي عن أنس من غير سند. وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت النهي عن النقصان أمر بالإيفاء... إلخ» قال أحمد: ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده أن يستدل بهذه الآية، فإن الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقيبه تكراراً. وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أن النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم: وأما قوله: إن الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وقد سبق بطلانها، وبينا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه؛ لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط، أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنّ الموفي عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؛ لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد.

البخس: الهضم والنقص، ويقال للمكس: البخس؛ قال زهير [من الطويل]:

.... وَفِي كُـلِّ مَـا بَـاعَ آمْـرؤٌ مَـكْـسُ دِرْهَـمِ[1]

وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك، والعثي في الأرض نحو السرقة، والغارة، وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: ما يبقى لكم من الحلال[2] بعد التنزه عما هو حرام عليكم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بشرط أن تؤمنوا؛ وإنما خوطبوا بترك التطفيف، والبخس، والفساد في الأرض، وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قلت: بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس[3] والتطفيف،

---

(١) أفـي كـل أسـواق الـعـراق إتـاوة؟! وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
ألا تـسـتـحـي مـنـا مـلـوك وتـتـقـي محـارمـنـا لا تـتـقـي الـدم بـالـدم

لزهير. وقيل: لجابر بن حيي التغلبي، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ، والإتاوة كالكتابة: الرشوة والجعالة: يقال: أتوته أأتوه أتوا وإتاوة: أعطيته الخراج، فهي في الأصل مصدر. والمكس: ما يأخذه العشار. ويروى «بخس درهم» أي نقص درهم، وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم، فقال زهير: لا ينبغي ذلك. و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية، فصارت أداة تحضيض. ويقال: استحيا واستحى كما هنا، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها، أي: لتستح منا الملوك، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم، أي لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا ترجع إلا بذلك، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم. وروي «ألا يستحي منا المليك ويتقي» إلى آخره، وهو لغة في الملك، والمراد به ملك العراق.

ينظر: شرح اختيارات المفضل ص ٩٥١، ولسان العرب (بوا)، (مكس)، والكتاب ٣/ ٩٥، الدر المصون ١/ ١٦٢، فتح القدير ١/ ١٥٥.

(٢) قال محمود: «بقية الله ما يبقى لكم من الحلال... إلخ» قال أحمد: المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهيا ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي. وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(٣) عاد كلامه. قال: «فإن قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، ومعنى السؤال: أن الكفار إذا قدرنا =

فلم شرط الإيمان؟

قلت: لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده؛ لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان، وتنبيه على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم، وأنصح به إياكم، ويجوز أن يراد: ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير[1] لكم؛ كقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأمّا الحرام، فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً[2]، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله، وقرئ: «تقية الله»، بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها؛ وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

كان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلوات/ ٣٣٨ب، وكان قومه إذا رأوه يصلي، تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم؛ ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾: السخرية والهزء ـ والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأن يقال: إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه ـ إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز[3]، وجعلوا الصلاة

= خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الإيمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب، والله الموفق.

(١) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند الله... إلخ» قال أحمد: قد تقدم أن عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة. وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(٢) قوله: «ولا يسمى رزقاً» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً (ع).

(٣) قوله: «مساق الطنز» في الصحاح: الطنز السخرية. وطنز يطنز فهو طناز، وأظنه مولداً أو معرباً اهـ (ع).

آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون، ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال، ومعنى تأمرك: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾: تأمرك بتكليف أن نترك[1]، ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾: لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره، وقرئ: ﴿أصلاتك﴾: بالتوحيد، وقرأ ابن أبي عبلة: «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء»، بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم[2] والدنانير وتقطيمها، وأرادوا بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾: نسبته إلى غاية السفه والغيّ، فعكسوا ليتهكموا به، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره[3]، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل: معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ أي: من لدنه، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة، وقيل: (رزقاً حسناً): حلالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف.

---

(١) قال محمود: «معناه تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيهما» قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون (أن نفعل) معطوفاً على أن نترك، وعلى المشهور: لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على (ما يعبد) كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي أو أن ترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنبه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره: تأمرك بتكليف أن نترك، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله: «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح: حذفت من شعري ومن ذنب الدابة، أي: أخذت اهـ (ع).

(٣) قوله: «لا يبض حجره» في الصحاح: بض الماء بضيضاً: سال قليلاً قليلاً. وفي المثل: ما يبض حجره، أي ما تندى صفاته (ع).

فإن قلت: أين جواب: (أرأيتم)، وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟

قلت: جوابه محذوف؛ وإنما لم يثبت، لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبيًا على الحقيقة، أيصح لي ألاّ آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟، يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾: يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم/ ٣٣٩ أ التي نهيتكم عنها، لأستبد بها دونكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي، ونصيحتي، وأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر، ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾: ظرف، أي: مدّة استطاعتي[1] للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً، أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح: إصلاح ما استطعت، أو مفعول له؛ كقوله: [من المتقارب]:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءَهُ ....[2]

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾:

---

(١) قال محمود: «ما استطعت ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو يكون مفعولاً للمصدر كقوله: «ضعيف النكاية أعداءه» قال أحمد: والظاهر أنه ظرف. كهو في قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وأما جعله مفعولاً للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد؛ لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذاك. قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصاً في أفصح الكلام. والله أعلم.

(٢) ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخي الأجل

نكأ القرح نكأ بالهمز: جرحه بعد اندماله، ونكى العدو نكاية: قتله وجرحه. وأعداءه: مفعول النكاية. وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر. يخال: أي يظن الهرب من العدو يطيل الأجل من جبنه.

ينظر أوضح المسالك ٣/ ٣٠٨، وخزانة الأدب ٨/ ١٢٧، والدرر ٥/ ٢٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٩٤، وشرح الأشموني ١/ ٣٣٣، وشرح التصريح ٢/ ٦٣، وشرح شذور الذهب ص ٤٩٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٣٦، وشرح ابن عقيل ص ٤١١، وشرح المفصل لابن يعيش ٦/ ٥٩، ٦٤، والكتاب ١/ ١٩٢، والمقرب ١/ ١٣١، والمنصف ٣/ ٧١، وهمع الهوامع ٢/ ٩٣.

وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه، وفي ضمنه تهديد للكفار، وحسم لأطماعهم فيه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

«جرم»: مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه؛ قال [من الكامل]:

.... جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً وأكسبته إياه؛ فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبته مالاً أفصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً، وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: (مثلَ ما أصاب)، بالفتح؛ لإضافته إلى غير متمكن؛ كقوله [من البسيط]:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ ....[2]

---

(1) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة ... جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

لزيادة بن أسماء. ويقال: جرم ذنباً إذا اكتسبه. وجرم النخل: قطعه. وجرمته كذا: إذا أكسبته إياه أو حملته عليه. يقول: طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلته. «جرمت فزارة» أي حق لها بعدها الغضب، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط، واشتهر الرفع عنهم؛ لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول، أي: أحقتهم الغضب، أو أكسبتهم إياه، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها، فهو على إسقاط الخافض.

ينظر لسان العرب (جرم)، وله أو لعطية بن عفيف في خزانة الأدب ١٠/ ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ١٣٦، ولرجل من فزارة في الكتاب ٣/ ١٣٨، وبلا نسبة في أدب الكتاب ص ٦٢، والاشتقاق ص ١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٤٦٥، وجواهر الأدب ص ٣٥٥.

(2) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا ... فيها فصرت إلى وجناء شملال

تعطيك مشياً وإرقالاً ودأدأة ... إذا تسربلت الآكام بالآل

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ... حمامة فوق غصن ذات أوقال =

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر، والمساوى، وما يستحق به الهلاك.

فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه(1)؟

قلت: إما أن يراد: وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد، ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث؛ لورودها على زنة المصادر التي هي: الصهيل، والنهيق، ونحوهما، ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: عظيم الرحمة للتائبين، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه، من الإحسان والإجمال.

﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ

= لأبي قيس بن رقاعة يصف ناقته. وقوله: «فيها» أي في دار المحبوبة. والوجناء: الشديدة الصلبة. والشملال: الخفيفة السريعة. والإرقال والدأدأة: نوعان من السير، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض، بالتسربل وهو لبس السرابيل: أي الثياب على طريق التصريحية، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم، أو بحنينها إلى وطنها، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب ـ بالكسر: ـ النصيب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال: جمع وقل كجبل وهي الحجارة، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول: لم يمنع نصيبها من الماء عنها، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل، وبني على الفتح لإضافته إلى مبنى، واستعار النطق لتغريد الحمامة على سبيل التصريحية، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقة صوتها ولم ترها ففزعت. أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطرباً لذيذاً، فحنت الناقة إلى وطنها. وذات أوقال: وصف لغصن؛ لأنه جمع غصن كما قيل في فلك، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري. ويجوز أن يقرأ بإضافة غصن إلى ذات، والمعنى: غصن أرض أو شجرة ذات أوقال، لكن الأول أحسن في الوزن. وقد روي: في غصون ذات أوقال، أي: ذات قطع بارزة بعد التعليم، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة، أو صاحبة أحجار، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقة إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك. وقيل: إنه جمع «وقل» بالسكون، وهو شجر المقل. وقيل: يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد، أي ذات ارتفاعات.

ينظر البيت في ديوانه ص (٨٥)، جمهرة اللغة ص (١٣١٦)، خزانة الأدب ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧، الدرر ٣/ ١٥٠، ولأبي قيس بن رفاعة في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٨٠، شرح شواهد المغني ١/ ٤٥٨، شرح المفصل ٣/ ٨٠، الأدب ٦/ ٥٣٢، ٥٥٢، ٥٥٣، سرّ صناعة الإعراب٢/ ٥٠٧، شرح التصريح ١/ ١٥، شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨١، ٨/ ١٣٥، الكتاب ٢/ ٣٢٩، لسان العرب (نطق)، (وقل)، مغني اللبيب ١/ ١٥٩، همع الهوامع ١/ ٢١٩، الدر المصون ٣/ ١٢٧.

(١) قوله: «على ما يقتضيه قوم من حمله» وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث، نحو ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أو معاملة جمع الذكور، نحو ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ لأن الأول مقتضى حمله على لفظه، كما سيأتي في سورة الشعراء، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة، والثاني مقتضى =

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

﴿مَا نَفْقَهُ﴾: ما نفهم، ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم؛ رغبة عنه، وكراهية له؛ كقوله/ ٣٣٩ب: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه، وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ، ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوة لك، ولا عز فيما بيننا[1]، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً، وعن الحسن: (ضعيفاً): مهيناً، وقيل: (ضعيفاً): أعمى، وحمير تسمي المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد؛ لأنّ (فينا): يأباه؛ ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى، أعمى فيهم وفي غيرهم؛ ولذلك قللوا قومه؛ حيث جعلوهم رهطاً، والرهط: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة؛ وإنما قالوا: ولولاهم؛ احتراماً لهم، واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزتهم، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: لقتلناك شرّ قتلة، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعزّ علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم؛ وإنما يعزّ علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا؛ ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾، ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت: فالكلام واقع فيه، وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾؟

قلت: تهاونهم به ـ وهو نبيّ الله ـ تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه، كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: ونسيتموه، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر

= حمله على معناه وهو ظاهر (ع).

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا... إلخ» قال أحمد: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان مليا بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

لا يعبأ به، والظهريّ: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسيّ، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني، ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾: يجوز أن تكون (من): استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها؛ كأنه قيل: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه، وأينا هو كاذب، وأن تكون/ ٣٤٠ أ موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في: (سوف تعلمون)؟

قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف؛ للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾: وانتظروا العاقبة، وما أقول لكم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب، من رقبه، كالضريب والصريم بمعنى: الضارب، والصارم، أو بمعنى: المراقب، كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب، كالفقير، والرفيع، بمعنى: المفتقر والمرتفع.

فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكانتهم[1]، وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم... إلخ» قال أحمد: والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكلامين جميعاً لهم، فالأول وهو قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً فالآخر هو المحق قطعاً، فذكره لإحدى العاقبتين صريحاً يفهم ذكر الأخرى تعريضاً والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر، استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيناه في الآية التي في أول هذه السورة، وهي قوله تعالى ﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير، =

العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟

قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ يعني: في زعمكم ودعواكم؛ تجهيلاً لهم.

فإن قلت: ما بال ساقتي قصة[1] عاد، وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟

قلت: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد؛ وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة؛ وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة، الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد[2]، يعني: أن جبريل صاح بهم صيحة، فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصاً[3]، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾: كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين متردّدين، البعد: بمعنى: البعد، وهو الهلاك، كالرشد بمعنى: الرشد؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ﴾؟ وقرأ السلمي: «بعُدت»، بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضماني الخير والشر، فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت، وقيل: معناه: بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾/ ٣٤٠ب: فيه وجهان: أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها، ﴿وَمَآ أَمْرُ

= ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك. كقوله ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستغنى عن ذكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمل هذا الفصل فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(١) قوله: «ساقتي قصة» في الصحاح: ساقة الجيش مؤخره اهـ. ومثله ساقة القصة هنا (ع).

(٢) قوله: «كاللابد» أي المتلبد اللاصق بالأرض، أفاده الصحاح (ع).

(٣) قوله: «بحيث هو قعصا» في الصحاح: يقال مات فلان قعصاً، إذا أصابته ضربة فمات مكانه (ع).

﴿فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: تجهيل لمتبعيه؛ حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل؛ وذلك أنه ادّعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد: الذي فيه رشد، أي: وما في أمره رشد إنما هو غيّ صريح وضلال ظاهر مكشوف؛ وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى ـ عليه السلام ـ وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله: (يقدم قومه): تفسيراً لذلك وإيضاحاً، أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضي، كما استعمل الغيّ في كل ما يذم ويتسخط، ويقال: قدمه بمنى تقدّمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدّمه، ومنه مقدّمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدّم. ومنه مقدّم العين.

فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به؛ فكأنه قيل: يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة، و﴿ٱلْوِرْدُ﴾: المورود، و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾: الذي وردوه، شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار؛ لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضدّه، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ﴾: في هذه الدنيا، ﴿لَعْنَةً﴾ أي: يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة، ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: رفدهم، أي: بئس العون المعان؛ وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة، وقيل: بئس العطاء المعطى.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾: خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك، ﴿مِنْهَا﴾: الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟

قلت: هي مستأنفة لا محل لها، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾: بإهلاكنا/ ١٣٤١أ إياهم، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بارتكاب ما به أهلكوا، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾: فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله، ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وهي حكاية حال ماضية، و﴿لما﴾: منصوب بما أغنت، ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾: عذابه ونقمته، ﴿تتبيب﴾: تخسير، يقال: تبّ إذا خسر، وتببه غيره، إذا أوقعه في الخسران.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

محل الكاف: الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾: والنصب فيمن قرأ: «وكذلك أخذ ربك»، بلفظ الفعل، وقرئ: «إذ أخذ القرى»، ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾: حال من القرى، ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم، ﴿لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ﴾: لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته، اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى، والخشية من الله تعالى، ونحوه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦]. ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى يوم القيامة؛ لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: رفع باسم المفعول الذي هو مجموع، كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قلت: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟[١]

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة[٢] على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول... إلخ» قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً... إلخ.

(٢) قوله: «من دلالة» عبارة النسفي: دلالته (ع).

ـ أيضاً ـ لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه؛ ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب، والثواب، والعقاب، ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: مشهود فيه، فاتسع في الظرف[1] بإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَــوْمِ شَــهِـدْنَــاهُ سُــلَـيْـمــاً وَعَــامِـراً ....[2]

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهدوه، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، قال [من البسيط]:

.... فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ[3]

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟

قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه، فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل/ ٣٤١ب التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده؛ وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في: (فليصمه)، والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان

---

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف... إلخ» قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكوتاً عنه مبهماً، ومن الإبهام ما يكون تفخيماً، وهذا مكانه.

(٢) تقدم.

(٣)
من للخصوم إذا جد الضجاج بهم ... بعد ابن سعد ومن للضمر القود
ومشهد قد كفيت الغائبين به ... في محفل من نواصي القوم مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس ... عند الحفاظ وقلب غير مزءود

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجاً: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمر بالتشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينثني. والقود: جمعه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أي مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم، فالنواصي: استعارة لهم. وفرجته، فككت كربته، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أي غيرة الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه.
ينظر: لسان العرب (نصو)، وتاج العروس (نصو)، وأساس البلاغة (نصو).

منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان، فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً، فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: ٣٤]، يراد: آخر مدة التأجيل، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾: إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف، وقرئ: «وما يؤخره بالياء».

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

قرئ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾: بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟

قلت: الله ـ عزّ وجلّ ـ كقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وتعضده قراءة: «وما يؤخره»، بالياء، وقوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم؛ كقوله تعالى: ﴿أن تأتيهم الساعة﴾.

فإن قلت: بما انتصب الظرف؟

قلت: إمّا أن ينتصب بلا تكلم، وإما بإضمار «اذكر»، وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه.

قلت: المراد إتيان هوله وشدائده، ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾: لا تتكلم، وهو نظير قوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨].

فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ الضمير: لأهل

الموقف، ولم يذكروا؛ لأنّ ذلك معلوم، ولأنّ قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾: يدل عليه، وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]، والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

قراءة العامّة بفتح الشين، وعن الحسن: (شقوا): بالضم، كما قرئ: (سعدوا)، والزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّه؛ قال الشَّمّاخ [من من الطويل]:

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ   زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ[(١)]

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضاً. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]؛ وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]؛ ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم: إمّا سماء يخلقها الله، أو يظلهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء.

والثاني: أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد.

فإن قلت: فما معنى: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟

قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير بأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسوءه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه

(١) للشماخ يصف حمار وحشي. والمدى: المسافة والغاية. والتطريب: ترديد الصوت وترخيمه. والزفير: إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول: الصوت الذي يردده في حلقه وصدره.

قوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ ومعنى قوله في مقابلته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّله؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة[1]، إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت[2]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد (٧٦٧)؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين ـ زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ـ وتنبيهاً على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير؛ فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث.

---

٧٦٧ ـ أخرجه البزار، كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٤٨/٢) من طريق الطيالسي ثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً، وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث أنس.

أخرجه ابن عديّ في «الكامل»؛ كما في «تخريج الكشاف» (١٤٨/٢ ـ ١٤٩) من طريق العلاء بن زيد الثقفي عن أنس مرفوعاً.

وأعله بالعلاء بن زيد وقال: هو منكر الحديث.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

الحديث أخرجه البزار قال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: «يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. يعني من الموحدين»، كذا فيه ورجاله ثقات. والتفسير لا أدري ممن هو، وهو أولى من تفسير المصنف، ويؤيده ما رواه ابن عديّ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها، ما فيها من أمة محمد أحد»، وفي الباب عن أبي أمامة رفعه: «يأتي على جهنم يوما ما فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها، يعني من الموحدين»، وأما الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفعه: «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير»، فهو منقطع. ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد. فإن كان محفوظاً فعلى التأويل الأول. والله أعلم. انتهى.

---

(١) قوله: «ولا يخدعنك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد (ع).

(٢) قوله: «لما روى لهم بعض النوابت» في الصحاح: إن بني فلان لنابتة شر. والنوابت من الأحداث الأعمار (ع).

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: غير مقطوع،/ ٣٤٢ب ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية؛ كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]. لما قصّ قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه، وما أعدّ لهم من عذابه، قال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله ﷺ وعده بالانتقام منهم ووعيداً لهم، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ يريد: أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية، و«ما»: في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدرية وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها، ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: حظهم من العذاب(١)، كما وفينا آباءهم أنصباءهم.

فإن قلت: كيف نصب: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حالاً عن النصيب الموفى؟

قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل؛ ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه، وثلث حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية، أيضاً.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

---

(١) قال محمود: «أي حظهم من العذاب، وإنما نصب غير منقوص حالاً من النصيب الموفى، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وحقه كاملاً» قال أحمد: وهم والله أعلم، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه؟ والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي بمعنى الأخذ. ومن قال: أعطيت فلاناً حقه. كان جديراً أن يؤكده بقوله: «غير منقوص» والله أعلم.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾: التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنّ كلهم، وإنّ جميع المختلفين فيه، ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾: جواب قسم محذوف، واللام في (لما): موطئة للقسم، و(ما): مزيدة، والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم، ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾: من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة؛ اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبيّ: «وإن كل لما ليوفينهم»، على أنّ إن نافية، ولما بمعنى: إلا، وقراءة عبد الله مفسرة لها، وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: «وإن كلا لما ليوفينهم»، بالتنوين؛ كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى: مجموعين؛ كأنه قيل: وإنّ كلا جميعاً؛ كقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٧٣].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق، غير عادل عنها، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: معطوف على المستتر في استقم؛ وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت، وليستقم من تاب على الكفر، وآمن معك، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: ولا تخرجوا عن حدود الله، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه/ ٣٤٣أ من هذه الآية، ولهذا قال: «شيبتني هود والواقعة وأخواتهما» (٧٦٨). وروي أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب، فقال:

---

٧٦٨ ـ تفرد به التِّرمذي (٣٢٩٧) دون أصحاب الكتب الستة، وأخرجه الحاكم (٢/٤٧٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقد توسع الدارقطني في «العلل» (١/١٩٣ ـ ٢١١) في الكلام على هذا الحديث فليراجع.
قال الحافظ:
وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله، قد شبت، قال: قد شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون. وإذا الشمس كورت» وقال: حسن غريب. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال: اختلف فيه على أبي إسحاق، فقال شيبان كذا. وقال علي بن صالح: عن أبي إسحاق عن أبي حجية قال: وقال زكريا عن أبي إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال: وأطال الدارقطني في ذكر علله واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل ـ ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. فقال: شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، وعَمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت، وأخرجه ابن سعد وابن عديّ من رواية يزيد الرقاشي عن أنس. وفيه: «الواقعة، والقارعة، وسأل، وإذا الشمس كورت». انتهى.

«شَيَّبَتْنِي هُودُ» (٧٦٩) وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود، فقال: «نعم»، فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا»، ولكن قوله ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾. وعن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ (فاستقم كما أمرت)، قال: افتقرْ إلى الله بصحة العزم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قرئ: «ولا تركنوا»، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء، وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم؛ ونحوه قراءة من قرأ: (فتِمسكم النار): بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا تركنوا»، على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم؛ وتأمّل قوله: (ولا تركنوا): فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين، وحكي أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: جعل الله الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [طه: ٨١]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾، ولما خالط الزهري السلاطين، كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء؛ قال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوّك ممن لم يؤدّ حقًّا، ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك[1] من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ

---

٧٦٩ ـ ينظر الحديث السابق.

---

(١) قوله: «وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره: في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحوا لك في جنب ما أفسدوا... إلخ» (ع).

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩]، فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في/ ٣٤٣ب السماء، والسلام.

وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك، وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً، وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فِي أَرْضِهِ» (٧٧٠). ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾: حال من قوله: (فتمسكم) أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قلت: فما معنى ثم؟

قلت: معناها: الاستبعاد؛ لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: غدوة وعشية، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾: وساعات من الليل، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأنّ ما بعد الزوال عشيّ، وصلاة الزلف: المغرب والعشاء،

---

٧٧٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٥١): غريب مرفوعاً، وذكره الغزالي كذلك مرفوعاً في موضعين من كتابه إحياء علوم الدين. أ.هـ. والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٧/ ٥٣ ـ ٥٤) رقم (٩٤٣٢) عن عبد الله بن عمر الرقي عن يونس بن عبيد سمعت الحسن يقول: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه».
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٤٦) من قول سفيان الثوري، في ترجمته فذكره.
وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: (٢/ ٨٧)، (٢/ ١٤٤) مرفوعاً به.
قال الحافظ: قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قولة. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري. انتهى.

وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت؛ كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار، وأوله، وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه؛ ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقرئ: «وزُلُفَا»؛ بضمتين، «وزلْفا». بسكون اللام، «وزلفى»: بوزن قربى، فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر، والزلف بضمتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القربى بمعنى القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: «وزلفا من الليل»: وقرباً من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفاً من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرّب بها إلى الله - عزّ وجلّ - في بعض الليل، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إِنَّ الصَّلاَةَ إِلَى الصَّلاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِر» (٧٧١).

والثاني: «إن الحسنات يذهبن السيئات»: بأن يكن لطفاً في تركها؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو ابن غزية الأنصاري كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ/ ٣٤٤أ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ «أَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِّي، فَلَمَّا صَلَّى صَلاَةَ الْعَصْرِ، نَزَلَتْ، فَقَالَ: نَعَمْ، اذْهَبْ؛ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمِلْتَ» ح، وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره، فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر - رضي الله عنه - فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل

---

٧٧١ - أخرجه مسلم (أبي) [٢/ ٢٥]: كتاب الطهارة: باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة و...، حديث (١٤/ ٢٣٣). والترمذي (٢١٤) وأخرجه ابن ماجه (١/ ٣٤٥): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب في فضل الجمعة، حديث (١٠٨٦).

وابن خزيمة (١/ ١٦٢): كتاب الصلاة: باب ذكر الدليل على أن الصلوات الخمس إنما تكفّر صغائر الذنوب دون كبائرها، حديث (٣١٤). و(٣/ ١٥٨): في جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة: باب ذكر الخبر المفسر للأخبار المجملة التي ذكرتها في الأبواب المتقدمة، حديث (١٨١٤).

وأخرجه أحمد (٢/ ٤٨٤).

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». انتهى.

للناس عامة، وروي أنّ رسول الله ﷺ قال له: تَوَضَّأْ وُضُوءا حَسَناً وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ»، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (٧٧٢)، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، فما بعده:

---

٧٧٢ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/ ٢٩٢): كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، حديث (٣١١٥)، والنّسائي في تفسيره: (١/ ٥٩٤)، وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو.

قال: وروى شريك عن عثمان عن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٤) رقم (١٨٦٩٧ ـ ١٨٦٩٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥) رقم (٣٧١): كلهم من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٣٨)، وزاد نسبته للبزار وابن مردويه عن أبي اليسر به. وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٢/ ١٨٩): كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة كفارة، حديث (٥٢٦) و(٩/ ٢٦٠): كتاب التفسير، باب: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ حديث (٤٦٨٧)، وذكره تعليقاً في ترجمة باب (٢٦) من كتاب الحدود (١٤/ ٩٣)، ومسلم (٩/ ٩١ ـ ٩٢ ـ النووي): كتاب التوبة باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ حديث (٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١/ ٢٧٦٣)، والتِّرمذي (٥/ ٢٩١): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة هود، رقم (٣١١٤)، وابن ماجه (١/ ٤٤٧): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء أن الصلاة كفارة، رقم (١٣٩٨) و(٢/ ١٤٢١): كتاب الزهد: باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٣٢) رقم (١٨٦٨٩).

كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود به.

وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٣١) رقم (١٨٦٨١ ـ ١٨٦٨٢) من طريق سماك عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود به. وله شاهد أيضاً من حديث معاذ بن جبل: أخرجه الدارقطني في السنن (١/ ١٣٤): كتاب الطهارة باب صفة ما ينقض الوضوء، وما روي في الملامسة والقبلة، والبيهقي في «سننه الكبرى» (١/ ١٢٥)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ١٣٥) وسكت عنه، والواحدي في تفسيره: (٢/ ٥٩٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ١٣٣) رقم (١٨٦٩٥)؛ كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل به.

وذكره السيوطي في الدر المنثور: (٣/ ٦٣٨) وزاد نسبته إلى أحمد والتِّرمذي والنّسائي وأبي الشيخ وابن مردويه عن معاذ بن جبل نحوه.

قال الحافظ:

كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فإنه قال: كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصاري. والحديث عند التِّرمذي والنّسائي والبزار والطبراني والطبري من رواية عثمان بن عبد الله ابن موهب عن موسى بن طلحة بن أبي اليسر بن عمرو قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً ـ فقلت لها: في البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معي في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق الله. فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له: فقال استر على نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأطرق طويلاً حتى أُوحي إليه: (أقم الصلاة... الآية) قال ابن أبي اليسر: أتيته فقرأها علي. فقال أصحابه: يا رسول الله، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. =

﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾: عظة للمتعظين.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله؛ كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به، والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جاء بما هو مشتمل على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانتهاء عن الطغيان، والركون إلى الظالمين، والصبر، وغير ذلك من الحسنات.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل: «لولا» في القرآن، فمعناها: «هلا»، إلا التي في الصافات، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [القلم: ٤٩]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾: أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجودة بقية؛ لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم؛ وبه فسر بَيتُ الحماسة [من البسيط]:

إنْ تُـذْنِـبُـوا ثُـمَّ يَـأْتِـيـنِـي بَـقِـيَّـتُـكُـمْ ....[1]

= وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟» وللدارقطني والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئاً يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها. فقال له النبي ﷺ توضأ وضوءاً حسناً ثم صل. فأنزل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فِيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه النبي ﷺ رجلاً. فدعاه فتلا عليه: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار... الآية﴾، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة». انتهى.

(١) يـأيـهـا الـراكـب الـمـزجـي مـطـيـتـه   سـائـل بـنـي أسـد مـا هـذه الـصـوت؟ =

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى، كالتقية بمعنى: التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: «أولو بقية»: بوزن لقية، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه: «بقينا رسول الله ﷺ (٧٧٣)، والبقية المرة من مصدره، والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، و(من) في: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾: حقها أن تكون للبيان، لا للتبعيض؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ **[الأعراف: ١٦٥]**.

فإن قلت: هل لوقوع هذا/ ٣٤٤ب الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟

قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن، وإن قلت في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟

---

٧٧٣ ـ أخرجه أبو داود (١/ ١١٤): كتاب الصلاة: باب في وقت العشاء الآخرة، حديث (٤٢١) من طريق عاصم بن حميد السكوني عن معاذ بن جبل به.
قال الحافظ: أخرجه أبو داود من حديث معاذ قال «لقينا رسول الله ﷺ في صلاة العتمة فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج... الحديث» انتهى.

= وقل لهم: بادروا بالعذر والتمسوا قولاً يبرئكم إني أنا الموت
إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم فما علي بذنب عندكم فوت

لروشيد بن كثير الطائي. وزجاه ـ بالتخفيف والتشديد ـ وأزجاه: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتي مصدراً بمعنى البقوي، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنبوا ثم يأتيني أماثلكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس علي بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتيني منكم ذو الإبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك. ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا علي للمحاربة أو للاعتذار، فلا تفوتني مؤاخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في «يأتيني» للإشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله: «بادروا بالعذر».
ينظر: لسان العرب (بقى)، والمحتسب (١/ ١٩٦).

فِيهِ﴾: أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم، وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، «واتبع الذين ظلموا»، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قويّ لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؟

قلت: إن كان معناه: واتبعوا: الشهوات، كان معطوفاً على مضمر؛ لأنّ المعنى: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؟

قلت: على أترفوا، أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَكَانَ﴾ بمعنى: صح واستقام، واللام لتأكيد النفي، و﴿بِظُلْمٍ﴾: حال من الفاعل، والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾: قوم، ﴿مُصْلِحُونَ﴾: تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمّة واحدة، أي: ملة واحدة، وهي ملة الإسلام؛ كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وهذا الكلام يتضمن/ ٣٤٥أ نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه

مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾؛ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَكُلًّا﴾: التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾، و﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾: بيان لكل، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: بدل من كلا، ويجوز أن يكون المعنى: كل اقتصاص نقصّ عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، و(ما نثبت به): مفعول نقصّ، ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: من أهل مكة وغيرهم: ﴿اعْمَلُوا﴾: على حالكم، وجهتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا﴾: بنا الدوائر، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ فإنه كافيك وكافلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وقرئ: «تعملون»، بالتاء، أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِنُوحٍ وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ، وَلُوطٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَىٰ، وَكَانَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ» (٧٧٤).

---

٧٧٤ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ: تقدم إسناده في آل عمران، ويأتي في آخر الكتاب. انتهى.

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ الآيَاتِ ١ و٢ و٣ و٧ فَمَدَنِيَّةٌ]

وهي مائةٌ وإحدى عشرةَ آيَةً [نزلت بعد سورة هود]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى آيات السورة، و﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: السورة، أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله، لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا نشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أن علماء اليهود. قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً، لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: انزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وسمي بعض القرآن قرآناً؛ لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿ٱلْقَصَصُ﴾ على وجهين: يكون مصدراً بمعنى: الاقتصاص، تقول: قصّ الحديث يقصه قصصاً؛ كقولك: شله يشله شللاً، إذا طرده، ويكون: «فعلاً» بمعنى: «مفعول»، كالنفض والحسب؛ ونحوه: النبأ والخبر: في معنى المنبأ به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن القصص، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر؛ لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفاً؛ لأنّ قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص/ ١٦٥أ، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب؛ ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً؛ لاقتصاصه في القرآن، وإن

أريد بالقصص المقصوص، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث؛ وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر، والنكت، والحكم، والعجائب، التي ليست في غيرها[1]، والظاهر: أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد في فنه.

فإن قلت: ممّ اشتقاق القصص؟

قلت: من قصّ أثره إذا اتبعه؛ لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه؛ لأنه يتلو، أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية، ﴿وَإِن كُنتَ﴾: إن مخففة من الثقيلة، واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية، والضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾: راجع إلى قوله: «ما أوحينا»، والمعنى: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه، أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف منه.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾: بدل من أحسن القصص، وهو من بدل الاشتمال؛ لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص، فإذا قصَّ وقته فقد قص، أو بإضمار: «اذكر»، ويوسف اسم عبراني، وقيل عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربيًا لانصرف؛ لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ: (يوسِف) بكسر السين، أو: (يوسَف) بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال: «هو عربي»؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من آسف؛ وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟

قلت: لا؛ لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس، وعن النبي ﷺ: «إِذَا قِيلَ: مَنِ الكَرِيمُ؟ فَقُولُوا: الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنِ يَعْقُوبَ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» (٧٧٥)، ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: قرئ بالحركات الثلاث.

---

٧٧٥ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/ ٢٩٣) كتاب تفسير القرآن باب: ومن سورة يوسف حديث (٣١١٦)، والنّسائي =

(١) قوله: «ليست في غيرها» لعله «في غيره» كعبارة النسفي (ع).

فإن قلت: ما هذه التاء؟

قلت: تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟

قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر، وشاة ذكر، ورجل ربعة، وغلام يفعة.

فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟

قلت: لأنَّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الإسم في آخره.

فإن قلت: فما هذه الكسرة؟

قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي، قد زحلقت إلى التاء؛ لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً.

فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء، وتبقى التاء ساكنة؟

قلت: امتنع ذلك فيها؛ لأنها اسم، والأسماء: حقها التحريك؛ لأصالتها في الإعراب؛ وإما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرّك تخفيفاً؛ لأنها حرف لين، وأما التاء: فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فلزم تحريكها.

فإن قلت: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوّض منه؛

= في «التفسير» رقم (٢٧٤) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٠٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والطبري في تفسيره (٢/ ٥٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٤٢٩)، والحاكم (٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧)؛ كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً وقال التِّرمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وللحديث شاهد من حديث ابن عمر أخرجه البخاري (٦/ ٤٨٠) كتاب أحاديث الأنبياء باب: أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت رقم (٣٣٨٢)، وذكره في كتاب التفسير (٨/ ٢١٢) باب: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق رقم (٤٦٨٨).

قال الحافظ: أخرجه التِّرمذي والنِّسائي والحاكم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم... إلى آخره» وفي البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريم بن الكريم إلى آخره»، وهو في المتفق عليه عن أبي هريرة لكن بلفظ: «سُئل النبي ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: يا رسول الله، ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله». انتهى.

لأنها في حكم الياء، إذا قلت: يا غلام، فكما لا يجوز: «يا أبتي»، لا يجوز: «يا أبت».

قلت: الياء والكسرة قبلها شيءان، والتاء عوض من أحد الشيئين، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير؛ ألا ترى إلى قولهم: «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلاً من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوّض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قلت: فقد دلت الكسرة في: «يا غلام» على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها.

فإن دلت على مثل ذلك في: «يا أبت»، فالتاء المعوّضة لغو: وجودها كعدمها.

قلت: بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبي.

فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟

قلت: أما من فتح فقد حذف الألف من: «يا أبتا»، واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في: «يا غلام»، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك: «يا أبي»، وأما من ضم، فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: «يا أبت»، كما تقول: «يا تبة»[1]، من غير اعتبار؛ لكونها عوضاً من ياء الإضافة، وقرئ: «إني رأيت»: بتحريك الياء، وأحد عشر: بسكون العين؛ تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في ختم اسم واحد، وكذا إلى تسعة عشر، إلا اثني عشر؛ لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا، لا من الرؤية؛ لأنَّ ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأنَّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة، لكانت آية عظيمة ليعقوب ـ عليه السلام ـ ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قلت: ما أسماء تلك الكواكب؟

قلت: رَوَىٰ جَابِرُ أَنَّ يَهُودِيًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ النُّجُومِ الَّتِي رَآهُنَّ يُوسُف، فَسَكَتَ رسول الله ﷺ: فنزيل جبريل فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لِلْيَهُودِيِّ: «إِنْ أَخْبَرْتُكَ هَلْ تُسْلِم»؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «جَريان، والطارق، والذيال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين، رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال

(١) قوله: «كما تقول ياتبة» بكسر التاء وتشديد الباء: الحالة الشديدة. وفي نسخة: يا ابنة، كذا بهامش الأصل (ع).

اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها (٧٧٦). وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب: إخوته، وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة: الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على/ ١٦٥ب أبيه، فقال له: لا تقصها عليهم، فيبغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، وقيل: ثمانون. فإن قلت لم أخر الشمس والقمر؟ قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص؛ بياناً لفضلهما، واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى: مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قلت: ما معنى تكرار رأيت؟[1].

---

٧٧٦ ـ أخرجه الحاكم (٤/٣٩٦) من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر ابن عبد الله به.

وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي، وأخرجه العقيلي (١/ ٢٥٩)، وابن حِبان في «المجروحين» (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، والبزار وأبو يعلى والبيهقي في «الدلائل»، وكذا أبو نعيم؛ كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ١٦٠)، من طريق الحكم بن ظهير الفزاري عن السدي بالإسناد السابق. وقال البزار: لا نعلم يرويه إلا جابر ولا طريقا عنه إلا هذا الطريق، والحكم بن ظهير ليس بالقوي. وقد روى عنه جماعة من أهل العلم. أ.هـ. قلت: وقول البزار: متعقب بإسناد الحاكم فقد توبع الحكم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦)، وعزاه إلى سعيد بن منصور والبزار وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي وابن حِبان في «الضعفاء وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً» في «دلائل النبوة».

قال الحافظ:

أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال «جاء بستان اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، هل تعرف النجوم التي رآها يوسف فسجدن له؟ فسكت... الحديث» ولم يذكر فيهن الشمس والقمر وقال: رآها يوسف محيطة بأكتاف السماء ساجدة له، وزاد: فقصها على أبيه فقال له: إن هذا أمر قد تشتت وسيجمعه الله بعد»، رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل والطبراني وأبو حاتم في رواية الحاكم بن زهير عن السدي نحوه، وذكره العقيلي من حديثه، وقال: لا يثبت. وقال البزار: لا نعلم له طريقاً إلا =

---

(١) قال محمود: «إن قلت ما معنى تكرار رأيت... إلخ» قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل. الحال، فطرى ذكر الفعل لمناسبة الحال وهي المقصودة، إذ الآية في السجود كانت، والله أعلم.

قلت: ليس بتكرار؛ إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له، كأن يعقوب ـ عليه السلام ـ قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟

قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود، أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه؛ إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

عرف يعقوب ـ عليه السلام ـ دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم، والرؤيا بمعنى: الرؤية؛ إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينهما بحرفي التأنيث، كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: «روياك»، وبقلب الهمزة واواً، وسمع الكسائي: رُيَّاك وريَّاك: بالإدغام وضم الراء وكسرها، وهي ضعيفة؛ لأن الواو في تقدير الهمزة، فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: «اتزر»: من الإزار، و«اتجر»: من الأجر، ﴿فَيَكِيدُوا۟﴾: منصوب بإضمار: «أن»، والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: فكيدوني؟

قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون آكد وأبلغ في التخويف؛ وذلك نحو: فيحتالوا لك؛ ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء، ولقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شرّ، ليورّط من يحمله، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثل ذلك الاجتباء، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني:

= هكذا. والحاكم ليس بقوي، وكذا قال البيهقي: إنّ الحاكم تفرد به. وغفل عن طريق شيخ الحاكم، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وأعله بالحاكم. وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبي حاتم في العلل عن أبي زرعة؛ أنه قال: حديث منكر. انتهى.

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾: كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه، كأنه قيل: وهو يعملك ويتمّ نعمته عليك، والاجتباء: الاصطفاء، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته، والأحاديث: الرؤيا؛ لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان، وتأويلها. عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف ـ عليه السلام ـ أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث: معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت: أحاديث؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ **[المرسلات: ٥٠]**، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ **[الزمر: ٢٣]**: وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة، ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة؛ بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة، والإنجاء من النار، ومن ذبح الولد، وعلى إِسْحَاق بإنجائه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبيًا وإخوته أنبياء؛ استدلالاً بضوء الكواكب؛ فلذلك قال: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف، حسدوه، وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة؛ لصغره، ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا، ضاعف له المحبة، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه، فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب، قال: هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل، وآل يعقوب: أهله، وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل؛ بدليل تصغيره على أُهَيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال: آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلهما، وأراد بالأبوين: الجد، وأبا الجد؛ لأنهما في حكم الأب في الأصالة، ومن ثم يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدّة، و﴿إبراهيم وإسحاق﴾: عطف بيان لأبويك، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: يعلم من يحق له الاجتباء، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصتهم وحديثهم، ﴿ءَايَٰتٌ﴾: علامات، ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات

على نبوّة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب، وقرئ: «آية»، وفي بعض المصاحف: «عبرة»، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ خبر يوسف وبغي إخوته عليه، لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ولاوى، وربالون، ويشجر، ودينة، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر: السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين: زلفة، وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت بنيامين ويوسف.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿ليوسف﴾ اللام: للابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت[1] لا شبهة فيه، ﴿وَأَخُوهُ﴾ هو: بنيامين؛ وإنما قالوا: أخوه، وهم جميعاً إخوته؛/١٦٦أ لأنّ أمّهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أَحَبُّ﴾: في الاثنين؛ لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه: «من»، ولا بد من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران، والواو في: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: واو الحال، يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك، والعصبة والعصابة: العشرة فصاعداً، وقيل: إلى الأربعين؛ سموا بذلك

---

(١) قال محمود: «اللام للتوكيد، دخلت للأشعار بأن زيادة محبة أبيهم لهما أمر ثابت... إلخ» قال أحمد: وهذه تؤيد قراءة ابن مروان ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ﴾ بالنصب. وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أي تمكن. وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه، فلا بد من التماس المحمل الصحيح لها وليس ذلك ببعيد إن شاء الله فنقول: لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن نحن» على طريقة [من الرجز]:

أنـا أبـو الـنـجـم وشـعـري شـعـري

ونحو: أنا أنا وأنت أنت. لم يكن في فصاحته مقال: وقد علمت أن معنى أنا أنا: أي أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى عن ذكرها، فلا بعد والحالة هذه في حذف الخبر، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحذوف، وإذا كان كذلك فقول القائلين ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ﴾ معناه: ونحن نحن، ولكن استغنوا عن الخبر للسر الذي ذكرناه، فقولهم: (نحن) كلام تام بالتقدير المذكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ فقوله (هن) في حكم الكلام التام. والمراد: هؤلاء بناتي هن المشهورات بالأوصاف الحميدة الظاهرة. وأصل الكلام: هن هن، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

لانهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب، وروى النزال بن سبرة عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: «ونحن عصبة»؛ بالنصب، وقيل: معناه: ونحن نجتمع عصبة، وعن ابن الأنباري: هذا كما تقول العرب؛ إنما العامري: عمته، أي: يتعهد عمته.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)﴾

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: من جملة ما حكى بعد قوله: «إذ قالوا»؛ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، وقيل: الآمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقين: كانوا راضين، فجعلوا آمرين، ﴿أَرْضًا﴾: أرضاً منكورة، مجهولة، بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم، والمراد: سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه الذات، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقيل: (يخل لكم): يفرغ لكم من الشغل بيوسف، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد يوسف، أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا، ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم، و﴿وَتَكُونُوا﴾؛ إمّا مجزوم عطفاً على: (يخل لكم)، أو منصوب بإضمار: «أن والواو» بمعنى: مع؛ كقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾

﴿قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض، قال لهم: القتل عظيم، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله؛ قال المُنَخَّل [من الطويل]:

وَإِنْ أَنَا يَوْماً غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي ... فَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ[١]

---

(١) للمنخل. والغيابة: ما غاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه. يقول: وإن غيبتني مقبرتي، كناية عن موته، فسيروا بسيري، أي فانعوني وسيروا بذكر خصالي، على عادة العرب إذا مات منها رئيس. ويحتمل أنه يوصي أقاربه بالخير، وأنهم يسيرون بمثل سيره، ويفعلون كفعله في جيرانه وقرابته.
ينظر البيت في روح المعاني ١٢/١٩٢، ومجاز القرآن ١/٣٠٢، ومعجم الشعراء ٣٨٨، والبحر =

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها، وقرئ: «غيابات»: على الجمع، و«غيابات»: بالتشديد، وقرأ الجحدري: «غيبة»، والجب: البئر لم تطو؛ لأن الأرض تجبّ جبًا لا غير، ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾: يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق، وقرئ: «تلتقطه»: بالتاء على المعنى؛ لأنّ بعض السيارة سيارة؛ كقوله [من الطويل]:

.... كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ[1]

ومنه: ذهبت بعض أصابعه، ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾: إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم، فهذا هو الرأي.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾

﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾، قرئ بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، و: تيمنا: بكسر التاء مع الإدغام، والمعنى: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة[2]، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه، ﴿يَرْتَعْ﴾: يتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة: الخصب والسعة، وقرئ: «يرتع»: من ارتعى يرتعي، وقرئ: «يرتع ويلعب»: بالياء، ويرتع: من ارتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سيابة: «يرتع» بكسر العين، و«يلعب»: بالرفع على الابتداء.

فإن قلت: كيف استجاز لهم يعقوب ـ عليه السلام ـ اللعب؟

قلت: كان لعبهم الاستباق والانتضال، ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧]؛ وإنما سموه لعباً؛ لأنه في صورته.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾: اللام: لام الابتداء؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤]. ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سببي المضارعة، اعتذر إليهم بشيئين:

= المحيط ٥/ ٢٨٥، ومعجم المرزباني (٣٨٨)، والمؤتلف (٢٧١)، والقرطبي ٥/ ١٩٤، والمحرر ٩/ ٢٥٤، والدر المصون ٤/ ١٥٨.

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ما يدل على خلاف النصيحة والمقة» أي المحبة. وقد ومقه يمقه، بالكسر فيهما: أي أحبه، فهو وامق، كذا في الصحاح (ع).

أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر غنه ساعة.

والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه[1] برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم، وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: «البلاء موكل بالمنطق»، وقرئ: (الذئب): بالهمزة على الأصل وبالتخفيف، وقيل: اشتقاقه من «تذاءبت الريح»: إذا أتت من كل جهة:

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

القسم محذوف تقديره: والله، ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: واللام موطئة للقسم، وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: جواب للقسم، مجزئ عن جزاء الشرط، والواو في (ونحن عصبة): واو الحال، حلفوا له: لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب - إنهم إذاً لقوم خاسرون، أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون، لأن يدعي عليهم بالخسارة والدّمار، وأن يقال: خسرهم الله، ودمرهم: حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون، وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا، فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها.

فإن قلت: قد اعتذر إليهم بعذرين، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

قلت: هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرّين[2] فأعاروه آذاناً صمّا ولم يعبؤوا به.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) قال محمود: «اعتذر لهم بأمرين: أحدهما حزنه لمفارقته، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه... إلخ» قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه، لأنه مظنة هلاكه. وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل؛ فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه، والله أعلم.

(٢) قوله: «ويذيقهم الأمرين، الأمرين - بنون الجمع -: الدواهي، كذا بهامش. وفي الصحاح: الأمران: الفقر والهرم. وفيه أيضاً: الأمر: المصارين يجتمع فيها الفرث. قال الشاعر:

فــلا تــهــد الأمــر ومــا يــلــيــه ... ولا تــهــدن مــعــروق الــعــظــام

وقال أبو زيد: لقيت منه الأمرين، بنون الجمع: وهي الدواهي اهـ (ع).

﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾: مفعول، (أجمعوا): من قولك: أجمع الأمر وأزمعه، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾، وقرئ: «في غيابات الجب»: قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: بأرض الأردنّ، وقيل: بين مصر/ ١٦٦ب ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب «لما»: محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البرّية أظهروا له العداوة، وأخذوا يهنونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم، فنزعوها من يده، فتعلق بحائط البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، ودلوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادوه، فظنّ أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، ويروى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ألقي في النار، وجرّد عن ثيابه، أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسْحَاق، وإسْحَاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قيل: أُوحي إليه في الصغر كما أُوحي إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ ذاك مدركاً، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾: وإنما أُوحي إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة، ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنك يوسف؛ لعلوّ شأنك وكبرياء سلطانك، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدّل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتازين فعرفهم وهم له منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أَخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأَنكم انطلقتم به وأَلقيتموه في غيابة الجب، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس، ويجوز أن يتعلق: (وهم لا يشعرون) بقوله: (وأَوحينا): على أَنا آنسناه بالوحي وأَزلنا عن قلبه الوحشة، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أَنس له، وقرئ: «لننبئنهم»: بالنون على أَنه وعيد لهم، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: متعلق بأوحينا لا غير.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

وعن الحسن: «عشيًّا»: على تصغير عشيّ، يقال: لقيته عشيًّا وعشياناً[1]، وأصيلاً وأصيلاناً، ورواه ابن جنى: «عُشي»: بضم العين والقصر، وقال: «عشوا» من البكاء، وروي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي أنه لما سمع صوتهم[2] فزع، وقال: مالكم يا بنيّ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فمالكم وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، وغير ذلك، والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي، وجاء في التفسير: ننتضل، ﴿بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: بمصدّق لنا، ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾: ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة؛ لشدّة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا، غير واثق بقولنا؟

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

﴿بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾: ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته؛ ونحوه [من الطويل]:

.... فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ[3]

وقرئ: «كذباً»: نصباً على الحال، بمعنى: جاؤوا به كاذبين، ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة ـ رضي الله عنهاـ: «كدب»؛ بالدال غير المعجمة، أي: كدر، وقيل: «طرى»، وقال ابن جنى: أصله من الكدب، وهو الفوف البياض[4]، الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه، روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها، وزلّ

---

(١) قوله: «يقال: لقيته عشيا وعشياناً» وهذا لو حذفت نونه صار عشيا، كقراءة الحسن (ع).

(٢) قال محمود: «روي أنه لما سمع أصواتهم قال: يا بني، هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا لا... إلخ» قال أحمد: وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولاً أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ وكثيراً ما الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

(٣) ينظر: أساس البلاغة (جود).

(٤) قوله: «وهو الفوف البياض» عبارة الصحاح: الفوف البياض الذي يكون في أظفار الأحداث اهـ، فجعل البياض خبراً عن الفوف وتفسيراً له، فلعله هنا: أي البياض (ع).

عنهم أن يمزقوه، وروي أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف، صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ فأخذه رألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله، ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبر.

فإن قلت: (على قميصه) ما محله؟

قلت: محله: النصب على الظرف؛ كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم، كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟

قلت: لا؛ لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه[1] ﴿سَوَّلَتۡ﴾: سهلت من السول وهو الاسترخاء، أي: سهلت، ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾: عظيماً ارتكبتموه من يوسف، وهوّنته في أعينكم، استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أُوحي إليه بأنهم قصدوه، ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾: خبر أو مبتدأ؛ لكونه موصوفاً، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبيّ: «فصبراً جميلاً»، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع: «أنه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» (٧٧٧)؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما أشكو بثي

---

٧٧٧ ـ أخرجه الطبري (٧/ ١٦٣) رقم (١٨٨٣، ١٨٨٤).
قال الحافظ:
أخرجه الطبري من طريق حيان بن أبي حثلة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾، =

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي ردَّ به الزمخشري أحد قولي النحاة، وقد صحح جماعة جوازه وأنشدوا [من الطويل]:
.... فَلَنْ يذهبوا فَرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ
وقال الشيخ: «ولا يساعد المعنى على نصب «عَلَى» على الظرف بمعنى: فوق، لأن العامل فيه إذ ذاك «جَاءوا» وليس الفرق ظرفاً لهم، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم». وهذا الردُّ هو الذي رددت به على الحوفي قوله: إن «عَلَى» متعلقة بـ«جَاءوا». ثم قال الشيخ: وأما المثال الذي ذكره الزمخشري، وهو: «جَاءَ على جِمَاله بأحمالٍ» فيمكن أن يكون ظرفاً للجائي، لأنه يمكن الظرف فيه باعتبار تبدله من جَمَلٍ إلى جَمَلٍ، ويكون بأحمال في موضع الحال، أي: مضموماً بأحمال. انتهى. الدر المصون.

وحزني إلى الله﴾ [يوسف: ٨٦]، وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان، وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب، أتشكوني؟ قال: يا رب؛ خطيئة، فاغفرها لي، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه ﴿عَلَىٰ﴾: احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ﴾: من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر؛ وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف/ ١٦٧أ في الجب، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤها ملحاً، فعذب حين ألقى فيه يوسف، ﴿فَأَرْسَلُوا۟﴾: رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي، ليطلب لهم الماء، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾: نادى البشرى، كأنه يقول: تعالي، فهذا من آونتك، وقرئ: «يا بشراي»: على إضافتها إلى نفسه، وفي قراءة الحسن وغيره: «يا بشرى»: بالياء مكان الألف، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة، وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي وموليّ، وعن نافع: «يا بشراي»: بالسكون، وليس بالوجه؛ لما فيه من التقاء الساكنين على غير حدّه، إلا أن يقصد الوقف، وقيل: لما أدلى دلوه، أي: أرسلها في الجب، تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج، إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي، ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، وقيل: ذهب به، فلما دنا من أصحابه، صاح بذلك يبشرهم به، ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: الضمير: للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس أنّ الضمير لإخوة يوسف (٧٧٨). وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف؛ مخافة أن يقتلوه، و﴿بِضَٰعَةً﴾: نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة، أي: قطع ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم؛ حيث استبضعوا ما ليس لهم، أو: والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

= قال: صبر لا شكوى فيه. من بث لم يصبر» هذا مرسل. انتهى.

٧٧٨ ـ أخرجه الطبري (٧/ ١٦٦) رقم (١٨٩٠٨).

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَشَرَوْهُ﴾: وباعوه، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار، ﴿دَرَاهِمَ﴾: لا دنانير، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾: قليلة(١)، تعدّ عدّا، ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية، وهي الأربعون، ويعدّون ما دونها، وقيل: للقليلة معدودة؛ لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها؛ لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً (٧٧٩)، وعن السدي: اثنين وعشرين (٧٨٠). ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن(٢)؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء: متهاون به لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى: (وشروه): واشتروه، يعني: الرفقة من إخوته، ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ لأنهم اعتقدوا أنه آبق، فخافوا أن يخطروا بمالهم فيه، ويروى أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، وقوله: (فيه): ليس من صلة (الزاهدين)؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول؛ ألا تراك لا تقول: وكانوا زيداً من الضاربين؛ وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ قيل: هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، والملك يومئذ: الريان بن الوليد، رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو

---

٧٧٩ ـ أخرجه الطبري (٧/ ١٧٠) رقم (١٨٩٣٥).
٧٨٠ ـ أخرجه الطبري (٧/ ١٧٠) رقم (١٨٩٣٦) بنحوه.

---

(١) قال محمود: «المعدودة كناية عن القليلة... إلخ» قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد: الدعوة المأثورة على الكفرة: «اللهم أحصهم عدداً، واستأصلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً» فالمدعو به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر، إلا أن هذا ليس مراداً لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء. والله أعلم.
(٢) قوله: «فيبيعه بما طف من الثمن» أي قل. وفي الصحاح: الطفيف القليل (ع).

ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى، عاش أربعمائة سنة؛ بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه؛ حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضياً؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده، وهل يراعي حق نزولك به، واللام في (لامرأته): متعلقة بقال، لا باشتراه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيماً لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢٣]، والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر ـ رضي الله عنهما ـ وروي أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه، وعطف قلب العزيز عليه، والكاف: منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف، ﴿مَكَّنَّا﴾: له، أي: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز؛ كذلك مكنا له في أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أن الأمر كله بيد الله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قيل في الأشدّ: ثماني عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون، ﴿حُكْمًا﴾: حكمة، وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً/ ١٦٧ب في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه، وعن الحسن:

من أحسن عبادة ربه في شيبته، آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

المراودة: مفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعة، وقرئ: (هيت): بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبناؤه كبناء أين، وعيط، وهيت كجير، وهيت كحيث، وهئت بمعنى: تهيأت، يقال: هاء يهيء، كجاء تجيء: إذا تهيأ، وهيئت لك، واللام من صلة الفعل، وأما في الأصوات فللبيان[(١)]؛ كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك، ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أعوذ بالله معاذاً، ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن الشأن والحديث، ﴿رَبِّيٓ﴾: سيدي ومالكي، يريد قطفير، ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾: حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾

همّ بالأمر: إذا قصده وعزم عليه؛ قال [من الطويل]:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَىٰ عُثْمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ[(٢)]

---

(١) قوله: «وأما في الأصوات فللبيان» في الصحاح: هيت به وهوت به، أي صاح به ودعاه. وفيه أيضاً قولهم «هيت لك» أي هلم لك وفيه. هلم يا رجل ـ بفتح الميم ـ: بمعنى تعال (ع).

(٢) لعمير بن ضابئ البرجمي، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال: عزمت على قتل عثمان ولم أقتله، وكدت أن أفعل وليتني قتلته. وكنى عن ذلك بقوله: «تركت على عثمان تبكي حلائله» وهو من باب التنازع. وأصله: تركت على عثمان حلائله تبكي فجعل حلائله فاعلاً. وحذف مفعول تركت الأول لعلمه من الكلام، ولأنه فضلة وهي لا تضمر في هذا الباب. والمعنى ليتني قتلته فصيرت نساءه تبكي عليه، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين: أنا شيخ ضعيف، وخرج اسمي في هذا البعث، فاقبل ابني بديلاً عني فقبله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد: أيها الأمير، هذا هو الذي فعل بعثمان كذا وكذا، فقال: ردوه علي، فقال له: أيها الشيخ، هلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بديلاً يوم الدار؟ إن في قتلك صلاحاً، يا حرسي، اضربا عنقه. أمر الحرس بقتله وخاطبه خطاب المثنى على لغة الحرس الذين نسب المخاطب إليهم هذا. وقيل: =

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا همًّا، أي: ولا أكاد أن أفعله كيداً، ولا أهم بفعله همًّا: حكاه سيبويه، ومنه: الهمام، وهو الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم ينكل عنه، وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: وهمّ بمخالطتها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: جوابه محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها؛ فحذف؛ لأنّ قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدل عليه؛ كقولك: هممت بقتله لولا أني خفت الله، معناه: لولا أني خفت الله.

فإن قلت: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصدٌ إليها؟

قلت: المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه[1]؛ ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدّته، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله: (وهمّ بها): وشارف أن يهم بها، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته[2]، كأنه شرع فيه.

فإن قلت: قوله: (وهم بها): داخل تحت حكم القسم في قوله: (ولقد همت به): أم هو خارج منه؟

قلت: الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله: (ولقد همت به)، ويبتدئ قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، وفيه ـ أيضاً ـ إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قلت: لم جعلت جواب «لولا» محذوفاً يدل عليه: «هم بها»، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً؟

= إن القصة مع ضابئ نفسه، وإن عثمان كان حبسه في هجوه بني نهشل، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك.

ينظر: حماسة البحتري ص ١١، خزانة الأدب (٩/ ٣٢٣، ٣٢٧)، الشعر والشعراء ١/ ٣٥٨، لسان العرب (قير)، معاهد التنصيص (١/ ١٨٧).

(١) قوله: «وقرمه» أي شدة شهوته، أفاده الصحاح.

(٢) قوله: «مشافهته» لعله: ومشابهته.

قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها، من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام، وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه فجائز.

فإن قلت: فلم جعلت «لولا» متعلقة «بهمّ بها» وحده، ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾؛ لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر، ولكن بالمعاني، فلا بدّ من تقدير المخالطة، والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً، فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟

قلت: نعم ما قلت، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل؛ حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير: ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أنّ المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها، «لولا أن رأى برهان ربه»، فترك التوصل إلى حظه من الشهوة؛ فلذلك كانت: «لولا»: حقيقة بأن تعلق بـ «هَمَّ بها» وحده، وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان، وجلس منها مجلس المجامع، وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: إياك وإياها، فلم يكترث له، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرضْ عنها، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضًا على أنملته، وقيل: ضرب بيده في صدره، فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف؛ فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين همّ، وقيل: صيح به: يا يوسف، لا تكن كالطائر: كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾، فلم ينصرف، ثم رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾، فلم ينته، ثم رأى فيها: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فلم ينجع فيه، فقال الله لجبريل ـ عليه السلام ـ: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا، /
١٦٨أ فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحي من السميع البصير، العليم بذوات الصدور، وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر[1] الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو

---

(١) قوله: «مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى» يريد بهم أهل السنة، ويريد بأهل =

وجدت من يوسف ـ عليه السلام ـ أدنى زلة، لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسمي مخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوّة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة، وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه بثلاث كرّات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل، ولا ينتهي، ولا ينتبه، حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة، وأشطرهم، وأحدهم حدقة، وأصلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك، فيا له من مذهب ما أفحشه! ومن ضلال ما أبينه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف: منصوب المحل، أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو مرفوعه، أي: الأمر مثل ذلك، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾: من خيانة السيد، ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: من الزنا، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح، الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء: مقدّمات الفاحشة، من القبلة والنظر بشهوة، ونحو ذلك، وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ معناه: بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن

= العدل المعتزلة. وبهت الشخص: نسبه إلى قبيح لم يفعله، ولولا أن ذلك دائر بين السلف لما أوردوه (ع).

كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾: وتسابقا إلى الباب، على حذف الجارّ وإيصال الفعل؛ كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] على تضمين: «استبقا» معنى: «ابتدرا»، نفر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قلت: كيف وحد الباب، وقد جمعه في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾؟

قلت: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف، جعل فراش القفل[(١)] يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من خلفه فانقد، أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾: وصادفا بعلها وهو قطفير، تقول المرأة لبعلها: سيدي، وقيل: إنما لم يقل: سيدهما؛ لأنّ ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيداً له على الحقيقة، قيل: ألفياه مقبلاً: يريد أن يدخل، وقيل: جالساً مع ابن عمّ للمرأة، لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة، وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها[(٢)]، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها، وهما: تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها؛ خيفة منها ومن مكرها، وكرهاً لما أيست من مؤاتاته طوعاً؛ ألا ترى إلى قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]، و«ما»: نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء إلا السجن؟ كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف، وإنه أراد بها سوءا؟[(٣)] قلت:

---

(١) قوله: «فراشة القفل» وما ينشب فيه. يقال أقفل فأفرش (ع).

(٢) قوله: «إذ لم يؤاتها» في الصحاح: وتقول آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته وطاوعته. والعامة تقول: واتيته (ع).

(٣) قال محمود: «إن قلت: لم قالت ما قالت غير مصرحة بذكر يوسف... إلخ» قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها: هذا أراد بي سوءا ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاد للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة، وعلى الضد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال: قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ ولم تقل: إنه قوي أمين، حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء. وامرأة العزيز إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء. وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

قصدت العموم، وأنّ كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف، وقيل: العذاب الأليم: الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرّضته للسجن والعذاب، وجب عليه الدفع عن نفسه، فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، ولولا ذلك لكتم عليها، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل: كان ابن عمّ لها؛ إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؛ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيًا في المهد، وعن النبي ﷺ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ٱبْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَونَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى» (٧٨١).

فإن قلت: لم سمي قوله: شهادة، وما هو بلفظ الشهادة؟[١]

---

٧٨١ ـ أخرجه الحاكم (٢/٤٩٦ ـ ٤٩٧)، وأحمد (١/ ٣١٠)، والبزار (١/ ٣٧ ـ ٣٨) رقم (٥٤)، والبيهقي (٢/ ٣٨٩)، والطبري (٧/ ١٩١) رقم (١٩١٠٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦) عن ابن عباس.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٥).

قال الحافظ:

أخرجه الحاكم وابن حِبان وأحمد وابن أبي شيبة والبزار وأبو يعلى. والطبري والبيهقي في السادس عشر من الشُعب، كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه: «لما أسرى بي مرت رائحة طيبة ـ الحديث» فيه قصة الماشطة، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: «تكلم في المهد أربعة، وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»، وفي الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه: «لم يتكلم في المهد إلا أربعة وهم صغار: عيسى، وشاهد يوسف. وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون»، وذكره بلفظ ثلاثة. وذكر الثالث ابن المرأة التي ألقيت في النار. فخشيت على ولدها فكلمها» وفي الصحيحين من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصبي كان يرضع فمر رجل راكب على دابة. . .» الحديث اقتصر الطيبي على هذا الأخذ فلم يصب، وبهذا الاعتبار صاروا خمسة، وروى الثعلبي عن الضحاك؛ أنهم ستة زادهم يحيى بن زكريا. انتهى.

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة. . . إلخ»؟ قال أحمد: مهما قدره من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقد قميصه من قبل بتقدير أن يكون اجتذبها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبته حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجذب لا الدفع.

قلت: لما أدّى مؤدّى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف، وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟

قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قلت: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتبذت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه/ ١٦٨ب من قدّامه بالدفع.

والثاني: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه[(١)]، وقرئ: «من

(١) عاد كلامه. قال: «والثاني أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فينقد» قال أحمد: وهذا بعينه محتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قميصه في إسراعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك. والحق ـ والله ولي التوفيق ـ أن الشاهد المذكور إن كان صبيا في المهد كما ورد في بعض الحديث، فالآية في مجرد كلامه قبل أوانه، حتى لو قال: صدق يوسف وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأن العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري. فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر فنصبه أمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجرده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها ـ والله أعلم ـ هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله ﴿وإن يك كاذباً عليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع. فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة. ومن ثم قال ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل: كل ما يعدكم تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به لفطِنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم. فقصد هذا الشاهد الأمارة الآخرة فقط. والمناسبة فيها محققة. وأما الأمارة الأولى فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم. فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير والله أعلم. وكأنه قال: إن كان قميصه قد من قبل فهي صادقة. =

قبل»، «ومن دبر»: بالضم على مذهب الغايات، والمعنى: من قبل القميص ومن دبره، وأما التنكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «من قبل»، و«من دبر»: بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين، فمنعهما الصرف؛ للعلمية والتأنيث، وقرئا[1]: بسكون العين.

فإن قلت: كيف جاز الجمع بين: «إن» الذي هو للاستقبال، وبين: «كان»؟

قلت: لأنّ المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قدّ؛ ونحوه كقولك: إن أحسنت إليّ، فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه، تريد: إن تمتن عليّ أمتنّ عليك، ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ يعني: قطفير، وعلم براءة يوسف وصدقه، وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾: إن قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾[2]: أو إنّ الأمر، وهو طمعها في يوسف ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾: الخطاب لها ولأمتها؛ وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال، إلا أنّ النساء ألطف كيداً، وأنفذ حيلة، ولهنّ في ذلك نيقة[3]، ورفق؛ وبذلك يغلبن الرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤]، والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق[4]، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ﴿يُوسُفُ﴾: حذف منه حرف النداء؛ لأنه منادى قريب، مفاطن للحديث، وفيه تقريب له، وتلطيف لمحله، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: الأمر، واكتمه، ولا

= لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة، فعلق صدقها على محال وهو وجود قده من قبل حالة، فهذا التقرير هو الصواب والحق اللباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره كما ورد في بعض التفاسير، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم. وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه، والله أعلم.

(١) قوله: «وقرئا» أي: قبل ودبر، قوله: «بسكون العين»: أي الباء.

(٢) قال محمود: «الضمير راجع إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا... إلخ» قال أحمد: وفيما قاله هذا العالم نظر، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير محكي. وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وأيضاً فإن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه. ألا ترى أول الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وأيضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده، والله أعلم.

(٣) قوله: «نيقة» اسم للتأنق في الأمر. أفاده الصحاح (ع).

(٤) قوله: «مع غيرهن من البوائق» أي الدواهي. أفاده الصحاح (ع).

تحدّث به ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ أنت ﴿لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال: خطىء، إذا أذنب متعمداً؛ وإنما قال: ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾: بلفظ التذكير؛ تغليباً للذكور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً، وروي أنه كان قليل الغيرة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾: وقال جماعة من النساء وكنّ خمساً: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة؛ ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان: كسر النون وضمها، ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: في مصر، ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾: يردن قطفير، والعزيز: الملك بلسان العرب، ﴿فَتَىٰهَا﴾: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي، أي: غلامي وجاريتي، ﴿شَغَفَهَا﴾: خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد؛ والشغاف: حجاب القلب، وقيل: جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب؛ قال النابغة [من الطويل]:

وَقَـدْ حَـالَ هَـمٌّ دُونَ ذٰلِـكَ وَالِـجٌ ... مَكَـانَ الشِّغَـافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ[(1)]

---

(1) وقـد حـال هـم دون ذلـك والـج ... مكـان الشغـاف تبتغيـه الأصابـع
وعيـد أبي قابـوس في غيـر كنهـه ... أتـانـي ودونـي راكـش فـالضـواجـع

للنابغة، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون، أي وقد حال هم دون التغزل في المحبوبة وغيره من اللذات «والج» داخل مكان الشغاف. ويروى «ولوج الشغاف» أي كولوجه، والشغاف: داء في القلب جهة اليمين تخرجه الأطباء بأصابعهم، فتبتغيه الأصابع: من صفته على أنه حال منه. وقيل: حجاب القلب، أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب، فتبتغيه: صفة للهم، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق المكنية والابتغاء تخييل، ثم إنه شبه الهم المعقول بمحسوس وبالغ في ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه في القلب. أو تلمسه وتريد إخراجه. وبين الهم بقوله: وعيد النعمان أبي قابوس وتهديده حال كونه في غير كنهه وحقيقته، أي: لم يبلغني بكماله. أو لأنه بلا سبب حصل مني، بل افترى الوشاة علي كذباً جاءني. ودوني: أي أمامي هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة، ومع ذلك أدركني الخوف أو بعد المسافة، دلالة على غضب الملك عليه غضباً شديداً.
ينظر: البيت في ديوانه ٧٩، والعيني ٣/ ٤٠٩، ومعاني الزجاج ٣/ ١٠٥، ومجاز القرآن ١/ ٣٠٨، =

وقرئ: «شعفها»؛ بالعين، من شعف البعير إذا هنأه[1] فأحرقه بالقطران؛ قال [من الطويل]:

.... كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي[2]

و﴿حُبًّا﴾: نصب على التمييز، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: في خطأٍ وبُعدٍ عن طريق الصواب، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾: باغتيابهنّ، وسوء قالتهنّ، وقولهنّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتياب مكراً؛ لأنه في خفية وحالي غيبة، كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتهنّ، قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات، ﴿وأعتدت لهن متكأً﴾: ما يتكئن عليه من نمارق، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ: أن يدهشن[3] ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها؛ لأن المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ، فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ، فتبكتهنّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر، وتوهمه أنهنّ يثبن عليه، وقيل: متكأ: مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكون للطعام، والشراب، والحديث، كعادة المترفين؛ ولذلك: «نهي أن يأكل الرجل متكئاً» (٧٨٢)، وآتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن، وقيل: (متكأ):

---

٧٨٢ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ١٣٣) رقم (٢٤٤٤٦) من حديث جابر، وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود.

= وسمط اللآلئ ٤٨٩، وأمالي القالي ١/ ٢٠٥، والخزانة ١/ ٤٣٠، وأدب الكاتب ١١٨، والقرطبي ٥/ ٢٣٣، والدر المصون ٤/ ١٧٣، والتاج (شعف).

(١) قوله: «إذا هنأه» في الصحاح «هنأت البعير» إذا طلبته بالهناء. وهو القطران (ع).

(٢) أتقتلني وقد شغفت فؤادها ... كما شعف المهنوءة الرجل الطالي؟
لامرئ القيس، والاستفهام للإنكار والاستبعاد، أو للتعجب. وشعف الجمل: إذا أحرقه بالقطران المغلي على النار، وهنأه: دهنه بذلك القطران، فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق، ثم أريد منه الإحراق بالعشق مجازاً مرسلاً ليصح التشبيه في قوله: كما أحرق الإبل المدهونة الداهن لها. وإن كان شغفت بالغين المعجمة فالمعنى: أصبت شغاف قلبها بالحب، وهو حجاب القلب أو لسانه أو حبة سوداء في وسطه، كما شغف: أي أخاف الإبل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها. لأنها تخافه في الأول. وقيل: شبه حبها باستلذاذ الإبل لذلك الطلي بعد دهنها به.
ينظر: ديوانه ١٤٢، وشرح ديوان الحماسة ٤/ ١٦٢٤، المحتسب ١/ ٣٣٩، والطبري ١٦/ ٦٧، والقرطبي ٩/ ١٧٧، وفتح القدير ٣/ ٢٥، والدر المصون ٤/ ١٧٣.

(٢) قوله: «يدهشن» أي يتحيرن. أفاده الصحاح.

طعاماً؛ من قولك: اتكأنا عند فلان: طعمنا[1]، على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك، اتخذت له تكأة يتكيء عليها؛ قال جميل [من الخفيف]:

فَظَلِلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا ... وَشَرِبْنَا الْحَلاَلَ مِنْ قُلَلِهْ[2]

وعن مجاهد: (متكأ): طعاماً يحزّ حزّاً؛ كأن المعنى يعتمد بالسكين؛ لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين، وقرئ: «متكًا»: بغير همز، وعن الحسن: «متكاء»: بالمدّ، كأنه مفتعال؛ وذلك لإشباع فتحة الكاف؛ كقوله [من الوافر]:

.... بِمُنْتَزَاحِ[3]

= أخرجه الطبراني (١٠/ ١٢٤) رقم (١٠٠٨٧).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يأكل أحدنا بشماله وبأن يأكل متكئاً»، وفي الطبري من حديث ابن مسعود: «نهى رسول الله ﷺ عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعتين» ومنكحين ـ إلى أن قال: وأما المطعمان فأن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح. وأن يأكل متكئاً، إسناده جيد. وله في الأوسط وفي مسند الشاميين من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل متكئاً. ولا تتخط رقاب الناس يوم الجمعة»، وأعله ابن حِبان في الضعفاء بزريق بن عبد الله رواية عن عمرو بن الأسود عن أبي الدرداء.
وفي الباب عن ابن أبي إهاب. أخرجه البزار بلفظ: «نهى أن تأكل متكئين». انتهى.

---

(١) قوله: «طعمنا» لعله «أي طعمنا». (ع)

(٢) لحميد بن ثور. وقيل لجميل بن معمر. وظل يظل من باب علم. يقول: فظللنا في نعمة أو ملتبسين بنعمة. واتكأنا: أصله أو تكأنا فتاؤه الأولى واو: أي اتخذنا متكأ اضطجعنا عليه، وشربنا الشراب الحلال يعني النبيذ، من قلله: جمع قلة، وهي الجرة العظيمة. ففي ذكر القلل دلالة على التوسع في الشرب وعدم التحجر فيه.
ينظر: البيت في ديوانه (٦٩)، وشواهد المغني (١٢٦)، وتأويل المشكل (١٨١)، والقرطبي ٩/ ١٧٨، وروح المعاني ٢/ ٢٢٨، واللسان (قلل)، والخزانة ٤/ ١٩٩، وأساس البلاغة ٢/ ٢٧٣، وشرح شواهد المغني للسيوطي (١٢٦)، والأغاني ٧/ ٧٩، وشرح شواهد المغني ٥/ ٢٧٢، والدر المصون، ٤/ ١٧٤، فتح القدير ٣/ ٢٣.

(٣) قوله: «بمنتزاح» هو من قول الشاعر:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... وعن ذم الرجال بمنتزاح

والبيت لابن هرمة يرثي ابنه. والغوائل: الحوادث التي تغتال النفوس وتهلكها. ونزح: إذا بعد، والمنتزح: اسم لمكان البعد، وأشبعت فتحته فتولدت منها الألف كقولهم: ينباع في ينبع، وعقراب في عقرب.
ينظر: ديوانه (٩٢)، الأشباه والنظائر ٢/ ٣٠، والخصائص ٢/ ١٠٦، ٣/ ١٢١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٥، ٢/ ٧١٩، وشرح شواهد الشافية ص ٢٥، ولسان العرب (ترح)، والمحتسب ١/ ١١٦، ٣٤٠، خزانة الأدب ٧/ ٥٥٧، والدر المصون ٢/ ٢٠٥.

بمعنى: بمنتزح؛ ونحوه [من الكامل]:

يَـــــنْـــــبَـــــاعُ........ ....(1)

بمعنى: ينبع، وقرئ: «مُتْكاً»: وهو الأترج؛ وأنشد [من الطويل]:

فَـأَهْـدَتْ مَـتْـكَـةً لِـبَـنِـي أَبِـيـهَـا تَـخُـبُّ بِـهَـا الـعَـثَـمْـثَـمَـةُ الْـوَقَـاحُ(2)

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين، وحملا كالعدلين على جمل، وقيل: الزماورد(3)، وعن وهب: أترجاً وموزاً وبطيخاً، وقيل: أعتدت لهنَّ ما يقطع، من متك الشيء بمعنى: بتكه إذا قطعه، وقرأ الأعرج: (متكأ): مفعلاً، من تكئ يتكأ، إذا اتكأ، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾: أعظمنه، وهبن ذلك الحسن الرائع، والجمال الفائق، قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مَرَرْتُ بِيُوسُفَ اللَّيْلَةَ الَّتِي عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هٰذَا؟ فَقَالَ: «يُوسُف»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: «كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ» (٧٨٣)، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر، يرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل/ ١٦٩أ: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدّته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء: للسكت، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر؛ وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله [من الطويل]:

----

٧٨٣ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٥٧١).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد، وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. انتهى.

---

(1) قوله: «ينباع» هو من قول الشاعر:

يـنـبـاع مـن ذفـرى أسـيـل حـرة زيـافـة مـثـل الـفـنـيـق الـمـكـدم

وقد مر شرح هذا البيت في سورة الأعراف بهذا الجزء فراجعه إن شئت اهـ.

(2) المتكة: الأترجة، وكأنه التي ذكر أبو داود في سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة. والخبب: نوع من السير. والعثمثمة: الصلبة. والوقاح ـ بالفتح ـ: شديدة وقع الخف على الأرض.
ينظر: البيت في روح المعاني ١٢/ ٢٨٨، والدر المصون ٤/ ١٧٤.

(3) قوله: «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم (ع).

خَفِ اللَّهَ وَٱسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُعِ   فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ(١)

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها

﴿حَشَ﴾ كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيدٍ؛ قال: [من الكامل]:

حَاشَا أَبَا ثَوْبَانَ إِنَّ.....   ....

....................بِهِ   ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ

وهي حرف من حروف الجر، فوضعت موضع التنزيه والبراءة، فمعنى: «حاشا الله»: براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: «حاشا لله»؛ فنحو قولك: سقيا لك؛ كأنه قال: براءة، ثم قال: لله؛ لبيان من يبرأ وينزه، والدليل على تنزيل «حاشا»: منزلة المصدر: قراءة أبي السمال: (حاشا لله): بالتنوين، وقراءة أبي عمرو: (حاش لله): بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: (حشا لله): بحذف الألف الأولى، وقرئ: (حاش لله): بسكون الشين، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط، وهي: ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حده، وقرئ: «حاشا الإله».

---

(١) لأبي الطيب، يقول: اتق واستر هذا الجمال الذي في وجهك ببرقع، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق، أي خيار النساء وهن في خدورهن، لما ينظرن من جمالك. ولاح يلوح: ظهر يظهر.
ينظر: البيت في ديوانه ٢/٣٤٩، وروح المعاني ١٢/٢٢٩، والبحر المحيط ٥/٣٠٣، والدر المصون ٤/١٧٥.

(٢) حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ أَبَا   ثَوْبَانَ لَيْسَ بِبُكْمَةٍ فَدْمِ
عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللهِ إِنَّ بِهِ   ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ

للمنقذ بن الطماح وهو الجميح الأسدي. وحاشا: كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها، كسبحان الله. ويجوز أنها حاشا الاستثنائية، وهي حرف جر عند الأكثر. ورواه الضبي: حاشا أبا ثوبان بالنصب، فهو فعل، واحتمال لغة القصر ضعيف لشهرة لغة الإعراب بالحروف. وعلى الأول فبناؤها لمشابهتها للحرفية لفظاً ومعنى. وبكم الرجل ـ كتعب ـ: إذا عجز عن الكلام. وقدم كسهل وظرف، إذا عجز عن الحجة كأن فمه مسدود. والضن ـ بالكسر ـ: البخل. والملحاة: مفعلة، من لحاه إذا لامه. واللحاء ـ كالرداء ـ مفاعلة من اللحن والعذل، من لحوت العود إذا قشرته. وتكرير أبي ثوبان لتعظيمه والتنويه باسمه، ليس ببكمة بالضم، أي ذي بكمة، أي: ليس بأبكم، ولا فدم: أي عاجز عن الكلام. وعمرو: قيل إنه بدل من أبي ثوبان، فقوله: إن أبا ثوبان إلخ: جملة اعتراضية مبينة لوجه التنزيه. وفي قوله: إن به ضنا، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذة اللئام. والمعنى: إن به امتناعاً وتنزهاً عن اللؤم والشتم.
ينظر: المحتسب ١/٣٤١، المفضليات ٣٦٧، مجاز القرآن ١/٣١٠، وشرح المفصل ٨/٤٧، الدرر ١/١٩٦، ١/٨٤ الإنصاف ١/٢٨٠، البحر المحيط ٥/٣٠٠، اللسان «حاشا» الأصمعيات ص ٣٦٧، الجنى الداني ص ٥٦٢، والمقاصد النحوية ٣/١٢٩، والدر المصون ٤/١٧٦، وله أو لسبرة بن عمرو الأسدي في خزانة الأدب ٤/١٨٢، وهمع الهوامع ١/٢٣٢.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى: براءة لله؟

قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية؛ ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه كيف تركوا: «عن» غير معرب على أصله؟ وعلى[1] في قوله [من الطويل]:

غَـــدَتْ مِـــنْ عَـــلَـــيْـــهِ... ....

منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟ والمعنى: تنزيه الله ـ تعالى ـ من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾: فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه[2]؛ لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم؛ وذلك لأن الله ـ عزّ وجلّ ـ ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان؛ ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا؛ لأنّ الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع ألاّ أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفئة الخاسئة[3] المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب، وإعمال: «ما» عمل: «ليس» هي اللغة القدمى الحجازية[4]، وبها ورد القرآن؛ ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]، ومن قرأ على سليقته من بني تميم، قرأ: (بشر): بالرفع، وهي في قراءة ابن مسعود، وقرئ: «ما هذا بشري»، أي: ما هو بعبد مملوك لئيم، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: تقول: هذا بشري، أي: حاصل بشري، بمعنى: هذا

(١) قوله: «على أصله وعلى في قوله» عطفه يحتاج إلى تكلف، أي: وإلى قوله:

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها ....

كيف ترك على في قوله. ويمكن أن التقدير: ألا ترى إلى قولهم إلخ وعلى في قوله أي: وألا ترى على... إلخ.

(٢) قال محمود: «نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه... إلخ» قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق فينسب إليهم الإجبار والخسار والمكابرة في الضروريات وجحد الحقائق تعكيساً، وهذا كله هم برآء منه، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه في اعتقاد أن تفضيل الملك عند قائله ليس ضرورياً ولا عقلياً نظريا، ولكن سمعيا، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً. وإذا كان كل مركوز في الطباع حقا، فما ركز فيها حب الشهوات وإيثار العاجلة وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أفيكون ذلك حقا إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى، والله ولي التوفيق.

(٣) قوله: «إلا ما عليه الفئة الخاسئة» يريد أهل السنة، وقد أساء في تعصبه للمعتزلة فعفا الله عنه (ع).

(٤) قوله: «ليس هي اللغة القدمى الحجازية» بمعنى القديمة، لكن لم يذكرها في الصحاح (ع).

مشري، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة: هي الأولى؛ لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك، ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾: ولم تقل: فهذا وهو حاضر[١]؛ رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاق أن يحب ويفتتن به، وربئاً بحاله واستبعاداً لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهنّ: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكنّ، ثم لمتنني فيه، تعني: أنكن لم تصوّرنه بحق صورته، ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتنان به، الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها؛ ونحوه: استمسك واستوسع الفتق، واستجمع الرأي، واستفحل الخطب[٢]؛ وهذا بيان لما كان من يوسف ـ عليه السلام ـ لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهمّ والبرهان.

فإن قلت: الضمير في: ﴿ءَامُرُهُۥ﴾: راجع إلى الموصول، أم إلى يوسف؟

قلت: بل إلى الموصول، والمعنى: ما آمر به؛ فحذف الجار كما في قولك: أمرتك الخير، ويجوز أن تجعل «ما»: مصدرية، فيرجع إلى يوسف، ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه، أي: موجب أمري ومقتضاه، قرئ: (وليكونا): بالتشديد والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف؛ وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) قال محمود: «لم لم تقل فهذا وهو حاضر... إلخ» قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ لما جعل الإشارة إلى الحروف المذكورة فقال: إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد، وأجاب هو بأن كل متقض بعيد، وأجبت أنا بأن الإشارة بذلك إلى بعد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والذي ذكره التصريفيون في «اسْتَعْصَمَ»: أنه موافق لـ«اعْتَصَمَ» فـ«اسْتَفْعَلَ» فيه موافق لـ«افْتَعَلَ»، وهذا أجود من جعل «اسْتَفْعَلَ» فيه للطلب، لأن «اعْتَصَمَ» يدل على وجود اعتصامه، وطلب العصمة لا يدل على حصولها، وأما أنه بناء مبالغة يدل على الاجتهاد في الاستزادة من العصمة، فلم يذكر التصريفيون هذا المعنى لـ«اسْتَفْعَلَ»، وأما اسْتَمْسَكَ واسْتَوْسَعَ واسْتجمع الرأي فـ«اسْتَفْعَلَ» فيه لموافقة «افتعل» والمعنى: امتسك واتسع واجتمع، وأما اسْتَفْحَلَ الْخَطْبُ فـ«اسْتَفْعَلَ» فيه موافقة لـ«تَفَعَّلَ»، أي تَفَحَّل الْخَطْبُ، نحو: «اسْتَكْبَرَ وَتَكَبَّر». وقرأ العامة بتخفيف نون «وليكونا» ويقفون عليها بالألف إجراء لها مجرى التنوين، ولذلك يحذفونها بعد ضمة أو كسرة، نحو: «هَلْ تقومون، وَهَلْ تَقُومِينَ»، في: «هل تقومُنْ»، وهَلْ تَقُومِنْ، والنون الموجودة في الوقف نون الرفع، رجعوا بها عند عدم ما يقتضي حذفها. انتهى. الدر المصون.

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

(السجن): بالفتح على المصدر، وقال: ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾: على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً؛ لأنهنّ تنصحن له وزينّ له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك، وقال: «ربِّ، نزولُ السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية».

فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟

قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده؛ نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾: فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أمل إليهنّ، والصبوة: الميل إلى الهوى، ومنها: الصبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها، وقرئ: أصب إليهنّ؛ من الصبابة، ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح؛ وإنما ذكر الاستجابة ولم/ ١٦٩ب يتقدّم الدعاء؛ لأنّ قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾: فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف، ﴿السميع﴾: لدعوات الملتجئين إليه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿بَدَا لَهُم﴾: فاعله مضمر؛ لدلالة ما يفسره عليه، وهو: «ليسجننه»، والمعنى: بدا لهم بداء، أي: ظهر لهم رأي ليسجننه، والضمير في (لهم): للعزيز وأهله، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾، وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفتلها منه في الذروة والغارب[1]، وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق الصغار به كما أوعدته به؛ وذلك لما أيست من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها؛ وفي قراءة الحسن: «لتسجننه»: بالتاء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون

(١) قوله: «وفتلها منه في الذروة» أي دورانها من وراء خديعته. أفاده الصحاح (ع).

منه، وفي قراءة ابن مسعود: «عتى حين»، وهي لغة هذيل، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رجلاً يقرأ: (عتى حين)، فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: «إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيًا، وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام».

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

«مع»: يدل على معنى الصحبة واستحداثها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له، ﴿فَتَيَانِۖ﴾: عبدان للملك: خبازه وشرابيه: رقي إليه أنهما يسمانه[1]، فأمر بهما إلى السجن، فأدخلا ساعة أدخل يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ يعني: في المنام، وهي حكاية حال ماضية، ﴿أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾ يعني: عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه، وقيل: الخمر ـ بلغة عمان ـ: اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنباً، ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: من الذين يحسنون عبارة الرؤية، أي: يجيدونها، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها له، فقالا له ذلك، أو من العلماء؛ لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا، روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق وسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا، اصبروا تؤجروا؛ إنّ لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك! لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: «أنا: يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خليت سبيلك، ولكني أحسن جوارك، فكن في أي بيوت السجن شئت، وروي أن الفتيين قالا له: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكم بالله ألاّ تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء، فلا تحباني ـ بارك الله فيكما ـ وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي: إني أراني في بستان، فإذا بأصل حبلة[2] عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها في كأس

(١) قوله: «رقى إليه أنهما يسمانه» في الصحاح: رقى إليه الكلام ترقية، أي: رفع إليه (ع).
(٢) قوله: «فإذا بأصل حبلة» في الصحاح «الحبلة» بالضم: ثمر العضاه. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك والحبلة ـ بالتحريك ـ: القضيب من الكرم. وفيه أيضاً: سلة الخبز معروفة (ع).

الملك، وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: (نبئنا بتأويله)؟

قلت: إلى ما قصا عليه، والضمير، يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه؛ كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترص ذلك[1]، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية، والإرشاد، والموعظة، والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين ـ لم يكن من باب التزكية، ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه، ﴿ذَٰلِكُمَا﴾: إشارة لهما إلى التأويل، أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾: وأوحى به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾: يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إليّ؛ لأني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين، وهي الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون: أهل مصر، ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأنّ غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها[2]، وهم الذين على ملة إبراهيم؛ ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من

(١) قوله: «افترص ذلك» أي اتخذه فرصة، أي نوبة وحظا ونصيباً، أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وليست «هم» عندنا تدل على الخصوص» قلت: لم يقل الزمخشري إنّ «هم» تدل على الخصوص، وإنما قال: تكرير «هم» للدلالة، فالتكرير هو الذي أفاد الخصوص، وهو معنى حسن فهمه أهل البيان. انتهى. الدر المصون.

الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء؛ وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرّفهما أنه نبيّ يوحى إليه، بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله، ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾: ما صحّ لنا معشر الأنبياء، ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾ أي: شيء كان من ملك أو جنيّ أو إنسيّ/ ١٧٠أ، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾: التوحيد، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على الرسل وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: المبعوث إليهم، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾: فضل الله فيشركون ولا يتنبهون، وقيل: إنّ ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم، فيبقون كافرين غير شاكرين.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ يريد: يا صاحبيَّ في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة؛ فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب؛ وإنما المصحوب غيره وهو يوسف ـ عليه السلام ـ ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق، فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول: رجلا صدق، وسميتهما صاحبين؛ لأنهما صحباك، ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن؛ كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾: يريد التفرّق في العدد والتكاثر، يقول: أأن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا، ﴿خَيْرٌ﴾: لكما، ﴿أَمِ﴾: أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: خطاب لهما، ولمن على دينهما من أهل مصر، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة، ثم طفقتم تعبدونها؛ فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها، ومعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: سميتم بها، يقال: سميته بزيد، وسميته زيداً، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتسميتها، ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾: من حجة، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾: في أمر العبادة والدين، ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾: ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾:

الثابت الذي دلت عليه البراهين.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾: يريد الشرابي، ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾: سيده، وقرأ عكرمة: «فيسقي ربه»، أي: يسقى ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، وأما القضبان الثلاثة: فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل، ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: قطع وتم ما، ﴿تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾: فيه من أمركما وشأنكما.

فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟

قلت: المراد بالأمر: ما اتهما به من سمّ الملك وما سجنا من أجله، وظنا أنّ ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك، فقال لهما: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجرّ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جحدا، وقالا: ما رأينا شيئاً، على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ﴾ الظانّ: هو يوسف، إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي: فالظان هو الشرابي، ويكون الظنّ بمعنى: اليقين[1]، ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: صفني عند الملك بصفتي، وقص عليه قصتي؛ لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فأنسي الشرابي، ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾: أن يذكره لربه، وقيل: فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره، ﴿بِضۡعَ سِنِينَ﴾: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

---

(١) قال السمين الحلبي: قُلْتُ: يعني أنه إن كان الظن على بابه فلا يستقيم إسناده إلى يوسف، إلا أن يكون تأويله بطريقة الاجتهاد لأنه متى كان بطريق الوحي كان يقيناً فينسب الظن حينئذٍ للشرابي لا له عليه السّلام، وأما إذا كان الظن بمعنى اليقين فتصح نسبته إلى يوسف، وإن كان تأويله بطريق الوحي، وهو حسن وإلى كون الظن على بابه وهو مسند ليوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، ذهب قتادة فإنه قال: الظن هنا على بابه، لأن عِبَارة الرؤيا ظَنٌّ. انتهى. الدر المصون.

فإن قلت: كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟

قلت: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله، عز وجل، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فإن قلت: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟

قلت: قد لابسه في قولك: «فأنساه الشيطان ذكر ربه»، أو: عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة، أو على تقدير: فأنساه الشيطان ذكر إخبار ربه، فحذف المضاف الذي هو الإخبار.

فإن قلت: لم أنكر على يوسف الاستغاثة بغير الله في كشف ما كان فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال حكاية عن عيسى، عليه السلام، ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وفي الحديث: «الله في عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» (٧٨٤) «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ الآخِرَةِ» وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه، حتى جاء سعد فسمعت غطيطه (٧٨٥)، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية

---

٧٨٤ ـ أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٤) كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن حديث (٣٨/ ٢٦٩٩) والتِّرمذي (٤/ ٢٦) كتاب الحدود: باب ما جاء في الستر على المسلم حديث (١٤٢٥)، (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في السترة على المسلم حديث (١٩٣٠) وأبو داود (٢/ ٧٠٤) كتاب الأدب: باب في المعونة للمسلم حديث (٤٩٤٦) وابن ماجه (١/ ٨٢) المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم حديث (٢٢٥) وأحمد (٢/ ٢٠٢) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٩) والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٢١ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

قال النووي في «شرح مسلم» (٩/ ٢٨).

ومعنى (نَفَّس الكُربة): أزالها.

وفيه: فضل قضاء حوائج المسلمين، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك، وفضل الستر على المسلمين، وقد سبق تفصيله، وفضل إنظار المعسر، وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به، لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.

وقال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث. انتهى.

٧٨٥ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ٢٣٢) كتاب التمني باب قوله ﷺ: «ليت كذا وكذا»، ومسلم (٨/ ١٩٥، =

والتموي بالاشربة والأطعمة، وإن كان ذلك؛ لأنّ الملك كان كافراً، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم، والغرق، والحرق، ونحو ذلك من المضارّ؟

قلت: كما اصطفى الله ـ تعالى ـ الأنبياء على خليقته، فقد اصطفى لهم أحسن الأمور، وأفضلها، وأولاها، والأحسن والأولى بالنبي ألاَّ يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه، ولا يعتضد إلا به، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً؛ لئلا يشمت به الكفار، ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن: أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما دنا فرج يوسف، رأى ملك مصر «الريان بن الوليد» رؤيا عجيبة هالته: رأى سبع/ ١٧٠ب بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها، فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها، ﴿سِمَانٍ﴾: جمع سمين وسمينة، وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع: (سمان) صفة للمميز وهو: (بقرات) دون المميز، وهو: (سبع)، وأن يقال: سبع بقرات سماناً؟

قلت: إذا أوقعتها صفة لبقرات، فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات، وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ، ولو وصفت بها السبع، لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قلت: هلا قيل: سبع عجاف على الإضافة؟

قلت: التمييز موضوع لبيان الجنس، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده.

= ١٩٦) نووي كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد رقم (٢٤١٠) والحاكم (٣/ ٥٠١).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه من طريق عبد الله بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ: «أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قال: وسمعت صوت السلاح، فقال: رسول الله ﷺ من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت أحرسك فقالت عائشة: فنام حتى سمعت غطيطه، وغفل الحاكم فاستدركه... انتهى.

فإن قلت: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب.

قلت: الفارس، والصاحب، والراكب، ونحوها: صفات جرت مجرى الأسماء، فأخذت حكمها، وجاز فيها ما لم يجز في غيرها؛ ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قلت: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه؛ ألا ترى أنه لم يقل: بقرات سبع عجاف؛ لوقوع العلم بأنّ المراد البقرات؟

قلت: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: (سبع عجاف)، عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف: الهزال الذي ليس بعده، والسبب في وقوع «عجاف»: جمعاً «العجفاء»، وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال: حمله على سمان؛ لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض.

فإن قلت: هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؟

قلت: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الأُخر السبع، ويكون قوله: (وأخر يابسات)، بمعنى: وسبعاً أخر.

فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله: (وأخر يابسات) على (سنبلات خضر)، فيكون مجرور المحل؟

قلت: يؤدي إلى تدافع، وهو أن عطفها على: (سنبلات خضر) يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضي أن تكون غير السبع، بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود: بالجرّ، فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود، تدافع ففسد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾: كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء، واللام في قوله: ﴿لِلرُّءْيَا﴾: إما أن تكون للبيان؛ كقوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، وإما أن تدخل؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله، لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل، إذا قلت: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان؛ كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه، و﴿تَعْبُرُونَ﴾: خبر آخر، أو حال، وأن يضمن: (تعبرون) معنى: فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة

الرؤيا، وحقيقة: «عبرت الرؤيا»: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره[1]؛ ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا: بالتخفيف، هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون «عبرت»: بالتشديد والتعبير والمعبر، وقد عَثَرْتُ على بيت أنشده المبرّد في كتاب الكامل لبعض الأعراب [من السريع]:

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا ... وَكُنْتُ لِلأَحْلامِ عَبَّارا[2]

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾: تخاليطها وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات وحزم الواحد: ضغث؛ فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى: «من» أي: أضغاث من أحلام، والمعنى: هي أضغاث أحلام.

فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟

قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيداً في الوصف، فهؤلاء ـ أيضاً ـ تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾: إما أن يريدوا بالأحلام: المنامات الباطلة[3]

---

(١) قوله: «آخر عرضه وهو عبره» في الصحاح: «عبر النهر، وعبر شطره وجانبه (ع).

(٢) أنشده المبرد في كتابه. والرؤيا ـ بالألف: مصدر رأى المنامية، ويقل مجيئه بالتاء. ومصدر البصرية بالعكس، وعبرت الرؤيا ـ بالتخفيف وبالتضعيف كما هنا ـ: ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها. إذا ذكرت مآلها ومرجعها. والأحلام: جمع حلم بالضم، وهو ما يراه النائم. والعبار: مبالغة في المعبر أو في العابر، واللام تزاد في المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر، أو بكونه فرعاً عن الفعل، وقد اجتمع الأمران ههنا فزيدت اللام.
ينظر: البيت في روح المعاني ١٢/ ٢٥٠، والبحر ٥/ ٣١١، والتاج (عبر)، والدر المصون ٤/ ١٨٧.

(٣) قال محمود: «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات... إلخ» قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل الكلام على الأول يصيره من وادي [من الطويل]:

على لا حب لا يهتدي بمناره ... .

كأنهم قالوا: ولا تأويل للأحلام الباطلة فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولاً ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولاً. وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله ـ إلى قوله ـ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون: دليل أيضاً على ذلك. والله أعلم.

خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

قرئ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾: بالدال، وهو الفصيح، وعن الحسن: «واذكر»: بالذال المعجمة، والأصل: تذكر، أي: تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد مدّة طويلة؛ وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: (بعد إمّة): بكسر الهمزة، والإمّة: النعمة؛ قال عدي [من الخفيف]:

ثُــمَّ بَـعْـدَ الْـفَـلاَحِ وَالْـمُـلْـكِ وَالإِمْــ ـمَـةِ وَارَتْــهُــمْ هُــنَــاكَ الْــقُــبُــورُ(٢)

أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وقرئ: (بعد أمه): بعد نسيان(٣)، يقال: أمه يأمه أمها، إذا نسي، ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ(٤)، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: أنا أخبركم

---

(١) قوله: «بنحارير» جمع نحرير وهو العالم المتقن، كما في الصحاح (ع).

(٢) أين كسرى كسرى الملوك أبوسا ـسان؟ بل أين قبله سابور؟
ثم بعد الفلاح والملك والإمـ ـمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جَـفْـ ـف فألوت به الصبا والدبور

لعدي بن زيد. وكسرى وساسان وسابور: أسماء ملوك وساسان: هو أبو الأكاسرة. ويروى: أنو شروان، بدل أبو ساسان؛ فهو كلمة واحدة. وكسرى الثاني بدل من الأول، مضاف لما بعده؛ كما يقال: ملك الملوك، وهو فارسي معرب، وأصله خسرو، فغيرته العربية. وإن كان عربياً مأخوذاً من الكسر؛ فالمعنى أنه كان يكسر شوكة الملوك، وما بعده عطف بيان له وقبله متعلق بمحذوف حال من سابور وفي «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما. وثم ـ بالفتح ـ ظرف خبر لمحذوف أي هم ثم. وإن ضمت فهي عاطفة على محذوف، أي أفلحوا ثم بعد الفلاح، أي البقاء أو الفوز والملك. وروي بدله «الرشد». والإمة ـ بالكسر ـ: النعمة، وبالضم: الجيش العظيم. وارتهم: أي سترتهم قبورهم في ذلك المكان، كناية عن موتهم، فيدفنون في باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها، ثم شبههم بالورق الذي جف فاختلفت به الصبا والدبور، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا، فألوت بمعنى التوت، أو بمعنى: أوقعت به اللي، يعني تطاول بهم الزمان حتى تفتت عظامهم وصارت كذلك.
ينظر: ديوانه (٨٩)، مثلثات قطرب /٤٥، الرازي ١٨/ ١٥٢، فصيح ثعلب ٦٥، شواهد المغني للبغدادي ٤/ ٤٢، ٤٧، ابن الشجري ١/ ٩١، الشعر والشعراء ١/ ٢٢٥، الأغاني ١/ ٢١٥، ١٢٦، وحماسة البحتري ١٢٢، تاريخ الطبري ٢/ ٥٠، ٦٨، اللسان: أم، الدر المصون ٤/ ١٨٨.

(٣) قوله: «قرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أي بعد (ع).

(٤) قوله: «ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر، وهو الإثم. أفاده الصحاح (ع).

به عمن/ ١٧١أ عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾: فابعثوني إليه لأسأله، ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

المعنى: فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: أيها البليغ في الصدق؛ وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه؛ حيث جاء كما أوّل؛ ولذلك كلمه كلام محترز فقال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنه ليس على يقين من الرجوع؛ فربما اخترم دونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى: (لعلهم يعلمون): لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿تَزْرَعُونَ﴾: خبر في معنى الأمر؛ كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصف: ١١]؛ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر؛ للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾(١)، ﴿دَأَبًا﴾: بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي دائبين: إمّا على تدأبون دأباً، وإمّا على إيقاع المصدر حالاً، بمعنى: ذوي دأب، ﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ لئلا يتسوس، و﴿يَأْكُلْنَ﴾: من الإسناد المجازي: جعل أكل

= قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القراء». قلت: لم ينسب هو إليهم خطأ، وإنما حكى أن بعضهم خطّأ هذا القارئ فإنه قال: «خطِّئ» بلفظ ما لم يسمّ فاعله، ولم يقل فقد أخطأ على أنه إذا صح أن من ذكره قرأ بذلك فلا سبيل إلى الخطأ إليه ألبتة. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يدل الأمر بتركه في سنبله على أنَّ «تزرعون» في معنى: ازرعوا، بل «تزرعون»، إخبار غيب وأما «فذروه» فهو أمر إشارة بما ينبغي أن يفعلوه». قلت: هذا هو الظاهر ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة، لأنهم يزرعون على عادتهم أمرهم أو لم يأمرهم، وإنما يحتاج إلى الأمر، فيما لم يكن من عادة الإنسان أن يفعله كتركه «في سنبله». انتهى الدر المصون.

أهلهنّ مسنداً إليهنّ، ﴿تُحْصِنُونَ﴾: تحرزون وتخبؤون، ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: من الغوث أو من الغيث، يقال: غيثت البلاد، إذا مطرت؛ ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا، ﴿يَعْصِرُونَ﴾: بالياء والتاء: يعصرون العنب والزيتون والسمسم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ: «يعصرون»: على البناء للمفعول، من عصره إذا أنجاه، وهو مطابق للإغاثة، ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى: ينجون، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً، وقيل: (يعصرون): يمطرون، من أعصرت السحابة، وفيه وجهان: إمّا أن يضمن أعصرت معنى مطرت، فيعدّى تعديته، وإمّا أن يقال: الأصل أعصرت عليهم، فحذف الجار وأوصل الفعل، تأوّل البقرات السمان، والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم؛ وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

فإن قلت: معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب، وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت: إنّ علم ذلك من جهة الوحي؟

قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً، وقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: تفصيل لحال العام؛ وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك[1]، وقدّم سؤال النسوة؛ ليظهر براءة ساحته عما

---

(١) قال محمود: «إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك تظهر براءة ساحته عما قرف به. . . الخ» قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف لأجبت الداعي، وكان في طيّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم من أنه هم بزليخا هما يؤاخذ به، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم أولى وأجدر، والله أعلم.

قرف[1] به وسجن فيه؛ لئلا يتسلق به الحاسدون[2] إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شرّه، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها؛ قال عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يَقفنَّ مَوَاقِفَ التُّهَمِ[3]» ومنه قال رسول الله ﷺ للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه ـ: «هِيَ فُلانَةٌ» (٧٨٦) اتقاء للتهمة، وعن النبي ﷺ: «لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وَصَبْرِهِ ـ وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ ـ حِينَ سُئِلَ عَنِ البَقَرَاتِ العِجَافِ وَالسِّمَانِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَخْبَرْتُهُمْ حَتَّىٰ أَشْتَرِطَ أَنْ يُخرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ وَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ، لأَسْرَعْتُ الإِجَابَةَ وَبَادَرْتُهُمُ البَابَ وَلَما ٱبْتَغَيْتُ الْعُذْرَ، إِنْ كَانَ لَحَلِيماً ذَا أَنَاةٍ» (٧٨٧)، وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة،

---

٧٨٦ ـ أخرجه البخاري (٦/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده حديث رقم (٣٢٨١)، ومسلم (٧/ ٤١١) نووي كتاب السلام باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً حديث رقم (٢١٧٥)، وأبو داود (٢/ ٣٣٢) كتاب الصوم باب المعتكف يدخل البيت لحاجته، (٤/ ٢٩٨، ٢٩٩) «كتاب الأدب» «باب في حسن الظن» حديث رقم (٤٩٩٤)، وأحمد (٦/ ٣٣٧)، وابن ماجه (١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦) «كتاب الصيام» باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد حديث رقم (١٧٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)، باب المعتكف يخرج إلى باب المسجد، (٤/ ٣٢٤) «باب المرأة تزور زوجها في اعتكافه»، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٣٩٧) «كتاب الرقاق» باب فتنة الشيطان حديث رقم (٤١٠٣).

قال الحافظ:

متفق عليه من حديث علي بن الحسين عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول الله ﷺ يعتكف فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت فانقلبت فقام معي ليقلبني. وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار. فلما رأياه أسرعا. فقال: على رسلكما، إنها صفية ـ الحديث» انتهى.

٧٨٧ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١١/ ٢٤٩) حديث رقم (١١٦٤٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٢)، وقال: رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك، وأخرجه الطبري (٧/ ٢٣٣) رقم (١٩٤١٠).

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الطبري (٧/ ٢٣٢) حديث رقم (١٩٤٠٣).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة بهذا بدون قوله: «إن كان لحليما ذا أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزي عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه، وزاد: ولولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن حتى يبتغي الفرج من عند =

---

(١) قوله: «عما قرف به إلخ» أي اتهم به. والتسلق: التوسل (ع).

(٢) يأتي في الأحزاب.

ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهن؛ لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وفصّ الحديث[1]؛ حتى يتبين له براءته بياناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل، وقرئ: (النُّسوة): بضم النون، ومن كرمه، وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: إنّ الله تعالى ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: أراد أنه كيد عظيم، لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهنّ كدنه، وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهنّ، أي: هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه، ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾: هل وجدتنّ منه ميلاً إليكنّ، ﴿قلن حاش لله﴾: تعجباً من عفته، وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثبت واستقرّ، وقرئ: (حصحص): على البناء للمفعول، وهو من حصص البعير: إذا ألقى ثفناته[2] للإناخة؛ قال [من الطويل]:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفِنَاتِهِ ... وَنَاءَ بِسَلْمَىٰ نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا[3]

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة[4]، واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق

= غير الله - يعني قوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾، وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله: «إن كان لحليما ذا أناة»، فأخرج الطبري من رواية أبي إسحاق عن رجل لم يسم عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يرحم الله يوسف، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعاً، إن كان لحليما ذا أناة»، ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري، وعن الأعرج عن أبي هريرة. انتهى.

---

(١) قوله: «وفص الحديث» في الصحاح «فص الأمر» مفصله (ع).

(٢) قوله: «ألقى ثفناته للإناخة» هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح (ع).

(٣) لحميد بن ثور يصف بعيراً بأنه ألقى في الحجارة الصلبة أعضاءه التي يبرك عليها عند الإناخة، والصم جمع صماء أو أصم أي صلب. وناء: أي قام متثاقلاً بسلمى محبوبتي نوأة ونهضة واحدة لم يتردد، ثم صمم وعزم على السير. وروي أن سمرة بن جندب أتي برجل عنين، فاشترى له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة، فلما أصبح قال له: ما صنعت؟ قال: فعلت حتى حصحصت فيه، فسألها فقالت: لم يصنع شيئاً. فقال: خل سبيلها.
ينظر: ديوانه (١٩)، الألوسي ١٢/٢٥٩، اللسان: ص م م، حصص. الدر المصون ٤/١٩١.

(٤) قال محمود: «لا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن... إلخ» قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتبع الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل. وذهب منهم طائفة مع القدرية إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة. والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن =

بشيء مما قرفته به؛ لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال؛ وقالت المجبرة والحشوية[1]: نحن قد بقي لنا مقال، ولا بدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾: من كلام يوسف[2]، أي: ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة؛ ليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾: بظهر الغيب في حرمته، ومحل: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: الحال[3]، من الفاعل أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه، خفي عن عينه، أو وهو غائب عني، خفي عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفاً، أي: بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة، ﴿و﴾: ليعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: لا ينفذه ولا يسدّده، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها،/ ١٧١ب وبه في خيانته أمانة الله، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً، لما هدى الله كيده ولا سدّده.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه؛ لئلا يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ» (٧٨٨) وليبين أنّ ما فيه من

---

٧٨٨ ـ ورد ذلك من حديث جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعبد الله بن سلام.

= الوقف عند قوله ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم يبتدأ ﴿وهم بها. لولا أن رأى برهان ربه﴾ كما تقوله. قتلت زيداً لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهم واقعاً لوجود المانع منه، وهو رؤية البرهان. فإن كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشأنه وإياهم.

(١) قوله: و«قالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ندق في فروة» يريد أهل السنة وقوله نحن قد بقي لنا إلخ يعني أن حالهم في تفسير الهم والبرهان يمثل بذلك. والفروة: جلدة الرأس (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ الخ: من كلام يوسف عليه السلام والمعنى أن ذلك الجد في ظهور البراءة ليعلم. . . إلخ» قال أحمد: وإرادته لعموم الأحوال أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه والتبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة والله أعلم (ع).

(٣) قوله: «ومحل بالغيب الحال من الفاعل» لعله محل الحال أو النصب على الحال.

الأمانة ليس به وحده؛ وإنما هو بتوفيق الله، ولطفه، وعصمته، فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾: من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها، ولا يخلو، إمّا أن يريد في هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية، لا عن طريق القصد والعزم، وإمّا أن يريد به عموم الأحوال، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: أراد الجنس،

= فأما حديث أبي هريرة فرواه مسلم ٤/١٧٨٢ في الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٣/٢٢٧٨)، وأبو داود ٢/٦٣٠ في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٣). وأحمد ٢/٥٤٠ والبغوي في شرح السنة ٧/١١ برقم (٣٥١٩) عنه مرفوعاً. «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».

وأما حديث أبي سعيد الخدري فرواه التِّرمذي ٥/٢٨٨ في التفسير، باب «ومن سورة بني إسرائيل» (٣١٤٨)، وفي المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (٣٦١٥)، وابن ماجه ٢/١٤٤٠ في الزهد، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) عنه مرفوعاً «أنا سيد ولد آدم ولا فخر...» فذكره بنحو حديث أبي هريرة ورواه التِّرمذي في الموضع الأول مطولاً.

وقال في الموضعين: هذا حديث حسن صحيح.

وأما حديث أنس فرواه أحمد ٣/١٤٤ ـ ١٤٥، والدارمي ١/٢٧ ـ ٢٨ في المقدمة، باب ما أُعطي النبي ﷺ من الفضل، وأبو يَعلى واللفظ له (٤٣٠٥)، عنه مرفوعاً «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر، ولواء الحمد بيدي ولا فخر».

وأما حديث عبد الله بن سلام فرواه أبو يَعلى (٧٤٩٣)، وابن حِبان (٢١٢٧ ـ موارد) من طريق عمرو الناقد حدثنا عمرو بن عثمان الكلابي حدثنا موسى بن أعين عن معمر بن راشد عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن بشر بن شفاف عنه مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في المجمع ٨/٢٥٧ وقال: رواه أبو يَعلى والطبراني، وفيه عمرو بن عثمان الكلابي، وثقه ابن حِبان على ضعفه وبقية رجاله ثقات.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، دون قوله: «ولا فخر»، وذكره بإثباتها أبو نعيم في الدلائل، من رواية سهيل عن أبيه عنه في أثناء حديث. ورواه ابن أبي عاصم في الآداب له من حديث عائشة بإثباتها. وأخرجه ابن حِبان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وواثلة وأبي بكر الصديق. ورواه التِّرمذي من رواية أبي نضرة عن أبي سعيد بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر...» الحديث وقال: حسن. ورواه بعضهم عن أبي نضرة بن عامر. وهو عند أحمد وأبي يَعلى وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل. وهما من طريق أبي نضرة قال: خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره. ولحديث ابن عباس طريق آخر أخرجها الدارقطني في الأفراد من رواية خارجة بن مصعب. وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وأخرى عن ابن مردويه في أثناء حديث الإسراء بإسناد واه. وفي الباب عن عبادة بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع، وعن أنس عن البزار. وفيه مبارك بن سحيمة. وهو متروك، وعند أبي يَعلى، وفيه زيادة بن ميمون البختري، وعن عبد الله بن سلام أخرجه أبو يَعلى والطبراني من رواية بشر بن شفاف عنه. وهو معلول. والمحفوظ عن بشر بن شفاف عن عبد الله بن عمرو. وعن جابر أخرجه الحاكم. وفيه القاسم بن محمد بن عبد الله بن عقيل. وهو متروك. انتهى.

أي: إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء، ويحمل عليه بما فيه من الشهوات، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾: إلا البعض الذي رحمه ربي بالعمصة كالملائكة، ويجوز أن يكون: (ما رحم): في معنى: الزمن، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني: أنها أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة؛ كقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [يس: ٤٤]، وقيل معناه: ذلك ليعلم أني لم أخنه؛ لأنّ المعصية خيانة، وقيل: هو من كلام امرأة العزيز[١]، أي: ذلك الذي قلت: ليعلم يوسف أني لم أخنه، ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة؛ فإني قد خنته حين قرفته[٢]، وقلت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن ـ تريد الاعتذار مما كان منها ـ إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي: إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت.

فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟

قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائداً[٣] إلى أن يجعل من كلامه؛ ونحوه قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ كلام فرعون ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠] بسحره، ثم قال ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيره، ذهب إلى أن: (ذلك ليعلم): متصل بقوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولقد لفقت المبطلة[٤] روايات مصنوعة[٥]؛ فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: قال له جبريل: ولا حين

(١) عاد كلامه. قال: «وقيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أي ذلك الذي قلت... إلخ» قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج، كقوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ إذ لا يمكن جعله من قول الملأ بوجهه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون. وأما هذه الآية فهي تتلو قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً، ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في (ليعلم) على العزيز وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته بقولها بعث يخرجه من السجن، فذلك قوله ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

(٢) قوله: «حين قرفته» أي اتهمته (ع).

(٣) قوله: «دليلاً قائداً» أي مؤدياً (ع).

(٤) قوله: «ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة» يريد أهل السنة الذين سماهم المجبرة فيما مر (ع).

(٥) عاد كلامه. قال: «ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة... إلخ» قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على نقله هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة، كما لفقت القدرية على =

هممت بها، وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف؛ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله[1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

يقال: استخلصه واستخصه، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾: وشاهد منه ما لم يحتسب، ﴿قَالَ﴾: أيها الصديق، ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾: ذو مكانة ومنزلة، ﴿أَمِينٌ﴾: مؤتمن على كل شيء، روي أنّ الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله، «اللهم، أعطف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات»، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى[2]، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً[3]، فلما دخل على الملك، قال: «اللهمّ، إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه، ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، وقال: أيها الصدّيق، إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء[4]، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾: ولّني خزائن أرضك، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف؛ وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه؛ وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق، وبسط

= قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعقاً أن الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها وتقول: يا ابن النساء الحيض طمعت في رؤية رب العزة، كل ذلك ليتم لهم غرضهم في أنه طلب محالاً في العقول على الله تعالى، ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل، والله الموفق.

(١) قوله: «وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله» أي اتهامهم بما لم يفعله. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «البلوي» عبارة النسفي البلواء (ع).

(٣) قوله: «ولبس ثياباً جدداً» في الصحاح: جديد وجدد، كسرير وسرر (ع).

(٤) قوله: «أن تجمع الطعام في الأهراء» كذا عبارة النسفي أيضاً ولكنه ليس في الصحاح بل الذي فيه هرأه البرد يهرأه هرأ أي اشتد عليه حتى كاد يقتله وهرئ المال وهرئ القوم فهم مهرؤون اهـ فأصل الإهراء مواضع يشتد فيها البرد (ع).

العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أنّ أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية؛ ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رَحِمَ الله أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلِ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ، لاَسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَخَّرَ ذٰلِكَ سَنَةً» (٧٨٩).

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر، ويكون تبعاً له، وتحت أمره وطاعته؟

قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثل ذلك التمكين الظاهر، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾: في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين، ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾: قرئ: بالنون والباء، أي: كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوّأ له؛ لم يمنع منه؛ لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه، روي أنّ الملك توّجه، وختمه بخاتمه، ورداه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدرّ والياقوت، روي أنه قال له: أمّا السرير: فأشدّ به ملكك، وأما الخاتم: فأدبر به/ ١٧٢أ أمرك، وأمّا التاج: فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير وهانت له الملوك، وفوّض الملك إليه أمره، وعزل قطفير، ثم مات بعده، فزوّجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل

---

٧٨٩ ـ أخرجه الواحدي في «الوسيط» (٢/٦١٨ ـ بتحقيقنا) أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الثقفي نا مخلد بن جعفر نا الحسن بن علوية نا إسماعيل بن عيسى نا إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً.
وقال الحافظ في «تخريج الكشاف»:
أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشير عن جويبر عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ساقط. انتهى.

بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك، وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله، ما رأينا كاليوم ملكاً أجلّ ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خوّلني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير؛ تقسيطاً بين الناس، وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين، ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾: بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم، ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أن نأجرهم في الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن: يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر: يعجل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لم يعرفوه؛ لطول العهد[1]، ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم؛ لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله. التي فارقوه عليها طريحاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأنّ الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زيّ فرعون[2]: عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج؛ وإنما عرفهم؛ لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ

---

(١) قال محمود: «إنما أنكروه لبعد العهد وتغيير الصورة. . . إلخ» قال أحمد: وتوارد القادمين في دخولهم عليه ومعرفته لهم عند ذلك، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة، والله أعلم.

(٢) قوله: «وقيل رأوه على زي فرعون» إن أريد فرعون موسى، فلم يكن قد وجد. وعبارة الخازن: زي ملوك مصر عليه ثياب . . إلخ (ع).

ذاك، ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمّل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرّفوا له.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدّتهم، وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون، وأوقر ركائبهم بما جاؤوا من الميرة، وقرئ: (بجهازهم): بكسر الجيم، ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجتر القول هذه المسألة، روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم؟ فإني أنكركم، قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق نبي من الأنبياء، اسمه: يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأنّ الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ـ وكان أحسنهم رأياً في يوسف ـ فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزوماً، عطفاً على محل قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن يكون بمعنى النهي.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: سنخادعه عنه، وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾: وإنا لقادرون على ذلك لانتعايى به، أو: وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾، وقرئ: (لفتيته)، وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، و«فعلة»:

للقلة، و«فعلان»: للكثرة، أي: لغلمانه الكيالين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾: لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرّم بإعطاء البدلين، ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾: وفرغوا ظروفهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: تخوّف ألاّ يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعلهم يردّونها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ يريدون: قول يوسف، فإن لم تأتوني به، فلا كيل لكم عندي؛ لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل، ﴿نَكْتَلْ﴾: نرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرئ: (يكتل)، بمعنى: يكتل، أخونا، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سبباً للاكتيال، فإن امتناعه بسببه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يريد: أنكم قلتم في يوسف، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾: كما تقولونه في أخيه، ثم خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك، ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾: فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم، و(حافظاً): تمييز؛ كقولك: هو خيرهم رجلاً، ولله درّه فارساً، ويجوز أن يكون حالاً، وقرئ: (حفظاً)، وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ/ ١٧٢ب مصيبتين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

وقرئ: (ردت إلينا): بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما في: قيل وبيع، وحكى قطرب ضرب زيد، على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد، ﴿مَا نَبْغِى﴾: للنفي، أي: ما نبغي في القول، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من

آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبتغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام، بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود: «ما تبغي»: بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل: معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾: جملة مستأنفة موضحة لقوله: (ما نبغي)، والجمل بعدها معطوفة عليها، على معنى: إن بضاعتنا ردّت إلينا، فنستظهر بها، ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾: في رجوعنا إلى الملك، ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾: فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا؟ وإنما قالوا: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾: لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قلت: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول، كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾: بياناً لصدقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم، فما تصنع بالجمل البواقي؟

قلت: أعطفها على قوله: (ما نبغي): على معنى: لا نبغي فيما نقول، ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾: ونفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ؛ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا، كما تقول: سعيت في حاجة فلان، واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى، وينبغي لي ألا أقصر، ويجوز أن يراد: ما نبغي، وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع؛ بياناً لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه، وهو وجه حسن واضح، ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفينا، يعنون: ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢](١).

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾

---

(١) قوله: «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جواز كونه من كلام يعقوب، لأن المعنى يؤدي إليه، كما جاز في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ كونه من كلام يوسف؛ لأن المعنى يقود إليه، فتدبر (ع).

﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾: مناف لحالي[1] ـ وقد رأيت منكم ما رأيت ـ إرساله معكم، ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾: حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله؛ وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدّد، وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾: جواب اليمين؛ لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتنني به، ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾: إلا أن تغلبوا[2] فلم تطيقوا الإتيان به، أو إلا أن تهلكوا.

فإن قلت: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟

قلت: (أن يحاط بكم): مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله: (لتأتنني به) في تأويل النفي، معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي: لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة: وهي أن يحاط بكم، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بد من تأويله بالنفي؛ ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت، تريد: ما أطلب منك إلا الفعل، ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾: من طلب الموثق وإعطائه، ﴿وَكِيلٌ﴾: رقيب مطلع.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

---

(١) قال محمود: «معناه أن إرساله معكم مناف... إلخ» قال أحمد: لن للنفي المؤكد. وأما قول الزمخشري في المنافاة له، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى ﴿لَن تَرَانِي﴾ معناه أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذه المنافاة من مقتضى (لن) ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرن الأذهان على أن هذا مقتضى (لن) وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ معناه إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان... إلخ» قال أحمد: وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي، لأن المستثنى منه مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان مثلاً نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان؛ فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم. ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: وأخاف أن يأكله الذئب، فابتلي من ناحية هذا القول. وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة[1]، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع، وقال هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر مّا أكرمهم الملك، وقرّبهم، وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟

قلت: يجوز أن يحدث الله ـ عزّ وجلّ ـ عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله، وامتحاناً لعباده، ليتميز المحققون من أهل الحشو[2]، فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوي: هو أثر العين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]، الآية، وعن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَعُوذ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ فَيَقُولُ: أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ... مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ» (٧٩٠)، ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءاً، لم ينفعكم، ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: متفرقين، ﴿مَّا

---

٧٩٠ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٦١) كتاب أحاديث الأنبياء باب (١٠) حديث (٣٣٧١) وأبو داود (٤/ ٢٣٥) كتاب السنة: باب في القرآن حديث (٤٧٣٧) والترمذي (٤/ ٣٩٦) كتاب الطب: باب (١٨) حديث (٢٠٦٠) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠٦، ١٠٠٧) وابن ماجه (٢/ ١١٦٤) كتاب الطب: باب ما عوذ به النبي ﷺ حديث (٣٥٢٥) وأحمد (١/ ٢٣٦، ٢٧٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٨، ١٠/ ٣١٥) وابن حبان (١٠١٢، ١٠١٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري وأصحاب السنن من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه. انتهى.

---

(١) قوله: «كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم» في الصحاح: الشارة: اللباس والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر، أي وضح. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس (ع).

(٢) قوله: «ليتميز المحققون من أهل الحشو» إن كان مراده أهل السنة، فهم يقولون: تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، كربط النار بالإحراق، فالسبب مؤثر في الظاهر، والله هو الفاعل في الحقيقة. قال النسفي: وأنكر الجبائي العين اهـ وهو من مشايخ المعتزلة (ع).

كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾: رأي يعقوب ودخولهم متفرّقين شيئاً قط؛ حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾: استثناء منقطع، على معنى: ولكن حاجة، ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾: وهي شفقته عليهم، وإظهارها/ ١٧٣أ بما قاله لهم ووصاهم به، ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعني قوله: (وما أُغني عنكم)، وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾

﴿ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله، قال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده؟ فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه، وعانقه، وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾: يوسف، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: بنا فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك، وعن ابن عباس: تعرّف إليه، وعن وهب: إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتهيأ لي ردّك بعد تسريحك معهم، قال: افعل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾

﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: مشربة يسقى بها وهي الصواع، قيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة مموّهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: ثم نادى مناد، يقال: آذنه أعلمه، وأذن: أكثر الإعلام، ومنه المؤذن؛ لكثرة ذلك منه، روي: أنهم ارتحلوا، وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك، والعير: الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير: أي: تذهب وتجيء، وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة: عير، كأنها جمع عير، وأصلها: فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل ببيض وعيد[1]، والمراد: أصحاب العير؛ كقوله: يا خيل الله اركني، وقرأ ابن مسعود: «وجعل السقاية»: على حذف جواب لما، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم، وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «تفقدون»: من أفقدته إذا وجدته فقيداً، وقرئ: صواع، وصاع، وصوع، وصوع: بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾: يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيل، أُؤدّيه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿تَٱللَّهِ﴾: قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم؛ وإنما قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾: فاستشهدوا بعلمهم، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرّتي مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة[2]؛ لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: وما كنا قط نوصف بالسرقة، وهي منافية لحالنا.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير: للصواع، أي: فما جزاء سرقته، ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾: في

---

(١) قوله: «ما فعل ببيض وعيد» لعله: وغيد، بإعجام الغين، وهو جمع غيداء أي ناعمة. أو أغيد، بمعنى وسنان مائل العنق، كذا في الصحاح، فليحرر لفظ المصنف (ع).

(٢) قوله: «وأفواه رواحلهم مكعومة» يقال: كعمت البعير، إذا شددت فمه بالكعام، وهو شيء يجعل في فم البعير عند هياجه، كذا في الصحاح. (ع)

جحودكم وادّعائكم البراءة منه، ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة؛ فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير؛ كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أي: فهو حقه؛ لتقرّر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه[1]، ويجوز أن يكون: (جزاؤه): مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأوّل: إلى من، والثاني: إلى الأخ، ثم نقول: «فهو أخوه»: مقيماً للمظهر مقام المضمر، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، أي: المسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو جزاؤه، كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[2] [المائدة: ٩٥].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾: قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين؛ لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه، فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله، لا تتركه حتى تنظر في رحله؛ فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه، وقرأ الحسن: «وعاء أخيه»: بضم الواو، وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير: «إعاء أخيه»: بقلب الواو همزة.

فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنّثه؟

(١) قوله: «من استحقاقه وتلزمه. ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ» سيذكر أن حكم السارق في دين ملك مصر: أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهو متكلف، إذ تصير الجملة من قوله: «المسؤول عنه جزاؤه»، على هذا التقدير ليس فيه كبير فائدة، إذ قد علم من قوله: «فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥ»، أَنَّ الشيء المسؤول عنه جزاء سرقته، فأي فائدة في نطقهم بذلك، وكذلك القول في المثال الذي مثل به من قول المستفتي». قُلْتُ: قوله: «ليس فيه كبير فائدة» ممنوع، بل فيه فائدة الإضمار المذكور في علم البيان، وفي القرآن أمثال ذلك. انتهى. الدر المصون.

قلت: قالوا: رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع؛ لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعاً، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا﴾: مثل ذلك الكيد العظيم كدنا، ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد، ﴿إلا أن يشاء الله﴾/ ١٧٣ب أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: «يرفع»: بالياء، ودرجات بالتنوين، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: فوقه أرفع درجة منه في علمه، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وعلا.

فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾؟

قلت: هو في صورة البهتان، وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾: تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: (إن كنتم كاذبين)؛ فرض لانتفاء براءتهم، وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً، على أنه لو صرَّح لهم بالتكذيب، كما صرّح لهم بالتسريق، لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية؛ كقوله ـ تعالى ـ لأيوب ـ عليه السلام ـ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤]، ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: هي أختي؛ لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله ـ تعالى ـ في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة، فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَخٌ لَّهُۥ﴾: أرادوا يوسف؛ روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين، نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسوّدت وجوهنا، يا بني راحيل، ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا

يزال منكم عليهم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة، فقيل: كان أخذ في صباه صنماً لجدّه أبي أمّه، فكسره، وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل، وقيل: كانت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ منطقة يتوارثها أكابر ولده، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف ـ وهي عمته ـ بعد وفاة أمّه، وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ، أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، وقالت: فقدت منطقة إسحاق. فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت، ﴿فَأَسَرَّهَا﴾: إضمار على شريطة التفسير، تفسيره: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ وإنما أنث لأنّ قوله: (أنتم شر مكاناً): جملة أو كلمة، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أنت شرٌ مكاناً﴾، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً؛ لأنّ قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾: بدل من أسرَّها، وفي قراءة ابن مسعود: «فأسرَّه»: على التذكير، يريد القول أو الكلام، ومعنى: (شر مكاناً): أنتم شر منزلة في السرق؛ لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أخاكم من أبيكم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر، وأنّ بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان(١)، وأنه مستأنس بأخيه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾: فخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: إلينا فأتمم إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاجرِ على عادتك ولا تغيرها.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾: هو كلام موجه، ظاهره: أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد

---

(١) قوله: «قد هلك وهو عليه ثكلان» أي حزين أسيف على فقد ولده (ع).

الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه: إنّ الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي، ومعنى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾: نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من، و﴿إِذًا﴾: جواب لهم وجزاء؛[1] لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾: يئسوا، وزيادة السين والتاء في المبالغة؛ نحو: ما مرّ في استعصم، و«النجي»: على معنيين: يكون بمعنى: المناجي، كالعشير والسمير بمعنى: المعاشر والمسامر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]؛ وبمعنى المصدر الذي هو التناجي، كما قيل: النجوى، بمعناه، ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ١٧]؛ تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجى؛ كما قيل: هم صديق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية؛ قال [من الرجز]:

إنّـي إذا مـا الـقـومُ كـانـوا أنـجـيَـهْ[2]

---

(١) قوله: «وإذاً جواب لهم وجزاء، أي لقولهم ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ (ع).

(٢) إنـي إذا مـا الـقـوم كـانـوا أنـجـيـه | واضـطـرب القـوم اضـطراب الأرشيـه
وشـد فـوق بـعـضـهـم بـالأرويـه | هـنـاك أوصـيـنـي ولا تـوصـي بـيـه

من أبيات الحماسة. و«ما» زائدة. والأنجية. جمع نجي بمعنى المناجي، كالسمير والجليس والعشير، بمعنى المفاعل. أو النجي: مصدر كالدوي والأزيز والنشيج والنئيج والصهيل، كلها أنواع من الصوت، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت: إنه جمع نجاء مصدر ناجاه، كقتال مصدر قاتله لجاز، وكان كالأرشية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء، والأروية جمع رواء وهو حبل الارتواء والاستقاء أيضاً، أي: كانوا فرقاً متناجين ومتشاورين فيما نزل بهم واضطربوا قياماً وقعوداً وذهاباً وإياباً، كاضطراب الأرشية على الماء. ويروى: واضطربت أعناقهم كالأرشية. وشد: مبني للمجهول، أي: شد بعضهم بعضاً وشمره وحزمه بحبال الاستقاء، كناية عن استعدادهم للحرب. ويبعد كونه كناية عن الاستعداد للاستقاء في الزمن الجدب هناك، أي: في ذلك الزمان أو المكان. قيل: أو فيهما أكون شجاعاً صبوراً، فأوصيني بغيري ولا توصي غيري بيه. وظاهر البيت جواز الإخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك، بل هو على التأويل كما ترى. والخطاب لمؤنثة. ويجوز: أنه لمذكر. وثبوت الياء في الفعلين للإشباع. والهاء في «بيه» للسكت. فهذا كناية عن =

ومعنى ﴿وَأَخْلَصُوا﴾: اعتزلوا وانفردوا عن الناس، خالصين لا يخالطهم سواهم، ﴿نَجِيًّا﴾: ذوي نجوى، أو فوجاً نجيا، أي: مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً، وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً؛ لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، على أيّ صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور، ﴿كَبِيرُهُمْ﴾: في السنّ وهو روبيل، وقيل: رئيسهم وهو شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو يهوذا، ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: فيه وجوه: أن تكون «ما»: صلة،/ ١٧٤أ أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو (من قبل)، ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف، أو النصب عطفاً على مفعول: (ألم تعلموا)، وهو: (أن أباكم)؛ كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف[1]، وأن تكون موصولة بمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه، أي: قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة، ومحله: الرفع أو النصب على الوجهين، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾: فلن أفارق أرض مصر، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾: في الانصراف إليه؛ ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾:

= شجاعته وتجلده. أو كناية عن كرمه على البعد.

البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي. ينظر: اللسان والصحاح «نجا»، أساس البلاغة ٤٤٨، وجمهرة اللغة ص ٢٣٥، ٨٠٩، وخزانة الأدب ١٠/ ٢٤٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٥٦، وشرح شواهد المغني ٩١٤، المغني ٢/ ٥٨٥، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٥، وروح المعاني ١٣/ ٣٥، ومعاني الزجاج ٣/ ١٢٤، والبحر المحيط ٥/ ٣٣١، والدر المصون ٤/ ٢٠٥.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا الذي ذهبا إليه ليس بجيد، لأنَّ فيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف الذي هو على حرف واحد، وبين المعطوف، فصار نظير» ضربتُ زيداً وبسيفٍ عمراً وقد زَعَمَ أبو علي الفارسي: «أنه لا يجوز ذلك إلاّ في ضرورة شعر». قُلْتُ: أيضاً هذا الردُّ سبقه إليه أبو البقاء، ولم يرتضه، فقال: وقيل هو ضعيف، لأن فيه الفصل بين حرف العطف والمعطوف، وقد بينا في سورة النساء أن هذا ليس بشيء. قُلْتُ: يعني أن منع الفصل بين حرف العطف والمعطوف ليس بشيء. وقد تقدم إيضاح ذلك وتقريره في سورة النساء كما أشار إليه أبو البقاء.

ثم قال الشيخ: وأما تقدير الزمخشري: «وتفريطكم من قبل في يوسف، فلا يجوز، لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بحرف مصدري والفعل عليه، وهو لا يجوز». قُلْتُ: ليس في تقدير الزمخشري شيء من ذلك لأنه لما صرح بالمقدر أخر الجارين والمجرورين عن لفظ المصدر المقدر، كما ترى، وكذا هو في سائر النسخ، وكذا ما نقله الشيخ عنه بخطه، فأين تقديم المعمول على المصدر؟، ولو رد عليه وعلى ابن عطية بأنه يلزم من ذلك تقديم معمول الصلة على الموصول لكان ردا واضحاً، فإنّ «مِنْ قَبْلُ» متعلق بـ«فَرَّطتُمْ» وقد تقدم على «مَا» المصدرية، وفيه خلاف مشهور. انتهى. الدر المصون».

بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

وقرئ: (سُرِّق) أي: نسب إلى السرقة، ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾: عليه بالسرقة، ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾: من سرقته[1] وتيقناه؛ لأنّ الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق[2]، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ومن قرأ: (سرِّق)، فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي حافظين، أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: هي مصر، أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾: وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، وقيل: من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم، فقالوا له ما قال لهم أخوهم: فـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ

---

(١) قال محمود: «معناه وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقته... إلخ» قال أحمد: إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذاً. وإما أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرد وجوده في رحله لا يوجب علم كونه سارقاً. وغايته أن يفيد ظنا بيناً، فيكون المراد بالعلم ههنا الظن. وقد ورد مثله، ويكون قولهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال. وأما كشف باطن الأمر الموجب للعمل فليسوا يدعونه عليه.

(٢) عاد كلامه. قال: «وقولهم ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ معناه: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق... إلخ» قال أحمد: وإنما تلتئم القراءتان على التأويل الذي ذكرته، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظنا بمقتضى ظاهر الحال، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا: وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه. وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنتظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة علماً. ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أردتموه[1]، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم، ﴿بِهِمْ جَمِيعًا﴾: بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾: بحالي في الحزن والأسف، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: وأعرض عنهم؛ كراهة لما جاؤوا به، ﴿يا أسفي﴾: أضاف الأسف وهو أشدّ الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع، ونحوه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النمل: ٢٢]، ﴿من سبإ بنبإ﴾[2] [النمل: ٢٢] وعن النبي ﷺ: «لَمْ تُعْطَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَم ـ إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ـ عِنْدَ المُصِيبَةِ إلا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٧٩١)، ألا ترى إلى

---

٧٩١ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٢٧)، والطبري في تفسيره (٧/ ٢٧٥) رقم (١٩٦٦٤)، =

---

(١) قال محمود: «إن هذا شيء أردتموه... إلخ» قال أحمد: وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كأن قائلاً يقول: هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءاً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط في الجواب فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد. ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصاً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم. وقوله لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول، والله المستعان.

(٢) قال السمين الحلبي: قلت: ويسمى هذا النوع «تجنيس التصريف»، وهو أن تشترك الكلمتان في =

يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع؛ وإنما قال يا أسفي».

فإن قلت: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً؟

قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا [من الطويل]:

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده .... (١)

ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾: إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً، قرئ: «من الحزن»، «ومن الحزن»، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض،

= والبيهقي في شعب الإيمان (١١٧/٧) رقم (٩٦٩١)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٠/١٢) حديث رقم (١٢٤١١).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً، وأخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد. ورواه: عبد الرزاق من طريق الطبري عن الثوري عن سفيان عن زياد المعصفري عن سعيد بن جبير، أقول: وكذا رواه البيهقي في الشعب من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء. انتهى.

= لفظ ويفرق بينهما بحرف ليس في الأخرى. انتهى الدر المصون.

(١) تعزيت عن أوفى بغيلان بعده ... عزاء وجفن العين ملآن مترع
فلم تنسني أوفى المصيبات بعده ... ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

لهشام بن عقبة العذري، يرثي أخاه ذي الرمة، واسمه غيلان بن عقبة. ويرثي أوفى بن دلهم. وقيل: يرثي أخويه. يقول: تعزيت أي تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده، أي نابني ما يوجب النسيان الأول ولم أنسه، والحال أن جفن عيني ممتلئ بالدموع. أو المعنى: تكلفت التسلي فلم أقدر. ويقال: أترع الحوض إذا ملأه بالماء في المترع توكيد. ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والإتراع تخييل، فلم تنسني أوفى المصيبات التي أصابتني بعده موت أخي غيلان، ولكن زادتني حزناً على حزني. والقرح: الجرح إذا اندمل ويبست جلبته. والنكاء: كشط تلك الجلبة. ويروى: ولكن نكأ بتشديد النون. والنكأ: التي منها وزن الضرب، فشبه حال مصيبته الأولى التي طرأ عليها غيرها فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التمثيلية، أي: ولكن نكأ القرح أوجع به من الحالة الأولى. وأظهر محل المضمر لإظهار التوجع والتفجع. أو المعنى: ولكن نكأ القرح الأول بقرح غيره أوجع بالإنسان مما كان، فبالقرح متغلق بأوجع، أو بنكاء.

ينظر: أساس البلاغة (نكأ)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة (ص ١١٠٥).

فكأنه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل ـ عليه السلام ـ: «مَا بَلَغَ مِنْ وَجْدِ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ؟ قَالَ: وَجْدَ سَبْعِينَ ثَكْلَىٰ، قَالَ: فَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ؟ قَالَ: أَجْرُ مائة شَهِيدٍ، وَمَا سَاءَ ظَنُّهُ بِالله سَاعَةً قَطُّ» (٧٩٢).

فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

قلت: الإنسان مجبول على ألاَّ يملك نفسه عند الشدائد من الحزن؛ ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «القَلْبُ يَجْزَعُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَلا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ» (٧٩٣)؛ وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ أنه بكى على ولد بعض بناته، وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْبُكَاءِ؛ وَإِنَّمَا نَهَيْتُكُم عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ: صَوْتٌ عِنْدَ الفَرَحِ، وَصَوْتٌ عِنْدَ التَّرَحِ» (٧٩٤)؛ وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك، فقال: ما

---

٧٩٢ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٨١) رقم (١٩٧٢٤).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده مرفوعاً. وأخرجه الطبري من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصري أنه قيل له: ما بلغ.. فذكره.

٧٩٣ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٦) «كتاب الجنائز» «باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» حديث رقم (١٣٠٣)، ومسلم (٨/ ٨٢) نووي «كتاب الفضائل»، «باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه حديث رقم (٢٣١٥).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه من حديث أنس.

٧٩٤ ـ أخرجه التِّرمذي (٣/ ٣١٨) «كتاب الجنائز»، «باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت»، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٢٩) حديث رقم (٩٧٣٧).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
قال المخرج عزاه الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب. ولم يرد هذا في ولد بعض بناته، وإنما ورد في ولده إبراهيم؛ كما أخرجه التِّرمذي وابن أبي شيبة وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر. وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف نحوه. والذي ورد في بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة، وفيه: «ففاضت عيناه فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده»، قلت: والأول إنما هو بلفظ: «قال عبد الرحمن بن عوف: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين: صوت عند مصيبة، وخمش وجوه، ورنة شيطان، وشق جيوب. وصوت نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان». انتهى.

رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: فهو مملوء من الغيظ[1] على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم، فعيل بمعنى: مفعول؛ بدليل قوله: (وهو مكظوم): من كظم السقاء إذا شدّه على ملئه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿تَفْتَؤُا۟﴾ أراد: لا تفتؤ، فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون؛ ونحوه [من الطويل]:

فَقُلْتُ: يَمِينَ الله أَبْرَحُ قَاعِداً ....[2]

ومعنى (لا تفتؤ): لا تزال، وعن مجاهد: لا تفتر من حبه، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين؛ يقال: ما فتئ يفعل؛ قال أوس [من الطويل]:

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي ... وَيَلْحَقُ مِنْهَا لاَحِقٌ وَتَقَطَّعُ[3]

---

(١) قوله: «فهو مملوء من الغيظ» أي الغضب الكامن. أفاده الصحاح. قوله: «ولا يظهر ما يسوؤهم» أي لما صنعوا بيوسف وأخيه (ع).

(٢) سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال
فقلت: يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

لامرئ القيس. يقول: سموت إلى محبوبتي سلمى بعد نوم أهلها، ولم يسمع لي أحد صوتاً، ولم تشعر بي هي إلا وأنا عندها، كسمو حباب الماء فوقه بسهولة. وحباب الماء ـ بالضم: اسم لثعبان الماء. وحباب الماء ـ بالفتح ـ: فقاقعه التي تعلوه. وقوله: «حالاً على حال» واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه، أي: حالاً منطبقاً على حال ومساوياً له، كقولك «سواء بسواء» وههنا حذف، أي: فخوفتني بالقوم، فقلت: يمين الله أبرح، أي: لا أبرح قاعداً. وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس، ولأنه لولا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أو بهما. ويمين: نصب بمحذوف، أي أحلف يمين الله، فهو كالمصدر النائب عن فعله. وبقية القصة تقدمت.

ينظر: ديوانه (١٢٥)، شواهد الكتاب ٣/ ٥٠٤، وأوضح المسالك ١/ ١٦٣، والخصائص ٢/ ٢٨٤، والدرر ٢/ ٤٢، والدر المصون ١/ ٤٦٢، فتح القدير ٣/ ٥٠.

(٣) لأوس بن حجر، وكنى بالخيل عن أصحابها. ويقال: ثاب وثوب، إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد. وتدعي: تفتعل من الدعاء أي يدعو بعضهم بعضاً. ويحتمل أن تثوب بمعنى ترجع، أي تذهب وترجع. ومعنى «تدعي» تلاحق وينتسب بعضها إلى بعض مجازاً، فيجوز أن الخيل حقيقة. أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية، والادعاء بمعنى التنادي تخييل، وهذان الوجهان أنسب بقوله: «ويلحق» أي يسبق منها سابق. وتقطع: أي تتقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعاً قطعاً، فهي تجتمع وتفترق: صور الحرب من أولها إلى آخرها في هذا البيت، أي: فما زالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب.

ينظر: ديوانه (٥٨)، مجاز القرآن ١/ ٣١٦، والجمهرة ٣/ ٢٨٧، تفسير غريب القرآن ٢٢١، البحر ٥/ ٣٢٤، الطبري ١٣/ ٢٨، الدر المصون ٤/ ٢٠٩.

﴿حَرَضًا﴾: مشفياً على الهلاك مرضاً، وأحرضه المرض، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر، والصفة: حَرِض: بكسر الراء، ونحوهما: دنف ودنف، وجاءت القراءة بهما جميعاً، وقرأ الحسن: «حرضاً»: بضمتين؛ ونحوه في الصفات: رجل جنب وغرب.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

البث: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيبثه إلى الناس، أي: ينشره، ومنه: باثه أمره، وأبثه/ ١٧٤ب إياه، ومعنى ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ﴾: إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم؛ إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم، أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جارٌ له فقال: يا يعقوب، قد تهشمت، وفنيت، وبلغت من السن ما بلغ أبوك! فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب، خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. وروي أنه أوحى إلى يعقوب: إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة، فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها فبكت حتى عميت، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، وروي أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حيّ فاطلبه، وقرأ الحسن: «وَحَزَني»: بفتحتين، «وحُزُني»: بضمتين: قتادة.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم، كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] ومن الجس، وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الحواس، والجواس، ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقتادة: «من روح الله»: بالضم، أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ٱلضُّرُّ﴾: الهزال من الشدّة والجوع، ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾: مدفوعة يدفعها كل تاجر؛ رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب، قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾: الذي هو حقنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة؛ لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك؟ فقال: ألم تسمع: (وتصدّق علينا) أراد: أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكنوا له، وطلبوا إليه أن يتصدّق عليهم، ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾: شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تبتغى بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن ـ لمن سمعه يقول: اللهم تصدق عليّ: ـ إن الله تعالى لا يتصدق؛ إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم، أعطني، أو تفضل عليّ، أو ارحمني.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم﴾: أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً[(١)]، فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح: ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾: لا تعلمون قبحه؛ فلذلك أقدمتم عليه، يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم، وتنصحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً؛ إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور[(٢)]، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها[(٣)]، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها، وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم؛ لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل[(٤)]، سماهم جاهلين، وقيل: معناه: إذ

---

(١) قال محمود: «أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح. . . إلخ» قال أحمد: ومن تلطفه بهم قوله ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذراً كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً وأنا من الضالين.

(٢) قوله: «وينفث المصدور. . . إلخ» المصدور: الذي يشتكي صدره. والمحنق: المغيظ. والموتور: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، كذا في الصحاح (ع).

(٣) قوله: «ما أوطأها وأسجحها» أي ما أسهلها وما أرفقها، أفاده الصحاح. وفيه: فلان ذو حصاة، أي ذو عقل ولب، فحصا عقولهم: إضافة بيانية (ع).

(٤) قوله: «ولا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المعنى لأن قوله: «لم يفعلوا. . . إلخ» بمعنى =

أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، روي أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسْحَاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر، أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدّي فشدّت يداه ورجلاه، ورمي به في النار ليحرق، فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي: فوضع السكين على قفاه ليقتل، ففداه الله، وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمّه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا، وقالوا: إنه سرق، وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام»، فلما قرأ يوسف الكتاب، لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك، وروي أنه لما قرأ الكتاب، بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟

قلت: تعريضهم إياه للغم والثكل[1] بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قرئ: (أئنك): على الاستفهام، «وأنك»: على الإيجاب، وفي قراءة أبيّ: «أئنك أو أنت يوسف»: على معنى: أئنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب/ ١٧٥أ مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات.

فإن قلت: كيف عرفوه؟

قلت: رأوا في روائه[2] وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم

= فعلوا مالا يقتضيه العلم (ع).

والثكل: فقدان المرأة ولدها، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن (ع).

قوله: «قلت رأوا في روائه» بالضم، أي منظره. أفاده الصحاح (ع).

بأنّ ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء.

فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم.

قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه، ﴿مَن يَتَّقِ﴾: من يخف الله وعقابه، ﴿وَيَصْبِرْ﴾: عن المعاصي وعلى الطاعات، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾: أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير؛ لاشتماله على المتقين والصابرين، ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين، وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزّك بالملك وأذلنا بالتمكن بين يديك، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾: لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب: من الثرب، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع[1]؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه.

فإن قلت: بم تعلق اليوم؟[2].

قلت: بالتثريب، أو بالمقدر في: (عليكم)، من معنى الاستقرار، أو بيغفر، والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك: على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشمت: «يهديكم الله ويصلح بالكم»، و(اليوم يغفر الله لكم): بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم، وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش: «مَا تَرَونَنِي فَاعِلاً بِكُمْ؟» قَالُوا: نَظُنُّ خَيراً، أَخٌ كَرِيمٌ وَٱبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وقد

---

(١) قوله: «والقرع» في الصحاح «القرع» بالتحريك: بثر أبيض، يخرج بالنصال. والتقريع: معالجة الفصيل من القرع، ينزع ذلك منه (ع).

(٢) قال: «فإن قلت بم تعلق اليوم في قوله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾... إلخ»؟ قال أحمد: وهذا المعنى إنما يتوجه على الإعراب الأول وهو الأوجه. ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ وقوله (سوف أستغفر لكم ربي) دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بيغفر للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ بأخبار النبي الصديق. ويحتمل أن يقال: إنما أراد مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم.

قدرت، فقال: «أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ» (٧٩٥)، وروي أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، ففعل، فقال رسول الله ﷺ «غَفَرَ الله لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ» (٧٩٦). ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه: إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم، فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون؛ حيث علم الناس أنكم إخوتي، وأني من حفدة إبراهيم، ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة، أمره جبريل ـ عليه السلام ـ أن يرسله إليه؛ فإنّ فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلي ولا سقيم إلا عوفي، ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: يصر بصيراً؛ كقولك: جاء البناء محكماً، بمعنى: صار، ويشهد له: (فارتدّ بصيراً)، أو: يأت إليّ وهو بصير؛ وينصره قوله: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يأتني أبي، ويأتني آله جميعاً، وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر[1] من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل

---

٧٩٥ ـ أخرجه النّسائي (٦/ ٣٨٢) رقم (١١٢٩٨)، وذكره البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٥٨)، وأخرجه ابن هشام في السيرة (٤/ ٣٤) رقم (١٦٨١).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه النّسائي والبيهقي من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبي هريرة وأتم منه، وأخرجه الثعلبي من رواية سمعان عن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه، وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، وقال فيه: «قدرت فاسمح»، وكذا أخرجه الواقدي في المغازي من حديث برة بنت تجراة، ورواه أبو عبيد في الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبدالرحمن بن أبي حسين. انتهى.
٧٩٦ ـ أخرجه ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار وقال: غريب جدا.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده.

---

(١) قوله: «وهو حاف حاسر» أي لا مغفر له ولا درع، أفاده الصحاح (ع).

منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير، ﴿قَالَ﴾: لولد ولده ومن حوله من قومه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: أوجده الله ريح القميص؛ حين أقبل من مسيرة ثمان، والتفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾: لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتك ليوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات، ﴿أَلْقَاهُ﴾: طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾: فرجع بصيراً، يقال: ردّه فارتد، وارتده إذا ارتجعه، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني: قوله: (إني لأجد ريح يوسف)، أو قوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾: كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، روي: أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهمّ، اغفر لي جزعي على يوسف، وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو، فلا قرّت لنا عين أبداً، /
١٧٥ب فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة، حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: «إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة، وقد اختلف في استنبائهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي

حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ولدك، فلما لقيه، قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت، بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف، ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾: ضمهما إليه واعتنقهما، قال ابن أبي إسْحاق: كانت أمّه تحيى، وقيل: هما أبوه وخالته، ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين؛ لأنّ الرابة تدعى أمّا؛ لقيامها مقام الأمّ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب، ومنه قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب(١) أو بيت ثم، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ولما دخل مصر، وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين، ﴿سُجَّدًا﴾، ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة، فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر.

فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟

قلت: بالدخول مكيفاً بالأمن؛ لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفاً بهما، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء؛ لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال، ومن بدع التفاسير أن

(١) قوله: «في مضرب» عبارة النسفي: مضرب خيمة (ع).

قوله: (إن شاء الله): من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾: في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟

قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوها مما جرت عليه عادة الناس، من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجداً يأباه، وقيل: معناه: وخرّوا لأجل يوسف سجداً لله شكراً، وهذا ـ أيضاً ـ فيه نبوة، يقال: أحسن إليه وبه؛ وكذلك أساء إليه وبه؛ قال [من الطويل]:

أَسِيـئِـي بِـنَـا أَوْ أَحْـسِـنِـي لاَ مَـلُـومَـةً ....(1)

﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد، وأصحاب مواش، ينتقلون في المياه والمناجع، ﴿نَّزَغَ﴾: أفسد بيننا وأغرى، وأصله: من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري، يقال: نزغه ونسغه: إذا نخسه، ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾: لطيف التدبير لأجله، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي أن يوسف أخذ بيد يعقوب، فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بنيّ، ما أعقك: عندك هذه القراطيس، وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل ـ عليه السلام ـ: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: فهلا خفتني؟ وروي أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبيّ قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً(2)، وولد له: إفرائيم وميشا، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم

---

(1) تقدم.
(2) قوله: «ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً» في الصحاح: الناس في هذا الأمر شرع، أي سواء، يحرك ويسكن (ع).

على بقايا دين يوسف وآبائه، إلى أن بعث الله موسى، ﷺ.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

«من» في: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، و﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: للتبعيض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾: أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير/ ١٧٦أ والحسنى، كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده، فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يديك خيراً كثيراً: أحييت سنناً، وأمت بدعاً، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره، قال: «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين».

فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟

قلت: على أنه وصف لقوله: (رب)؛ كقولك: أخا زيد حسن الوجه، أو على النداء.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء، وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: خبر إنّ، ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى: الذي، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: صلته و(نوحيه): الخبر، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر؛ كقوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم، وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة، أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية، ونحوه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾: بيوسف، ويبغون له الغوائل.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾: يريد العموم؛ كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أراد أهل مكة، أي: وما هم بمؤمنين، ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾: وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم، ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾: على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾: عظة من الله، ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾

﴿مِّنۡ ءَايَةٖ﴾: من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾: ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها، وقرئ: (والأرض): بالرفع على الابتداء، ويمرون عليها: خبره، وقرأ السدّي: (والأرض): بالنصب على: ويطؤون الأرض يمرّون عليها، وفي مصحف عبد الله: «والأرض يمشون عليها»: برفع الأرض، والمراد: ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾

﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم﴾: في إقراره بالله، وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب، معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

﴿غَٰشِيَةٞ﴾: نقمة تغشاهم، وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾: هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق: يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، أي: ادعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء، و﴿أَنَا۠﴾: تأكيد للمستتر في: (أدعو)، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: عطف عليه، يريد: أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعني، ويجوز أن يكون: (أنا): مبتدأ، و(على بصيرة): خبراً مقدّماً، و(من اتبعني): عطفاً على (أنا): إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان، لا على هوى، ويجوز أن يكون (على بصيرة): حالاً

من (أدعو): عاملة الرفع في: (أنا ومن اتبعني)، ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: وأنزهه من الشركاء[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾: لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل: في سجاح المتنبئة [من البسيط]:

.... وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللهِ ذُكْرَانَا[2]

وقرئ: «نوحي إليهم»: بالنون[3]، ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل، والجفاء والقسوة، ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: ولدار الساعة، أو الحال الآخرة، ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾: للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه، وقرئ: «أفلا تعقلون»: بالتاء والياء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

---

(١) قوله: «وأنزهه من الشركاء» لعله «عن» (ع).

(٢)
أضحت نبيتنا أنثى نساء بها ... ولم تزل أنبياء الله ذكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت ... أصداؤه ماء مزن حيثما كانا

لقيس بن عاصم. ويروى: نطيف بها، بدل نساء بها. وطاف به يطوف: دار حوله. وطاف به يطيف: أتى عليه ونزل به. وهذا مبني للمجهول منه، عطف على أضحت. ويروى بدل الشطر الأول، فما سمعت بأنثى قط أرسلها، فالفاعل ضمير الله وإن لم يتقدم له مرجع لظهوره. ويروى بدل الثاني: وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا. وسجاح: علم امرأة من سجح إذا سمح وعفا، وهي بنت المنذر، كانت شريفة في قومها بني حنيفة، فادعت النبوة، ثم تزوجت بمسيلمة الكذاب فاتبعه قومها، ثم حاربه أبو بكر رضي الله عنه فقتل على يدي وحشي قاتل حمزة، فأسلمت بعده وحسن إسلامها. ويروى «باللؤم» بدل الإفك. ولا سقيت: جملة دعائية. والأصداء: جمع صدي، وهو ذكر البوم: كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة تزقو وتصيح: أدركوني أدركوني، حتى يؤخذ بثأره، وهي هنا مجاز عن جثته كلها. والمزن واحده مزنة وهو السحاب، أي: اللهم اجعل قبره حارا عليه لا يناله غيث.

(٣) قوله: «وقرئ ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ بالنون مبنيا للمعلوم؛ فتكون القراءة الأصلية بالياء، مبنيا للمجهول (ع).

﴿حَتَّىٰٓ﴾: متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾: فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي: كذبتهم أنفسهم[1]، حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق، ورجاء كاذب، والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر[2]، وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظنّ: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأمّا الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله/ ١٧٦ب الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، منزه عن كل قبيح؟ وقيل: وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، أي: أخلفوا، أو: وظنّ المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدّقوهم فيه، وقرئ: «كذّبوا»: بالتشديد على: وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: «كَذَبوا»: بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إمّا على تأويل ابن عباس، وإمّا على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، ولو قرئ بهذا مشدّداً، لكان معناه: وظنّ الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم، قرئ: «فننجي»: بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه، «وفنجى»: على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن: «فنجا»، والمراد بـ ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم، وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

---

(١) قال محمود: «معناه يئسوا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم... إلخ» قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لا عن إخبار ووحي.

(٢) عاد كلامه. قال: «ونقل عن ابن عباس أنه قال: فظنوا حين ضعفوا وغلبوا... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً تأويل حسن ينظم بين القراءتين؛ لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

الضمير في ﴿قَصَصِهِمْ﴾: للرسل؛ وينصره قراءة من قرأ: ﴿فِي قِصَصِهِمْ﴾: بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ فيمن قرأ بالكسر؟

قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: قبله من الكتب السماوية، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، وانتصاب ما نصب بعد: (لكن): للعطف على خبر كان، وقرئ: (ذلك): بالرفع على: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا أَرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَإِنَّهُ أَيُّمَا مُسْلِمٍ تَلاهَا وَعَلَّمَها أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ أَلا يَحْسِدَ مُسْلِماً» (٧٩٧).

---

٧٩٧ ـ ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٦) في تفسير سورة يوسف، وقال الزيلعي: رواه الثعالبي في تفسيره عن أُبَيّ بن كعب وهو حديث ضعيف، وعزاه الزيلعي لابن مردويه في تفسيره بسنديه المذكورين في آل عمران، وللواحدي في تفسيره الوسيط بسنده المذكور في سورة يونس، وينظر حديث (٣٤٦).

وقال الحافظ: تقدم إسناده في تفسير آل عمران وهو في آخر آل عمران، وفي آخر الكتاب أيضاً. انتهى.

سُورَةُ الرَّعْدِ

[مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ] مُخْتَلَفٌ فِيهَا

وَهِيَ ثَلاثٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ مُحَمَّدٍ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة، أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، من القرآن كله، هو: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الذي لا مزيد عليه، لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية: هم كالحلقة[1] المفرعة، لا يدرى أين طرفاها؟ تريد الكملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: خبره؛ بدليل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: خبر بعد خبر؛ وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات، ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد، ويعضده قراءة أبيّ: «ترونه»، وقرئ: «عمد»: بضمتين، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يدبر أمر ملكوته وربوبيته، ﴿يُفَصِّلُ﴾: آياته في كتبه المنزلة، ﴿لَعَلَّكُم تُوقِنُونَ﴾: بالجزاء، وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: «ندبر»: بالنون، ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يلبسه

---

(١) قوله: «الأنمارية هم كالحلقة» أي في أولادها (ع).

مكانه، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً، وقرئ: «يغشى»: بالتشديد.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة، طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة[1]، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية؛ وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها، وفي بعض المصاحف: «قطعاً متجاورات» على: وجعل، وقرئ: «وجنات»: بالنصب للعطف على زوجين، أو بالجرّ على كل الثمرات، وقرئ: «وزرع ونخيل»: بالجرّ عطفاً على أعناب أو جنات، والصنوان: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلهما واحد، وقرئ بالضم، والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس، ﴿تُسْقَىٰ﴾: بالتاء والياء، ﴿وَنُفَضِّلُ﴾: بالنون، وبالياء: على البناء للفاعل والمفعول جميعاً، ﴿فِي ٱلْأُكُلِ﴾: بضم الكاف وسكونها.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾: يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهنّ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب، ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾: إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول، وإذا نصب بما دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾/ ١٧٧أ: وصف بالإصرار؛ كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾؛ ونحوه [من البسيط]:

.... لَـهُـمْ عَـنِ الـرُّشْـدِ أَغْـلَالٌ وَأَقْـيَـادُ[2]

---

(١) قوله: «زهيدة» في الصحاح: واد زهيد قليل الأخذ للماء، وأرض زهاد: أي لا تسيل إلا عن مطر كثير (ع).

(١) ضلوا وإن سبيل الغي مقصدهم ... لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أو هو من جملة الوعيد.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب؛ استهزاء منهم بإنذارهم، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا، والمثلة: العقوبة: بوزن السمرة، والمثلة لما بين[1] العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه، والمثال: القصاص، وقرئ: (المثلات): بضمتين لإتباع الفاء العين، «والمَثْلات»: بفتح الميم وسكون الثاء، كما يقال: السمرة[2]، و«المُثْلات»: بضم الميم وسكون الثاء، تخفيف المثلات بضمتين، والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات[3]، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب، ومحله الحال، بمعنى: ظالمين لأنفسهم[4] وفيه أوجه: أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال، وروي أنها لما نزلت قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَوْلا عَفْوُ اللهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هَنَأَ أَحَدٌ العَيْشَ، وَلَوْلاَ وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ» (٧٩٨).

---

٧٩٨ ـ عزاه الزيلعي لابن أبي حاتم في تفسيره عن سعيد بن المسيب، وللثعالبي في تفسيره وهو مرسل، وللواحدي في تفسيره الوسيط. ينظر «تخريج الكشاف» (٢/١٨٣).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب: لما نزلت: ﴿وإن ربك لذو مغفرة...﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ ... فذكره.

= سبيل الغي: مجاز عما هم عليه من الأحوال الخبيثة. والغل: ما تشد به اليد إلى العنق والقيد للرجلين «وهما مجاز عن الغفلة واتباع رأي النفس». يقول: سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق الهدى.
ينظر: البحر المحيط ٣٥٩/٥، والألوسي ١٠٥/١٣، والرازي: ١٠/١٩.

(١) قوله: «المثلة لما بين» عبارة النسفي «والمثلة العقوبة لما بين... إلخ» (ع).
(٢) قوله: «كما يقال السمرة» لعله السمرة والسمرات (ع).
(٣) قوله: «كركبة وركبات» في الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات وركبات. وفي هامشه عن مرتضى: أي بسكون الكاف وضمها وفتحها، والراء مضمومة فيهن (ع).
(٤) قال محمود: «ومحل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم... إلخ» قال أحمد: والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد، فإن ظلمه أعني =

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقيل لرسول الله ﷺ: إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوّفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية، وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً[(١)] في آيات مخصوصة، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك؛ إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء، وهو الله تعالى، ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيراً ومصلحة، لأجابهم إليه، وأما على الوجه الثاني: فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأي طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾: يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً، وأن يكون المعنى: هو الله؛ تفسيراً لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، «وما» في (ما تحمل)، (وما تغيض)، (وما تزداد) إما: موصولة، وإما: مصدرية، فإن كانت موصولة، فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو، من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج[(٢)]، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة،

= شركه لا يغفر وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة. والزمخشري يبني على عقيدته التي وضح فسادها، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحداً إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسعاً، والله الموفق.

(١) قوله: «ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً» أي سواء، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «خداج» في الصحاح: خدجت الناقة خداجاً: ألقت ولدها قبل تمام الأيام، فهي خادج، وهو خديج، وأخدجت: إذا جاءت به ناقص الخلق، فهو مخدج، وهو مخدج اهـ (ع).

ويعلم ما تغيضه الأرحام: أي تنقصه، يقال: غاض الماء وغضته أنا، ومنه قوله تعالى؛ ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، وما تزداده: أي: تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقي، وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد؛ فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة، ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه، ومنه جسد الولد؛ فإنه كان يكون تاما ومخدجاً، ومنه مدة ولادته؛ فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة، وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك، وقيل: إنّ الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين؛ ولذلك سمي هرماً، ومنه الدم؛ فإنه يقل ويكثر، وإن كانت مصدرية، فالمعنى: أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله، ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، على أنّ الفعلين غير متعدّيين؛ ويعضده قول الحسن: الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر، وعنه: الغيض الذي يكون سقطاً لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام، ﴿بِمِقْدَارٍ﴾: بقدر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه؛ كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾
لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

﴿وَسَارِبٌ﴾: ذاهب في سربه ـ بالفتح ـ أي: في طريقه ووجهه، يقال: سرب في الأرض سروباً، والمعنى: سواء عنده من استخفى: أي طلب الخفاء في مختبإ بالليل: في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد/ ١٧٧ب.

فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار[(١)]، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو

(١) قال محمود: «إن قلت كان من حق الكلام أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار... إلخ» قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجها آخر: وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية. والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن =

مستخف وسارب.

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنّ قوله: (وسارب): عطف على (من هو مستخف)، لا على (مستخف).

والثاني: أنه عطف على (مستخف)؛ إلا أن (من): في معنى الاثنين؛ كقوله [من الطويل]:

.... نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ[1]

كأنه قيل: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار، والضمير في ﴿لَهُۥ﴾: مردود على (من)؛ كأنه قيل: لمن أسرّ ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب، ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل: معتقبات، فأدغمت التاء في القاف؛ كقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: ٩٠]، بمعنى: المتعذرون،

= هو سارب بالنهار، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع، وخصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً، ومنه قوله تعالى ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ والأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة. ومنه [من الوافر]:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه وينصره، والله أعلم

(١) فبت أقد الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

فقلت له لما تكشر ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكان

تعال فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من ياذئب يصطحبان

أأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان؟

للفرزدق، يصف ذئباً أتاه في مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه، حال كونهما مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى، دلالة على تكرر إيقادها. وتكشر: أبدى أنيابه كالضاحك. وقائم سيفي: أي والحال أن مقبض سيفي بمكان عظيم من يدي، دلالة على الحرص والجراءة. تعال: أي أقبل إلي نتعاهد. ويروى تعش أي كل العشاء، فإن عاهدتني بعد ذلك والتزمت أنك لا تخونني: نكن مثل من يصطحبان يا ذئب. ومعنى «من» مثنى، فعاد عليه الرابط كذلك. والنداء. اعتراض بين الصلة والموصول. وأأنت: استفهام توبيخي. وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضاً. وأخيين: مصغر أخوين. واللبان: لبن المرأة خاصة. شبه الذئب والغدر بتوءمين نشآ معاً من صغرهما ترضعهما أم واحدة، دلالة على كمال التلازم والتآلف. وتسمية الذئب امرأ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه. وشبههما بالأخوين من نوع الإنسان، كما دل على ذلك لفظ اللبان؛ لأن التآلف فيه أكمل وأظهر منه في غيره.

ينظر: ديوانه (٦٢٨)، والكتاب ٢/٤١٦، وابن الشجري ٢/١١٣، والخصائص ٢/٤٢٢، والعيني ١/٤٦١، والهمع ١/٨٧، وابن يعيش ٢/١٣٢، و١٣٤، والأشموني ١/١٥٧، والمحتسب ١/٢١٩، ٢/١٤٥، والجمل (٣٤٣)، والدرر ١/٦٤ ـ ٦٥، والمغني (٤٠٤)، وارتشاف العزب ١/٥٣٩، ورغبة الآمل ٤/٥٥، والدر المصون ٢/٦٥.

ويجوز «معِقبات»؛ بكسر العين ولم يقرأ به[1]، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه، كما يقال: قفاء؛ لأنّ بعضهم يعقب بعضاً، أو: لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: هما صفتان جميعاً[2]، وليس (من أمر الله): بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله، أو يحفظونه من أجل أمر الله، أي: من أجل أنّ الله أمرهم بحفظه، والدليل عليه قراءة علي - رضي الله عنه - وابن عباس، وزيد بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة: «يحفظونه بأمر الله»، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب، بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب؛ كقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وقيل: المعقبات الحرس والجلاوزة[3] حول السلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله، أي: من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ: «له معاقيب»: جمع معقب أو معقبة، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير[4]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾: من العافية والنعمة، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: من الحال الجميلة بكثرة المعاصي، ﴿مِن وَالٍ﴾: ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما[5]؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا وَهْمٌ فاحشٌ. لا تدغم التاء في القاف ولا القاف في التاء، لا من كلمة ولا من كلمتين. وقد نَصَّ التصريفيون على أن القاف والكاف كل منهما يدغم في الآخر، ولا يدغمان في غيرهما، ولا يدغم غيرهما فيهما. وأما تشبيهه بقوله: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ» فلا يتعين أن يكون أصله المعتذرون، وقد تقدم توجيهه وأنه لا يتعين ذلك فيه. وأما قوله: «ويجوز» مِعِقِّبات بكسر العين فهذا لا يجوز، لأنه بناه على أن أصله: معقبات فأدغمت التاء في القاف، وقد بينا أن ذلك وهم فاحش. انتهى. الدر المصون.

(٢) عاد كلامه. ، ومعنى قوله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ هما صفتان جميعاً وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له. . . إلخ» قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم الله أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم. ولولا هذا السبب لكان في علم الله أن النقمة تحل عليه؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وسع ربنا كل شيء علماً.

(٣) قوله: «والجلاوزة» في الصحاح «الجلواز» الشرطي، والجمع الجلاوزة (ع).

(٤) قال السمين الحلبي: ويوضح هذا ما قاله ابن جني فإنه قال: مَعَاقِيب تكسير مُعْقِب كـ«مُطعم، ومطاعيم، ومُقدم، ومقاديم» فكأن «مُعْقِباً» جمع على مَعَاقِبَه، ثم جُعلت الياء في «مَعَاقِيب» عوضاً من الهاء المحذوفة في «مَعَاقِبَة». انتهى. الدرالمصون.

(٥) قال محمود: «خوفاً وطمعاً لا يصح أن يكون مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل. . . إلخ» قال أحمد: أو مفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى، لأنه إذا أراهم فقد رأوا،

المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على: ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين، ومعنى الخوف والطمع: أنّ وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث؛ قال أبو الطيب: [الطويل]

فَتىً كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَىٰ وَتُرْتَجَىٰ وَيُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ[1]

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالمسافر، ومن له في جرينه التمر والزبيب، ومن له بيت يكف[2]، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به، ﴿ٱلسَّحَابَ﴾: اسم الجنس، والواحدة سحابة، و﴿ٱلثِّقَالَ﴾: جمع ثقيلة؛ لأنك تقول: سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة، ونساء كرام، وهي الثقال بالماء، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له، أي: يضجون بسبحان الله والحمد لله، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» (٧٩٩) وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: سبحان من سبحت له، وإذا اشتدّ الرعد، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذٰلِكَ» (٨٠٠)، وعن ابن عباس أنّ اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «مَلَكٌ

---

٧٩٩ ـ أخرجه الطبري (٧/ ٣٦٠) رقم (٢٠٢٦٠)، والبخاري في كتاب الأدب المفرد رقم (٧٢٢)، وعزاه الزيلعي للطبراني في كتاب الدعاء موقوفاً على كعب بن مالك، وللثعالبي عن أبي عن النبي ﷺ من غير سند.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبري من رواية إسرائيل عن ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه، «أنه كان إذا سمع الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده» ورواه البخاري في الأدب المفرد، موقوفاً على كعب بن مالك. انتهى.

٨٠٠ ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٢١٢) رقم (٧٢٨)، والتّرمذي (٥/ ٥٠٣) كتاب =

= والأصل: وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، أي: ترقبونه وتتراؤونه، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(١) يقول: هو فتى شجاع جواد، يخشى شره، ويرجى خيره، فهو كالسحاب الأسود. والجون: الأسود: ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جني بالضم ليكون جمعاً، أي السود المظلمات؛ لأن السحاب جمع في المعنى. يرتجي الحياء: أي المطر، منها. ونخشى صواعقها، وهي قطع النار التي تنزل منها.

ينظر: البيت في ديوانه (٦٩)، والعمدة ١/ ٣٨، والبحر ٥/ ٣٦٦، والرازي ٥/ ٣٧٣، والمحرر الوجيز ٩/ ٣٦٤، والدر المصون ٤/ ٣٣٤.

(٢) قوله: «ومن له بيت يكف» وكف البيت يكف: قطر يقطر، كذا في الصحاح (ع).

مِنَ المَلائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ[1] مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ» (٨٠١)، وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك، ومن بدع المتصوّفة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق: زفرات أفئدتهم، والمطر: بكاؤهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله، ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووجدانيته ثم قال: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الذين كفروا، وكذّبوا رسول الله، وأنكروا آياته، ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ويردّون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم: ﴿الملائكة بنات الله﴾ فهذا جدالهم بالباطل؛ كقولهم: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، وقيل: الواو للحال، أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم؛ وذلك أنّ أربد أخا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامراً بغدّة كغدّة البعير[2]، وموت في بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته؛ :

= الدعوات: باب ما يقول إذا سمع الرعد حديث (٣٤٥٠)، والنّسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٥/ ٤١٧)، وأحمد (٢/ ١٠٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٣)، والدولابي في «الكنى» (٢/ ١١٧)، وأبو يَعلى (٩/ ٣٨٠ ـ ٣٨١) رقم (٥٥٠٧) من طريق أبي مطر عن سالم عن أبيه به.
وقال التّرمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه التّرمذي والنّسائي وأحمد وأبو يَعلى والحاكم من رواية: الحجاج بن أرطأة عن أبي مضر عن ابن عبد الله عن أبيه قال التّرمذي: غريب. انتهى.

٨٠١ ـ أخرجه التّرمذي (٥/ ٢٩٤) كتاب التفسير: باب ومن سورة الرعد حديث (٣١١٧)، والنّسائي كما في الكبرى؛ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٤)، وأحمد (١/ ٢٧٤)، وابن منده في التوحيد (١/ ١٦٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٦٥) من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبكير بن شهاب قال الحافظ: مقبول.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه التّرمذي والنّسائي وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد. فذكره ـ وزاد: قالوا: فما هذا الصوت قال: زجره للسحاب قالوا: صدقت»، وفي الطبراني والأوسط من رواية أبي عمران الكوفي عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري «سأل النبي ﷺ عن الرعد. فقال: هو ملك بيده مخراق إذ رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت». انتهى.

---

(١) قوله: «معه مخاريق من نار» في الصحاح المخراق: منديل يلف ليضرب به (ع).
(٢) قوله: «بغدة كغدة البعير» في الصحاح: غدة البعير: طاعونه (ع).

أخبرنا عن ربنا، أمن نحاس هو أم من حديد؟ (٨٠٢) ﴿ٱلْمِحَالِ﴾: المماحلة، وهي شدّة المماكرة والمكايدة، ومنه: تمحل لكذا، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: وَلاَ تَجْعَلْهُ عَلَيْنَا مَاحِلاً مُصَدَّقاً» (٨٠٣)؛ وقال الأعشى:/ ١٧٨أ [من الخفيف]:

فَـرْعُ نَـبْـعٍ يَـهْـشُّ فِـي غُـصُـنِ الْـمَـجْـ ـدِ غَـزِيـرُ الـنَّـدَىٰ شَـدِيـدُ الْـمِـحَـالِ[1]

---

٨٠٢ ـ أخرجه النّسائي في تفسيره (١/ ٦١١) تفسير سورة الرعد، والطبري في تفسيره (١٣/ ٨٤) والطبراني في الأوسط(٣/ ٢٨٦) رقم (٢٦٢٣)، والواحدي في الأسباب (٢٠٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣)، وأبو يَعلى في مسنده (٦/ ٨٩) رقم (٣٣٤٢)، ولم يسق لفظه كلهم من حديث ابن أبي سارة عن ثابت عن أنس.

وأخرجه أبو يَعلى في مسنده (٦/ ٨٧ ـ ٨٨) رقم (٣٣٤١)، والبزار في كشف الأستار رقم (٢٢٢١)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٨٣)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٦٩٢)؛ كلهم من طريق ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس ـ به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٢) ورواه أبو يَعلى والبزار بنحوه، إلا أنه قال: «إلى رجل من فراعنة العرب...» وبنحو هذا رواه الطبراني في الأوسط، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٣/ ٥٢) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن أنس بن مالك ـ به.

وللحديث شاهد أخرجه الطبري(١٣/ ٨٤).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه: «أن أربد بن قيس وعامر ابن الطفيل قدما المدينة ـ فذكر الحديث مطولاً»، وأخرجه النّسائي والطبري والعقيلي، وأبو يَعلى من رواية علي بن أبي سارة عن ثابت عن أنس قال: «بعث رسول الله ﷺ رجلاً إلى رجل من خزاعة العرب فقال: ادعه قال: يا رسول الله، هو أخي من ذلك. قال: اذهب فادعه. فأتاه. فقال: إن رسول الله ﷺ يدعوك. قال: وما الله؟ أمن ذهب هو أو من فضة، أم من نحاس ـ الحديث. وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق... الآية﴾، قال العقيلي: لا مانع على حديثه إلا ممن هو دونه. وقد رواه البزار والبيهقي في الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت نحوه. انتهى.

٨٠٣ ـ قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ والذي وجدته في الحديث المرفوع: «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق»، روي من حديث جابر وأنس، وعن معقل بن يسار ومن حديث ابن مسعود.

فحديث جابر: أخرجه ابن حِبان (١/ ٣٣١) حديث رقم (١٢٤)، والبزار (١/ ٧٨) رقم (١٢٢).

وحديث معقل بن يسار ذكره الهيثمي (١/ ١٧٤)، وحديث ابن مسعود: أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨)، الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤١) رقم (٨٦٥٥)، عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٢) رقم (٦٠١٠)، والبزار كما في كشف الأستار (١/ ٧٧) رقم (١٢١).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: قلت: الذي من الحديث والقرآن شافع وما حل مصدق. أخرجه ابن حِبان من رواية أبي سفيان عن جابر والحاكم من حديث معقل بن يسار، والطبراني من حديث ابن مسعود عن أنس. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن. انتهى.

---

(١) فرع كل شيء أعلاه. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. والهش من كل شيء: ما فيه رخاوة وليونة. =

والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وقرأ الأعرج بفتح الميم، على أنه مفعل، من حال يحول محالاً إذا احتال، ومنه: أحول من ذئب، أي: أشدّ حيلة، ويجوز أن يكون المعنى: شديد الفقار[1]، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشدّ، وموساه أحدّ؛ لأن الحيوان إذا اشتدّ محاله، كان منعوتاً بشدّة القوّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره؛ ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه[2].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق[3] الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق؛ للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى: أن الله ـ سبحانه ـ يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق؛ لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء؛ لما في

= وهش إليه، من باب تعب وضرب: ضحك وانبسط إليه، أي هو كفرع النبع في العلو وللصلابة في الحروب. وشبه المجد بشجرة طيبة على طريق المكنية، فإضافة الغصن إليه تخييل لذلك. ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحية، وإضافتها للمجد قرينة على ذلك. وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان، غزير الندى كثير العطاء شديد المحال، أي المماحلة والمكايدة، وهو كالتفسير للتشبيه الأول، وغزير الندى كالتفسير للثاني، وهو من بديع الكلام.

ينظر: البيت في ديوانه (١٤١)، ومجاز القرآن ١/ ٣٢٥، واللسان (محل)، والطبري ١٦/ ٤٩٥ والقرطبي ٩/ ١٩٧، وروح المعاني ١٣/ ١٢٣، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٢٢٢، والتهذيب ٥/ ٩٢، والدر المصون ٤/ ٣٣٤.

(١) قوله: «ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقار» في الصحاح: والمحالة أيضاً: الفقارة، وفيه «الفقارة» واحدة فقار الظهر (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا الوجه الثاني لا يظهر، لأن مآله إلى تقدير: لله دعوة الله، كما تقول: «لزيد دعوة زيد». وهذا التركيب لا يصح. قال السمين: وأين هذا مما قاله الزمخشري حتى يرد عليه به؟. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «فيه وجهان: أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق... إلخ» قال أحمد: دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال. فحجر واسعاً من لطف الله واستجابته أدعية عباده، وحتم رعاية المصالح، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباسها بالمصلحة، وقد انكشف الغطاء وتبين أن الله تعالى لا تعلل أفعاله ولا تقف استجابته على الشرط المذكور، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة، والله الموفق.

دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه.

والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله ـ عز وعلا ـ على معنى: دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق.

فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله[(١)]؟

قلت: أما على قصة أربد فظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله، ومكرٌ به من حيث لم يشعر، وقد دعا رسول الله ﷺ على صاحبه بقوله: «اللَّهُمَّ اخْسِفْهُمَا بِمَا شِئْتَ» فَأُجِيبَ فِيهِمَا (٨٠٤)، فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على الأوّل: فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ أن دعا عليهم فيهم، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: والآلهة الذين يدعوهم الكفار، ﴿مِن﴾: دون الله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾: من طلباتهم، ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾: إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، أي: كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه؛ وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم، وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه.

وقرئ: «تدعون»: بالتاء، كباسط كفيه، بالتنوين، ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: إلا في ضياع لا منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله، شاؤوا أو أبوا، لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له، ﴿وَظِلَالُهُم﴾: أيضاً؛ حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص، والفيء والزوال، وقرئ: «بالغدو والإيصال»: من آصلوا: إذا دخلوا في الأصيل.

---

٨٠٤ ـ قال الزيلعي: ذكره الواحدي في أسباب النزول حديث أربد وعامر عن ابن عباس من غير سند.
وينظر «تخريج الكشاف» (٢/١٨٨ ـ ١٨٩).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
ذكره الواحدي في الأسباب عن ابن عباس في القصة المذكورة. ولم أره فيها من الطريقتين المتقدمتين عن رواية الكلبي وغيره. انتهى.

---

(١) قوله: «اتصال هذين الوصفين بما قبله» عبارة النسفي: واتصال ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ و﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ بما قبله (ع).

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: حكاية لاعترافهم، وتأكيد له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا: الله؛ كقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك، فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقيناً، أي: إن كعوا عن الجواب[١] فلقنهم؛ فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه، ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم، وإقراركم سبب الإشراك، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعونه لغيرهم، وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم! ﴿أَمْ جَعَلُوا۟﴾: بل اجعلوا، ومعنى الهمزة: الإنكار[٢]، و﴿خَلَقُوا۟﴾: صفة لشركاء، يعني: أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله، ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾: عليهم خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق؛ ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

---

(١) قوله: «أي: إن كعوا عن الجواب» أي امتنعوا جبناً أو احتبسوا. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال محمود: «أم مقدرة ببل والهمزة ومعناها ههنا الإنكار... إلخ» قال أحمد: وفي قوله تعالى ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ في سياق الإنكار تهكم بهم؛ لأن غير الله لا يخلق خلقاً ألبتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ـ تقدس عن التشبيه ـ ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى (كخلقه) تهكم يزيد الإنكار تأكيداً. والزمخشري لا يطيق التنبيه على هذه النكتة مع كونه أفطن من أن تستتر عنه؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير. وفي قوله عز من قائل ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إلقام لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالقدرية، فإن الله تعالى بت هذه ألبتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أثيم أفاك، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية وقرن شقاشقه، والله الموفق.

لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة، ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾: المتوحد بالربوبية، ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾: لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به(١) في صوغ الحليّ منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك/ ١٧٨ب ماكث في الأرض، باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

فإن قلت: لم نكرت الأودية؟

قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾؟

قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [الرعد: ١٧]؛ لأنه ضرب المطر مثلاً للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع، خالياً من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف(٢).

فإن قلت: فما فائدة قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾: قلت: الفائدة فيه كالفائدة بقوله (بقدرها)، لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الإنتفاع مما يوقد عليه ويذاب، وهو الحلية والمتاع، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾: عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع

---

(١) قوله: «وبالفلز الذي ينتفعون به»، في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاي: ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اهـ فليحرر، ولعله ما يبقيه الكير. . . إلخ (ع).

(٢) قوله: «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شيء وذهب به (ع).

إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به، كما هو هجيري الملوك؛ نحو ما جاء في ذكر الآجر: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، و«من» لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبداً رابياً منفخاً مرتفعاً على وجه السيل، أي: يرمى به، وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل، وفي قراءة رؤبة بن العجاج: «جفالاً»، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنه كان يأكل الفأر، وقرئ: «يوقدون»: بالياء، أي: يوقد الناس.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨)﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾: اللام متعلقة بيضرب، أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا، وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أي: هما مثلاً الفريقين، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: صفة لمصدر استجابوا، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾: كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين، وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وما بعده كلام مستأنف، والحسنى: مبتدأ، خبره: (للذين استجابوا)، والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾: مبتدأ خبره: «لو» مع ما في حيزه و﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾: المناقشة فيه، وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩)﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾؛ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم، ﴿إنما أنزل إليك من ربك الحق﴾: فاستجاب؛ بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين عملوا على قضيات عقولهم؛ فنظروا واستبصروا.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: خبره؛ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ . . . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب، والأوّل أوجه، وعهد الله: ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الرعد: ٢٠]. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه: من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، تعميم بعد تخصيص، ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر، وكل ما تعلق منهم بسبب، حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان، قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخشون وعيده كله، ﴿وَيَخَافُونَ﴾: خصوصاً ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ﴿صَبَرُواْ﴾: مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف، ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ﴾: الله؛ لا ليقال: ما أصبره وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع، ولئلا يشمت به الأعداء؛ كقوله [من الطويل]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ .... (١)

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مردّ فيه للفائت؛ كقوله [من مجزوء الكامل]:

---

(١) وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

لأبي ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي، يرثي بنيه. روي أن معاوية مرض، فعاده الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: كحلوني وألبسوني عمامتي، وأظهر القوة وأنشد له البيت الثاني، فأجابه الحسن بغتة بالأول. وشبه المنية بالسبع على طريق المكنية. وإنشاب الأظفار: تخييل. ومني له: قدر له. والمنية: الموت لأنه مقدر. والإنشاب: الغرز والتعليق. ألفيت: أي وجدت كل تميمة لا تنفع، وهي ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد. وتجلدي: أي تصبري وتصلبي. مبتدأ. وأريهم: خبره، أي أظهر لهم به أني لا أتضعضع وأتخشع وأضعف لأجل ريب الدهر، أي حدثانه الطارئ من حيث لا أشعر.

ينظر: شرح أشعار الهذليين (ص ١٠)، لسان العرب (ضعع)، مقاييس اللغة (٣/ ٣٥٥)، كتاب العين (١/ ٧٢)، مجمل اللغة (٣/ ٢٧٦)، تاج العروس (ضعع).

مَـــا إِنْ جَـــزِعْـــتُ وَلاَ هَـــلَـــعْـــ ـتُ وَلاَ يَـــرُدُّ بُـــكَـــآيَ زَنْـــدَا[1]

وكل عمل له وجوه يعمل عليها، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً، وكان فعلاً كلا فعل، ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾/ ١٧٩أ: من الحلال؛ لأنّ الحرام لا يكون رزقاً[2]، ولا يسند إلى الله[3]، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: يتناول النوافل؛ لأنها في السر أفضل، والفرائض؛ لوجوب المجاهرة بها نفياً للتهمة، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: ويدفعونها، عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم، وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، وعن ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا، وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره، ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: عاقبة الدنيا، وهي:

---

(١) لـيـس الـجـمـال بـمـئـزر فـاعـلـم وإن رديـت بـردا
إن الـجـمـال مـعـادن ومـنـاقـب أورثـن مـجـدا
أعـددن لـلـحـدثـان سـا بـغـة وعـداء عـلـنـدى
نـهـداً وذا شـطـب يـقـد الـبـيـض والأبـدان قـدا
كـم مـن أخ لـي صـالـح بـوأتـه بـيـدي لـحـدا
مـا إن هـلـعـت ولا جـز عـت ولا يـرد بـكـاي زنـدا

لعمرو بن معد يكرب. يقول: ليس الجمال بفاخر الثياب. وفاعلم: اعتراض. والخطاب لغير معين، أي ليس كذلك وإن ألبستها والبرد، ثوب سابغ يرتدي به إن الجمال خصال حميدة أكسبت أصحابها الشرف. والحدثان: مكروه الدهر المنقلب. والسابغة الدرع، وكانت له درع من ذهب. والعداء: الفرس الكثير العدو. والعلندى ـ بالفتح ـ: الغليظ الشديد السريع. وشيء علند: صلب ـ واعلندى البعير: اشتد. والنهد: الضخم الطويل. والشطب ـ بالضم ـ: طرائق السيف. والأبدان: الدروع القصيرة، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد، قطع غيرهما بالأولى: مدح نفسه بالشجاعة، ثم بالصبر فقال: كثير من إخواني أنزلتهم اللحود بيدي، ومع ذلك ما جزعت لا قليلاً ولا كثيراً فإن زائدة. والهلع: شدة الجزع. وفي الحديث «من شر ما أوتي العبد: شح هالع، وجبن خالع» أي يهلع فيه وكأنه يخلع فؤاده. وتزند فلان. ضاق بالجواب وغضب. والمزند: مثل في الشيء. ويقال للحقير: زندان في مرقعة، فالزند: الشيء الحقير. ويروى: زيداً، بالياء، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنه، كان صديقاً له في الجاهلية. ويروى: وهل يرد بكائي؟ أي: لم أجزع، لعلمي أنه لا ينفع.

ينظر: ديوانه (ص ٨٢)، حماسة البحتري ص (١٢٨)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٧٩).

(٢) قوله: «لأن الحرام لا يكون رزقاً» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيكون رزقاً كالحلال (ع).

(٣) قال محمود: «المراد مما رزقناهم من الحلال، لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله تعالى» قال أحمد: الحق أن لا رازق إلا الله ﴿إن الله هو الرازق ذو القوة المتين﴾ كما أنه لا خالق إلا الله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله فأي مقال بعد ذلك يبقى للقدري الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

الجنة؛ لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها[1]، و﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾: بدل من عقبى الدار، وقرئ: «فَنَعم»: بفتح النون، والأصل: نعم، فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل، وقرئ: (يدخلونها): على البناء للمفعول، وقرأ ابن أبي عبلة (صلح): بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أنّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة، وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم؛ فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾: في موضع الحال؛ لأنّ المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين.

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾؟

قلت: بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم، يعنون: هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر، ومتاعبه هذه الملاذ والنعم، والمعنى: لئن تعبتم في الدنيا لقد اُسترحتم الساعة؛ كقوله [من الطويل]:

.... بِمَا قَدْ أَرَىٰ فِيهَا أَوَانِسَ بُدَّنَا[2]

وعن النبي ﷺ أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»[3] (٨٠٥) ويجوز أن يتعلق بسلام، أي: نسلم عليكم

---

٨٠٥ ـ أخرجه الطبري (٣٧٧/٧) رقم (٢٠٣٤٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤) رقم (٦٧١٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

---

(١) قال محمود: «المراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها... إلخ» قال أحمد: قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة مثل ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾، ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾. ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ والمراد في جميع ذلك: عقبى الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هي التي أرادها الله فهي الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقييد يفهمها كقوله ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع ومشيئة ما لم يكن مصادمة لما أنطق الله به ألسنة حملة الشريعة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدي إلى حمد العاقبة مأمور به، والمؤدي إلى سوئها منهي عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(٢) أرى الوحش ترعى اليوم في ساحة الحمى ... بما قد أرى فيها أوانس بدنا

يقول: أرى الوحش ترعى في ساحة الحمى في هذا الزمان، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة، فقد أرى: حكاية حال ماضية، وقد لتقريبها. والأوانس: جمع آنسة. والبدن: جمع بادنة، أي سمينة البدن.

ونكرمكم بصبركم.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول، ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾: يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار، ويجوز أن يراد بالدار: جهنم، وبسوئها: عذابها.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: الله وحده هو يبسط الرزق، ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم، ﴿وَفَرِحُوا﴾: بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزراً يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾

فإن قلت: كيف طابق قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾؟

قلت: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم؛ وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبيّ قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدّوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم، وما أشد تصميمكم على كفركم: إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم، وشدّة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم، وإن أنزلت كل آية، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ﴾: كان على خلاف صفتكم،

= أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية سهل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: كان النبي ﷺ فذكره، وزاد كان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك. انتهى.

﴿أَنَابَ﴾: أقبل إلى الحق، وحقيقته دخل في نوبة الخير، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بدل من (من أناب)، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته؛ كقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن؛ لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مبتدأ، و﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: خبره، ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب، على تقدير حذف المضاف، أي: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى: «طوبى لك»: أصبت خيراً وطيباً، ومحلها النصب أو الرفع؛ كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك، والقراءة في قوله: (وحسن مآب): بالرفع والنصب، تدلك على محليها، واللام في (لهم): للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها، كموقن وموسر، وقرأ مكوزة الأعرابي: «طيبي لهم»: فكسر الطاء لتسلم الياء، كما قيل: بيض ومعيشة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء، ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾: وحال هؤلاء أنهم يكفرون، ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم، وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾: الواحد المتعالي عن الشركاء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: في نصرتي عليكم، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾: فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾: جوابه محذوف/ ١٧٩ب؛ كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب، والمعنى: ولو أن قرآناً ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾: عن مقارّها، وزعزعت عن مضاجعها، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: حتى تتصدع وتتزايل قطعاً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: فتسمع

وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف؛ كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، هذا يعضد ما فسرت به قوله: ﴿لنتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ [الحشر: ٢١]، من إرادة تعظيم ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من القرآن، وقيل: معناه: ولو أن قرآناً وقع به، تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١]، الآية، وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: «سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود ـ عليه السلام ـ إن كنت نبيًّا كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان ـ عليه السلام ـ أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصي بن كلاب[1]؛ فنزلت (٨٠٦)، ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاوزتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾: وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد، وقيل: ﴿قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: على معنيين.

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها؛ إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه.

---

٨٠٦ ـ قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ. تخريج الكشاف (٢/ ١٩٠).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده بهذا السياق، وقد روى ابن ربيعة عن أبي أسامة عن مجالد عن الشعبي قال: قالت قريش للنبي ﷺ: «إن كنت نبيا كما تزعم فباعد بين جبلي مكة ـ أحسبها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبي»، أو احملنا إلى الشام، أو إلى اليمن، أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلت. فأنزل الله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً ـ الآية﴾، وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبي سعيد قال: قالوا لمحمد ﷺ «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح»، وروى أبو يَعلى من حديث الزبير بن العوام يقول: «لما نزلت: «وأنذر عشيرتك الأقربين» صاح رسول الله ﷺ: يا آل قريش، فجاءته قريش. فحذرهم وأنذرهم فقالوا: تزعم أنك نبي، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى. فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتنفجر لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، أوادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أوادع الله أن يُصير هذه الصخرة التي بجنبك ذهباً فننحت منها ويغنينا، قال: فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي. فلما سرى عنه قال: والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت كان، ولكن أخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم. فنزلت». انتهى.

والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بني أمر التكليف على الاختيار؛ ويعضده قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ٣١]، يعني: مشيئة الإلجاء والقسر[(١)]، ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ومعنى: (أفلم ييئس): أفلم يعلم، قيل: هي لغة قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى: العلم، لتضمنه معناه؛ لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى: الخوف، والنسيان في معنى: الترك لتضمن ذلك؛ قال سُحَيْم بن وُثَيْلٍ الرِّيَاحِيُّ [من الطويل]:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي: أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ[(٢)]

ويدل عليه أن عليًا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤوا: «أفلم يتبين»، وهو تفسير: (أفلم ييئس)، وقيل: إنما كتبه الكاتب، وهو ناعس مستوى السيئات؛ وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام، وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيْمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية، ويجوز أن يتعلق (أن لو يشاء) بآمنوا، على: أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم، ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾: من كفرهم وسوء أعمالهم، ﴿قَارِعَةٌ﴾: داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا، والمصائب في نفوسهم، وأولادهم وأموالهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾: القارعة، ﴿قَرِيبًا﴾: منهم فيفزعون، ويضطربون، ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾: وهو موتهم، أو القيامة، وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا، فتغير حول مكة وتختطف منهم، وتصيب من مواشيهم (٨٠٧)، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم

---

٨٠٧ ـ قال ابن حجر: هو موجود في المغازي لابن إسحاق، والوادي، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا منها سرية زيد بن حارثة ليلقى عير قريش وغيرها. وينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٥).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

قلت: موجود في المغازي لابن إسحاق، والواقدي، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا؛ منها سرية زيد بن حارثة ليلقي عير قريش وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرهما. انتهى.

---

(١) قوله: «أن لو يشاء الله يعني مشيئة الإلجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة (ع).

(٢) تقدم.

بجيشك، كما حل بالحديبية، حتى يأتي وعد الله، وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

الإملاء: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن، كالبهيمة يملى لها في المرعى، وهذا وعيد لهم، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسلية له.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾: احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني: أفا الله الذي هو قائم رقيب، ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾: صالحة أو طالحة، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: يعلم خيره وشره، ويعدّ لكل جزاءه، كمن ليس كذلك، ويجوز أن يقدّر ما يقع خبراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعاراً، وتمثيله: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه، ﴿وَجَعَلُواْ﴾: له، وهو الله الذي يستحق العبادة وحده، ﴿شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم، ثم قال: ﴿أم تنبئونه﴾: على أم المنقطعة؛ كقولك للرجل: قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف، ومعناه: بل أتنبؤونه بشركاء[1]، لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ ﴿أم بظاهر من القول﴾/ ١٨٠أ: بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٩]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة[2] التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق

---

(١) قال محمود: «معناه بل أتنبئونه بشركاء... إلخ» قال أحمد: وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء، وأن الله لا يعلمهم كذلك، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع، لا تكنه بلاغته وبراعته، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان: وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء، فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة.

(٢) عاد كلامه. قال: «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها... إلخ» قال أحمد: هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلاً، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا =

ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقرئ: (أتنبئونه): بالتخفيف، ﴿مَكْرُهُمْ﴾: كيدهم للإسلام بشركهم، ﴿وَصُدُّواْ﴾: قرئ بالحركات الثلاث، وقرأ ابن أبي إسحاق: «وصدٌّ»: بالتنوين، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدي، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: فما له من أحد يقدر على هدايته، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر؛ ولذلك سماه عذاباً، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: وما لهم من حافظ من عذابه، أو مالهم من جهته واق من رحمته.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف على مذهب سيبويه، أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة، وقال غيره: الخبر: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد، وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: «أمثال الجنة»: على الجمع، أي: صفاتها، ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾؛ كقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣]، ﴿وَظِلُّهَا﴾: دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، يعني: ومن أحزابهم، وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو: كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام، ونعت رسول الله ﷺ وغير ذلك مما حرّفوه وبدّلوه من الشرائع.

= الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ، والله أعلم.

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ بما قبله؟

قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وألاَّ يشرك به، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقرأ نافع في رواية أبي خليد: «ولا أشركُ»: بالرفع على الاستئناف كأنه قال: وأنا أشرك به، ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى: أمرت أن أعبد الله غير مشرك به، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾: خصوصاً لا أدعو إلى غيره، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: لا إلى غيره مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾: ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه، بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء، ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال، كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها منها: أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوّله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتهييج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وألاَّ يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الشكيمة بمكان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ، فقيل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾: ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل، ﴿وَيُثْبِتُ﴾: غيره، وقيل: يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، ويثبت إيمانهم وطاعتهم، وقيل: يمحو بعض

الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسي، وسائر الحيوان والنبات، والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ؛ لأنّ كل كائن مكتوب فيه، وقرئ: «ويثبت».

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾: وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾: أرض الكفر، ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾: بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام؛ وذلك من آيات النصرة والغلبة، ونحوه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، والمعنى: عليك بالبلاغ الذي/ ١٨٠ب حملته، ولا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره؛ فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر، وقرئ: «ننقصها»؛ بالتشديد، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾: لا رادّ لحكمه، والمعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته: الذي يعقبه، أي: يقفيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقّب؛ لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب؛ قال لبيد [من الطويل]:

.... طَلَبُ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ(١)

---

(١) حتى تهجر في الرواح وهاجها ... طلب المعقب حقه المظلوم

للبيد بن ربيعة، يصف حمار وحش خرج في الهاجرة وراء أتانه، وهاجها: أي بعثها على السير ونشطها لسرعة سيره في طلبها، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه ممن هو عليه، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب، لأنه فاعل في المعنى. ومعناه الذي رجع إلى حقه الذي كان أعطاه للمدين، فكأنه رجع على عقبه، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه.

ينظر: ديوانه (١٥٥)، الإنصاف ١/ ٢٣٢، معاني الفراء ٢/ ٦٦، وابن الشجري ١/ ٢٢٨، أوضح المسالك ١/ ٢٢٠، البحر المحيط ٥/ ٣٩٠، شرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٦، الهمع ٢/ ١٤٥، الدرر ١/ ١٤١، التصريح ١/ ٢٧٨، الأشموني ٢/ ٤٧.

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

فإن قلت: ما محل قوله: «لا معقب لحكمه»؟

قلت: هو جملة محلها النصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه؛ كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد حاسراً.

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: وصفهم بالمكر، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾: ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾؛ لأنّ من علم ما تكسب كل نفس، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم في غفلة مما يراد بهم، وقرئ: «الكفار»، و«الكافرون»، «والذين كفروا»، و«الكفر»: أي أهله، والمراد بالكافر الجنس: وقرأ جناح ابن حبيش: «وسيعلم الكافر»، من أعلمه، أي: سيخبره.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾: لما أظهر من الأدلة على رسالتي، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: والذي عنده علم القرآن[1]، وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر، وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب[2] الذين أسلموا؛ لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، وقيل: هو الله ـ عز وعلا[3] ـ والكتاب: اللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله، ما يعني إلا

= لسان العرب ٦١٤/١، خزانة الأدب ٢٤٢/٢، شرح شواهد الإيضاح ص ١٣٣، المقاصد النحوية ٥١٢/٣، الدر المصون ٢٤٧/٤.

(١) قال محمود: «المراد والذي عنده علم القرآن... إلخ» قال أحمد: فيكون المراد حينئذ: جنس المؤمنين.

(٢) قال محمود: «وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، قال أحمد: فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة، وعلى الثاني جنس الكتب المتقدمة عليه.

(٣) قال محمود: «وقيل هو الله عز وجل، والكتاب، اللوح المحفوظ. وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ ﴿وَمِنۡ عِندِهِۦ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على من الجارة» قال أحمد: وإنما =

الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو، شهيداً بيني وبينكم؛ وتعضده قراءة من قرأ: «ومن عنده علم الكتاب»، على من الجارّة، أي: ومن لدنه علم الكتاب؛ لأن علم من علمه من فضله ولطفه، وقرئ: «ومِنْ عنده علم الكتاب»: على من الجارّة، «وعلم»؛ على البناء للمفعول، وقرئ: «وبمن عنده علم الكتاب».

فإن قلت: بم ارتفع علم الكتاب؟

قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلاً؛ لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل؛ كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل؛ كما تقول: بالذي استقرّ في الدار أخوه، وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّعْدِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِوَزْنِ كُلِّ سَحَابٍ مَضَىٰ وَكُلِّ سَحَابٍ يَكُونُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَبُعِثَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الْمُوَفِّينَ بِعَهْدِ اللهِ» (٨٠٨).

---

٨٠٨ ـ عزاه الزيلعي للثعالبي عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ فذكره، وعزاه لابن مردويه في تفسيره، كما تقدم إسناده في آل عمران، والواحدي في تفسيره الوسيط، وينظر حديث (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

تقدم إسناده في آل عمران. انتهى.

= قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله بالذي يستحق العبادة، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعدولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً وإنما أخذ الحصر حيث يقول: ومن لا يعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم، والله الموفق للصواب.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ
مَكِّيَّةٌ، [إلاَّ آيَتَي ٢٨ و٢٩ فَمَدَنِيَّتَانِ]
وَآيَاتُهَا ٥٢ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ نُوحٍ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾: هو كتاب، يعني: السورة، وقرئ: «ليخرج الناس»، والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب؛ وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل؛ كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف؛ كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾: عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة، كما غلب النجم في الثريا[1]، وقرئ بالرفع على: هو الله، الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كالهلاك؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل؛ إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها؛ لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له؛ كقوله: «سلام عليك»، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالويل؟

قلت: لأنّ المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضجون منه، ويقولون: يا

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التعليل لا يتم إلا أن يكون أصله الإلّه، ثم فُعل فيه ما تقدم أول هذا الموضوع». انتهى. الدر المصون.

ويلاه؛ كقوله: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾: مبتدأ خبره: أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذمّ، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر، وقرأ الحسن: «ويصدّون»: بضم الياء، وكسر الصاد، يقال: صدّه عن كذا، وأَصَدَّهُ؛ قال [من الطويل]:

أُنَـاسٌ أَصَـدُّوا الـنَّـاسَ بِـالـسَّـيْـفِ عَـنْـهُـمُ ....(١)

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً، لتنقله من غير التعدّي إلى التعدّي، وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية،/ ١٨١أ والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل، ﴿فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟

قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

---

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السوافي في أنوف الحوايم
لذي الرمة، أنشده عنه الفراء، يقال: صده عن كذا، ولغة كلب: أصده عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الإصداد. والسوافي ـ بالفاء ـ: الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقاف جمع ساق أو ساقية، وهي فوق الجدول. والحوايم: الجمال العطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حايم، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوايم أيضاً. ويجوز أن يراد هنا، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حايمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف الجمال، أو في أعالي الجبال، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي، أو كمنع الأنهار لبعد مائها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الغرق فيه. ويروى: عن أنوف الحوايم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمناً.
ينظر: الدر المصون (٤/ ٢٥١).

﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله[1]، ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به؛ كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم؛ وإنما بعث إلى الناس جميعاً، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة، أيضاً؟

قلت: لا يخلو، إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة[2]، والأمم المتخلفة، والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها ـ مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلا بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربيّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى: (بلسان قومه): بلغة قومه، وقرئ: «بلسن قومه»، واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى: اللغة، وقرئ: «بلسن قومه»: بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه

---

(١) قال محمود: «أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة... إلخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه، لو قدر منزل بكل لسان، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلجاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(٢) قوله: «والأقطار المتنازحة» أي المتباعدة جدا. أفاده الصحاح (ع).

لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أدّاها كل نبيّ بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأنّ قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ كقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأنّ الله لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف[١]، وبالهداية: التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: فلا يغلب على مشيئته، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ بمعنى: أي أخرج؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل؛ وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر؛ وكذلك التقدير بأن أخرج قومك، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نعماؤه وبلاؤه، فأمّا نعماؤه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وفلق لهم البحر، وأمّا بلاؤه: فإهلاك القرون، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم؛ تنبيهاً عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

---

(١) قوله: «والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلقه كالخير عند أهل السنة (ع).

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾: ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعليكم؟

قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة، بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرّة عليكم عمل فيه، ويتبين[1] الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة، لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون «إذ»: بدلاً من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهومن بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة: (يذبحون)، وفي الأعراف: (يقتلون)، وههنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو، فما الفرق؟

قلت: الفرق: أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح؛ لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل/ ١٨١ب آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله، ووجه آخر وهو: أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى: ﴿ونبولكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ وقال زهير [من الطويل]:

.... فَأَبلاهُمَا خَيْرَ البَلاءِ الَّذِي يَبْلُو[2]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن: توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أو أجرى (تأذن): مجرى؛ قال: لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح،

---

(١) قوله: «ويتبين» لعله: وتبيين (ع).

(٢) تقدم.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾: وغمطتم[1] ما أنعمت به عليكم، ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾: لمن كفر نعمتي.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾: إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم؛ فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج، والله غني عن شكركم، ﴿حميدٌ﴾: مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمده الحامدون.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً[2]: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل[3]؛ كقوله: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: هذا جوابنا

---

(١) قوله: «وغمطتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غمط الشيء» بطره وحقره (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: وردَّ عليه الشيخ بأن الاعتراض إنما يكون بين جزئين، أحدهما يطلب الآخر، ولذلك لما أعرب الزمخشري «والَّذِين» مبتدأ، و«لاَ يَعْلَمُهُمْ» خبره، قال: «والجملة من المبتدأ والخبر اعتراض». واعترضه الشيخ أيضاً بما تقدم، ويمكن أن يجاب عنه في الموضعين: بأن الزمخشري يمكن أن يعتقد أن «جَاءَتْهُمْ» حال مما تقدم، فيكون الاعتراض واقعاً بين الحال، وصاحبها وهذا كلام صحيح. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه عضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل. . . إلخ» قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ ولا لتصميت الرسل كمناسبته لإقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكون، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع: يد، وهي النعمة بمعنى: الأيادي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم، وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل، ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾: من الإيمان بالله، وقرئ: «تدعونا»: بإدغام النون، ﴿مُرِيبٍ﴾: موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب[1] الرجل، وهي قلق النفس وألاّ تطمئن إلى الأمر.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾: أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك؛ إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة؛ كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي؛ وقال [من المتقارب]:

دَعَـوْتُ ـ لِـمَـا نَـابَـنِـي ـ مِـسْـوَراً ... فَـلَـبَّـى فَـلَـبَّـى يَـدَيْ مِـسْـوَرِ[2]

---

(١) قوله: «وأراب الرجل» لعله: أو أراب (ع).

(٢) لأعرابي من بني أسد. ولبى: بمعنى أجاب، ورسمه ابن حبيب بالألف وإن كان يائياً للفرق بينه وبين المثنى بعده. ولبى من الأسماء اللازمة للإضافة إلى الضمير، وشذ إضافته للظاهر كما هنا، من لب بالمكان لبا أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لا اثنين فقط، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف. هذا مذهب سيبويه. وزعم يونس أنه مفرد مقصور، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما في البيت. يقول: دعوت مسوراً لما أصابني، فأجابني فلبى يديه، أي أجاب الله دعاءه إجابة بعد إجابة، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء، فكأنهما المجابتان؛ أو لأن نصره حصل بهما، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه. وقيل: إنه دعاه ليغرم عنه الدية، فأجابه، فذكر يديه لأنه بذل بهما. قيل: وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه. روي عن رسول الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: إذا دعا أحدكم أخاه فقال: لبيك، فلا يقولن لبى يديك، وليقل أجابك الله بما تحب.

ينظر: الدرر ٣/٦٨، شرح التصريح ٢/٣٨، شرح شواهد المغني ٢/٩١٠، لسان العرب (لبى)، =

فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: من ذنوبكم؟

قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣، ٤]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن آمنتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾: ما أنتم، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوّة[(١)] دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً، لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة[(٢)]، ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج؛ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون: أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم؛ ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً

= المقاصد النحوية ٣/ ٣٨١، وأوضح المسالك ٣/١٢٣، خزانة الأدب ٢/ ٩٢، ٩٣، سر صناعة الإعراب ٢/٧٤٧، شرح أبيات سيبويه ١/٣٧٩، شرح الأشموني ٢/ ٣١٢، شرح ابن عقيل ص (٣٨٣، ٣٨٥)، الكتاب ١/ ٣٥٢، المحتسب ١/٧٨، ٢/ ٢٣، مغني اللبيب ٢/ ٥٧٨، همع الهوامع ١/ ١٩٠، الدر المصون ٣/ ٦٣.

(١) عاد كلامه. قال: «وقولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا: معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة»؟ قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية في تفضيل الملك على الرسول، لأنه يدعي ذلك أمراً مركوزاً في الطباع معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(٢) قوله: «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل (ع).

منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: بالنبوّة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق/ ١٨٢أ بمشيئة الله، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليًّا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾: وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل(١)؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾: ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم، وإما عودكم حالفين(٢) على ذلك.

فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها.

قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عادلاً يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول؛ لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: «ليهلكنّ»، «وليسكننكم»: بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة؛ ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض، أرض الظالمين وديارهم؛ ونحوه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾... إلخ» قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي «من قتل قتيلاً فله سلبه» والله أعلم.

(٢) قوله: «حالفين» حال من فاعل قال: وعبارة النسفي «وحلفوا» (ع).

وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَىٰ جَارَهُ وَرَّثَهُ الله دَارَهُ» (٨٠٩)، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنها منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها، ويخرجون، ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدّثتهم به، وسجدنا شكراً لله، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾: موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف[1] فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله، والمعنى: أنّ ذلك حق للمتقين؛ كقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾: واستنصروا الله على أعدائهم، ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]: أو استحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو معطوف على: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ: «واستفتحوا»: بلفظ الأمر، وعطفه على: (لنهلكنّ)، أي: أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: لنهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظنًّا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه، ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: من بين يديه، قال [من الوافر]:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ[2]

---

٨٠٩ ـ بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ١٩٩)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله: «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى (ع).

(٢)
يؤرقني اكتئاب أبي نمير ... فقلبي من كآبته كئيب
فقلت له: هداك الله مهلاً ... وخير القول ذو اللب المصيب
عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

لهدبة بن خشرم العذري. ويروى: خرشم، وكان مسجوناً للقتل. والتأريق: التسهير، والاكتئاب: الانكسار وتغير اللون من الحزن، والكآبة كذلك. وأبو نمير كان صديقاً له، فزاره ذلك السجن =

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.

فإن قلت: علام عطف: ﴿وَيُسْقَىٰ﴾؟

قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد، كأنه أشد عذابها، فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؟

قلت: صديد عطف بيان لماء، قال: (ويسقى من ماء)، فأبهمه إبهاماً، ثم بينه بقوله: (صديد)، وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: يتكلف جرعه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: دخل كاد للمبالغة، يعني: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة؛ كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه[1] وأحاطت به من جميع الجهات، تفظيعاً لما يصيبه من الآلام، وقيل: (من كل مكان): من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشدّ مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع

= وحزن عليه. ومهلاً: مصدر بدل من اللفظ بفعله. وخبر القول: جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب: العقل. وعسى الكرب: تتمة مقول القول. ويروى: أمسيت، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتي بمعنى خلف، وقد يأتي بمعنى قدام، فهو من الأضداد اهـ؛ لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف، فكثر فيه. أو هو مكان المواراة مطلقاً، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضمير الكرب، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له، والجملة خبر ليكون، ويجب كون المحذوف كوناً تاما لا ناقصاً؛ لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضاً، فيتسلسل التقدير، ولم يجعل «فرج» مرفوع بيكون؛ لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبي عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس، وتجريد خبرها من «أن» قليل أي عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب.

ينظر خزانة الأدب ٩/٣٢٨، ٣٣٠، وشرح أبيات سيبويه ١/١٤٢، والدرر ٢/١٤٥، وشرح التصريح ١/٢٠٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٧، وشرح شواهد المغني ص ٤٤٣، والكتاب ٣/ ١٥٩، واللمع ص ٢٢٥، والمقاصد النحوية ٢/ ١٨٤، وأسرار العربية ص ١٢٨، وأوضح المسالك ١/ ٣١٢، وتخليص الشواهد ص ٣٢٦، وخزانة الأدب ٩/٣١٦، والجنى الداني ص ٤٦٢، وشرح ابن عقيل ص ١٦٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٨١٦، والمقرب ١/٩٨، وشرح المفصل ٧/١١٧، ١٢١، ومغني اللبيب ص ١٥٢، والمقتضب ٣/ ٧٠، وهمع الهوامع ١/ ١٣٠ والدر المصون ١/ ٥٢٦.

(١) قوله: «قد تألبت عليه» أي تجمعت. أفاده الصحاح (ع).

الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا ـ والفتح المطر ـ في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا؛ فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد، وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا ـ على هذا التفسير ـ: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل/ ١٨٢ب: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد؛ كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر، وقرئ: «الرياح»، ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح؛ كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة؛ وإنما السكور لريحها[1]، وقرئ: «في يوم عاصف»: بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأساري، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجه: برماد طيرته الريح العاصف، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: يوم القيامة، ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾: من أعمالهم، ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالحكمة والغرض الصحيح[2]، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾

---

(١) قوله: «وإنما السكور لريحها» في الصحاح: سكرت الريح، تسكر سكوراً: سكنت بعد الهبوب (ع).

(٢) قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾

وقرئ: «خالق السموات والأرض»، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم؛ إعلاماً منه باقتداره على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾: بمتعذر، بل هو هين عليه يسير(١)؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكوّن من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف؛ وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله؛ لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾: ويبرزون يوم القيامة؛ وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد؛ ونحوه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ونظائر له، ومعنى بروزهم لله ـ والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له ـ: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة، انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلت: لم كتب: ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾: بواو قبل الهمزة؟

قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو؛ ونظيره: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، والضعفاء: الأتباع والعوام، والذي استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم، ﴿تَبَعًا﴾: تابعين: جمع تابع على تبع؛ كقولهم: خادم وخدم، وغائب

(١) عاد كلامه. قال: معناه وما ذلك على الله بعزيز، أي: هين عليه، لأنه قادر بالذات... إلخ...
قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بآداب الله تعالى وبما يجب في حق جلاله، وقد تقدم ما فيه كفاية.

وغيب[1]، أو ذوي تبع، والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً.

فإن قلت: أي فرق بين من في: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، وبينه في: ﴿مِن شَىْءٍ﴾؟

قلت: الأولى: للتبيين، والثانية: للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله؟

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾؟

قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم[2]، وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم، وقولهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾: من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم، ولم يضلوهم، إما موركين الذنب[3] في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا؛ ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا، لهديناكم إلى الإيمان، وقيل: معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة،

---

(١) قوله: «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح: وإنما ثبتت فيه الياء في التحريك، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعاً، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى به المصدر (ع).

(٢) قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم... إلخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار فإن الله تعالى يشاؤها في الدنيا، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة، إذ لا ينجع، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه إيمانه، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم... إلخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً اتفاقاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «موركين الذنب» في الصحاح: ورك فلان ذنبه على غيره، أي: قرفه به اهـ، أي: اتهمه به (ع).

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾: مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية؛ ونحوه: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور: ١٦]. وروي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا.

فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟

قلت: اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون: أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ، أو لما قالوا: لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من/ ١٨٣أ النجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا: جميعاً: سواء علينا؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ [يوسف: ٥٢]، والمحيص: يكون مصدراً، كالمغيب والمشيب، ومكاناً، كالمبيت والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾

﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً[1] في الأشقياء

(١) قال محمود: «روي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً... إلخ» قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال، لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان؛ كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك. ونحن معاشر أهل السنة الملقبين، عنده بالمجبرة نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له، ولا مخطىء فيه الشيطان، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك. ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك. وحجته البالغة، وقضاؤه الحق. وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفي الأفعال الإرادية ضرورة؛ وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلبنا =

من الجنّ والإنس فيقول ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾: خلاف ذلك، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾: من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان؛ ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾؛ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه[1]، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم؛ فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به.

قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً، لبين الله بطلانه، وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة، وقرئ: «بمصرخيِّ»: بكسر الياء، وهي ضعيفة؛ واستشهدوا لها ببيت مجهول [من الرجز]:

قَالَ لَهَا: هَلْ لَكِ يَاتَا فِيِّ؟ قَالَتْ لَهُ: مَا أَنْتَ بِالمَرْضِيِّ[2]

= عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(١) قوله: «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة، وقوله: «المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة، لكن العبد له فيها الكسب. ومن هذا يتوجه عليه اللوم، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لها، وهو الذي يحصل لنفسه. وتحقيقه في علم التوحيد (ع).

(٢) قال لها: هل لك يا تا فيّ؟ قالت له: ما أنت بالمرضي
ماض إذا ما هم بالمضي

قائله مجهول. وتا: اسم إشارة، أي: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فإن حركت فبالفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين. وقالت: استئناف، كأنه قيل له: فماذا قالت؟ فقال: قالت له لست مرضياً، فإنك رجل ماض في كل أمرتهمّ فيه، فماض: خبر لمبتدأ محذوف. والجملة: استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله: هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ =

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح؛ لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة؛ حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح؛ لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات، «ما» في: ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾: مصدرية، و﴿مِن قَبۡلُ﴾: متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: ١٤]، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ [الممتحنة: ٤] وقيل: (من قبل): يتعلق بكفرت، وما: موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله ـ عزّ وجلّ ـ تقول: شركت زيداً، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أَشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً، ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان[1] وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قول الله ـ عزّ وجلّ ـ ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس؛ وإنما حكى الله ـ عزّ وعلا ـ ما سيقوله في ذلك الوقت؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم، والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم، وقرئ: «فلا يلوموني»: بالياء على طريقة الالتفات؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»[2]: على فعل المتكلم، بمعنى:

= لفظ «هو» فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، دلالة على الإعراض عنه، وذكر السبب لغيره.
البيت للأغلب العجلي في ديوانه ص ١٦٩، حاشية يس (٢/ ٦٠)، خزانة الأدب (٤/ ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧)، وبلا نسبة في شرح عمدة الحافظ (ص ٥١٣)، المحتسب (٢/ ٤٩).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ومَنْ منع ذلك جعل» «سبحان» علماً للتسبيح، كما جعل «برّة» علماً للمبرّة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم... إلخ» قال =

وأدخل أنا، وهذا دليل على: أنه من قول الله، لا من قول إبليس، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم، كلام غير ملتئم؟

قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: بإذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾

قرئ: ﴿أَلَمْ تَرْ﴾: ساكنة الراء، كما قرئ: «من يتق»، وفيه ضعف، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: اعتمد مثلاً ووضعه، و﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو تفسير لقوله: (ضرب الله مثلاً)؛ كقولك: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب (مثلاً)، و(كلمة): بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً، ثم قال: (كشجرة طيبة): على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض، ضارب بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ورأسها، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبة ثابت أصلها». / ١٨٣ب

فإن قلت: أيّ فرق بين القراءتين؟

قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة، والتحميدة، والاستغفار، والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن

= أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وألجأه إلى تعليقه بما بعده، وقد كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن يشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرمّان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَل المُؤْمِنِ شَجَرَةً فَأَخْبِرُونِي مَا هِيَ» ح، فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًّا، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بنيّ، لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إِنَّهَا النَّخْلَةُ» (٨١٠). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: شجرة في الجنة، وقوله: (في السماء) معناه: في جهة العلوّ والصعود، ولم يرد المظلة؛ كقولك في الجبل: طويل في السماء: تريد ارتفاعه وشموخه، ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾: تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾: بتيسير خالقها وتكوينه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها، وقرئ: «ومثل كلمة بالنصب»: عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت(١)، ونحو ذلك، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: في مقابلة قوله: (أصلها ثابت)، ومعنى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استقرار، يقال: قرّ الشيء قراراً؛ كقولك: ثبت ثباتاً، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لجلج(٢)، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما

---

٨١٠ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٤٨١) كتاب الأطعمة باب أكل الجمار حديث رقم (٥٤٤٤)، ومسلم (٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨) نووي، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن حديث رقم (٢٨١١).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه وله ألفاظ. انتهى.

---

(١) قوله: «والكشوت» في الصحاح الكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. قال الشاعر [من البسيط]:
هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ... ولا نسيم ولا ظل ولا ثمرُ (ع)

(٢) قوله: «من قولهم: الباطل لجلج» في الصحاح: الحق أبلج، والباطل لجلج، أي: يردد من غير أن ينفذ (ع).

أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة، أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل: معناه: الثبات عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ يُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، وَدِينِيَ الإِسْلاَمُ، وَنَبِيي مُحَمَّد، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ: يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ[1]» (٨١١)، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم؛ وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند

---

٨١١ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢١٣) كتاب الجنائز باب الجلوس عند القبر حديث (٣٢١٢) من طريق المنهال ابن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
هذا طرف من حديث له طويل، أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يَعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ قال: نزلت في عذاب القبر: يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله. ونبيي محمد ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا... الآية﴾. انتهى.

---

(١) قوله: «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإضلال الظالمين بإبقائهم على كلمة الشرك، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق. وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الإيمان (ع).

ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمة الله، ﴿كُفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً؛ ونحوه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: شكر رزقكم؛ حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروا سلبوها، فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة[1]، وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمه، وجعلهم قوّام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة؛ كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية: فمتعوا حتى حين، وقيل: هم متنصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾: ممن تابعهم على الكفر، ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: دار الهلاك، وعطف: ﴿جَهَنَّمَ﴾ على دار البوار عطف بيان، قرئ: (ليضلوا): بفتح الياء وضمها.

فان قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟

قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد،/ ١٨٤أ كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني، نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب، ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية؛ ونحوه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا فلا يحتاج إلى حذف مضاف على هذا. انتهى. الدر المصون.

المقول محذوف[1]، لأن جواب (قل): يدل عليه؛ وتقديره: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا، ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا﴾: وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليقيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام؛ لأنّ الأمر الذي هو (قل): عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز.

فإن قلت: علام انتصب: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟

قلت: على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب، والخلال: المخالة.

فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[2]؟

قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصاً؛ كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات؛ وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: «لا بيع فيه ولا خلال»، بالرفع.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا

---

(١) قال محمود: «المقول محذوف... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية وكقوله ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الثاني: تكرر مجيئه لموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق، إما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(٢) قوله: «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح (ع).

لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: خبره، و﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: بيان للزرق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون: (من الثمرات): مفعول أخرج، و﴿رِزْقًا﴾: حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: بقوله كن، ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان والنبات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم[(١)]، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: من للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه؛ نظراً في مصالحكم، وقرئ: «من كلٍّ بالتنوين»، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون (ما): موصولة، على: وآتاكم من ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها؛ هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأمّا التفصيل: فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله، ﴿لَظَلُومٌ﴾: يظلم النعمة بإغفال شكرها، ﴿كَفَّارٌ﴾: شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني: البلد الحرام، زاده الله أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم، عليه السلام، ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؟

قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد

---

(١) قوله: «وسباتكم» في الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومن قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) (ع).

مخوف، فاجعله آمناً، ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾، وقرئ: «وأجنبني»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: «جنبني شره»: بالتشديد، وأهل نجد: «جنبني وأجنبني»، والمعنى: ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها، ﴿وَبَنِىَّ﴾: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً؛ واحتج بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾، ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت، ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: فأعوذ بك أن تعصمني[1]، وبنيَّ من ذلك؛ وإنما جعلن مضلات؛ لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ، فكأنهنّ أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم، أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها، ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾: على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (٨١٢)، أي: ليس بعض المؤمنين، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم،

---

٨١٢ ـ أخرجه مسلم (١/٣٤٨ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» حديث (١٠٢/١٦٤)، وأبو داود (٢/ ٢٩٤) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش حديث (٣٤٥٢)، والترمذي (٣/٥٩٧) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع حديث (١٣١٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٩) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (١/ ٥٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٢)، والحميدي (٢/ ٤٤٧) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٥٦٤)، وابن حِبان (٤٩٠٥ ـ الإحسان)، وابن منده في «الإيمان» رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٨ ـ ٩)، والبيهقي (٥/ ٣٢٠) كتاب البيوع، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك فالحديث في صحيح مسلم كما تقدم في التخريج. وللحديث شواهد من حديث ابن عمر وأبي بردة بن نيار وابن مسعود والحارث بن سويد وقيس بن أبي غرزة وأبي الحمراء وعائشة.
ـ حديث ابن عمر:
أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) والبزار (٢/ ٨٢ ـ كشف) رقم (١٢٥٥) من طريق أبي معشر عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط» وفيه أبو معشر وهو صدوق وضعفه جماعة.
وللحديث طريق آخر عن ابن عمر
أخرجه الدارمي (٢/٢٤٨) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥١) من طريق يحيى بن المتوكل ثنا القاسم بن عبيد الله عن عمه سالم بن عبد الله عن ابن عمر =

---

(١) قوله: «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني (ع).

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه: ومن عصاني فيما دون الشرك.

= به. ويحيى بن المتوكل قال الحافظ في «التقريب» (٢/٣٥٦) ضعيف.

ـ حديث أبي بردة بن نيار:
أخرجه أحمد (٣/٤٦٦) والبزار (١/٦٨ ـ كشف) رقم (٦٨) والطبراني في «الكبير» (٢٢/١٩٨) رقم (٥٢١) وابن أبي شيبة (٧/٢٩٠) كلهم من طريق جميع بن عمير عن عمه يعني أبا بردة مرفوعاً.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/٣١): رواه البزار وفيه جميع بن عمير وثقه أبو حاتم وضعفه البخاري وغيره.
ـ حديث ابن مسعود:
أخرجه ابن حِبان (٥٦٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٣٤) وفي «الصغير» (١/٢٦١) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/١٨٨ ـ ١٨٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٣) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار».
ـ حديث الحارث بن سويد:
أخرجه الحاكم (٢/٩).
ـ حديث قيس بن أبي غرزة:
أخرجه أبو يَعلى (٢/٢٣٣) رقم (٩٣٣) من طريق الحكم بن عتيبة عن قيس بن أبي غرزة مرفوعاً بلفظ: «من غش المسلمين فليس منهم».
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/٨٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١٣٦١) وعزاه إلى أبي يَعلى.
ـ حديث أبي الحمراء:
أخرجه ابن ماجه (٢/٧٤٩) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٥) من طريق أبي داود عن أبي الحمراء به مرفوعاً.
وأبو داود هو نفيع بن الحارث الأعمى متروك كَذّبه ابن معين وغيره.
ـ حديث عائشة:
أخرجه البزار (٢/٨٣ ـ كشف) رقم (١٢٥٦) وقال البزار: لا نعلمه عن عائشة إلا بهذا الإسناد والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/٨١) وقال: ورجاله ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن حِبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبي شيبة من حديث أبي الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة، والطبراني من حديث أبي موسى، والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كذلك أخرجه البيهقي في الشعب، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه. فلم يذكر علياً. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن جده به. انتهى.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾: بعض أولادي، وهم/ ١٨٤ب إسماعيل ومن ولد منه، ﴿بِوَادٍ﴾: هو وادي مكة، ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾: لا يكون فيه شيء من زرع قط؛ كقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير، وقيل: للبيت المحرم، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرّم على الطوفان، أي: منع منه، كما سمي عتيقاً؛ لأنه أعتق منه فلم يستول عليه، ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكانْ حرمك، ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض؛ ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل (من): لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون (من): للابتداء؛ كقولك: «القلب مني سقيم» تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس؛ وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة[1]، وقرئ: «آفدة»: بوزن عاقدة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدؤر، والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: «أفدة»، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً؛ من قوله [من الكامل]:

.... يَـهْـوِي مَـخَـارِمَـهَـا هُـوِيَّ الأَجْـدَلِ[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يظهر كونها للغاية، لأنه ليس لنا فعل يبتدأ فيه بغاية ينتهي إليها، إذ لا يصح جعل ابتداء الأفئدة من الناس»، انتهى. الدر المصون.

(٢) فإذا نبذت له الحصاة رأيته ... ينزو لوقعتها طمور الأخيل
وإذا يهب من المنام رأيته ... كرتوب كعب الساق ليس بزمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته ... يهوي مخارمها هوي الأجدل =

وقرئ: «تَهْوِي إليهم»، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوى إليهم، من هوى يهوي إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدّى تعديته، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم[1] ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله ـ عزّ وجلّ ـ أجاب دعوته، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي: بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه[2] المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب ـ متعنا الله بسكنى حرمه ـ ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾: تعلم السرَّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لأنّ غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك،

= وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

لأبي كبير الهذلي، يصف تأبط شرا بالتيقظ والشجاعة، يقول: إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح، ينزو: أي يثب بسرعة، طمور الأخيل: أي وثوب الأخيل، أي ينهض كنهوضه: وهو طير تتشاءم منه العرب، وأصله من التخيل، وقيل من الخيلاء. ورتب رتوباً: انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً، أي: رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل ـ بتشديد الميم فيها ـ: هو الضعيف الملتف بثيابه، ثم قال: وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة، رأيته يهوي مخارمها، أي: يسرع في سلوك مسالكها الضيقة، كهوي الأجدل وهو الصقر، أي كإسراعه في الطيران. ويروى: الجندل وهو الحجر. والأسرة: خطوط الجبهة جمع سرار. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والمتهلل: اللامع، أو المرتفع الذي سيمطر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت قاعدة أغزل عند رسول الله ﷺ وهو يخصف نعله، فتحضر جبينه عرقاً، فتولد في عيني نوراً، فجعلت أنظر إليه فقال: ما تنظرين؟ فقلت له ذلك، وقلت: أما والله لو رآك الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، فقال: وما قال؟ قلت: وإذا نظرت... البيت. فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله خيراً، ما سررت كسروري بكلامك.

ينظر: ديوان الهذليين (٢/ ٩٤)، البحر المحيط (٥/ ٤٢٩)، اللسان «خرم»، الدر المصون (٤/ ٢٧٤).

(١) قوله: «في واد يباب ليس فيه نجم» أي خراب. والنجم: نبات لا ساق له، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة: أول الفاكهة، كما في الصحاح (ع).

والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب؛ وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده؛ رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته ألاّ يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: من كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ تصديقاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، «ومن»: للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما، (على) في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾، بمعنى: مع؛ كقوله [من المنسرح]:

إِنِّـي عَـلَـىٰ مَـا تَـرَيْـنَ مِـنْ كِـبَـرِي أَعْـلَـمُ مِـنْ حَـيْـثُ تُـؤْكَـلُ الْـكَـتِـفُ[1]

وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر، روي أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسْحَاق، وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسْحَاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر/ ١٨٥أ حال الكبر؛ لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته.

---

(١) ترين: أصله ترأيين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول: إني مع ما تنظرينه من كبري وهرمي الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أي: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى: من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للمجرب المتفطن للأمور.
ينظر: البحر (٥/ ٤٣٤)، روح المعاني (١٣/ ٢٤٢)، بلا نسبة في تاج العروس (كتف)، ولقيس بن الخطيم في ديوانه (ص ٢٣٩)، الدر المصون (٤/ ٢٧٥).

فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه.

قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1] (٨١٣).

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل؛ كقولك: هذا ضروب زيداً، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد: سماع الله.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني؛ وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار؛ وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم ٤٨]، في قراءة أبيّ: «ولأبويّ». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»: على الإفراد، يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: ولولديّ، يعني: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لوُلدي»: بضم الواو، والولد بمعنى: الولد، كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد، وفي بعض المصاحف: «ولذرّيتي».

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت: هو من مجوّزات العقل[2]، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط الإسلام، ويأباه قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾

---

٨١٣ - أخرجه البخاري (١٣/٥١٨) كتاب التوحيد باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن حديث (٢٥٤٤)، ومسلم (١/٥٤٥) كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن حديث (٢٣٣/٧٩٢)، من حديث أبي هريرة.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

---

(١) قوله: «كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح: كإذنه لمن يتغنى... إلخ (ع).
(٢) قوله: «هو من مجوزات العقل» يعني على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم (ع).

[الممتحنة: ٤]؛ لأنه لو شرط الإسلام، لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل؛ والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوؤها، كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيًا، أو يكون مثل: (واسئل القرية)، وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، الآية، رفعها الله فوضعها؛ حيث وضعها رزقاً للحرم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؟

قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه، وقرئ: «يؤخرهم»: بالنون والياء، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى، ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعيها، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة

غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً لا قوّة في قلبه ولا جرأة؛ ويقال للأحمق ـ أيضاً ـ: قلبه هواء؛ قال زهير [من الوافر]:

.... مِـنَ الـظُّـلْـمَـانِ جُـؤْجُـؤُهُ هَـوَاءُ[1]

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق؛ وقال حسان [من الوافر]:

.... فَـأَنْـتَ مُـجَـوَّفٌ نَـخْـبٌ هَـوَاءُ[2]

---

(1) كـأن الـرحـل مـنـهـا فـوق صـعـل ... مـن الـظـلـمـان جـؤجـؤه هـواءُ

أصـك مـصـلـم الأذنـيـن أجـنـى ... لـه بـالـسـن تـنُّـوم وآء

لزهير بن أبي سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالي الفارغ. وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك: الذي تصطك ركبتاه عند المشي لطول رجليه. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وخصبها. والسن، المكان المستوي واسم موضع بعينه. والتنوم ـ وزن تنور ـ: شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتنوم: فاعل أجني، أي كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.

ينظر: ديوانه ص ٦٣، ولسان العرب: (أوأ)، (هوا)، ومقاييس اللغة: ٦/ ١٥، والمخصص: ٣/ ٦٤، ١٥/ ١٢٠، ومجمل اللغة ٤/ ٤٥٥، وتاج العروس (أوأ) (هوى).

(2) ألا أبـلـغ أبـا سـفـيـان عـنـي ... فـأنـت مـجـوف نـخـب هـواء

بـأن سـيـوفـنـا تـركـت عـبـيـداً ... وعـبـد الـدار سـادتـهـا الإمـاء

هـجـوت مـحـمـداً فـأجـبـت عـنـه ... وعـنـد الله فـي ذاك الـجـزاء

أتـهـجـوه ولـسـت لـه بـكـفء ... فـشـركـمـا لـخـيـركـمـا الـفـداء

فـمـن يـهـجـو رسـول الـلـه مـنـكـم ... ويـمـدحـه ويـنـصـره سـواء

فـإن أبـي ووالـده وعـرضـي ... لـعـرض مـحـمـد مـنـكـم وقـاء

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وإلا للتنبيه، والمأمور بالإبلاغ غير معين، وكان الظن أن يقول: فإنه، أي: أبا سفيان، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ. ويجوز أن المأمور أبو سفيان، فهو منادى يحذف حرف النداء. والمجوف والنخب والهواء: خالي الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروي بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة: الحارة من الغلة بالضم، وهي شدة العطش والحرارة. وقيل: المنقولة من مكان لآخر، وبرح كسمع: ذهب وزال. وقيل: ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها، فالخفا بمعنى التستر أو السر. وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلي، لأنها آلة للفعل. وعبيد بالتصغير قبيلة، وكذلك عبد الدار، وسادتها مبتدأ. والإماء خبره، والجملة في محل المفعول الثاني لتركت، أي صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء، وصيرت عبد الدار كذلك، يعني: أننا أفنينا رجالهما الرؤساء الأشراف، فأشرافهما النساء لا غير، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً، فلم يبق إلا الرقائق. وأتهجوه: استفهام توبيخي، والواو بعده للحال، أي: لا ينبغي ذلك شر وخير، من قبيل أفعل التفضيل، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة =

وعن ابن جريج: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾: مفعول ثان لأنذر، وهو يوم القيامة، ومعنى ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك، واتباع رسلك، أو أريد باليوم: يوم هلاكهم/ ١٨٥ب بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب؛ كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾: على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال؛ حيث بنوا

= استعمالهما، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان، والجملة دعائية، دعا عليه بأن يكون فداءً لرسول الله ﷺ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا: هذا نصف بيت قالته العرب، فعليك بالإنصاف وأمن يهجو: استفهام إنكاري، أي ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين. ويحتمل أن الهمزة للتنبيه، أو للنداء، والمنادى محذوف، أي: يا قوم أبي سفيان إن الذي يهجو رسول الله منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما وروي: فمن، ولا بد من تقدير، أي: من يهجوه ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح، ثم إن في هذا دليلاً على جواز حذف الموصول، وقد أجازه الكوفيون والأخفش، وتبعهم أبو مالك، وشرط كونه معطوفاً على موصول آخر كما هنا. وقوله: ووالده، أي والد أمي. ويروى: ووالدتي. والوقاء: ما يتوقى به المكروه. كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة. ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول. وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذا من أوزان الآلة، كأرات لما تؤرث به النار، أي تضرم به، وسراد لما يسرد به، أي يحرز به. ولما سمع ﷺ قوله: «وعند الله في ذلك الجزاء» قال: جزاك الله الجنة بإحسان. ولما سمع قوله: «فإن أبي» قال: وقاك الله حر النار يا حسان. وتقريره ﷺ على المكافأة بالذم، يدل على الجواز.

ينظر: ديوانه ص ٧٥، ولسان العرب: (جوف)، (هوا)، وكتاب العين ٤/ ١٠٤، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٩٢، ١١/ ٢٠٩، وأساس البلاغة ص ٧٠ (جوف)، وتاج العروس (برج)، (جوف)، والمخصص ١٥/ ١٢٠، وديوان الأدب: ٣/ ١٣٨.

شديداً وأمّلوا بعيداً، و﴿مَا لَكُم﴾: جواب القسم؛ وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: (أقسمتم)، ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: مالنا، ﴿مِّن زَوَالٍ﴾، والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث؛ كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨]، يقال: سكن الدار وسكن فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ لأنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل: تعدّيه بفي؛ كقولك: قرّ في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها وأوطنها، ويجوز أن يكون: سكنوا[١]، من السكون، أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾: بالإخبار والمشاهدة، ﴿كَيْفَ﴾: أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: «ونبين لكم»: بالنون، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم، ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾: لا يخلو إمّا أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأوّل، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم[٢] به، وهو عذابهم[٣] الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾: وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معدًّا لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً؛ وتنصره قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم»، وقرئ: «لتزول»: بلام الابتداء، على: وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع

---

(١) قوله: «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكنتم. (ع)

(٢) قوله: «وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به. والمكر أيضاً: المغرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاختضب اهـ، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه، فتدبر (ع).

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا لا يصح إلا إن كان «مكر» يتعدى بنفسه، كما قال هو إذ قدّر: يمكرهم به. والمحفوظ أن «مكر» لا يتعدى إلى مفعول به بنفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وتقول: «زيد ممكور به» ولا يحفظ «زيد ممكور بسبب كذا»». انتهى. الدر المصون.

من أماكنها، وقرأ علي وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: وإن كاد مكرهم، ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٥١].

فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول(١)؟

قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، ثم قال: (رسله): ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ـ وليس من شأنه إخلاف المواعيد ـ كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: «مخلف وعده رسله»: بجرّ الرسل، ونصب الوعد، وهذه في الضعف كمن قرأ: ﴿قتل أولادهم وشركائهم﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب لا يماكر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾: انتصابه على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام، والمعنى: يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة؛ وكذلك السموات، والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات؛ كقولك: بدلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، و﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] وفي الأوصاف؛ كقولك: بذلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها، وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير؛ وأنشد [من الطويل]:

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول... إلخ»؟ قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية، لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على ألسنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ[(١)]

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخر، وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: تبدّل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف، وقرئ: «يوم نبدّل الأرض»: بالنون[(٢)].

فإن قلت: كيف قال: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارُ﴾؟

قلت: هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: قرن بعضهم مع بعض، أو مع الشياطين، أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: إما أن يتعلق بمقرّنين، أي: يقرنون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرّنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال؛/ ١٨٦أ وأنشد لسلامة بن جندل [من الوافر]:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاَقَىٰ صِفَاداً يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وَبِعَظْمِ سَاقِ[(٣)]

القطران: فيه ثلاثة لغات: قَطران، وقِطران، وقِطْران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع

---

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عهدتهم سابقاً، لفناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.
ينظر: مجالس ثعلب (١/ ٤٩)، روح المعاني (١٣/ ٢٥٤)، الدر المصون (٤/ ٢٨١).

(٢) قوله: «وقرئ نبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة (ع).

(٣) لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير. قد لاقى: أي نال من أعدائه صفاداً، أي قيداً وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية. والباء للإلصاق، وأقحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم.

نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: «من قطرآن»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، «والآني»: المتناهي حرّه، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]؛ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه؛ ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [القمر: ٧]، وقرئ: «وتغشى وجوههم»: بمعنى: تتغشى، أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل، ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: مجرمة، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: أو كل نفس من مجرمة ومطيعة؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾: كفاية في التذكير والموعظة، يعني: بهذا ما وصفه من قوله: (ولا تحسبن) إلى قوله: (سريع الحساب)، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾: معطوف على محذوف، أي: لينصحوا ولينذروا، ﴿به﴾: بهذا البلاغ، وقرئ: «ولِيَنذروا»: بفتح الياء: من نذر به إذا علمه[1] واستعدّله، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأنّ الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْر حَسَنَاتٍ بَعَدَد كُلِّ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامَ وَعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ» (٨١٤).

---

٨١٤ ـ تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وقد تكلمنا عليه وعلى أسانيده عند الحديث رقم (٣٤٦).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
يأتي تخريجه في آخر الكتاب. انتهى.

---

(١) قوله: «من نذر به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو ـ بكسر الذال ـ إذا علموا (ع).

سُورَةُ الحِجْرِ

مَكِّيَّةٌ [إلاَّ آيَةَ ٨٧ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَهِيَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ يُوسُفَ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب، والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قرئ: «ربما»، «وربتما»: بالتشديد، «ورُبَما»، «ورَبَما»: بالضم والفتح مع التخفيف.

فإن قلت: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟

قلت: لأن المترقب في إخبار الله ـ تعالى ـ بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه قيل: «ربما ودّ».

فإن قلت: متى تكون ودادتهم؟

قلت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا ـ أيضاً ـ باب من الودادة.

فإن قلت: فما معنى التقليل؟[1].

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى تقليل ودادتهم... إلخ»؟ قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله [من البسيط]:

قـد أتـرك الـقـرن مـصـفـرا أنـامـلـه ....

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم. ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته =

قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله؛ ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك ألاّ تفعل هذا الفعل؛ لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون، كما يتحرّزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير؛ وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودّون الإسلام مرة واحدة، فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودّونه في كل ساعة، ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾: حكاية ودادتهم؛ وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم؛ كقولك: حلف بالله ليفعلنّ، ولو قيل: حلف بالله لأفعلنّ، ولو كنا مسلمين، لكان حسناً سديداً، وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا؛ فلذلك قلل، ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ يعني: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم: ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾: بدنياهم[1] وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، ألاّ يلقوا في العاقبة إلا خيراً، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾: سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدّي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين/ ١٨٦ب.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

= ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما ذكره الزمخشري آنفاً من التنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه. وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله [من الكامل]:

ولجدت حتى كدت تبخل حائلاً ... للمنتهي ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام، لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

(١) قوله: «ويتمتعوا بدنياهم» في الصحاح: سميت الدنيا لدنوها، والجمع دنا، مثل الكبرى والكبر، والصغرى والصغر (ع).

﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾: جملة واقعة صفة لقرية، والقياس ألاَّ يتوسط الواو بينهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب[١]، كتاب ﴿مَّعْلُومٌ﴾: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: في موضع كتابها، وأنث الأمة أوّلاً ثم ذكرها آخراً، حملاً على اللفظ، والمعنى: وقال: ﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾: بحذف «عنه»؛ لأنه معلوم.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾

قرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقى عليه الذكر»[٢]، وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء، والتهكم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٨٧]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقد يوجد كثيراً في كلام العجم، والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أنّ الله نزل عليك الذكر.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾

«لو»: ركبت مع: «لا»، و«ما»: لمعنيين: معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا نعلم أحداً قاله من النحويين. وفي محفوظي أن ابن جني سبقهما إلى ذلك».
ثم قال الشيخ: «وهو مبني على جواز أن ما بعد «إلاَّ» يكون صفة»، وقد منعوا ذلك. قال الأخفش: «لا يفصل بين الصفة والموصوف بـ«إلا» ثم قال: وأما نحو: «ما جاءني رجل إلا راكب»، على تقدير: إلا رجل راكب. ففيه قبح لجعلك الصفة كالاسم، وقال أبو علي: تقول: «ما مررتُ بأحدٍ إلا قائماً». قائماً حال، ولا تقول: «إلا قائم، لأنَّ «إلا» لا تعترض بين الصفة والموصوف». وقال ابن مالك ـ وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري في قوله: «ما مررتُ بأحدٍ إلا زَيْدٌ خَيْرٌ منه» أنَّ الجملة بعد «إلا» صفة لـ«أحدٍ»: إنه مذهب لا يعرف لبصري ولا كوفي، فلا يلتفت إليه، وأبطل قوله: «إنَّ الواو توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف». قُلْتُ: قول الزمخشري قوي من حيث القياس، فإنَّ الصفة كالحال في المعنى، وإن كان بينهما فرق من بعض الوجوه، فكما أن الواو تدخل على الجملة الواقعة حالاً، كذلك تدخل عليها واقعة صفة ويقويه أيضاً ما نظّر به من الآية الأخرى في قوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾». ويقويه أيضاً قراءة ابن أبي عبلة المتقدمة. وقال منذر بن سعيد: «هذه الواو هي التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «الذي ألقى عليه الذكر» لعله: إليه (ع).

التحضيض، وأما «هل»: فلم تركب إلا مع «لا»: وحدها للتحضيض؛ قال ابن مُقْبِلٍ [من البسيط]:

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا ... بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِي(١)

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، أو: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسلها؟

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

قرئ: «تنزل»: بمعنى تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل، وننزل الملائكة: بالنون ونصب الملائكة، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدّقون عن اضطرار، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقيل: الحق الوحي أو العذاب، و﴿إِذًا﴾: جواب وجزاء؛ لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: رد لإنكارهم واستهزائهم(٢) في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]؛ ولذلك قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة؛ فإنه لم يتول حفظها؛ وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

---

(١) لابن مقبل، ولولا ولوما: أصلهما «لو» التي تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره، فركبت مع «لا» و«ما» النافيتين. فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره، لأن نفي النفي إثبات، فإن لم يكن لها جواب أفادت معهما في المضارع للتحضيض، وفي غيره التنديم أو التوبيخ، يقول: لولا الحياء موجود، ولوما الدين موجود لعبتكما ببعض ما فيكما من العيوب، لأنكما عبتماني بعوري، أو عددتموه عيباً.

(٢) قال محمود: «هذا رد لإنكارهم واستهزائهم... إلخ» قال أحمد: ويحتمل أن يراد حفظه مما يشينه من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى، وذلك أيضاً من الدليل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

فإن قلت: فحين كان قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾: ردًا لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله: ﴿وإنا له لحافظون﴾؟

قلت: قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية، لتطرق عليه الزيادة والنقصان، كما يتطرق على كل كلام سواه، وقيل: الضمير في (له): لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾: في فرقهم وطوائفهم، والشيعة: الفرقة، إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾: حكاية حال ماضية؛ لأنّ «ما»: لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: «نسلكه»، للذكر، أي: مثل ذلك السلك، ونحوه: نسلك الذكر في: ﴿قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ على معنى: أنه يلقيه في قلوبهم[1] مكذباً مستهزءاً به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام، تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية،

---

(١) قال محمود: «معناه يلقيه في قلوبهم مكذباً به... إلخ» قال أحمد: والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة﴾ ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين، والله أعلم. ولذلك عقبه الله تعالى بقوله ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهاراً. وإلى ذلك الإشارة بقوله (فظلوا) لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد واللدد والإصرار لا غير والله أعلم.

ومحل قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: النصب على الحال، أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: (كذلك نسلكه)، ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

قرئ: ﴿يَعْرُجُونَ﴾: بالضم والكسر، و﴿سُكِّرَتْ﴾: حيرت أو حبست من الإبصار، من السكر أو السكر، وقرئ: «سكرت»: بالتخفيف[1] أي: حبست كما يحبس النهر من الجري، وقرئ: «سكرت»: من السكر، أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك، وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما؛ ليدل على أنهم يبتون/ ١٨٧أ القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾: في محل النصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها، ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهر للمبصرين، ﴿مَّوْزُونٍ﴾: وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها، ﴿مَعَٰيِشَ﴾: بياء صريحة، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما؛ فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب: الهمزة، أو إخراج الياء بين بين، وقد قرئ: «معائش»: بالهمزة على التشبيه، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾: عطف على معايش، أو على محل لكم؛ كأنه قيل:

---

(١) قوله: «وقرئ (سكرت) بالتخفيف»: لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما يأتي من السكر بالضم (ع).

وجعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين، وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون؛ فإنّ الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون، ولا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في: (لكم)؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

ذكر الخزائن تمثيل، والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له؛ فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَوَٰقِحَ﴾: فيه قولان: أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير: ريح عقيم، والثاني: أن اللواقح بمعنى: الملاقح؛ كما قال [من الطويل]:

.... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ[1]

---

(١) لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

لضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد بن نهشل. وقيل غير ذلك. وليبك: مبني للمفعول، واللام للطلب، ويزيد نائب الفاعل، وضارع فاعل لفعل محذوف، وفي الكلام سؤال مقدر، كأنه قيل: من يبكيه؟ فقيل يبكيه ضارع وهو الدليل، ومختبط وهو السائل، كأنه يختبط أبواب المسئولين. وما مصدرية، وتطيح تهلك. وقال الجوهري: طوحته الطوايح قذفته القواذف، ولا يقال: المطوحات، وهو من النوادر، والقياس المطيحات من أطاح. أو المطوحات من طوح. وقال الأصمعي: هو جمع طائحة. يقال: ذهبت طائحة من العرب أي طائفة منها. أي: يبكيه المختبط من أجل إهلاك الطوائح ماله، فمما متعلق بمختبط. وقيل: يجوز تعلقه بالفعل المقدر، كقوله الخصومة. ونقل العصام عن العارف الرومي: أن يزيد منادى، وحرف النداء محذوف، وضارع نائب الفاعل؛ لأن الضارع والمختبط أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذي كان يغيثهما. وروي ليبك يزيد بالبناء للفاعل ونصب يزيد، فضارع فاعل للفعل المذكور، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضاً، أي: ليبك عليك يا يزيد ضارع ومختبط.

وهو للحارث بن نهيك في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٤، وشرح المفصل لابن يعيش ١/ ٨٠، والكتاب ١/ ٢٨٨، وللبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه ص٣٦٢، ولنهشل بن حريّ في خزانة الأدب ١/ ٣٠٣، ولضرار بن نهشل في الدرر ٢/ ٢٨٦، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٠٢، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه ١/ ١١٠، ولنهشل، أو للحارث، أو لضرار، أو لمزرد بن ضرار، أو للمهلهل في المقاصد النحويّة ٢/ ٤٥٤، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/ =

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: «وأرسلنا الريح»: على تأويل الجنس، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فجعلناه لكم سقياً. ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى: نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: «وارث»: استعارة من وارث الميت؛ لأنه يبقى بعد فنائه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا» (٨١٥)، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾: من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي أن امرأة حسناء

---

٨١٥ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/٥٢٨) كتاب الدعوات باب (٨٠) حديث رقم (٣٥٠٢)، وقال التِّرمذي: هذا حديث حسن غريب، والنَّسائي (٦/١٠٧) كتاب «عمل اليوم والليلة» باب ١١٥ حديث رقم (١٠٢٣٤).

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه الحاكم (٢/١٤٢). وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه التِّرمذي والنَّسائي والبزار. والحاكم من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات: اللهم اقسم لنا من خشيتك ـ الحديث»، وفيه: «واجعله الوارث منا». قال التِّرمذي: حديث حسن وقال البزار: تفرد به عبد الله ابن رواحة. وهو واهي الحديث، وأخرج من رواية حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة: «أنه ﷺ كان يقول: اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني»، وأخرجه أبو يَعلى أيضاً، وفي التِّرمذي والحاكم من حديث أبي هريرة قال: «كان من دعاء النبي ﷺ: اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني»، وفي الطبراني والأوسط عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو» فذكر مثله. انتهى.

= ٣٤٥، ٧/٢٤، وأمالي ابن الحاجب ص ٤٤٧، ٧٨٩، وأوضح المسالك ٢/٩٣، وتخليص الشواهد ص ٤٧٨، وخزانة الأدب ٨/١٣٩، والخصائص ٢/٣٥٢، ٤٢٤، وشرح الأشموني ١/١٧١، وشرح المفصل لابن يعيش ١/٨٠، والشعر والشعراء ص ١٠٥، ١٠٦ والكتاب ١/٣٦٦، ٣٩٨، ولسان العرب (طوح)، والمحتسب ١/٢٣٠، ومغني اللبيب ص ٦٢٠، والمقتضب ٣/٢٨٢.

كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها؛ فنزلت (٨١٦) ﴿هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ أي: هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾: باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾

الصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف: «صل»: إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه[1]، وقيل: المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها، وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتناً، ﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾: صفة لصلصال، أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق، ﴿مَّسۡنُونٖ﴾ بمعنى: مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر، ﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾: للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمرو بن

---

٨١٦ ـ أخرجه التِّرمذي (٥/ ٢٩٦) كتاب تفسير القرآن باب (١٦) حديث رقم (٣١٢٢)، والنَّسائي (١/ ٣٠٢) كتاب الإمامة والجماعة باب المنفرد خلف الصف حديث رقم (٩٤٢)، (٦/ ٣٧٤) كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ حديث رقم (١١٢٧٣)، وابن ماجه (١/ ٣٣٢) حديث رقم (١٠٤٦)، أحمد (١/ ٣٠٥)، ابن خزيمة (٣/ ٩٦) حديث رقم (١٦٩٦)، البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٠) حديث رقم (٥٤٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٥٣)، والطبري في تفسيره (٧/ ٥٠٩) رقم (٢١١٣٦).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه التِّرمذي والنَّسائي وابن ماجه وابن حِبان والحاكم وأبو يَعلى وأحمد والبزار والطبري وابن أبي حاتم من رواية أبي الجوزاء أوس بن عبد الله عن ابن عباس قال «كانت امرأة حسناء من أحسن الناس تصلي خلف رسول الله ﷺ وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها، أو يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف الآخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه. فأنزل الله هذه الآية. قال البزار: لا نعلم رواه ابن عباس ولا له طريق إلا هذه وقال التِّرمذي: رُوي عن أبي الجوزاء مرسلاً، وهو أشبه. انتهى.

---

(١) قوله: «من سنة الوجه» في الصحاح: سنة الوجه صورته (ع).

عبيد: «والجأن»؛ بالهمز، ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزء من سموم النار التي خلق الله منها الجانّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: واذكر وقت قوله: ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: عدلت خلقته، وأكملتها، وهيأتها لنفخ الروح فيها، ومعنى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ؛ وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه، واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب؛ كقولك: رأيتهم إلا هنداً، و﴿أَبَىٰٓ﴾: استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى، حرف الجر مع «أن»: محذوف، وتقديره: ﴿مَا لَكَ﴾ في ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بمعنى: أيّ غرض لك في إبائك السجود، وأي داع لك إليه، اللام في ﴿لِّأَسْجُدَ﴾: لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصحّ مني وينافي حالي، ويستحيل أن أسجد لبشر، ﴿رَجِيمٌ﴾: شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها، والضمير في (منها): راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة، وضرب يوم الدين حدا للعنة، إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم؛ كقوله/ ١٨٧ب: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨]: في التأبيد، وإما أن يراد أنك مذموم مدعوّ عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه، و(يوم الدين)، و(يوم يبعثون)، و(يوم الوقت المعلوم): في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة، وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى

ذلك، وأنظر إلى آخر أيام التكليف، ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء: للقسم، و«ما»: مصدرية وجواب القسم ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ومعنى إغوائه إياه: تسبيبه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ فأفضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه[1] ومن إرادته والرضا به؛ ونحو قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: في أنه إقسام، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز ألاّ يكون قسماً، ويقدر قسم محذوف، ويكون المعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: في الدنيا التي هي دار الغرور؛ كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أو أراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا عليّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد: لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزييني فيها، أي: لأزيننها في أعينهم ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها؛ ونحوه [من الطويل]:

.... يَجْرَحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي[2]

---

(١) قوله: «والله تعالى بريء من غيه» هذا على مذهب المعتزلة: أن الله لا يريد الشر ولا يخلقه. ومذهب أهل السنة: أن كل كائن فهو يخلقه تعالى وإرادته، خيراً كان أو شرا، وإن كان لا يرضى الشر من العبد، وتفصيله في التوحيد.

(٢) فما لائم يوماً أخ وهو صادق ... إخائي ولا اعتلت على ضيفها إبلي
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه ... فصالي ولو كانت عجافاً ولا أهلي
وإن تعتذر بالمحل عن ذي ضروعها ... إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

لذي الرمة يمدح نفسه، والإخاء مصدر آخاه، كالوفاق مصدر وافقه، والصحاب مصدر صاحبه، وزنا ومعنى. يقول: وما لام أخ من يوم أي في يوم. وعبر بمن لإشعارها بالاستغراق. أي: لم نلم، والحال أنه صادق في لومه، أو في أخوته مصاحبة لي معه، وقصر الإخاء للوزن، وضمن لام معنى عاب؛ فعداه إليه. ويجوز أن إيقاع اللوم عليه مجاز عقلي؛ لأن الإخاء كأنه محل اللوم، ولا اعتلت أي أبدت لضيفها علة في التأخر عن قراه، وإسناد الفعل للإبل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراه، وذلك كناية عن غاية كرمه، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلي، لأنها سبب في اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كان بخيلاً، وإضافة الضيف إليها ترشيح لذلك. ويحتمل أنه شبه الإبل بالكرماء على طريق المكنية، فذلك تخييل، وبين عدم الاعتلال بقوله: «إذا كان فيها الرسل» وهو اللبن القليل، ويطلق على الجمل السهل، لم تأت دونه: أي قريباً من اللبن. فصالي: جمع فصيل، وهو ولد الناقة. ونفى قربها كناية عن نفي ارتضاعها له، ولو كانت عجافاً: أي مهازيل، ولا أهلي: ولا جياعاً، وإن تعتذر الإبل بالمحل والجدب، عن ذي ضروعها: كناية عن اللبن، لأنه ملازم للضروع يجرح نصلي: أي سيفي أو سهمي في عراقيبها، وهي بمنزلة الركب للإنسان، =

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه، أي: ﴿هذا﴾ طريق حق، ﴿عَلَيَّ﴾: أن أراعيه، وهو ألاّ يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ: «عليّ»، وهو من علو الشرف والفضل، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الضمير: للغاوين، وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني: لليهود، والثالث: للنصارى، والرابع: للصابئين، والخامس: للمجوس، والسادس: للمشركين، والسابع: للمنافقين، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى: «لعبدة النار، والحطمة: لعبدة الأصنام وسقر: لليهود، والسعير: للنصارى، والجحيم: للصابئين، والهاوية: للموحدين، وقرئ: «جزء»: بالتخفيف والتثقيل، وقرأ الزهري: «جزّ»؛ بالتشديد؛ كأنه حذف الهمزة، وألقى حركتها على الزاي؛ كقولك: خبّ في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد؛ كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

المتقي على الإطلاق: من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها، ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾: على إرادة القول، وقرأ الحسن: «أدخلوها» ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: سالمين أو مسلماً عليكم: تسلم عليكم الملائكة، الغل: الحقد الكامن في القلب، من الغل في جوفه وتغلغل، أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحارث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له عليّ: مرحباً بك يا ابن أخي، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فقال له قائل: كلا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أمّ لك

= وإسناد الاعتذار إليها مجاز، وكذلك إسناد الجرح للنصل، لأنه آلته. ومعنى الجرح في العراقيب: أنه يجعلها مكاناً معدا له، ولو قال: يجرح عراقيبها، لفات ذلك المعنى: وقيل: ضمنه معنى يعثو أي يفسد، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الإبل ويجمعوا دماءها ويضعوها على النار فتصير كالكبد، ويقرون بها الضيفان في الجدب، فحرمه الله: ويجوز أنه كناية عن نحرها، لأنهم كانوا يعقرون الجمل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم، وهذا هو الذي يقتضيه مقام المدح.

ينظر: ديوانه ص ١٥٦، وأساس البلاغة (عذر)، وخزانة الأدب ٢/ ١٢٨، وشرح المفصل لابن يعيش، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٥١، وخزانة الأدب ١٠/ ٢٣٣، ومغني اللبيب ٢/ ٥٢١.

(٨١٧)؟ وقيل: معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غل، وألقى فيها التوادّ والتحاب، و﴿إِخْوَانًا﴾: نصب على الحال، و﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾: كذلك، وعن مجاهد: تدور بهم الأسرة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه، ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾: تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب، وعطف ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: على نبئ عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿سَلَـٰمًا﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً، ﴿وَجِلُونَ﴾: خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل، وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت، وقرأ الحسن: «لا

---

٨١٧ ـ أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢١٠)، والطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن سعد في الطبقات؛ كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٢١٢)؛ كلهم من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب به، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٦) من طريق أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي... الحديث وصححه.

وأخرجه أيضاً (٢/ ٣٥٣) من طريق ربعي بن حراشن. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الطبراني في الأوسط والعقيلي وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال: كنت عند علي بن أبي طالب إذ جاءه عمران بن طلحة فذكره. وفيه: «فقال الحارث ـ يعني الراوي ـ: الله أجل وأعدل من ذلك، وله طريق أخرى أخرجها الحاكم من طريق ربعي بن خراشن قال: «إني لعند علي جالس إذ جاءه ابن طلحة، فسلم عليه فرحب به، فقال: ترحب بي يا أمير المؤمنين، وقد قتلت والدي، وأخذت مالي؟ قال: أما مالك فهو معزول في بيت المال، أعد إليه فخذه، وأما أبوك فإني أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذي قال الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل ـ الآية﴾ فقال رجل من همدان: فذكره. ورواه الحاكم أيضاً والطبري من طريق أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران ابن طلحة على علي ـ رضي الله عنه ـ وذكر نحوه. انتهى.

توجل»: بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه، وقرئ: «لا تأجل»؛ «ولا تواجل»: من واجله بمعنى: أوجله، وقرئ: (نبشرك): بفتح النون والتخفيف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾: استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل: أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل، يعني ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾: مع مس الكبر، بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هي: ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشروني، آو أراد: أنكم تبشرونني بما هو غير متصوّر في العادة، فبأي شيء تبشرون، يعني/ ١٨٨أ: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء، ويجوز ألاّ يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة، يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة، وقوله: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أي: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقرئ: «تبشرون»: بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل: تبشرونن وتبشرونّ[1]. بإدغام نون الجمع في نون العماد، وقرئ: «من القنطين» من قنط يقنط، وقرئ: «ومَنْ يَقْنُطُ»؛ بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون؛ كقوله: ﴿لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، يعني: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

فإن قلت قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: استثناء متصل أو منقطع؟[2].

قلت: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم، فيكون منقطعاً؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين، فيكون متصلاً؛ كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا

---

(١) قوله: «وتبشرون» بكسر النون والتشديد. قاله النسفي (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل. . . إلخ» قال أحمد: وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً، من حيث إن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفي، لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً، والله أعلم.

﴿غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾.

فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟

قلت: نعم؛ وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين، كإرسال الحجر أو السهم أو المرميّ، في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأمّا في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً[1] بمعنى: الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول.

فإن قلت: فقوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ بم يتعلق على الوجهين؟

قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكنّ» في الاتصال بآل لوط؛ لأنّ المعنى: لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم.

فإن قلت: فقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ ممّ استثني، وهل هو استثناء من استثناء؟

قلت: استثني من الضمير المجرور في قوله: (لمنجوهم)، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً. إلا اثنتين، إلا واحدة، وفي قول المقرّ: لفلان عليّ عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهماً، فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان؛ لأنّ (إلا آل لوط): متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين، و(إلا امرأته): قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون استثناء من استثناء، وقرئ: (لمنجوهم): بالتخفيف والتثقيل.

فإن قلت: لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[2]،

---

(١) قوله: «فلا يكون الإرسال مخلصاً» لعله: مختصا (ع).

(٢) عاد كلامه. قال محمود: «فإن قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ إلخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أن الأمر أنف، لأنهم لا يعتقدون أن الله تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد، بمعنى أنه مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد، بمعنى أنه مريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته في ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح =

والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟

قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير ـ وهو لله وحده ـ إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدّر الله؟

قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم؛ وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه، وقرئ: «قَدَرنا»: بالتخفيف.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾

﴿مُّنكَرُونَ﴾ أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشرّ؛ بدليل قوله: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه ويكذبونك، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: باليقين من عذابهم، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: في الإخبار بنزوله بهم، وقرئ: «فأسر»: بقطع الهمزة ووصلها، من أسرى وسرى، وروى صاحب الإقليد: فسر من السير والقطع في آخر الليل؛ قال [من الخفيف]:

افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ[(١)]

= فلقها، وفي كلامه شاهد على رده، فإن التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر: أن يبقى على معناه الأصلي، مضافاً إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ يفيد الإرادة أصلاً ووضعاً. والله أعلم؛ على أن من الناس من جعل قوله تعالى ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة، وهو الظاهر؛ فإن الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر، وبذلك أوله الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين، فلا غرو في علم الملائكة ذلك بإخبار الله تعالى إياهم به، وإنما يحتاج إلى التأويل: من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة، والله أعلم.

(١) يقول لصاحبته وكان يحب طول الليل ويدعيه: افتحي باب البيت وانظري وتأملي في النجوم، أمالت جهة الغرب أم لا؟ وكم: يحتمل أنها خبرية للتكثير، ويحتمل أنها استفهامية، ثم يحتمل أنها مستأنفة، ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل في لفظها لأن لها الصدارة. والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جواب الاستفهام المذكور. وقطع الليل: ظلمته. وقال في =

وقيل: هو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قلت: ما معنى: أمره باتباع أدبارهم[1] ونهيهم عن الالتفات؟

قلت: قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدّم سربه ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب[2] فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة[3] ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً[4] غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه/ ١٨٨ب فلا يزال يلوي إليه أخادعه؛ كما قال [من الطويل]:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا[5]

= الصحاح: ظلمة آخره، والمراد به هنا جزء الليل. والبهيم: شديد الظلام لانبهام الأشياء فيه، ووصفه بذلك ملائم للمقام.
ينظر: لسان العرب (قطع)، وتاج العروس (قطع)، وديوان الأدب (١/ ١٨٨)، وكتاب العين (١/ ١٣٩).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم... إلخ» قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب... إلخ» قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها آداب المسافرين لمهم ديني أو دنيوي، من الآمر والمأمور والتابع والمتبوع ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾.

(٣) قوله: «وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقديماً، والأصل: على المهاجرة عن مساكنهم ويطيبوها، فليحرر (ع).

(٤) قوله: «ويمضوا قدماً» في الصحاح «مضى قدماء بضم الدال: لم يعرج ولم ينثن (ع).

(٥) ولـمـا رأيـت الـبـشـر أعـرض دونـنـا وحـالـت بـنـات الـشـوق يـحـنـن نـزعـا
بكـت عيـنـي الـيـسـرى فـلـمـا زجـرتـهـا عن الجـهـل بعـد الحـلـم أسـبـلـتـا مـعـا
تـلـفـت نـحـو الـحـي حـتـى وجـدتـنـي وجـعـت مـن الإصـغـاء لـيـتـا وأخـدعـا

للصمة بن عبد الله بن طفيل بن الحرث، والبشر: السرور وما به السرور، وأعرض: ظهر أمامنا، وحالت ـ بالمهملة ـ أي صارت حائلاً بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه، وبكت: جواب لما، وخص اليسرى أولاً؛ لأنه كان أعور. ويروى: جالت، بالجيم أي حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق في قلبي، حال كونها تحن إلى المحبوبة، نازعات شائقات إليها، يقال: نزع نزوعاً إذا مال قلبه واشتاق إلى حبه. والنزع: جمع نازع، فشبه الخواطر بالبنات على طريق التصريحية، لتولدها من =

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة، ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: قيل: هو مصر، وعدّي (وامضوا) إلى (حيث): تعديته إلى الظرف المبهم؛ لأن (حيث): مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في (تؤمرون)، وعدي (قضينا) بإلى؛ لأنه ضمن معنى: أوحينا، كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضيا مبتوتاً، وفسر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي إبهامه وتفسيره وتفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: «إن»: بالكسر على الاستئناف، كأن قائلاً قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إنّ دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: «وقلنا إنّ دابر هؤلاء»، ودابرهم: آخرهم، يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾: أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾: بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم، ﴿ولا تخرون﴾: ولا تذلونِ بإذلال ضيفي، من الخزي وهو الهوان، أو ولا تشوّروا[1] بي، من الخزاية وهي الحياء، ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: عن أن تجير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم؛ فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه

= الشوق وإثبات الجولان والحنين، والنزوع ترشيح؛ لأن الأول خاص بالمحسوس، والأخيران بالمدرك. وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلي؛ لأنهما في الحقيقة لمحلها وهو القلب، بل الشخص وهو سببها. والجهل ضد الحلم. أسبلتا: سالت دموعهما، وإسناد البكاء للعين مجازاً، ومعناه دمعت عيني، فيجوز تشبيهها بالإنسان على طريق المكنية، وزجرها ترشيح، وجهلها وحلمها تخييل، وتلفت: أي أكثرت الالتفات جهة الحي، حتى وجع ليتي وأخدعي. يقال: وجع وجعاً كتعب تعباً. والليت ـ بالكسر ـ: صفحة العنق. والأخدع: عرق فيها، وهما تمييزان محولان عن الفاعل، وذلك مبالغة في كثرة التلفت.
ينظر: لسان العرب (وجع)، وأساس البلاغة (لفت).

(١) قوله: «ولا تشوروا بي» في الصحاح «الشوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل: شور به، أي كأنه أبدى عورته (ع).

وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين، وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾: إشارة إلى النساء؛ لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهنّ، وخلوا بنيّ فلا تتعرضوا لهم، ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾: شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم، ﴿لَعَمۡرُكَ﴾: على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ: لعمرك، ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزه مبين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات، ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك؟ وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد؛ إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه؛ وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم؛ ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله، وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم، ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾: داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: من طين، عليه كتاب من السجل؛ ودليله قوله تعالى: ﴿حجارة من طين مسوّمة عند ربك﴾ [الذاريات: ٣٣؟٣٤]، أي: معلمة بكتاب، ﴿لِلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمتفرّسين المتأملين، وحقيقة المتوسمين: النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا، أي: عرفت وسمه فيه، والضمير في (عاليها سافلها): لقرى قوم لوط، ﴿وَإِنَّهَا﴾: وإنّ هذه القرى يعني: آثارها ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾: ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش؛ كقوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصافات: ١٣٧].

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ قوم شعيب، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: قرى قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة ومدين، لأنّ شعيباً كان مبعوثاً إليهما، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾: لبطريق واضح، والإمام: اسم لما يؤتم به، فسمي به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾: ثمود، والحجر: واديهم، وهو بين المدينة والشام، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: بتكذيبهم صالحاً؛ لأنّ من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، حَذَراً أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ هَؤُلاءِ» ثم زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها (٨١٨)، ﴿ءَامِنِينَ﴾: لوثاقة البيوت، واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة، لا باطلاً وعبثاً، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾: وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم؛ فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك، ﴿فَٱصْفَحِ﴾: فأعرض عنهم، واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف، ويجوز أن يراد به المخالقة[1] فلا يكون منسوخاً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾: الذي خلقك وخلقهم، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم،/ ١٨٩أ أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم

---

٨١٨ ـ قال الزيلعي: غريب من حديث جابر، وقال الحافظ: لم أجده من حديث جابر، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه مسلم (٩/ ٣٣٧) نووي كتاب الزهد والرقائق باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» حديث رقم (٢٩٨٠).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده من حديث جابر، وهو في الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله: «ناقته»، وفي رواية: إن ذلك كان في غزوة تبوك. انتهى.

---

(١) قوله: «يراد به المخالقة» أي المعاملة بحسن الخلق. وفي الصحاح: يقال خالص المؤمن، وخالق الفاجر اهـ (ع).

ما هو الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح، وفي مصحف أبيّ وعثمان: «إن ربك هو الخالق» وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير؛ كقولك: قطع الثياب، وقطع الثوب والثياب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿سَبْعًا﴾: سبع آيات وهي الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنهما في حكم سورة واحدة؛ ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي الأسباع، و﴿ٱلْمَثَانِى﴾: من التثنية وهي التكرير؛ لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية، وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء، كأنها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى، و«من»: إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني؛ لأنها تثني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة، ويكون القرآن بعضها.

فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟

قلت: إذا عنى بالسبع الفاتحة أو الطوال، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، يعني: سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، وهو الثناء أو التثنية والعظم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافاً من الكفار.

فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟[1].

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف وصل هذا بما قبله... إلخ»؟ قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن «تغنى» إنما يبني من الغناء =

قلت: يقول لرسوله ﷺ: «قَدْ أُوتِيتَ النِّعْمَةَ العُظْمَىٰ الَّتِي كُلُّ نِعْمَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ فَهِيَ إِلَيْهَا حَقِيرَةٌ ضَئِيلَةٌ، وَهِيَ الْقُرْآنُ العَظِيمُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَغْنِي بِهِ، وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَتَاعِ الدُّنْيَا»، ومنه الحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» (٨١٩)، وحديث أبي بكر: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً» (٨٢٠)، وقيل: وافت من بصري وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير،

---

٨١٩ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ٥١٠) كتاب التوحيد باب: قوله تعالى ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾. رقم (٧٥٢٧)، وأبو داود (١/ ٤٦٤) كتاب الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة رقم: (١٤٦٩ ـ ١٤٧٠ ـ ١٤٧١).
والبيهقي (٢/ ٥٤) كتاب الصلاة، باب: كيف قراءة المصلي، (١٠/ ٢٢٩) كتاب الشهادات، باب: تحسين الصوت بالقرآن والذكر، أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢ ـ ١٧٥ ـ ١٧٩). والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٦٩، ٥٧٠) كتاب: فضائل القرآن، والحميدي في «المسند» (١/ ٤١)، رقم (٧٦ ـ ٧٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٢١٠)، وعبد الرزاق (٢/ ٤٨٣) رقم: (٤١٧٠ ـ ٤١٧١).
وذكرهُ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٤٠) الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به رقم (٢١٤٨) والبغوي في «شرح السُّنة» (٣/ ٣٣) كتاب فضائل القرآن باب: التغني بالقرآن رقم: (١٢١١) والهندي في «كنز العمال» (١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٩) رقم (٢٧٦٩ ـ ٢٧٩٧) والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٤٩).
قال الحافظ:
أخرجه البخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة، وفي الباب عن سعد وأبي لُبابة عند أبي داود.
قال المخرج ذهل النووي وقبله المنذري، ثم الطيبي فعزوه لأبي داود ولم يعزوه للبخاري، وأخطأ القرطبي فعزاه لمسلم لا للبخاري، ولم يذكره صاحب جامع الأصول، وعزاه الحاكم للشيخين والذي في الصحيحين حديث أبي هريرة: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به».
(فائدة) قال البيهقي في السنن في كتاب الشهادات: أخبرنا الحاكم عن أبي الأصم سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعي يقول: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. فقال له رجل: يستغن؟ قال: ليس هذا معناه، أي معناه يقرأه تحزينا. انتهى.
٨٢٠ ـ قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، وعزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه في مسنده، ومن طريق ابن راهويه رواه الطبراني في معجمه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. ينظر «تخريج الكشاف» (٢/ ٢١٨).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده عن أبي بكر وأخرجه ابن عدي في ترجمة حمزة النصيلي عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن ابن مسعود رفعه: «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظيماً وعظم صغيراً»، =

= الممدود لا من الغنى المقصور، وأن فعله استغنى خاصة، وقد وجدت بناء تغنى من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخيل. وأما التي هي ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعاً واتفاقاً، وهو مصدر تغني، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف، والله الموفق.

فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله ـ عز وعلا ـ: «لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء، ﴿وَقُلْ﴾: لهم ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾: أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾؛ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل، وعضوه[1]، وقيل: كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤونه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم: سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾ أي: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني: اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير، أي: أنذر المعضين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا في كل مدخل متفرّقين لينفروا الناس عن الإيمان

= وحمزة اتهموه بالوضع. وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «من أعطي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظمه الله» ـ الحديث. انتهى.

---

(١) قوله: «وعضوه» في الصحاح: عضيت الشاة تعضية، إذا جزأتها أعضاء. وعضيت الشيء تعضية، إذا فرقته (ع).

برسول الله ﷺ يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا؛ فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بآفات، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا ـ صالحاً ـ عليه السلام ـ والاقتسام بمعنى: التقاسم.

فإن قلت: إذا علقت قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بقوله: (ولقد آتيناك): فما معنى توسط (لاتمدّنّ) إلى آخره بينهما؟

قلت: لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية، من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين (عضين) أجزاء، جمع عضة، وأصلها عِضْوَة فِعْلَة: من عضى/ ١٨٩ب الشاة إذا جعلها أعضاء؛ قال رؤبة [من الرجز]:

وَلَـــيْـــسَ دِيـــنُ الله بِـــالْـــمُـــعَـــضَّـــىٰ

وقيل: هي فعلة، من عضهته إذا بهته[1]، وعن عكرمة: العضة: السحر، بلغة قريش، يقولون للساحر: عاضهة، ولعن النبي ﷺ العاضهة والمستعضهة (٨٢١)، نقصانها على الأول: واو، وعلى الثاني: هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾: عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً؛

---

٨٢١ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٤/ ٣٦٧) من طريق زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس به.
وأخرجه أبو يَعلى من هذا الطريق؛ كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٢١٨).
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو يَعلى وابن عدي من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء. انتهى.

---

(١) قوله: «إذا بهته» أي اتهمته (ع).

كقولك: صرح بها، من الصديع وهو الفجر، والصدع في الزجاجة: الإبانة، وقيل: (فاصدع) فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر، والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجارّ؛ كقوله [من البسيط]:

أَمَـرْتُـكَ الْـخَـيْـرَ فَـافْـعَـلْ مَـا أُمِـرْتَ بِـهِ ....(١)

ويجوز أن تكون (ما): مصدرية، أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن الطلاطلة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ماتوا كلهم قبل بدر، قال جبريل ـ عليه السلام ـ للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف؛ تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل، فدخلت فيها شوكة، فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله، حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب، فعمي، وأشار إلى أنف الحارث بن قيس، فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (٨٢٢).

---

٨٢٢ ـ أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣١٦) عن ابن عباس، وابن هشام في سيرته (٢/ ٢٠) عن ابن إسحاق.

---

(١) فـقـال لـي قـول ذي رأي ومـقـدرة ... مـحـرر نـزه خـال مـن الـريـب
أمرتك الـخير فـافعـل مـا أمـرت بـه ... فـقـد تـركـتـك ذا مـال وذا نـشـب

لخفاف بن ندبة، وقيل: لعباس بن مرداس. وقيل: لعمرو بن معد يكرب. وقيل: لإياس بن موسى، والمقدرة: مثلث الدال: القوة، والمحرر النزه ـ كحذر ـ: الخالص من الغش. والريب، أي الشبه، وهو نعت لذي رأي. ولو جعلته نعتاً للرأي لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالعطف. ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول. والنشب: المال الأصل صامتاً أو ناطقاً، فهو من عطف الخاص على العام. ويروى: ذا نسب، بالمهملة: أي نسب عظيم، وأمر: يتعدى للثاني بالباء. ويقال: أمرتك الخير على التوسع، أو تضمين التكليف، وجمعهما الشاعر في البيت.
البيت للعباس بن مرداس. ينظر: ديوانه ٤٧، قصيدة رقم ٢، ص ٣١، المقتضب، ٢/ ٣٥، الكتاب ١/ ٣٧، المحتسب ١/ ٥١، أمالي ابن الشجري ١/ ١٦٥، الهمع ٢/ ٨٢، الدرر ٢/ ١٠٦، شرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٢، ٨/ ٥٠، الخزانة ١/ ٣٣٩، الشذور ٣٦٩، المغني ١/ ٣١٥، ونسب البيت إلى خفاف بن ندبة وهو في ملحقات ديوانه ص١٢١، ونص (أمرتك الرسن) ونسب لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وهو في ديوانه ٦٣، الأصول ١/ ١٧٨، شرح الجمل لابن عصفور ١/ ٣٠٥، الدرر ٢/ ١٠٦، الدر ١/ ١٣٣.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾: من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن، ﴿فَسَبِّحْ﴾: فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم، ودم على عبادة ربك، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، أي: ما دمت حيًا فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ: أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٨٢٣).

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الحِجْرِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَالمُسْتَهْزِئِينَ بِمُحَمَّدٍ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٨٢٤).

= وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده بهذا السياق. وأخرجه الطبراني في معجمه. وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لهما. وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾، قال: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود ابن المطلب، وأبو زمعة والحرث بن عيطل السهمي، قال: أتاه جبريل فشكاهم إليه. فأراه الوليد ابن المغيرة فأومأ جبريل إلى أكحله. فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته. فساق الحديث. قال: فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له فأصاب أكحله فقطعها. وأما الأسود بن المطلب فعمي. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها. وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف فربط به حماره على شبرقة يعني شوكة. فدخلت في أخمص قدمه فقتلته. وأما الحرث بن عيطل فأخذه ألم الأصفر في بطنه حتى خرج خرءه من فيه فمات منها». انتهى.

٨٢٣ ـ قال الحافظ:
تقدم في البقرة. انتهى.

٨٢٤ ـ أخرجه الواحدي في تفسيره الوسيط (٣/ ٣٨)، وعزاه الزيلعي للثعالبي، وابن مردويه في تفسيره بسنده في آل عمران. وينظر حديث رقم (٣٤٦).
قال الحافظ:
رواه الثعلبي من طريق أبي الخليل عن علي بن زيد عن زر بن حبيش عن أُبي بن كعب، وقد تقدمت أسانيده في آخر آل عمران. انتهى.

سُورَةُ النَّحْلِ

مَكِّيَّةٌ، غَيْرُ ثَلاَثِ آيَاتٍ فِي آخِرِهَا

وَتُسَمَّىٰ سُورَةُ النِّعَمِ، وَهِيَ مَائَةٌ وَثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً

[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الكَهْفِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر؛ استهزاء وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: روي أنه لما نزلت: (اقتربت الساعة) قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً؛ فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به؛ فنزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رءوسهم؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: فاطمأنوا، وقرئ: «تستعجلوه»: بالتاء والياء، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تبرأ ـ عزّ وجلّ ـ عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أنّ «ما»: موصولة أو مصدرية.

فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟

قلت: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: «تشركون»: بالتاء والياء.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

قرئ: (ينزل): بالتخفيف والتشديد، وقرئ: (تنزل الملائكة) أي: تتنزل، ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ

﴿أَمۡرِهِۦ﴾: بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، و﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾: بدل من الروح، أي: ينزلهم بأن أنذروا، وتقديره: بأنه أنذروا، أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا، أو تكون «أن»: مفسرة؛ لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول، ومعنى أنذروا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: اعلموا بأنّ الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم: أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا ﴿فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه؛ ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: «تشركون»: بالتاء والياء، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، فيه معنيان:

أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منيّ جماداً لا حس به ولا حركة؛ دلالة على قدرته.

والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم؛ وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ؟ (٨٢٥).

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾/ ١٩٠أ: الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر، كقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩]، ويجوز أن يعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال: ﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان، والدفء: اسم ما يدفأ به، كما أنّ الملء اسم ما يملأ به، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: «دفّ»: بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على

---

٨٢٥ ـ قال الحافظ:

سيأتي في سورة يس. انتهى.

الفاء، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي: نسلها ودرّها وغير ذلك.

فإن قلت: تقديم الظرف في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها.

قلت: الأكل منها هو الأصل[1] الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة ـ فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء[2] ـ أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس؛ ونحوه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

فإن قلت: لم قدّمت الإراحة على التسريح؟

قلت: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها، وقرأ عكرمة: «حينا تريحون وحينا تسرحون»: على أن (تريحون وتسرحون): وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

قرئ: «بشق الأنفس»: بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى المشقة، وبينهما فرق: وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقًّا، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق فالنصف، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المجرور وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل. . . إلخ»؟ قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها.

(٢) قوله: «وتجاوب فيها الثغاء والرغاء» الثغاء صوت الشاء والمعز وما شاكلهما. والرغاء صوت ذوات الخف، كذا في الصحاح.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ﴾: كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم.

قلت: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة.

فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ﴾ قوله: (وتحمل أثقالكم)، وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه(١)؟

قلت: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة، ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾: عطف على الأنعام، أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.

فإن قلت: لم انتصب ﴿وَزِينَةً﴾؟

قلت: لأنه مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد(٢)؟

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم... إلخ»؟ قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لا يستغني عن أثقال يستصحبها والمعنى الأول أعلى، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سن واحد... إلخ»؟ قال أحمد: يعني فجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقائل أن يقول: كان من الممكن مجيئهما معاً باللام فيأتيان على سنن واحد. ولا غرو في ذلك فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه: أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف هو الركوب. وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب «فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة التعليل، تنبيهاً على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

قلت: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة: ففعل الزائن وهو الخالق، وقرئ: «لتركبوها زينة»: بغير واو، أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها، أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمنّ علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة النار، مما لم يبلغه وهم أحد، ولا خطر على قلبه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

المراد بالسبيل: الجنس؛ ولذلك أضاف إليها القصد وقال: (ومنها جائر)، والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أن هداية الطريق الموصل[(١)] إلى الحق واجبة عليه[(٢)]؛ كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ١٢].

فإن قلت: لم غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؟

قلت: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة[(٣)] لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله:

---

(١) قال محمود: «ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة... إلخ» قال أحمد: أين يذهب به عن تتمة الآية. وذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين. وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كأنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم. وقد تقدم في غير ما موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران، هو من حيث كونه موجوداً. مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار، هو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له وبتأتيه له وتيسره عليه يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر، ليناسب ذلك إقامة الحجة ﴿ألا لله الحجة البالغة﴾ والله الموفق للصواب.

(٢) قوله: «الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه» هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة، بل ذلك فضل منه تعالى؛ لكن الكريم يبرز الوعد بالخير في صورة الواجب (ع).

(٣) قوله: «ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل» يعني أهل السنّة من أنه تعالى يخلق الشرّ كالخير. وقوله: «لقيل» إلخ: الملازمة ممنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر، وإن كان كل منهما من عنده (قل كل من عند الله). (ع).

«ومنكم جائر»، يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قسراً وإلجاء[1]

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿لكم﴾: متعلق بأنزل، أو بشراب؛ خبراً له، والشراب ما يشرب، ﴿شَجَرٌ﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر؛ فإنه سحت (٨٢٦)، يعني: الكلأ، ﴿تُسِيمُونَ﴾: من سامت الماشية إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض، وقرئ: «ينبت»: بالياء والنون.

فإن قلت: لم قيل: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾/ ١٩٠ب؟

قلت: لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة؛ وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته، والآية: الدلالة الواضحة، وعن بعضهم: «يُنَبِّت»: بالتشديد، وقرأ أبيّ بن كعب: «ينبتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب»: بالرفع.

---

٨٢٦ ـ قال الزيلعي: غريب.

وبمعناه ما رواه عبد الرزاق في مُصنفه، عن وهب بن منبه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا السُّحت»، قالوا: وما السحت يا رسول الله؟ قال: «بيع الشجر وثمن الخمر، وإجارة الأمة المساحقة». وذكره عبد الحق في أحكامه، في البيوع من جهة عبد الرزاق، وقال: هذا مرسل، وحديث عكرمة أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال موقوفاً عليه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو عبيد في الأصول عنه موقوفاً وزاد نحوه، وروى عبد الرزاق من طريق وهب بن منبه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا السحت قالوا: وما السحت؟ قال: بيع الشجر وثمن الخمر وإجارة الأمة المساحقة». انتهى.

---

(١) قوله: «ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاء» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فإنه لو شاء لهدى الكل اختياراً، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على الله الصلاح، وهداية الكل صلاح؛ فظاهر الآية يخالف مذهبهم. ولذا قالوا: إنه أراد هداية الكل، لكن إرادة لا تنافي تخيير العبد، لئلا يبطل تكليفه. وهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد. وأهل السنة لم يوجبوا على الله تعالى شيئاً، وكل ما أراده الله لا بد من وقوعه. وهذه الإرادة لا تنافي اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب، كما بين في علم التوحيد (ع).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قرئت كلها بالنصب على: وجعل النجوم مسخرات، أو على أنّ معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم؛ حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره، ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر، بمعنى: تسخير، من قولك: سخره الله مسخراً؛ كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره، وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: «والنجوم مسخرات»: بالرفع، وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: فجمع الآية، وذكر العقل؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾: معطوف على الليل والنهار، يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾: هو السمك، ووصفه بالطراءة؛[1] لأنّ الفساد يسرع إليه[2]، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه.

فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً. فأكل سمكاً، لم يحنث، والله ـ تعالى ـ سماه لحماً كما ترى؟

قلت: مبني الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق ألاَّ يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار، ومثاله: أن الله ـ تعالى ـ سمى الكافر دابة في قوله: إن شرّ الدواب عند الله

---

(١) قوله: «بالطراءة» في الصحاح: طرو اللحم. وطرى طراوة وطراء وطراة (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «هو السمك، ووصفه بالطراءة لأن الفساد يسرع إليه... إلخ» قال أحمد: فكأن ذلك تعليم لأكله وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طريا. والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون، والله أعلم.

الذين كفروا، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث، ﴿حِلْيَةً﴾: هي اللؤلؤ والمرجان[1]، والمراد بلبسهم: لبس نسائهم؛ لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزينّ بها من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم، المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح، وابتغاء الفضل: التجارة.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهة أن يميل بكم وتضطرب، والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر، قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أَحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة ممّ خلقت، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: وجعل فيها أنهاراً؛ لأنّ: (ألقى): فيه معنى: جعل؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٦، ٧]، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك، والمراد بالنجم: الجنس؛ كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي: هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، وقرأ الحسن: «وبالنُّجم»: بضمتين، وبضمة وسكون، وهو جمع نجم، كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفاً.

فإن قلت: قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾: مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه؛ (النجم)، مقحم فيه (هم)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بـ (هم)؟

قلت: كأنه أراد قريشاً: كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

فإن قلت: (من لا يخلق) أريد به الأصنام[2]، فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟

---

(١) قال محمود: «الحلية هي اللؤلؤ والمرجان... إلخ» قال أحمد: ولله در مالك رضي الله عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها سواء، مؤيداً بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(٢) قال محمود: «إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام... إلخ» قال أحمد: وهو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمنى، =

قلت: فيه أوجه:

أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم؛ ألا ترى إلى قوله على أثره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ٢٠].

والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث: أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؛ كقوله: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، يعني: أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب؛ لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا.

فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان(١)، وسموها آلهة؛ تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله ـ تعالى ـ من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾: لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾: من أعمالكم، وهو: وعيد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

= حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذا التأويل، ويتمنى له تم لو ذلك. [من البسيط]:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ....

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله تعالى وكان من حق الإلزام... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ فجدد بها عهداً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾: والآلهة الذين يدعوهم الكفار، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقرئ: «بالتاء»، وقرئ: «يدعون»: على البناء للمفعول، نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم/ ١٩١أ صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾: أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحيّ الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في (يبعثون): للداعين، أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم، وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها، غير أحياء يعني: أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة، كالنطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة؛ وذلك أعرق في موتها، ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكماً بحالها؛ لأنّ شعور الجماد محال[1]، فكيف بشعور ما لا يعلمه حيّ إلا الحيّ القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات، أي: لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: «إيان»: بكسر الهمزة.

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها، ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقًّا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾: سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾: يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني المشركين، ويجوز أن يعمّ كل مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ

---

(١) قوله: «لأن شعور الجماد محال» أي شعوره بما يشعر به الحيوان محال، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحي القيوم، وهو وقت البعث. ولعل في عبارة المصنف سقطاً تقديره: شعور الجماد بما يشعر به الحيوان (ع).

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿مَّاذَآ﴾: منصوب بأنزل، بمعنى: أي شيء، ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ﴾: أو مرفوع بالابتداء، بمعنى: أيّ شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ما يدّعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين؛ كقوله: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] فيمن رفع.

فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟

قلت: هو على السخرية؛ كقوله: إنّ رسولكم[١] وهو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين: الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا أحاديث الأوّلين وأباطيلهم، ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصدّاً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم، ﴿كَامِلَةً﴾: وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، وهو وزر الإضلال؛ لأن المضلّ والضال شريكان: هذا يضله، وهذا يطاوعه على إضلاله، فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضاً؛ كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾: حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال؛ وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القواعد: أساطين البناء التي تعمده، وقيل: الأساس، وهذا تمثيل، يعني: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا[٢] بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم

(١) قوله: «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (ع).

(٢) قوله: «ليمكروا بها الله ورسوله» لعل تعدية فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة (ع).

السقف وهلكوا؛ ونحوه: من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه منكبًّا، وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا، ومعنى إتيان الله: إتيان أمره، ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: من جهة القواعد، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وقرئ: «فأتى الله بيتهم»، «فخرّ عليهم السقف»: بضمتين، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾: يذلهم بعذاب الخزي، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ يعني: هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة، ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: «تشاقون»: بكسر النون، بمعنى: تشاقونني؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم؛ يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة، قرئ: «تتوفاهم»: بالتاء والياء، وقرئ: «الذين توفاهم»: بإدغام التاء في التاء، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: فسالموا وأخبتوا، وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولو العلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فهو يجازيكم عليه، وهذا ـ أيضاً ـ من الشماتة وكذلك: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿خَيْرًا﴾ أنزل خيراً.

فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟

قلت: فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال/ ١٩١ب فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه،

فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه، وأنه نبيّ مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، وما بعده بدل من «خيراً»؛ حكاية لقوله الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول، فقدّم عليه تسميته خيراً ثم حكاه، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه، ﴿حَسَنَةٌ﴾: مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها؛ كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره، و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح: ﴿طَيِّبِينَ﴾: طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾: قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: قرئ بالتاء والياء، يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح، و﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾: العذاب المستأصل، أو القيامة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب، ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: بتدميرهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير، ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾: جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله؛ استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله، من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه[١]، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أشركوا وحرموا

(١) قوله: «وقالوا لو شاء الله لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه» يعني أهل السنة، وليس كما قال، =

حلال الله[1]، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم[2]، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾: إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله ـ تعالى ـ من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله ـ تعالى ـ باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: لطف به؛ لأنه عرفه من أهل اللطف، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

= بل قاله المشركون استهزاء، وأهل السنة اعتقاداً، كما أفاده النسفي. وكل ما شاءه الله كان، وما لم يشأ لم يكن، شرا كان أو خيراً. وكل أمر بقضائه تعالى وقدره، شرا كان أو خيراً. وهو الخالق لأفعال العباد وإن كانت بكسبهم واختيارهم، خلافاً للمعتزلة في جميع ذلك، كما أطال به فيما سيأتي هنا انتصاراً للمعتزلة (ع).

(١) قال محمود: «يعني أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله... إلخ» قال أحمد: قد تكرر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المتقدمة في سورة الأنعام، وقد قدمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على زعمه بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ووجه تمسكه به أن الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين: مأمور به ومنهي عنه. والأمر والنهي عند المصنف راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن الله شاء عبادة الخلق له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها. هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أن مبناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً. والعجب أن الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً أن الذي أنكره من القائلين ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله ههنا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وبقوله في آخر آية الأنعام ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فتبين أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة، ولو شاء هدايتهم أجمعين لاهتدوا عن آخرهم. وحصل من هذا البيان: صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أن حجتهم في ذلك داحضة، ولله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(٢) قوله: «وركوه على ربهم» أي اتهموه به.

﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير، ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾: ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدّر الشر ولا أشاؤه؛ حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرّفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يلطف ممن يخذل؛ لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث؛ لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه، وقرئ: «لا يُهدَى»[1]، أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: دليل على أنّ المراد بالإضلال: الخذلان الذي هو نقيض النصرة، ويجوز أن يكون: (لا يهدي) بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدي، وفي قراءة أبيّ: «فإنّ الله لا هادي لمن يضل»، «ولمن أضلّ»[2]، وهي معاضدة لمن قرأ: ﴿لَا يَهْدِى﴾: على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله: «يهدّي»: بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى، وقرئ: (يضل): بالفتح، وقرأ النخعي: «إن تحرَص»: بفتح الراء، وهي لغية.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: معطوف على: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا: توريك ذنوبهم على مشيئة[3] الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و﴿بَلَىٰ﴾: إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم، ووعد الله: مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب[4] على الله؛ لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من

---

(١) قوله: «وقرئ لا يهدى» بالبناء للمجهول، كما أفاده النسفي (ع).
(٢) قوله: «وفي قراءة أبي: فإن الله لا هادي لمن يضل ولمن أضل» ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبي. فليحرر.
(٣) قوله: «توريك ذنوبهم على مشيئة الله» أي نسبة ذنوبهم إلى مشيئته تعالى واتهامها بها.
(٤) قوله: «أو أنه وعد واجب على الله... إلخ» الكلام في الكفار. وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصباً للمعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فافهم (ع).

مواجب الحكمة، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: متعلق بما دل عليه «بلى» أي: يبعثهم ليبين لهم، والضمير: لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذي اختلفوا فيه هو الحق، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ﴾: كذبوا في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت، وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي: بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَوْلُنَا﴾: مبتدأ، و﴿أَن نَّقُولَ﴾: خبره، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: من كان التامة التي بمعنى: الحدوث والوجود،/ ١٩٢أ أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل، ولا قول: ثم، والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله ـ تعالى ـ بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: «فيكون»: عطفاً على: (نقول).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: هم رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم: من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين، ومنهم: من هاجر إلى المدينة، وقيل: هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله ﷺ وكلما خرجوا تبعوهم فردّوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضرّكم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم، الرجل صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم: يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه[1]، فكيف: ﴿فِي اللَّهِ﴾: في حقه ولوجهه، ﴿حَسَنَةً﴾: صفة للمصدر، أي: لنبوأنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي ـ رضي الله عنه ـ: «لنثوّينهم»، ومعناه: أثوأة حسنة، وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على

---

(١) قوله: «لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه فكيف» أي فكيف لا يطيعه. وقد خلقها لمن عصى (ع).

أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء، قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبوّأنهم مباءة حسنة، وهي: المدينة؛ حيث آواهم أهلها ونصروهم، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير: للكفار، أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك، لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على: هم الذين صبروا، أو: أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة، وبذل الأرواح في سبيل الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فقيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾: على ألسنة الملائكة، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: وهم أهل الكتاب؛ ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً.

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟

قلت: له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً، أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات؛ كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط؛ لأن أصله: ضرب زيداً بالسوط وإما: برجالاً، صف له: أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بأرسلنا مضمراً؛ كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: «بالبينات»، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحى، أي: يوحى إليهم بالبينات، وإما: بلا تعلمون، على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام؛ كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر: أهل الكتاب، وقيل: للكتاب الذكر؛ لأنه موعظة وتنبيه للغافلين، ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ

﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله، ﷺ(١)، ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾: متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم، ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفنه وتخونته، إذا تنقصته؛ قال زهير [من البسيط]:

تَـخَـوَّفَ الـرَّحْـلُ مِـنْـهَـا تَـامِـكـاً قَـرِداً ... كَـمَـا تَـخَـوَّفَ عُـودَ الـنَّـبْـعَـةِ الـسَّـفَـنُ(٢)

أي: يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوّف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا، وأنشد البيت، فقال عمر: أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرئ: «أو لم يروا»، «ويتفيؤا»: بالياء والتاء، و(ما): موصولة بخلق الله، وهو مبهم

---

(١) قوله: «وما مكروا به رسول الله ﷺ» ضمن المكر معنى الخداع، فعدى إلى المفعول (ع).

(٢) لأبي كبير الهذلي. وقيل لزهير. والتخوف: التنقص شيئاً فشيئاً. والتامك: السنام المرتفع. والقرد: الذي أكله القراد من كثرة أسفارها. أو الذي تنقب وفسد من الرحل في السفر. والنبعة: واحدة النبع، وهو شجر تتخذ منه القسي. ويروى: ظهر النبعة. والسفن: المبرد الحديد الذي ينحت به الخشب، يقول: تنقص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر، كما تنقص المبرد عود النبعة. وفيه تشبيه بها في الصلابة. وروي أن عمر قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿أو يأخذكم على تخوف﴾ فسكتوا، فقال شيخ من هذيل: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، وأنشد البيت، فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما دايواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم.

البيت لابن مقبل في ملحق ديوانه ص ٤٠٥، ولسان العرب (خوف)، وتهذيب اللغة ٧/ ٥٩٤، ١٣/ ٤، ولذي الرمّة في ملحق ديوانه ص ١٩١٧، ولسان العرب (سفن)، ولذي الرمّة أو لابن مقبل في تاج العروس (سفن)، ولزهير في أساس البلاغة (خوف)، وليس في ديوانه، ولعبد الله بن عجلان النهدي في تاج العروس (خوف)، ولقعنب ابن أم صاحب في سمط اللآلي ص ٧٣٨، وبلا نسبة في المخصّص ١٣/ ٢٧٧، وتاج العروس (خوف)، وأمالي القالي ٢/ ١١٢.

بيانه، ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾، واليمين: بمعنى الأيمان، و﴿سُجَّدًا﴾: حال من الظلال، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾: حال من الضمير في ظلاله؛ لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو؛ لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الإجرام التي لها/ ١٩٢ب ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي: عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة ـ أيضاً ـ صاغرة منقادة لأفعال الله فيها، لا تمتنع.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أنّ في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له: الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الملائكة، وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم، ويجوز أن يراد بما في السموات: ملائكتهنّ، وبقوله والملائكة: ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قلت: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم[1]، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟

قلت: المراد بسجود المكلفين: طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا؛ فلذلك جاز

---

(١) قال محمود: «إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد... إلخ»؟ قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمولاً ولم يرد ذلك متناقضاً، فإن السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرية، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز، لأنه يأبى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية ـ والله أعلم ـ لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوباً للمكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعاً، الذي يكون ذكره سبباً لفعلة سببية معتادة في عزائم السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قلت: فهلا جيء بمن دون «ما»: تغليباً للعقلاء من الدواب على غيرهم؟

قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم، إرادة العموم، ﴿يَخَافُونَ﴾: يجوز أن يكون حالاً من الضمير[1] في (لا يستكبرون)، أي: لا يستكبرون خائفين، وأن يكون بياناً لنفي الاستكبار وتأكيداً له؛ لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته، ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: إن علقته بيخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعد والوعيد كسائرالمكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله إلهين اثنين[2]؟

قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنيّ به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله، ولم تؤكده بواحد: لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية، ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾: نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم؛ وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) قال محمود: «يجوز أن يكون حالاً من الضمير... إلخ» قال أحمد: هذا الثاني هو الوجه ليس الأول، وأما الحال فيعطي انتقالاً، ويوهم تقيد العدم استكبارهم، مع أن الواقع أو عدم استكبارهم مطلق غير مقيد بحال، والله الموفق.

(٢) قال محمود: «إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك... إلخ» قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله الموفق.

﴿ٱلدِّينُ﴾: الطاعة، ﴿وَاصِبًا﴾: حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأنّ كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة؛ ولذلك سمي تكليفاً، أو: وله الجزاء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول، يعني: الثواب والعقاب.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾: وأيّ شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾: فما تتضرعون إلا إليه، والجُؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة؛ قال الأعشى يصف راهباً [من المتقارب]:

يُـرَاوِحُ مِـنْ صَـلَـوَاتِ الْـمَـلِـيـــ ـكِ طَـوْراً سُـجُـوداً وَطَـوْراً جُـؤَارَا(١)

وقرئ: «تجرون»: بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم، وقرأ قتادة: كاشف الضرّ على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؟

قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين، ومنكم للبيان، لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافر، وهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تخلية ووعيد، وقرئ: «فيمتعوا»: بالياء مبنيا للمفعول، عطفاً على: (ليكفروا)، ويجوز أن يكون: ليكفروا

---

(١) ومـا آبـلـي عـلـى هـيـكـل ... بـنـاه وصـلـب فـيـه وصـارا
يـراوح مـن صـلـوات الـمـلـيـ ... ـك طـوراً سـجـوداً وطـوراً جـؤاراً
بـأعـظـم مـنـك تـقـى في الـحـساب ... إذا الـنـسـمـات نـفـضـن الـغـبـارا
للأعشى. والآبلي: الراهب، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة. والهيكل: بيت الصنم. وصلب: أي صور الصليب. وألف صارا للإطلاق. ويراوح: خبره، وإن لزم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى، والمراوحة في العمل: الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات: الدعوات. والسجود: الانخفاض والخشوع. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم: خبر آبلي. وتقى: تمييز. يقول ليس الراهب العاكف على هيكله الذي صور فيه الصليب، وصار يتابع ويتنقل من بعض دعوات الله إلى بعض، فتارة يسجد سجوداً، وتارة يجأر جؤاراً، تقاه أعظم من تقاك يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم، فنفضهم الغبار كناية عن ذلك.

فيمتعوا، من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية؛ واللام: لام الأمر.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم، ومعنى: لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذاً جاهلون بها، وقيل: الضمير في (لا يعلمون): للآلهة، أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر أجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم/١٩٣ أ، ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾: وعيد، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه، أو تعجب من قولهم: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين، ويجوز في: (ما يشتهون): الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور، و﴿ظَلَّ﴾ بمعنى: صار[١]، كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل؛ لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتما مربد الوجه[٢] من الكآبة والحياء من الناس، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوء حنقاً على المرأة، ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾: يستخفي منهم، ﴿مِن﴾: أجل، ﴿سُوءِ﴾: المبشر به، ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به، ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: على هوان وذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾: أم يئده[٣]، وقرئ: «أيمسكها على هون أم يدسها»: على التأنيث، وقرئ: «على هوان» ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

---

(١) قال محمود: «ظل بمعنى صار» قال أحمد: وجاز أن يراد الظلول نهاراً لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي لا يتغابى على البصر فيه شيء إلى السماء لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

(٢) قوله: «ويجوز أن يجيء ظل... إلخ» قال أحمد: أي يرد ويستعمل في الآية بمعناه الأصلي، وهو اتصاف الشيء بصفة نهاراً فقط، لأن أكثر الوضع... إلخ. ومربد الوجه: متعبسه من الغضب، كما يفيده الصحاح (ع).

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿بِظُلْمِهِم﴾: بكفرهم ومعاصيهم، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى أنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم (٨٢٧)، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم (٨٢٨)، أو من دابة ظالمة، وعن ابن عباس، (من دابة): من مشرك يدب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

---

٨٢٧ ـ أخرجه الطبري (٧/ ٦٠١) رقم (٢١٦٦٩)، البيهقي في الشعب (٦/ ٥٤) حديث رقم (٧٤٧٩).
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الطبري والبيهقي في الشعب التاسع والأربعين، وفي إسناده محمد بن جابر التمامي وهو متروك. انتهى.

٨٢٨ ـ أخرجه الطبري (٧/ ٦٠١) رقم (٢١٦٧١)، الحاكم (٢/ ٤٢٨).
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم والطبراني من طريق أبي الأحوص قال: قرأ ابن مسعود: ولو يؤاخذ الله الناس ـ الآية قال: كاد الجعل يعذب في حجره بذنب ابن آدم. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «قوله معطوفان على محل «لِتُبَيِّنَ» ليس بصحيح، لأن محله ليس نصباً، فيعطف منصوباً ألَا ترى أنه لو نصبه لم يجز لاختلاف الفاعل». قُلْتُ: الزمخشري لم يجعل النصب لأجل العطف على المحل، إنما جعله بوصول الفعل إليهما. لاتحاد الفاعل كما صَرَّحَ به فيما حكيته عنه آنِفاً، وإنما جعل العطف لأجل التشريك في العِلِّيَّةِ لا غير، يعني أنهما علتان، كما أن «لِتُبَيِّنَ» عِلَّةٌ. ولئن سلمنا أنه نصب عطفاً على المحل، فلا يضر ذلك. قوله: «لأنَّ محله ليس نصباً» ممنوع، وهذا ما لا خلاف فيه، من أن محل الجار والمجرور النصب، لأنه فضلة إلاَّ أَنْ يقوم مقام مرفوع، ألا ترى إلى تخريجهم قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ في قراءة النصب على العطف على محل «بِرُؤُوسِكُمْ» ويجيزون «مررت بزيد وعمراً»، على خلاف في ذلك بالنسبة إلى القياس وعدمه، لا في أصل المسألة، وهذا بحث حَسَنٌ تركه المردود عليه. انتهى. الدر المصون.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم[1]، والتهاون برسالاتهم، ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾: مع ذلك، ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾: عند الله؛ كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة، وإذا قال: هاتوا ما دفع إليّ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: أنّ لهم الحسنى، هو قول قريش: لنا البنون، وأن لهم الحسنى: بدل من الكذب، وقرئ: (الكذب): جمع كذوب، صفة للألسنة، ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ قرئ: مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدّداً، فالمفتوح بمعنى: مقدّمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطت فلاناً، وفرّطته في طلب الماء، إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون، من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف، من الإفراط في المعاصي، والمشدّد، من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾: حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى (وليهم): قرينهم وبئس القرين، أو يجعل: (فهو وليهم اليوم): حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش، أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولي وهؤلاء؛ لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

---

(١) قال محمود: «المراد بما يكرهونه البنات، وشركاء في رياستهم، واستخفاف برسلهم... إلخ» قال أحمد: ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شيء من ماله جعله لله، بل إذا أحب أمة له أعتقها، وإذا اشتهى طعاماً قدم إليه تصدق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، كابن عمر ونظرائه ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون. اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم، فمن أحب قوماً حشر معهم.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على محل، (لتبين): إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما؛ لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب، ودخل اللام على لتبين، لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل؛ وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل، والذي اختلفوا فيه: البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به، ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار، ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: سماع إنصاف وتدبر؛ لأنّ من لم يسمع بقلبه؛ فكأنه أصم لا يسمع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال؛ كقولهم: ثوب أكياش؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وأمّا (في بطونها): في سورة المؤمنين؛ فلأنّ معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان، أحدهما: أن يكون تكثير نعم[1] كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» في قوله [من الرجز]:

فِـي كُـلِّ عَـامٍ نَـعَـمٌ تَـحْـوُونَـهُ   يُـلْـقِـحُـهُ قَـوْمٌ وَتَـنْـتِـجُـونَـهُ[2]

---

(١) قوله: «أن يكون تكثير نعم» لعله «تكسير» بالسين (ع).

(٢)
في كل عام نعم تحوونه   يلقحه قوم وتنتجونه
أربابه نوكي فلا يحمونه   ولا يلاقون طعانا دونه
أنعم الأبناء تحسبونه؟   هيهات هيهات لما ترجونه

لصبي من بني أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثي. والنعم: اسم جمع يعامل معاملة المفرد. وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع. والأنعام عده سيبويه من المفردات المبنية على أفعال، كأخلاق وأمشاج، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه. وقيل: هو جمع نعم كأسباب وسبب، والكلام تحسر وتحزن في صورة الأخبار، ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التوبيخي أو التعجبي قبل في، أي: أفي كل عام تفعلون ذلك. وروي: أكل عام، بالاستفهام. وكل: نصب على الظرفية. وفيه الأخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم. إما لأنه يشبه المعنى لتجدده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره في مثله. أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين، أي: نهب نعم. وجملة تحوونه: صفة نعم، ويجوز أنها خبره، وكل عام: ظرف لتحوونه، وقدم لأنه =

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وأنه في معنى الجمع[1]، وقرئ: ﴿نُّسْقِيكُمْ﴾:

= محط الاستفهام. وعليه فالمسوغ للابتداء بنعم وقوعه في حيز الاستفهام. أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه كتقديم الخبر. يلقحه قوم أي يطلقون فحوله على إناثه فتحمل عندهم. وتنتجونه أنتم: أي تستولدونه عندكم، كناية عن نهبه منهم. والأرباب الأصحاب. والنوكى: جمع أنوك كحمقى جمع أحمق وزنا ومعنى. والطعان: المطاعنة بالرماح، أي: لا يحاربون أمامه ويصبرون للحرب. وقوله أنعم: استفهام إنكاري توبيخي، أي: لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحمقى الضعاف. وهيهات بمعنى بعد، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع. وقوله: «لما ترجونه» متعلق بمحذوف، أي: أقول ذلك لما ترجونه، واللام فيه لتبيين الفاعل. ويجوز أنها زائدة فيه، والرجا: الطمع، ويجوز أنه الظن.

لقيس بن حصين في خزانة الأدب ١/ ٤٠٩، والكتاب ١/ ١٢٩، ولصبي من بني سعد قيل إنه قيس بن الحصين في المقاصد النحوية ١/ ٥٢٩، ولحصين بن زيد في شرح أبيات سيبويه ١/ ١١٩، ولرجل ضبي في الأغاني ١٦/ ٢٥٦، وبلا نسبة في لسان العرب (أبل)، (نعم)، والأشباه والنظائر ٣/ ١٠٢، والإنصاف ص ٦٢، وتخليص الشواهد ص ١٩١، والرد على النحاة ص ١٢٠، واللمع في العربية ص ١١٣، والمخصص.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: أما ما ذكره عن سيبويه ففي كتابه في: «هذا بابُ ما كان على مثال مَفَاعِل ومفاعيل»، ما نَصُّه: «وَأَمَّا أَجْمَالٌ وفُلُوسٌ» فإنها تنصرف وما أشبهها؛ لأنها ضارعت الواحِدَ ألاَ تَرَى أَنَّكَ تقول: أَقْوَالٌ وأَقَاوِيل، وأَعْرَابٌ وأَعَارِيب، وَأَيْدٍ وَأَيَادٍ. فهذه الأحرف تخرج إلى مثال مَفَاعِل وَمَفَاعِيل، كما يُخْرَجُ إليه الواحد إذا كُثِّر للجمع، وأما مَفَاعِل ومفاعيل فلا يكسر، فَلاَ يخرج الجمعُ إلى بناءٍ غير هذا؛ لأنَّ هذا البناء هو الغاية، فلما ضارعت الواحد صُرفت». ثم قال: «وكذلك الفُعولُ لو كُسِّرت، مثل الفُلُوس، لأَنْ تُجْمَع جميعاً لأخرجته إلى فَعَائِلَ، كما تقول جَدودٌ وجَدَائدٌ، ورَكوبٌ ورَكَائبُ. ولو فعلت ذلك بـ«مفَاعِلَ، وَمَفَاعيلَ» لم تجاوز هذا البناء. ويقوي ذلك أن بعض العرب تقول أُبِيُّ للواحد، فيضُمُ الألف، وأَمَّا أَفْعَالٌ فقد يقع للواحد، من العرب من يقول: هو الأَنْعَامُ، قال الله عز وجل: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ وقال أبو الخطاب: «سمعتُ مِن العَرَبِ مَنْ يقول: هَذَا ثَوْبٌ أَكْيَاشٌ». قال: «والذي ذكر سيبويه هو الفرق بين مَفَاعِلَ وَمَفَاعِيلَ، وبين أَفْعَال وفُعُول، وإن كان الجميع أبنية للجمع، من حيث إنّ مفاعل ومفاعيل لا يجمعان، وأَفْعَالاً وفُعُولاً قد يخرجان إلى بناء يشبه مَفاعِلَ أو مَفَاعِيلَ، فَلَمَّا كَانَا قد يخرجان إلى ذلك انصرفا، ولم ينصرف مَفَاعِلَ وَمَفَاعِيلَ لشبه ذَيْنِك بالمفرد من حيثُ إنَّه يمكن جمعهما، وامتناع هذين مِنْ الجمع ثُمَّ قَوِيَ شبههما بالمفرد بأَنَّ بعض العرب يقول في أُتِيّ» أُتي بضم الهمزة، يعني أنه قد جاء نادراً «فُعُول» من غير المصدر للمفرد، وبأن بَعْضَ العرب قد يوقع أفعالاً للمفرد من حيث أفرد الضمير، فيقول: «هو الأَنْعَامُ»، وإنما ذلك على سبيل المجاز؛ لأن الأَنْعَامَ في معنى النَّعَم، والنَّعَمُ مُفْرَدٌ كما قال [من الوافر]:

تَـرَكْـنَـا الْـخَـيْـلَ والـنَّـعَـمَ الـمُـفَـدَّى ... وَقُـلْـنَـا لِـلْـنِّـسَـاءِ: بِـهَـا. أَقِـيـمِـي.

وذلك قال سيبويه: «وإنما أفعال فقد يقع للواحد». فقوله: «قد يقع للواحد» دليل على أنه ليس ذلك بالوضع، فقول الزمخشري: «أنه ذكره في الأسماء المفردة على أفعال» تحريف في اللفظ. وفهم عن سيبويه ما لم يرده، ويدل على ما قلناه أن سيبويه حين ذكر أبنية الأسماء المفردة نصَّ على أَنَّ أَفْعَالاً ليس من أبنيتها. قال سيبويه في باب ما لحقته الزيادة من بنات الثلاثة: «وليس في الكلام» «أُفعيلٌ»، ولا أفعولٌ، ولا أُفعَال، ولا أَفعيل، ولا أفعال. إلا أن تُكَسِّرَ عليه اسماً للجمع». قال: «فهذا نصٌّ منه على أَنَّ «أفعالاً» لا يكون في الأسماء المفردة». قُلْتُ: الذي ذكره الزمخشري هو =

بالفتح والضم، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة، فقيل نسقيكم، ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقي الفرث في الكرش ـ فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته/ ١٩٣ب لمن تفكر وتأمّل ـ وسئل شقيق عن الإخلاص؟ فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم، ﴿سَآئِغٗا﴾: سهل المرور في الحلق، ويقال: لم يغص أحد باللبن قط، وقرئ: «سيغاً»: بالتشديد. «وسيغاً»؛ بالتخفيف، كهين ولين.

فإن قلت: أي فرق بين «من» الأولى والثانية؟

قلت: الأولى للتبعيض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها؛ كقولك: أخذت من مال زيد ثوباً، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، فهو صلة لنسقيكم؛ كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله: (لبناً): مقدماً عليه، فيتعلق بمحذوف، أي: كائناً من بين فرث ودم؛ ألا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبناً من بين فرث ودم كان صفة له؛ وإنما قدم لأنه موضع العبرة، فهو قمن بالتقديم، وقد احتج بعض من يرى أن المني طاهر على من جعله نجساً، لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾؟

قلت: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرها؛ وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾: بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتتخذون، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد؛ كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون: (تتخذون): صفة موصوف محذوف؛ كقوله [من الرجز]:

= ظاهر عبارة سيبويه، وهو كافٍ في تسويغ عود الضمير مفرداً، وإن كانَ «أفعال» قد يقع موقع الواحد مجازاً، فإن ذلك ليس بضائر فيما نحن بصدده، ولم يحرف لفظه، ولم يفهم عنه غير مراده، لما ذكرته من هذا المعنى الذي قصده، وقيل: إنما ذُكّر الضمير، لأنه يعود على البعض، وهو الإناث. لأن الذكور لا ألبان لها، فكأن العبرة هي في بعض الأنعام. انتهى. الدر المصون.

.... بِـكَـفَّـيْ كَـانَ مِـنْ أَرْمَـى الْـبَـشَـرْ[1]

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفاً مكرّراً؟

قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سَكِرَ سُكْراً أو سَكَراً؛ نحو: رَشِدَ رُشْداً ورَشَداً؛ قال [من الوافر]:

وَجَـاءُونَـا بِـهِـمْ سَـكَـرٌ عَـلَـيْـنَـا ... فَـأَجْـلَـى الـيَـوْمَ وَالـسَّـكْـرَانُ صَـاحِـي[2]

وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة، وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل: السكر: النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حدّ السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله ﷺ: «الخَمْرُ حَرَامٌ لِعَيْنِهَا وَالسَّكَرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ» (٨٢٩)، وبأخبار جمة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي ـ قدّس الله روحه ـ غير كتاب في

---

٨٢٩ ـ أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٢٤) عن علي مرفوعاً، وأخرجه النّسائي (٨/ ٣٢١) رقم (٥٦٨٣، =

---

(١) مـالـك عـنـدي غـيـر سـوط وحـجـر ... وغـيـر كـبـداء شـديـدة الـوتـر
جـادت بـكـفـي كـان مـن أرمـى الـبـشـر

السوط: آلة للضرب، معمولة من الجلد. وكبداء صفة لمحذوف، أي قوس كبداء غليظة الكبد، أي المقبض. وقيل: واسعته. والوتر: حبل تشد به القوس. وجادت: صارت جيدة. ويروى بدله: ترمى. وشبه الرمي لها مجاز عقلي. وكفي مضاف لمحذوف قامت صفته في اللفظ مقامه، وهي جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد، والثاني ضرورة؛ لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «في»، أو صلح نعته لمباشرة العامل. و«كان» هنا ليس للمضي، بل لمجرد الثبوت والدوام، أي: بكفي رجل متصف بأنه دائماً من أشد الناس رمياً، يعني نفسه. ففيه تجريد. يقول لعدوه: ليس لك عندي غير هذه الأشياء، وهو ضرب من التهديد والتقريع: هدده بالسوط عند القرب، وبالحجر عند المفارقة، وبالسهم عند البعد: ويروى «سهم» بدل سوط، فيضيع الترتيب.

ينظر: الخصائص (٢/ ٣٦٧)، وابن يعيش (٣/ ٥٩)، والإنصاف (١١/ ١١٥)، والمغني (١/ ١٦٠)، والتصريح (٢/ ١١٩)، خزانة الأدب (٥/ ٦٥)، الدرر (٦/ ٢٢)، شرح الأشموني ٢/ ٤٠١، شرح المفصل (٣/ ٦٢)، لسان العرب (كون)، (منن)، مجالس ثعلب (٣/ ٥١٣)، المحتسب ٢/ ٢٢٧، المقاصد النحوية (٤/ ٦٦)، المقتضب (٢/ ٣٩)، المقرب (١/ ٢٢٧)، همع الهوامع (٢/ ١٢٠)، تاج العروس (كون، منن) الدر المصون (٣/ ٢٠٦).

(١) تقدم.

تحليل النبيذ، فلما شيخ[1] وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت في تحليله، فقال: تناولته الدعارة[2] فسمج في المروءة، وقيل: السكر: الطُّعْم[3]؛ وأنشد [امن الرجز]:

جَـعَـلْـتُ أَعْـرَاضَ الـكِـرَامِ سَـكَـرَا

أي: تنقلت بأعراضهم[4]، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابترك[5] في أعراض الناس، فكأنه تخمر بها، والرزق الحسن: الخل، والرب، والتمر، والزبيب، وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنيقتها[6] في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علماً بذلك وفطنها، كما أولى أولي العقول عقولهم، وقرأ يحيى بن وثاب: (إلى النحل): بفتحتين، وهو مذكر كالنخل، وتأنيثه على المعنى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ هي: أنّ المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول، وقرئ: ﴿بُيُوتًا﴾: بكسر الباء لأجل الياء، و﴿يَعْرِشُونَ﴾: بكسر الراء وضمها، يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي

= ٥٦٨٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه النسائي من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، ورواه العقيلي من وجه آخر عن علي مرفوعاً وفيه محمد بن الفرات الكوفي وهو منكر الحديث. انتهى.

---

(١) قوله: «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» في الصحاح: شاخ الرجل يشيخ شيخاً بالتحريك، وشيخ تشييخاً: أي شاخ (ع).

(٢) قوله: «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح: الدعارة الفسق والخبث (ع).

(٣) قوله: «وقيل السكر الطعم» في الصحاح: الطعم بالضم: الطعام (ع).

(٤) قوله: «أي تنقلت بأعراضهم» في الصحاح: النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب (ع).

(٥) قوله: «وإنه إذا ابترك» في الصحاح: ابترك، أي أسرع في العدو وجد (ع).

(٦) قوله: «وإلا فنيقتها» أي تأنقها. أفاده الصحاح (ع).

تتعسل فيها، والضمير في (يعرشون): للناس.

فإن قلت: ما معنى «من» في قوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟

قلت: أريد معنى البعضية، وألاّ تبنى بيوتها[(١)] في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها، ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل[(٢)]، وتعتاد أكلها، أي: أبني البيوت، ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها، فإذا أكلتها: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو: فاسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلاً من أجوافك ومنافذ مآكلك، أو: إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: (ثم كلي) ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك، ﴿ذُلُلًا﴾: جمع ذلول، وهي: حال من السبل؛ لأنّ الله ذللها لها ووطأها وسهلها؛ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]، أو من الضمير في (فاسلكي) أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة،/ ١٩٤أ ﴿شَرَابٌ﴾: يريد العسل؛ لأنه مما يشرب: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾: منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره: إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو: لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ أن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال: «اذْهَبْ وَاسْقِهِ العَسَلَ» فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذْهَبْ وَاسْقِهِ عَسَلاً» فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ؛ كأنما أنشط من عقال،

---

(١) قال محمود: «قلت أريد معنى البعضية وأن لا تبنى بيوتها... إلخ» قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري في تبعيض «من» المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه. وأما البيوت فلاتحصل مصلحتها في كل موضع. ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

(٢) قوله: «بالثمرات التي تجرسها النحل» في الصحاح «الجرس» الصوت الخفي، وجرست النحل العرفط إذا أكلته. وفيه أيضاً «العرفط» شجر من العضاه. وفيه «العضاء» كل شجر يعظم وله شوك (ع).

(٨٣٠) وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل، (٨٣١) ومن بدع تأويلات الرافضة: أن المراد بالنحل: عليّ وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل: بنو هاشم، يخرج من

---

٨٣٠ ـ أخرجه البخاري (١٠/ ١٤٦) «كتاب الطب، باب الدواء بالعسل حديث رقم (٥٦٨٤)، ومسلم (٧/ ٤٦٠) نووي كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل حديث رقم (٢٢١٧)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٢٤٩)، كتاب الطب والرقي باب المداواة بالعسل، والحاكم (٤/ ٤٠٢).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه من حديث أبي سعيد وغفل الحاكم فاستدركه.

٨٣١ ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦) (٣٠٠١٩ ـ ٣٠٠٢٠) من طريقين:

الأولى: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة عن الأسود قال: قال عبد الله: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل».

الثانية: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال «العسل...»

قلت: وقع في المطبوع من «المصنف» «عن أبي إسحاق عن أبي الأسود»، وليس كذلك إنما هو أبو الأحوص؛ كما يأتي تحقيقه.

وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١١٤٢) ـ كتاب الطب (٣١) ـ باب العسل (٧) (٣٤٥٢)، وابن عدي في الكامل في ترجمة زيد بن الحباب (٣/ ١٠٦٥)، (٣/ ١٢٥٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠٠) ـ كتاب الطب.

وأبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري (٧/ ١٣٣). والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٨٥).

كلهم من طريق زيد بن الحباب، ثنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين...» فذكره مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث الثوري تفرد به عنه زيد بن الحباب. وزيد بن الحباب هذا قال فيه الحافظ في التقريب (١/ ٢٧٣): صدوق يخطئ في حديث الثوري. قلت: وأخرجه موقوفاً أيضاً الحاكم في مستدركه (٤/ ٢٠٠) من طريق وكيع عن سفيان به، والطبراني في «معجمه الكبير» (٩/ ٢٥٢) (٩٠٧٦) من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق به، والدارقطني في العلل (٥/ ٣٢٣) من طريق يحيى عن سفيان عن أبي إسحاق به.

وقال: ووقفه يحيى القطان وأبو حذيفة عن الثوري وهو الصحيح.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أره هكذا. وفي الكامل لابن عدي من رواية لابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رفعه: «عليكم بالشفاءين: العسل شفاء من كل داء. والقرآن شفاء لما في الصدور»، وقال: لم يرفعه عن وكيع عن الثوري إلا سفيان بن وكيع. قال: ورواه زيد بن الحباب عن الثوري أيضاً مرفوعاً اهـ. وأخرجه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الإسناد مرفوعاً بلفظ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»، وابن أبي شيبة عن وكيع مرفوعاً ولفظه: «العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور»، ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والثعلبي أيضاً. قال ابن أبي شيبة: وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حيية عن الأسود عن عبد الله قال: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل». انتهى.

بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: إلى أخسه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وتسعون سنة عن قتادة؛ لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم، ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾: ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذرّ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ، فَٱكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تُطْعِمُونَ» (٨٣٢) فما رؤي عبده عبد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم،

---

٨٣٢ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢/٨٣) ـ كتاب الأدب (٧٨) باب ما ينهى عن السباب واللعن (٤٤) ـ حديث رقم (٦٠٥٠). ومسلم (٦/١٤٦ ـ نووي) كتاب الأيمان (٢٧) ـ باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه (١٠) حديث رقم (٣٨) (١٦٦١).

وأبو داود (٤/ ٣٤٠) ـ كتاب الأدب ـ باب في حق المملوك ـ (٥١٥٧)، والتّرمذي (٤/ ٣٣٤) ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم ـ (١٩٤٥)، وابن ماجه (٢/١٢١٦) ـ كتاب الأدب (٣٣) ـ باب الإحسان إلى المماليك (١٠) (٣٦٩٠)، وأحمد في المسند (٥/١٥٨ ـ ١٦١)؛

كلهم من حديث المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه صلة وعلى غلامه مثلها. . . الحديث.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

متفق عليه وأخرجه أصحاب السنن. انتهى.

وعن الزيادة المشار إليها عقب الحديث قال: لم أره.

فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء، وقيل: المعنى: أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق؛ فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ: «يجحدون»: بالتاء والياء.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم، والحفدة: جمع حافد، وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة والخدمة، ومنه قول القانت: وإليك نسعى ونحفد؛ وقال [من الكامل]:

حَفَدَ الوَلائِدُ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةُ الأَجْمَالِ[1]

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات[2]؛ وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأوّل، وقيل المعنى: وجعل لكم حفدة، أي: خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم؛ كقوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون، أي: جامعون بين الأمرين، ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: يريد بعضها؛ لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو: ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن، ونعمة الله المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز: هم كافرون بها منكرون لها، كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول، وقيل: الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم.

---

(١) يقول: حفد من باب ضرب، أي أسرع الولائد: جمع وليد وهي البنت الصغيرة، بينهن: أي بين النساء الطاعنات. وأسلمت: مبني للمجهول، أي تركت في أكف الظعائن والولائد. أزمة الأجمال: جمع زمام، وذلك دليل على حفظهن وصونهن، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولائد.
البيت للفرزدق، ينظر زيادات الطبعة الأولى من جمهرة اللغة ص (٥٠٤)، لجميل بثينة في ملحق ديوانه ص (٢٤٦)، بلا نسبة في لسان العرب (حفد)، جمهرة اللغة ص (٥٠٤)، كتاب العين (٣/ ١٨٥).

(٢) قوله: «فقيل هم الأختان على البنات» في الصحاح: الحفدة الأعوان والخدم. وفيه أيضاً: الختن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ، وهم الأختان، كذا عند العرب وأما عند العامة فختن الرجل زوج ابنته اهـ فلعله أيضاً ضمن الأختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعداه بعلى. وفي الخازن عن ابن مسعود: الحفدة أختان الرجل على بناته (ع).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الرزق يكون بمعنى: المصدر، وبمعنى: ما يرزق، فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شَيْـًٔا﴾؛ كأي: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [البلد: ١٤، ١٥] على: لا يملك أن يرزق شيئاً، وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه، بمعنى: قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك: أي لا يملك شيئاً من الملك، و﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: صل للرزق إن كان مصدراً بمعنى: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، أو صفة إن كان اسماً لما يرزق، والضمير في ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: لما؛ لأنه في معنى: الآلهة، بعد ما قيل: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾: على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار، يعني: ولا يستطيع هؤلاء ـ مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب ـ من ذلك شيئاً، فكيف بالجماد الذي لا حس به؟

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؟ وهل هما إلا شيء واحد؟

قلت: ليس في (لا يستطيعون): تقدير راجع؛ وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، منفية عنهم أصلاً؛ لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾: تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به[(١)]؛ لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال، وقصة بقصة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾: كنه ما تفعلون وعظمه،/ ١٩٤ب وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأنّ العقاب على مقدار الإثم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: كنهه وكنه عقابه؛ فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرأكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون.

---

(١) قال محمود: «تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به... إلخ» قال أحمد: فعلى تفسيره الأول يكون حموله (لله) متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله ولا تشبهوه. وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا لله الأمثال، فإن ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة، والله أعلم.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلت: لم قال: ﴿مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(1)، وكل عبد مملوك، وغير قادر على التصرف؟

قلت: أما ذكر المملوك: فليميز من الحرّ؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً؛ لأنهما من عباد الله، وأما ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفوا في العبد، هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له.

---

(1) عاد كلامه. قال: «فإن قلت لم قال مملوكاً لا يقدر على شيء... إلخ» قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. وفي هذه الآية له معتصم، لأن الله تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود: وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في المماليك عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ كالتكرار لما فهم من قوله ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب، بعيد من فصاحة القرآن: فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك ألبتة إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالألغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة. ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة لبعد القصد إليها على شذوذها. وأما الاحتراز به عن المأذون له فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكاً عند هذا القائل. وهذا بعيد عن مطابقة قوله ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ فإنها توجب أن يكون المراد بقوله ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه. فتلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول: هذه الصفة لازمة كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل: وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفته اللازمة له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء. أي لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ومن يدع مع الله تعالى، لا برهان له به﴾ فقوله لا برهان له به. لا يقصد به تمييز له سوى (الله) من (إله) لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى، لا برهان به. وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد. ولنا أن نقول في دفعه أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد. وأما الوارد من ذلك لازماً فنادر على خلاف الأصل، والله الموفق.

فإن قلت: (من) في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ ما هي؟

قلت: الظاهر أنها موصوفة، كأنه قيل: وحراً رزقناه؛ ليطابق عبداً، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ على الجمع؟

قلت: معناه: هل يستوي الأحرار والعبيد؟

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

الأبكم: الذي ولد أخرس، فلا يَفهم ولا يُفهم، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾: حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لم ينفع ولم يأت بنجح، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن﴾: هو سليم الحواس نفاعاً ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو: ﴿يَأْمُرُ﴾: الناس ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾، والخير، ﴿وَهُوَ﴾: في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع، وقرئ: «أينما يوجه»: بمعنى: أينما يتوجه، من قولهم: أينما أوجه ألق سعداً، وقرأ ابن مسعود: «أينما يوجه»: على البناء للمفعول.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض: يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، إذا بالغتم في استقرابه؛ ونحوه قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، أي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد، وقيل: المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه(١)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق؛ لأنه بعض المقدورات، ثم دل على قدرته بما بعده.

---

(١) قوله: «وأوحاه» أي: وأسرعه. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قرئ: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: بضم الهمزة وكسرها، والهاء مزيدة في أمات، كما زيدت في أراق، فقيل: أهراق، وشذت زيادتها في الواحدة؛ قال [من الرجز]:

أُمَّــهَــتِــي خِــنْــدِفُ وَٱلْــيَــاسُ أَبِــي[1]

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسوّاكم وصوّركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم، والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير، فجرت ذلك المجرى.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قرئ: «لم يروا»: بالتاء والياء، (مسخرات): مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية[2] لذلك، والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ

---

(١) إني لدى الحرب رخي اللبب معتزم الصولة عالي النسب
أمهتي خندف وإلياس أبي

لقصي بن كلاب بن مرة جد النبي ﷺ. ورخي اللبب. رحب الصدر واسع البال. واللبب في الأصل جبل في صدر المطية يمنع الرحلة من الاستئخار، أطلق على ذلك للمجاورة. ومعتزم: مصمم. والصولة: تجشم المكروه واقتحامه. وزيادة الهاء في أمهة شاذ. وخندف، بكسر الخاء والدال: امرأة إلياس بن مضر، وهذا لقبها، واسمها ليلى. والخندفة: مشية كالهرولة. وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد: مجاز لمطلق الأصالة.

ينظر: خزانة الأدب ٧/ ٣٧٩، والدرر: ١/ ٨٣، وسمط اللآلي ص ٩٥، وشرح شواهد الشافية ص ٣٠١، ولسان العرب: (سلك)، (أمه)، والمقاصد النحوية: ٤/ ٥٦٥، وديوان الأدب: ٤/ ١٧٥، ٣/ ٤١٩، وتاج العروس (هول)، (أمم)، وأمالي القالي: ٢/ ٣٠١، وسر صناعة الإعراب: ٢/ ٥٦٤، وشرح التصريح: ٢/ ٣٦٢، وشرح المفصل لابن يعيش: ١٠/ ٤، والمحتسب: ٢/ ٢٢٤، والممتنع في التصريف: ١/ ٢١٧، وهمع الهوامع: ١/ ٢٣، وتهذيب اللغة: ٦/ ٤٧٥، ١٥/ ٦٣١، وجمهرة اللغة ص ١٠٨٤، ١٣٠٨، والمخصص: ١٣/ ١٧١.

(٢) قوله: «والأسباب المواتية لذلك» في الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول: واتيته (ع).

والسكاك[1] أبعد منه، واللوح مثله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾: في قبضهن وبسطهن ووقوفهن، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بقدرته.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها، والسكن: فعل بمعنى: مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف، ﴿بُيُوتًا﴾: هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها[2]، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً، على أنّ اليوم بمعنى: الوقت، ﴿وَمَتَٰعًا﴾: وشيئاً ينتفع به، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا، وقرئ: «يوم ظعنكم»: بالسكون.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾: من الشجرة وسائر المستظلات، ﴿أَكْنَٰنًا﴾: جمع كنّ، وهو ما يستكنّ به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف، ﴿سَرَٰبِيلَ﴾: هي القمصان والثياب من الصوف والكتان[3] والقطن وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: لم يذكر البرد؛ لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد؛ لكونه يسيراً محتملاً، وقيل: ما يقي من الحرّ يقي من البرد[4]، فدل ذكر الحرّ على البرد، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يريد:

---

(١) قوله: «والسكاك أبعد منه» في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاقي أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وما اعترض من أقطارها. والعنان بالفتح السحاب (ع).

(٢) قال محمود: «المراد يخف عليكم حملها ونقلها... إلخ» قال أحمد: والتفسير الأول أولى؛ لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم: أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(٣) قال محمود: «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها... إلخ» قال أحمد: يعني عند العرب وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(٤) عاد كلامه. قال: «وقيل إن ما يقي الحر يقي البرد فدل ذكره عليه» قال أحمد: والأول أظهر. ألا =

الدروع والجواشن[1] والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له، وقرئ: «تسلمون»: من السلامة، أي: تشركون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم/ ١٩٥أ من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أدّيت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر، وهو البلاغ؛ ليدل على المسبب، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: التي عددناها؛ حيث يعترفون بها وأنها من الله، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله؛ وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: (نعمة الله): نبوّة محمد عليه السلام ـ كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم.

فإن قلت: ما معنى: ثم؟

قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿شَهِيدًا﴾: نبيهاً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل.

= ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر، فامتن الله عليهم بأعظم نعمه موقعاً عندهم. وقول القائل «إن ما يقي الحر يقي البرد» مشهود عليه بالعرف، فإن الذي يتقى به الحر من القمصان رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من لبوس البرد، بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين ـ القيظ والبرد ـ لباس الآخر، يعد من الثقلاء.

(١) قوله: «والجواشن» في الصحاح: الجوشن الصدر. والجوشن الدرع (ع).

فإن قلت: فما معنى ثم هذه؟

قلت: معناها: أنهم يمنون[1] بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة، وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره: واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ كقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٠].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم، فمعنى: ﴿شُرَكَآؤُنَا﴾: آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغيّ، و﴿نَدْعُوا۟﴾ بمعنى: نعبد.

فإن قلت: لم قالوا: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وكانوا يعبدونهم على الصحة؟

قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، والدليل عليه قول الملائكة: ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعنون: أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة؛ تنزيهاً لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء: الشياطين، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم: (إنكم لكاذبون)، كما يقول الشيطان: إني كفرت بما أشركتموني من قبل، ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، وبطل عنهم: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها[2] أربعين خريفاً، وقيل: يخرجون من النار إلى

---

(١) قوله: «يمنون» في الصحاح: منوته ومنيته إذا ابتليته (ع).

(٢) قوله: «حمتها» حمة العقرب بالتخفيف، والهاء عوض عن اللام وهي سمها. وأما حمة الحر، =

الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار، ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾: بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾: يا محمد، ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾: على أمتك، ﴿تِبْيَانًا﴾: بياناً بليغاً ونظير «تبيان»؛ «تلقاء» في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؟

قلت: المعنى: أنه بين كل شيء من أمور الدين؛ حيث كان نصًّا على بعضها وإحالة على السنة؛ حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: وما ينطق عن الهوى، وحثا على الإجماع في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته اتباع أصحابه، والاقتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ» (٨٣٣)، وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد، مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثَمّ كان تبياناً لكل شيء.

٨٣٣ـ أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٥) وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٢) وابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (١/ ١٤٦) من طريق سلام بن سليمان ثنا الحارث بن غصين عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.

قال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن الحارث بن غصين مجهول.

وقال ابن حزم: هذه رواية ساقطة، أبو سفيان ضعيف والحارث بن غصين هذا هو أبو وهب الثقفي وسلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة وهذا منها بلاشك.

وقال الحافظ: حديث غريب... وأخرجه ابن عبد البر من هذا الوجه وقال: هذا إسناد لا تقوم به حجة والحارث مجهول قلت ـ أي الحافظ ـ: الآفة فيه من الراوي عنه وإلا فالحارث ذكره ابن حِبان في الثقات وقال: روى عنه حسين الجعفي اهـ وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص ٢٥٠، ٢٥١) رقم (٧٨٣) وابن عديّ في «الكامل» (٢/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦) كلاهما من طريق أبي شهاب عن حمزة الجزري عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مثل أصحابي مثل النجوم يهتدى به فأيهم أخذتم بقوله اهتديتم».

وذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٤) معلقاً عن أبي شهاب به وقال: وهذا إسناد لا يصح ولا يرويه عن نافع من يحتج به.

وقال ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٣): فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً، بل لا شك أنها

= فبالتشديد، وهي معظمه، أفاده الصحاح (ع).

= مكذوبة لأن الله تعالى يقول في صفة نبيه ﷺ: (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى) [النجم ٣، ٤]. . . أهـ.
ومن طريق عبد بن حميد أخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (١/ ١٤٥) وقال: هذا حديث غريب وذكره ابن عبد البر في كتاب بيان العلم عن أبي شهاب بسنده وقال: هذا إسناد ضعيف الراوي له عن نافع لا يحتج به قلت: هو متفق على تركه بل قال ابن عديّ: إنه يضع. أهـ. وأخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٣/ ١٠٥٧) والبيهقي في «المدخل» (١٥١) وابن عساكر (٦/ ٥ ـ تهذيب) من طريق نعيم بن حماد ثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد ابن المسيب عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي عما يختلف فيه أصحابي من بعديّ فقال: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشيء مما اختلفوا فيه فهو عندي على هذا».
قال الحافظ في «تخريج أحاديث المختصر» (١/ ١٤٧): هذا حديث غريب. . . وزيد العَمي بفتح المهملة وتشديد الميم وابنه أضعف منه، وقد سُئل البزار عن هذا الحديث فقال: لا يصح هذا الكلام عن النبي ﷺ وقد رواه عبد الرحيم مرة أخرى فقال عن أبيه عن ابن عمر. . . ا.هـ وأخرجه البيهقي في «المدخل» (١٥٢) والخطيب في «الكفاية» (ص ـ ٤٨) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس بلفظ: «إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيها أخذتم به اهتديتم» قال الحافظ في «تخريج المختصر» (١/ ١٤٦): وجويبر ضعيف جدا والضحاك لم يلق ابن عباس.
وأخرجه البيهقي في «المدخل» أيضاً (١٥٣) من طريق جويبر عن جواب بن عبد الله عن النبي ﷺ.
وهو مرسل أو معضل كما قال الحافظ.
وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٤٦) من طريق جعفر بن عبد الواحد قال: قال لنا وهب ابن جرير بن حازم عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مثل أصحابي مثل النجوم من اقتدى بشيء منها اهتدى». وجعفر بن عبد الواحد كذاب كذّبه غير واحد. فذكره برهان الدين الحلبي في «كتابه الكشف الحثيث عمن رمى بوضع الحديث (ص ١٢٧) رقم: (١٩٧) وقال: قال الدارقطني: يضع الحديث، وساق له ابن عديّ أحاديث وقال: كلها بواطيل وبعضها سرقه من قوم انتهى ونقل ابن الجوزي عن ابن عديّ أنه متهم بوضع الحديث ذكر ذلك في غير مكان من الموضوعات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الدارقطني في المؤتلف من رواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً. وسلام ضعيف. وأخرجه في غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث: وفيه: «فبأي قول أصحابي أخذتم اهتديتم، إنما مثل أصحابي مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى»، وقال: لا يثبت عن مالك. ورواته دون مالك مجهولون. ورواه عبد بن حميد، والدارقطني في الفضائل من حديث حمزة الحريري عن نافع عن ابن عمر. وحمزة اتهموه بالوضع. ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة، وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وقد كذبوه. ورواه ابن طاهر من رواية بشر ابن الحسين عن الزبير بن عديّ عن أنس. وبشر كان متهماً أيضاً. وأخرجه البيهقي في المدخل من =

العدل هو الواجب[1]؛ لأن الله ـ تعالى ـ عدل فيه على عباده[2]، فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاقتهم، ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: الندب؛ وإنما علق أمره بهما جميعاً؛ لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط[3] فيجبره الندب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت ـ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» (٨٣٤)، فعقد الفلاح

= رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وجويبر متروك. ومن رواية جويبر أيضاً عن حواب بن عبد الله مرفوعاً وهو مرسل، قال البيهقي: هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة. وروى في المدخل أيضاً عن عمر ورفعه: «سألت ربي فيما يختلف فيه أصحابي من بعديَ. فأوحي إلي: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء، بعضها أضوأ من بعض، فمن أخذ بشيء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى»، وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد السهمي، وهو متروك. انتهى.

٨٣٤ ـ أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٥/ ٩٤) ـ كتاب قصر الصلاة في السفر (٩) ـ باب جامع الترغيب في الصلاة، والبخاري في صحيحه (١/ ١٤٦) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب الزكاة من الإسلام (٣٤) ـ (٤٦)، ومسلم (١/ ١٩٨ ـ نووي) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب بيان الصلوات (٢) ـ (٨/ ١١)، وأبو داود (١/ ١٠٦) ـ كتاب الصلاة ـ حديث رقم (٣٩١)، والنَّسائي (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ـ كتاب الصلاة ـ باب لم رضت في اليوم والليلة ـ (٤٥٨)، والدارمي (١/ ٣٧٠) ـ كتاب الصلاة ـ باب «في الوتر»، وابن خزيمة (٢/ ١٥٨) حديث رقم (٣٠٦)، وأحمد (١/ ١٦٢)، والبيهقي في =

---

(١) قال محمود: «العدل: الواجب. والإحسان: الندب» قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر ـ أعني هذه المبنية من الهمزة والميم والراء لا صيغة أفعل ـ تتناول القبيلين بطريق التواطؤ وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما كان الواجب عدلاً لأن الله تعالى عدل فيه على عباده... إلخ» قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال. ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال. والحق والسنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه وعدل منه ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسألون﴾ بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرة الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض. وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتي والتيسر في الأفعال الاختيارية التي هي محال التكاليف.

(٣) عاد كلامه. قال: «وإنما قرنهما في الأمر، لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب... إلخ» قال أحمد: وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن، فيقال: المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: «اَسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا» (٨٣٥). فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل، والفواحش: ما جاوز حدود الله،

= الكبرى (٢/٤٦٦)، من طرق عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول...

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه من رواية طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم.

٨٣٥ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم:
ثوبان، جابر، عبد الله بن عمرو بن العاص، سلمة بن الأكوع، أبو أمامة.
ـ أما حديث ثوبان:
فأخرجه أحمد (٥/٢٨٦ ـ ٢٧٧)، وابن ماجه (١/١٠١) كتاب الطهارة وسننها ـ باب المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، والحاكم في مستدركه (١/١٣٠)، والبيهقي في الكبرى (١/٨٢ و٤٥٧)، والطبراني في «الصغير» (٢/٨٨)، والدارمي في سننه (١/١٦٨)، والخطيب في تاريخه (١/٢٩٣)، والطيالسي في مسنده (١/٢٩ ـ منحة) (٤٦)، من طرق عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان مرفوعاً: «استقيموا ولن تحصوا...» وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولست أعرف له علة يعلل بمثلها ووافقه الذهبي.
قلت: وفي ذلك نظر، فإن سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان كما قرر ذلك عدد من أهل العلم فعند التِّرمذي في جامعه (٥/٢٧٨) (٣٠٩٤) قال: سألت محمد بن إسماعيل فقلت له: سالم ابن أبي الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا... وقال محمد بن يحيى الذهلي: سمعت أحمد بن حنبل ـ وذكر أحاديث سالم بن أبي الجعد عن ثوبان، فقال: لم يسمع سالم من ثوبان ولم يلقه، وبينهما معدان بن أبي طلحة، وليست هذه الأحاديث بصحاح. تهذيب الكمال (١٠/١٣٢) ترجمة (٢١٤٢). وقد صرح بذلك البوصيري في «الزوائد» (١/١٢٢).
قلت: وللحديث طريق آخر عن ثوبان:
أخرجه أحمد (٥/٢٨٢)، والدارمي (١/١٦٨) كتاب الوضوء: باب ما جاء في الطهور، وابن حِبان (١٦٤ ـ موارد)، والطبراني في «الكبير» (٢/١٠١) رقم (١٤٤٤)، والبيهقي (١/٤٥٧) كتاب الطهارة: باب خير أعمالكم الصلاة، من طريق الوليد بن مسلم ثنا ابن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان به. وقع عند الطبراني «أبو كبشة السولي» وهو تصحيف واسمه «أبو كبشة السلولي» انظر تهذيب الكمال (٣٤/٢١٥) ترجمة (٧٥٨٣) والوليد بن مسلم مدلس، وقد عنعن ـ ووجدت تصريحه بالتحديث عند ابن حِبان في صحيحه (٣/٣١١) (١٠٣٧) بلفظ «سددوا وقاربوا...» وابن ثوبان اسمه عبد الرحمن وهو حسن الحديث، والحديث أخرجه مالك في الموطأ (١/٣٤) ـ كتاب الطهارة ـ باب جامع الوضوء ـ بلاغاً وقال ابن عبد البر في التقصي: هذا يستند ويتصل من حديث ثوبان عن النبي ﷺ من طرق صحاح.
ـ وأما حديث جابر فأخرجه الحاكم في مستدركه (١/١٣٠) من طريق محمد بن خازم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً...
ـ وأما حديث عبد الله بن عمرو:
فأخرجه ابن ماجه (١/١٠٢) ـ كتاب الطهارة ـ باب المحافظة على الوضوء ـ (٢٧٨)، والبيهقي في الشعب (٣/٥٠٤) (٢٧١٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/١٤) (٣٦) مختصراً، كلهم من طريق =

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما تنكره العقول[1]، ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾: طلب التطاول بالظلم[2]، وحين أسقطت من الخطب[3] لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ ـ رضي الله عنه ـ أقيمت هذه الآية

= ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف، علته ليث بن أبي سليم.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٣٣) (٦٨٠) لإسحاق بن راهويه والبزار والطبراني في معجمه ـ ونقل عن البزار قوله: لا نعلمه يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

ـ وحديث سلمة بن الأكوع:

أخرجه الطبراني في الكبير (٧/ ٢٨) (٦٢٧٠)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٦٨) كلاهما من طريق محمد بن عمر الوادي عن موسى بن محمد بن إبراهيم أنه سمع إياس بن سلمة بن الأكوع يحدث عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره.

ومحمد بن عمر الواقدي متروك مع سعة علمه، وموسى بن محمد لا يتابع؛ لما قال العقيلي، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٣): رواه الطبراني في الكبير عن محمد بن عبادة عن أبيه، ولم أجد من ترجمه. أهـ.

قلت: وليس في إسناده عند الطبراني محمد بن عبادة هذا.

ـ وحديث أبي أمامة: أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠٢) ـ كتاب الطهارة وسننها ـ باب المحافظة على الوضوء ـ (٢٧٩) حدثنا محمد بن يحيى. ثنا ابن أبي مريم ثنا يحيى بن أيوب حدثني إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن أبي أمامة يرفع الحديث. . .

وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ١٢٣) هذا إسناد ضعيف لضعف تابعيه، وقال البيهقي: أبو حفص هذا مجهول، تهذيب الكمال (٣٣/ ٢٥٣) (٧٣٢١)، وقال الذهبي في الميزان (٤/ الترجمة ١٠١١٠): لا يعرف أبداً. وقال الحافظ ابن حجر (٢/ ٤١٣) (٦٠): مجهول.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن ماجه، والحاكم، وأحمد، وابن أبي شيبة، والدارمي، وأبو يعلى من رواية سالم بن أبي الجعد عن ثوبان. وهو منقطع. ورواه ابن حِبان، والطبراني من وجه آخر عن ثوبان، ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، ورواه الطبراني. والعقيلي من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدي، وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والبزار والطبراني عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو. وليث ضعيف وأشار البزار إلى أنه تفرد به. انتهى.

---

(١) عاد كلامه. قال: «والفواحش ما جاوز حدود الله، والمنكر ما تنكره العقول» قال أحمد: وهذه أيضاً لفتة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق. ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «والبغي طلب التطاول بالظلم» قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومن ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلق خاصا بطلب الظلم عرفاً.

(٣) عاد كلامه. قال: «وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. . . إلخ» قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد: في أن المناصب لعلي باغ، حيث يقول عليه =

مقامها، ولعمري، إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالاً وخزياً، إجابة لدعوة نبيه: «وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» (٨٣٦)، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

---

٨٣٦ ـ قلت هذا حديث صحيح متواتر، وقد رواه جمع كبير من الصحابة هم:
١) **زيد بن أرقم أخرجه النَّسائي في** الكبرى (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١) ـ كتاب الخصائص ـ حديث رقم (٨٤٦٤ و٨٤٦٨)، وأحمد (١/ ١١٨)، والحاكم في مستدركه (٣/ ١٠٩)، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٦٠٦/ ١٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ١٦٦) (٤٩٦٩)؛ كلهم من طريق سليمان الأعمش قال: حدثنا حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ عن حجة الوداع...
وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي. قلت: وحبيب بن أبي ثابت وهو أبو يحيى الكوفي ثقة فقيه جليل، ولكنه كثير الإرسال والتدليس، كما قال الحافظ في التقريب (١/ ١٤٨) وقد عنعن هنا وتابع حبيب... فطر بن خليفة عن أبي الطفيل قال...
أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٠)، وابن حِبان في صحيحه (١٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) (٦٩٣١)، وفي الموارد أيضاً (٧/ ١٣٨ ـ ١٣٩) (٢٢٠٥)، والبزار (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢) (٢٥٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (ص ٦٠٦/ ١٣٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ١٦٥ ـ ١٦٦) (٤٩٦٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٠٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة»، وأخرجه التِّرمذي (٥/ ٦٣٣) ـ كتاب المناقب (٥٠) ـ باب مناقب علي ـ (٣٧١٣) من طريق شعبة عن سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم شك شعبة عن النبي ﷺ قال «من كنت مولاه...».
وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨ ـ ٣٧٢)، (٥/ ٣٧٠)، والطبراني (٤٩٨٣، ٤٩٨٥، ٤٩٨٦، ٥٠٥٨، ٥٠٥٩، ٥٠٩٢) من طرق عن زيد بن أرقم به.
٢) **البراء بن عازب:**
أخرجه النَّسائي (٥/ ١٣٢) ـ كتاب الخصائص ـ حديث رقم (٨٤٧٣) من طريق عمران بن أبان قال: حدثنا شريك: فقلت لأبي إسحاق: هل سمعت البراء بن عازب... قلت: وشريك بن عبد الله القاضي كثير الخطأ، وعمران بن أبان هو أبو موسى الطحان الواسطي: ضعيف الحديث كما في التقريب (٢/ ٨٢)، وأخرجه أحمد (٤/ ٢٨١)، وابن ماجه في سننه (١/ ٤٣) ـ المقدمة ـ فضل علي ابن أبي طالب (١١٦) كلاهما من طريق حماد بن سلمة أنا علي بن زيد عن عديّ بن ثابت عن البراء بن عازب قال «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر...
وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٦٩) هذا إسناد ضعيف.
٣) **سعد بن أبي وقاص**: أخرجه النَّسائي (٥/ ١٣١) ـ كتاب الخصائص ـ (٨٤٦٨) من طريق عبد الواحد بن أيمن عن أبيه أن سعداً قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه، فعلي مولاه» وابن ماجه (١/ ٤٥) المقدمة (١٢١) من طريق عبد الرحمن بن سابط عن سعد... والحاكم في المستدرك (٣/ ١١٦) من طريق مسلم الملائي عن خيثمة بن عبد الرحمن قال: سمعت سعد بن =

= الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: تقتلك الفئة الباغية، والله أعلم، فقتل مع علي يوم صفين.

= مالك... وقال الذهبي: سكت الحاكم عن تصحيحه، ومسلم متروك.
قلت: وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٣٥): - رواه النّسائي - من طرق ثلاثة دائرة على المهاجر بن مسمار، عن عائشة بنت سعد عن سعد... ولم أجده في النّسائي من هذا الطريق، وإنما وجدته فقط من الطريق الذي ذكرناه آنفا والله أعلم.

٤) **حديث بريدة:**

أخرجه النّسائي (٥/ ١٣٠) - كتاب الخصائص (٨٤٦٥ و٨٤٦٦ و٤٨٦٧)، وأحمد (٥/ ٣٥٠) من طريق أبي معاوية حدثنا الأعمش، عن سعد بن عبيدة عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «من كنت مولاه...»، والبزار (٣/ ١٨٨) (2535) من طريق محمد بن المثنى حدثنا أبو معاوية به، وأحمد (٥/ ٣٥٨، ٣٦١) من طريق وكيع عن الأعمش به، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٤٧) والحاكم (٣/ ١١٠) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، وأخرجه عبد الرزاق (٢٢٥١١) برقم (٢٠٣٨٨) عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: لما بعث النبي ﷺ عليا إلى اليمن، خرج بريدة الأسلمي معه... ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٢٩) (٣٤٨)، وأخرجه أيضاً في «الصغير» (١/ ٧١) من طريق... عبد الرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاووس عن بريدة بن الحصيب عن النبي ﷺ...
وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣) من طريق سفيان بن عيينة به وقال «غريب من حديث طاووس لم نكتبه إلا من هذا الوجه».

٥) **حديث أبي هريرة:**

أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١١/ ٣٠٧) (٦٤٢٣)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٦٨ - ٦٧) (١١١٥)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن إدريس إلا عكرمة، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٩): رواه أبو يعلى والبزار بنحوه والطبراني في الأوسط وفي أحد إسنادي البزار رجل غير مسمى، وبقية رجاله ثقات في الآخر، وفي إسناد أبي يعلى داود بن يزيد وهو ضعيف» أهـ.

٦) **حديث أبي أيوب:**

أخرجه أحمد (٥/ ٤١٩) والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٣) (٤٠٥٢، ٤٠٥٣، ٤٠٥٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠٧١٩). ورجال أحمد ثقات.

٧) **جرير بن عبد الله** أخرجه الطبري في «الكبير» (٢/ ٣٥٧) (٢٥٠٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٠٩): وفيه بشر بن حرب وهو لين ومن لم أعرفه أيضاً، وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة منها الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٦ - ١١٢)، والحديث ذكره السيوطي في الأزهار المتناثرة عن ثمانية عشر نفساً، وأورده الكتاني في نظم المتناثر كتاب المناقب، والزبيدي في لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة (ص ٢٠٥) وقال: رواه من الصحابة واحد وعشرون نفساً وذكرهم، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٣٨) - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب علي - وأما حديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقد أخرجه الترمذي والنّسائي، وهو كثير الطرق جدا، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان أ.هـ.
وانظر الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٣٤ و٢٤٤) فقد استوعب كثيراً من طرقه.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
هذا طرف من حديث غدير خم الوارد في فضل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد أخرجه =

﴿عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

عهد الله: هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾/ ١٩٥ب [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا تَنقُضُوا﴾: أيمان البيعة، ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل: الواو، والهمزة: بدل، ﴿كَفِيلًا﴾: شاهداً ورقيباً؛ لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه، ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته، ﴿أَنكَاثًا﴾: جمع نكث، وهو ما ينكث فتله، قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء، اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن، ﴿تَتَّخِذُونَ﴾: حال

= النَّسائي، وابن حِبان، والحاكم من رواية الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم، وفيه هذا اللفظ، ورواه النَّسائي أيضاً من رواية شريك: قلت لأبي إسحاق: أسمعت البراء يحدث عن رسول الله ﷺ؟ قال يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال: نعم. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، والبزار من وجه آخر، عن شريك، عن إدريس بن يزيد الأشددي، عن أبيه، عن أبي هريرة، وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبراني، ورواه الطبري أيضاً من طريق سليمان بن قرم عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة. وأخرجه النَّسائي أيضاً من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبي ﷺ: «أخذ بيد علي يوم غدير خم فقال: من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملائي عن خثمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني من طريق عطية عنه، والبزار من طريق جميل بن عمارة، عن سالم عن أبيه، وعن أنس وغيره أخرجه الطبراني في الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال: شهدت عليا على المنبر ناشد الصحابة: من سمعه يقول يوم غدير خم ما قال؟ فقام اثنا عشرة، منهم أبو هريرة، وأبو سعيد، وأنس، وعن جرير أخرجه الطبراني مطولاً: وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعة بن إياس العمي عن أبيه عن جده قال: «كنا مع علي يوم الجمل فبعث إلى طلحة فقال له: أنشدنك الله، ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول ـ فذكره. فقال: نعم. قال: فلم تقاتلني؟ قال: لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى، والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة عن جابر، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبراني وجمع ابن عقدة طرف حديث غدير خم، فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء: منهم عمار بن ياسر، والعباس وابنه، والحسن بن علي والحسين بن علي، وعبد الله بن جعفر، وسلمان الفارسي، وسمرة بن جندب، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن حارثة، وأبو رافع، وزيد بن ثابت الأنصاري، ويعلى بن مرة وآخرون. انتهى.

و﴿دَخَلًا﴾: أحد مفعولي اتخذ، يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: مفسدة ودغلا[١]، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾: بسبب أن تكون أمة، يعني: جماعة قريش، ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي: أزيد عدداً وأوفر مالاً، من أمة من جماعة المؤمنين، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾: الضمير لقوله: أن تكون أمة؛ لأنه في معنى: المصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى؛ لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾: إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار[٢]، وهو قادر على ذلك، ﴿وَلَٰكِن﴾: الحكمة اقتضت أن يضلّ، ﴿مَن يَشَاءُ﴾: وهو أن يخذل من علم أنه يختار[٣] الكفر ويصمم عليه، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان، يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان، والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك؛ وحققه بقوله: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال[٤] والاهتداء، لما أثبت لهم عملاً يسألون عنه[٥].

---

(١) قوله: «ودغلاً» في الصحاح «الدغل» بالتحريك: الفساد، مثل الدخل (ع).

(٢) قال محمود: «معناه على طريقة الإلجاء والقسر» قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أن مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصدق وتكذيب كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النص ويقول: قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده. فإذا قيل له: فعلام تحمل المشيئة في الآية؟ قال: على مشيئة إيمانهم قسراً لا اختياراً، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً.

(٣) قوله: «وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة، فالإضلال: خلق الضلال في القلب؛ لأنه يجوز على الله خلق الشر عندهم دون المعتزلة، كما بين في محله (ع).

(٤) قوله: «ولو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل، أي الذي يضطر العباد ويلجئهم. وقوله: «لما أثبت... إلخ» مسلم، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأعمالهم في الحقيقة، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة في علم التوحيد، فلينظر (ع).

(٥) عاد كلامه. قال محمود: «ومما يدل على أن الله لم يبن الأمر على الإجبار وإنما بناه على الاختيار قوله تعالى ﴿ولتسئلن عما كنتم تعملون﴾ ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم ما =

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم؛ تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعظم ما يركب منه، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾: فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: في الدنيا بصدودكم، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وخروجكم من الدين، أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

كان قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان ـ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد ـ أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ فثبتهم الله، ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾: ولا تستبدلوا، ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عرضاً من الدنيا يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿مَا عِندَكُمْ﴾: من أعراض الدنيا، ﴿يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من خزائن رحمته، ﴿بَاقٍ﴾: لا ينفد، وقرئ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾: بالنون والياء، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾: على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام.

فإن قلت: لم وحدت القدم ونكرت[1]؟

= يسألون عنه» قال أحمد: أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجبرة فهم من الإجبار بمعزل، لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً، وهم مع ذلك يوحدون الله حق توحيده، فيجعلون قدرته تعالى هي الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب، تمييزاً بين الاختياري والقسري وتقوم بها حجة الله على عبده، والله الموفق.

(١) قال محمود: «إن قلت لم وحدت القدم ونكرت... إلخ» قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل: إفادته له في قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فنكر الأذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

قلت: لاستعظام أن تزلّ واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

فإن قلت: ﴿مَنْ﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى، فما معنى تبيينه بهما؟

قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للمذكور، فقيل: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: على التبيين؛ ليعمّ الموعد النوعين جميعاً، ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: وعده الله ثواب الدنيا والآخرة؛ كقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً، فلا مقال فيه، وإن كان معسراً، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأمّا الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: الحياة الطيبة: الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه، وصل به قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ؛ كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله.

فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟

قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يَا ٱبْنَ أُمِّ عَبْدٍ، قُلْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، هٰكَذَا أَقْرَأَنِيه جِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ عَنِ القَلَمِ عَنِ اللَّوْحِ

المَحْفُوظِ» (٨٣٧)، ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله، يعني: انهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه/ ١٩٦أ فيما يريد منهم من اتباع خطواته، ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾: على من يتولاه ويطيعه، ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾: الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان، على معنى: بسببه وغروره ووسوسته.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

تبديل الآية مكان الآية: هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنها مصالح وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة، والله ـ تعالى ـ عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا؛ وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ، وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق؛ لأنّ الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة.

فإن قلت: هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟

قلت: فيه أن قرآناً ينسخ بمثله، وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها، فلا يصح نسخ القرآن بها.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

في (ينزل) و﴿نَزَّلَهُۥ﴾: وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح: إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله

---

٨٣٧ ـ أخرجه الواحدي في تفسير الوسيط (٨٤١٣) من طريق الثعلبي مسلسلاً، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٠٩) (٨٥) وعزاه لابن النجار من طريق هناد النسفي الشافعي مسلسلاً.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخة أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود، ورواه الواحدي من الوسيط عن الثعلبي. . . انتهى.

دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة، و﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: جبريل ـ عليه السلام ـ أضيف إلى القدس وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود وزيد الخير، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجواد، وزيد الخير، والمقدّس: المطهر من المآثم، وقرئ: بضم الدال وسكونها، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: في موضع الحال، أي: نزله ملتبساً بالحكمة، يعني: أن النسخ من جملة الحق، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ليبلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾: مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ: «ليثبت»: بالتخفيف.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

أرادوا بالبشر: غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر: غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي، واللسان: اللغة، يقال: ألحد القبر ولحده، وهو ملحد وملحود، إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان، ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾: غير بين، ﴿وَهَٰذَا﴾: القرآن، ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: ذو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم، وقرئ: (يلحدون): بفتح الياء والحاء، وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قلت: الجملة التي هي قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ ما محلها؟

قلت: لا محل لها؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم؛ ومثله قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بعد قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى

﴿ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾: ردّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾، يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقاباً عليه، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى قريش، ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون، أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿مَن كَفَرَ﴾: بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: اعتراضاً بين البدل والمبدل منه، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً واعتقده، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: (أولئك) على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه، ويجوز أن ينتصب على الذمّ، وقد جوّزوا أن يكون: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾: شرطاً مبتدأ، ويحذف جوابه؛ لأنّ جواب: (من شرح): دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، روي أنّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه/ ١٩٦ب، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم: عمار، وأبواه ـ ياسر وسمية ـ وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأمّا سمية: فقد ربطت بين بعيرين ووجىء في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار: فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فقيل: يا رسول الله،

إن عماراً كفر، فقال: «كَلاَّ، إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً مِنْ قَرْنِهِ إِلَىٰ قَدَمِهِ، وَٱخْتَلَطَ الإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» ح فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «مَالَكَ! إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ»، ومنهم جبر مولى الحضرمي، أكرهه سيده، فكفر، ثم أسلم مولاه وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا (٨٣٨).

فإن قلت: أي الأمرين أفضل، أفعل عمار أم فعل أبويه؟

قلت: بل فعل أبويه؛ لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام وقد روي أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنت ـ أيضاً ـ فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصمّ، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَمَّا الأَوَّلُ: فَقَدْ أَخَذَ بِرُخْصَةِ الله، وَأَمَّا الثَّانِي: فَقَدْ صَدَعَ بِالْحَقِّ فَهَنِيئًا لَهُ» (٨٣٩). ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى الوعيد، وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب

---

٨٣٨ ـ ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٨٦) من حديث ابن عباس، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٤٦) للواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٧) ـ كتاب التفسير ـ سورة النحل، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي والبيهقي في السنن (٨/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) ـ كتاب المرتد ـ باب المكره على الردة، وأخرجه في «الدلائل» أيضاً (٤/ ٣٠١ ـ ٤٠٤)؛ وابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ١٧٨)، وقوله ﷺ: «إن عماراً» إلى قوله «قدمة» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٩) في ترجمة «عمار بن ياسر».
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال: «أول من أظهر إسلامه سبعة: فذكرهم إلى أن قال: فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد ـ الحديث» ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال: «أول من أظهر فذكر مثله ـ وزاد فجاء أبو جهل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها. فهي أول شهيد في الإسلام. قلت: قوله ﷺ: «إن عماراً مليء إيماناً» رواه . . . وقوله «اختلط الإيمان بلحمه ودمه» رواه . . . وقوله «إن عادوا لك فعدلهم» رواه . . . . انتهى.

٨٣٩ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٧٣) (٣٣٠٣٧) حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن أن عيوناً لمسلمة أخذوا رجلين. . . وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٦٢) عن معمر قال: سمعت أن لمسيلمة. . . فذكره قلت: وهذا إسناد معضل.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علية، عن يونس، عن الحسن «أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه وقال: إني أصم، فأعاد عليه، فقال مثله، فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال: أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير عن =

استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾: الكاملون في الغفلة، الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَـٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾: دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ومعنى: إنّ ربك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عدوّهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محميًّا منفوعاً غير مضرور، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾: بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: (فتنوا): على البناء للفاعل، أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر، ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾: منصوب برحيم. أو بإضمار اذكر.

فإن قلت: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟

قلت: يقال لعين الشيء وذاته نفسه، وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها وذاتها، فكأنها قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها؛ كقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ونحو ذلك.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا؛ فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على

= معمر قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه. وذكر الواحدي في المغازي أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم، واسم الآخر: عبد الله بن وهب الأسلمي. قال: وكان في الساقة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار.

هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾: لا يزعجها خوف؛ لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف، ﴿رَغَدًا﴾: واسعاً، والأنعم: جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث، نادى منادي النبي ﷺ بالموسم بمنى: «إِنَّهَا أَيَّامُ طَعْمٍ وَنِعَمٍ فَلاَ تَصُومُوا» (٨٤٠).

فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان، فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه(١)؟

---

٨٤٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٢٤٨) غريب جدا، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا.

---

(١) قال محمود: «إن قلت الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الإذاقة على اللباس... إلخ»؟ قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ فإنه مجرد عن الاستعارة، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الإستعارة والنظر إلى المستعار في بابه، كترشيح المجاز في بابه. ومنه [من الوافر]:

إذا الشيطان قصع في قفاها ... تنفقناه بالحبل التؤام

فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً ثم نافقاً، ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثنى كما يستخرج الحيوان من جحره، والشوط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق. انتهى.

من قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

استعارة في «الإذاقة واللباس» وقد بين المفسر العلامة هذه الاستعارة بما لها وما عليها.

ولكن ما معنى الترشيح والتجريد؟

الترشيح: ذكر ملائم المستعار منه أي المعنى الحقيقي وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

فقوله سبحانه: «اشتروا» استعارة للاستبدال ثم مضى على هذا المعنى فذكر «ربحت» و«تجارتهم» وبهذا يكون قد نظر إلى المستعار منه.

وفي الترشيح تقوية لأنه تصور للمستعار له كأنه داخل في دائرة المستعار منه بهذا الترشيح.

وبهذه التقوية تكون المبالغة، ولهذا كان مبناه التناسي للتشبيه، وعلينا أن ننظر في الآية السابقة، وكذلك قول أبي تمام [من المتقارب]:

ويصعد حتى يظن الجهول ... بأن له حاجة في السماء.

التجريد: عكس الترشيح أي الإتيان بما يلائم المستعار له ومنه الآية التي في صدر البحث.

يقول القزويني ـ رحمه الله ـ:

قال ـ أذاقها ـ ولم يقل ـ كساها ـ فإن المراد بالإذاقة أصابتهم بما استعير له اللباس، كأنه قال: =

قلت: أما الإذاقة: فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة؛ لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع[1]، وأما اللباس: فقد شبه به؛ لاشتماله على اللابس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة: «عما يغشى منهما» ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما:

أحدهما: أن ينظروا فيه المستعار له، كما نظر إليه ههنا؛ ونحوه قول كُثَيِّرَ [من الكامل]:

غَـمْـرُ الـرِّدَاءِ إِذَا تَـبَـسَّـمَ ضَـاحِـكـاً ... غَـلِـقَـتْ لِـضِـحْـكَـتِـهِ رِقَـابُ الـمَـالِ[2]

= «فأصابها الله بلباس الجوع والخوف»، ثم ذكر كلام الزمخشري في الآية ثم أورد اعتراضاً فقال: «فإن قيل: الترشيح أبلغ من التجريد فهلا قيل: فكساها الله لباس الجوع والخوف؟ قلنا: لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة.

فإن قيل: «لِم لَم يقل ـ فأذاقها الله طعم الجوع والخوف؟ قلنا لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عمّ أثرهما جميع البدن عموم الملابس» فإذا لم يوجد الملائم أصلاً أو وجد ملائم للمستعار منه وللمستعار له فالمجاز «الاستعارة» تكون مطلقة، وقد جعلها البلاغيون قسماً ثالثاً لهذا التقسيم باعتبار الملائم الخارجي ومثالها: «عندي أسد».

هذا، وكلام الزمخشري في هذا الملائم يشعر بأن هذا الفن من أجمل الفنون وأبلغها، وإنه يبلغ من الحسن والرونق ـ إذا وقع موقعه ـ ما لا تراه لسواه، وينظر كلامه في آية البقرة المرشحة وسواء كان الترشيح للمجاز المفرد أو المركب

والترشيح عند الزمخشري وتبعه أبو السعود من لف نحوهم لا يكون استعارة، وهو كلام صحيح لأن مبنى هذا على التقوية التي لا تكون إلا بالحقيقة كما صدرت نحوه أول الكلام.

والعلامة المفسر قد بين هذه المعاني كلها في عرضه للآيات التي يرد منها الاستعارة بهذا المفهوم الذي عرضته، والله الموفق للصواب.

«ينظر الإيضاح ٥/ ٩٩ وما بعدها، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٠٢ وما بعدها والمفتاح للسكاكي ١٨٢، والمطول للسعد ٣٧٧ وما بعدها. وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٠٠، وروح المعاني للألوسي ١٤/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(١) قوله: «بما يدرك من الطعم المر والبشع» عبارة غيره: طعم المر والبشع، ولعله المر البشع بدون واو (ع).

(٢) لكثير. والغمر: الكثير. وشبه العطاء بالرداء، لأنه يصون عرض صاحبه أو يستر فقر السائل، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد، لأنه يلائم المشبه. هذا وقد يقال الغمر، يطلق على الماء الذي يغمر قامة المنغمس فيه، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء، فيكون استعارة مصرحة، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به =

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف[1] والنوال، لا صفة الرداء، نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار؛ كقوله [من الوافر]:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ
لِيَ الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ[2]

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكاً، ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: في حال/ ١٩٧أ التباسهم بالظلم؛ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨]، نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة، وقرئ: (والخوف): عطفاً على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله: ولباس الخوف، وقرئ: «لباس الخوف والجوع».

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها: وسوء صنيعها، وصل

= للمشبه، بجامع عموم كل ونفعه، والقرينة على كل ذلك قوله: إذا تبسم. شارعاً في الضحك. غلقت لضحكته رقاب المال: يقال: غلق الرجل إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن إذا ملكه المرتهن ولم يقدر صاحبه على فكه، وكانت تلك عادتهم. فالمعنى: إذا ضحك غضبت الأموال لعلمها أنها ستؤخذ ويملكها غيره، أو ثبتت في أيدي السائلين وملوكها. ورقاب المال: مجاز مرسل، أي أعيانه.

ينظر: ديوانه ص ٢٨٨، ولسان العرب (غمر) (ضحك) (ردى)، وتهذيب اللغة ٨/١٢٨.

(١) قوله: «ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف» في الصحاح الغمر الماء الكثير. وفيه «الاعتجار» لف العمامة على الرأس، وفيه «الضافي» السابغ (ع).

(٢) استعار المنازعة لتسببه في امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما، كالشيء يتجاذبه اثنان. واستعار الرداء للسيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه. والاعتجار ترشيح، ومعناه: التعمم أو التلفع، فهو ملائم للرداء. ويحتمل أن التركيب كله من باب التمثيل. وعبد عمرو: فاعل. ورويدك: اسم فعل، بمعنى أمهل، والكاف حرف خطاب، قاله الجوهري. وبالنظر لأصله فهو مصدر، والكاف مضاف إليه، وفيه التفات. وبكر: أبو قبيلة. والشطر الذي ملكته يمينه: هو مقبض السيف. ودونك: اسم فعل بمعنى خذ، أي خذه فتلفع منه بالشطر الآخر وهو صدره، والأمر للإباحة، وفيه نوع تهكم.

بذلك بالفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾: صدّهم عن أفعال الجاهلية، ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: تطيعون، أو: إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنها شفعاؤكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾

وانتصاب ﴿الْكَذِبَ﴾: بلا تقولوا، على: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله أو إلى قياس مستند إليه، واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾: بدل من الكذب، ويجوز أن يتعلق بـ «تصف» على إرادة القول، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بـ «تصف»، وتجعل «ما»: مصدرية، وتعلق: (هذا حلال وهذا حرام): بلا تقولوا، على: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب، أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينة؛ ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟

قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلت الكذب بحليته وصوّرته بصورته؛ كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: (الكذب): بالجرّ صفة لما المصدرية، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى: الكاذب؛ كقوله تعالى: (بدم كذب)، والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة، وقرئ: (الكذب): جمع كذوب بالرفع؛ صفة للألسنة، وبالنصب على الشتم، أو بمعنى: الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذاباً: ذكره ابن جني، واللام في ﴿لِّتَفْتَرُوا﴾: من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض، ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني: في سورة الأنعام.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: في موضع الحال، أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: من بعد التوبة.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿كَانَ أُمَّةً﴾: فيه وجهان:

أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم[1]؛ لكماله في جميع صفات الخير؛ كقوله [من السريع]

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ[2]

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار.

والثاني: أن يكون أمّة بمعنى: مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتمر به كالرحلة[3] والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى: مفعول،

---

(١) قال محمود: «في قوله أمة وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم... إلخ» قال أحمد: ويقوي هذا الثاني قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي كان أمة تؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته، والله أعلم.

(٢)
قولا لهرون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة ... فلست مثل الفضل بالوجد
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

لأبي نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكي حين توعده بالقتل، غيرة منه لما سمع من نهايته في الكرم، وخاطب الاثنين تأسياً بعادة العرب، والاحتفال: الاجتماع. والحاشد الجامع، وعلى بمعنى مع. أي: أنت مع كونك في غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل في العالم كله، ودخلت الفاء في خبر المبتدأ لما فيه خبره من رائحة الشرط، أي: وإن كنت قادراً، ودخلت الباء في خبر ليس لتوكيد النفي، واستدل على ذلك بقوله: ليس مستنكراً على الله جمعه خصال العالم كلها في رجل واحد كالفضل، هذا ما يتبادر منه ظاهر النظم، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعطاف، فالمعنى فلا يكن منك غيرة من الفضل، فإن كرمه بعض صفاتك، فإن الله قادر على جمع صفات العالم كلها فيك، وقد فعل. ويروى: من الله بدل على الله. ويروى: بمستبدع، بدل بمستنكر. ينظر ديوانه (١/٣٤٩)، وشرح قطر الندى ص ١١٤.

(٣) قوله: «كالرحلة» في الصحاح «الرحلة» بالضم: الوجه الذي تريده، وبالكسر: الارتحال (ع).

فيكون مثل قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله، فقلت: غلطت؛ إنما هو إبراهيم، فقال: الأمّة: الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك (٨٤١)، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال ـ حين قيل له: ألا تستخلف؟ ـ: لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًّا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًّا لاستخلفته؛ فإني سمعت رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ يقول: «أَبُو عُبَيْدَةَ أَمِينُ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَمعَاذُ أُمَّةٌ قَانِتٌ لله، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلا الْمُرْسَلُونَ، وَسَالِمٌ شَدِيدُ الحُبِّ لله، لَوْ كَانَ لاَ يَخَافُ الله لَمْ يَعْصِهِ» (٨٤٢)، وهو ذلك المعنى، أي: كان

---

٨٤١ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٦٠)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٦٦١) (٢١٩٨٤)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٢٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٠ ـ ٧١) (٩٩٤٣ و٩٩٤٤) من طرق عن فراس عن الشعبي عن مسروق قال: قرئت عند ابن مسعود ﴿إن إبراهيم كان...﴾
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.
قلت: وفراس هو ابن يحيى أبو يحيى الخارفي الكوفي المُكْتِب، وثقه أحمد، ويحيى بن معين، والنّسائي، والعجلي وآخرون. وقال علي ابن المديني عن يحيى بن سعيد القطان: ما أنكرت من حديثه إلا حديث الاستبراء... واحتج به الجماعة وحديثه في الاستبراء لم يخرجه الشيخان. راجع تهذيب الكمال (٢٣/ ١٥٢) (٤٧١٢) وأخرجه أيضاً الحاكم (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٧٢) (٩٩٤٧)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٦٦٠) (٢١٩٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٠)، من طريق إسماعيل بن علية عن منصور بن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة... وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٢)... رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية، من رواية علية عن منصور عن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود، فذكره. لكن ليس فيه: فقلت له: «غلطت» بل فيه فقيل له: إن إبراهيم. وفيه: «وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير. وكان مطيعاً لله ورسوله»، ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله قال: «إن معاذاً كان أمة قانتاً لله» فقال رجل من أشجع يقال له: فروة بن نوفل: إنما ذاك إبراهيم. فقال عبد الله: إنا كنا نشبهه بإبراهيم ـ الحديث» وأخرجه عبد الرزاق. ومن طريق الحاكم قال: أخبرنا الثوري عن فراس نحوه. انتهى.

٨٤٢ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٥٠)، وقال ابن حجر: لم أجده. قلت: وبعض فقرات الحديث صحيحة. قوله: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة».
أخرجه البخاري (٧/ ١١٦) كتاب فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة حديث (٣٧٤٤) وفي (٧/ ٦٩٦) كتاب المغازي: باب قصة أهل نجران حديث (٤٣٨٢) وفي (١٣/ ٢٤٥) كتاب أخبار الآحاد: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد... حديث (٧٢٥٥)، ومسلم (٤/ ١٨٨١) كتاب فضائل الصحابة: باب فضل أبي عبيدة بن الجراح حديث (٥٣/ ٢٤١٩)، والتّرمذي (٥/ ٦٦٥) كتاب =

إماماً في الدين؛ لأنّ الأئمة معلمو الخير، والقانت: القائم بما أمره الله، والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه، ونفي عنه الشرك؛ تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم، ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: روي أنه كان لا يتغدّىٰ إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم، ﴿اجْتَبَاهُ﴾: اختصه واصطفاه للنبوّة، ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: إلى ملة الإسلام، ﴿حَسَنَةً﴾: عن قتادة: هي تنويه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه، وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم، ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: لمن أهل الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: في «ثم»: هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله[(١)] ﷺ وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولي من النعمة: اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

= المناقب: باب مناقب معاذ بن جبل... حديث (٣٧٩١)، وأحمد (٣/ ١٣٣، ١٨٩، ٢٤٥، ٢٨١)، وأبو يعلى (٥/ ١٩٠) رقم (٢٨٠٨)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١/ ٢٩٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٧٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٢١٤ - بتحقيقنا) كلهم من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس مرفوعاً بلفظ: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٨١) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح حديث (٥٤/ ٢٤١٩) وأحمد (٣/ ١٢٥، ١٤٦، ١٧٥، ٢١٢، ٢٨٦) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به.
قال الحافظ: لم أجده. انتهى.

---

(١) عاد كلامه. قال محمود: «وفي ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة محمد ﷺ... إلخ» قال أحمد: وإنما تفيد ذلك ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿ٱلسَّبْتُ﴾: مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو المسخ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في ذكر ذلك، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً،/ ١٩٧ب وغير ما ذكر، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته.

فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟

قلت: معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر: وهو أنّ موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه، ومعنى: «جعل السبت»: فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: «إنما جعل السبت»: على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: «إنا أنزلنا السبت».

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: إلى الإسلام، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: بالمقالة المحكمة الصحيحة؛ وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة، ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾: بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه، وقرئ: «وإن عقبتم فعقبوا» أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم، روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به، لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك» (٨٤٣)؛ فنزلت، فكفر عن يمينه وكفّ

---

٨٤٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٥٠) (٦٨٨): غريب بهذا اللفظ وذكره الثعلبي هكذا من غير سند.

قلت: وقصة حمزة وردت عن:

ـ أبي هريرة:

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٨٨)، كلهم من طريق صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة، وسكت عنه الحاكم: وقال الذهبي صالح واه، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٢٢) وقال: رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف».

قلت: وتحرف في المطبوع من «المجمع» «صالح بن بشير المري» إلى «صالح بن بشير المزني» والصحيح ما أثبتناه. والله المستعان.

والحديث عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٥) وابن المنذر وابن مردويه.

ـ عبد الله بن عباس:

أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ١١٨) من حديث إسماعيل بن عياش عن عبد الملك بن أبي عتبة أو غيره عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس... فذكره، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٧ ـ ١٩٨) من طريق أبي بكر بن عباس عن يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس به، وسكت عنه الحاكم ـ وقال الذهبي: سمعه أبو بكر بن عياش من يزيد وليسا بمعتمدين. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٦٢) (١١٠٥٠ و ١١٠٥١) من طريقين عن الحكم بن عتيبة عن مجاهد عن ابن عباس به.

قلت: وكلا الطريقين عند الطبراني فيهما ضعف.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الثعلبي بغير سند. وقصة حمزة أخرجها البزار والطبراني من رواية سليمان التيمي عن ابن عثمان عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ نظر يوم أُحد إلى حمزة وقد قُتل ومُثل به، فرأى منظراً لم يرَ قط أوجع لقلبه منه، وذكر باقي الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح سهو عن سليمان، وصالح ضعيف، وله طريق أخرى أخرجها الدارقطني من رواية إسماعيل بن عباس قال: «لما انصرف =

عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار بالنهي عنها (٨٤٤) حتى

= المشركون عن قتلي أُحد فرأى رسول الله ﷺ بعمه حمزة منظراً أساءه، وقد شق بطنه واصطلم أنفه ـ فذكر القصة «وفيها: لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً. وذكر الصلاة عليه وعلى القتلى. قال: فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة ـ الآية) فصبر ولم يمثل بأحد» قال الدارقطني: تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين. قلت: وأما أول الكلام فذكره. انتهى.

٨٤٤ ـ ورد من حديث جماعة منهم: عمران بن الحصين، سمرة بن جُندب، وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن يزيد الأنصاري وأنس وبريدة والمغيرة بن شعبة وأسماء بنت أبي بكر وعلي بن أبي طالب وابن عباس وصفوان بن عسال وجرير بن عبد الله البجلي وأبو موسى الأشعري وأبو أيوب الأنصاري وزيد بن خالد الجهني ويَعلى بن مرة والحكم بن عمير وعائذ بن قرط وعمر بن الخطاب.

ـ أما حديث عمران:

أخرجه أبو داود الطيالسي (ص ١١٢) حديث (٨٣٦) والخطيب في التاريخ (٧/ ٣٠٧) من طريق الحسن عن عمران بن حصين قال: «قلما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا فيها بالصدقة ونهانا عن المثلة» وقال: إن من المثلة أن ينذر أن يخرم أنفه ومن المثلة أن ينذر أن يحج ماشياً، فإذا نذر أحدكم أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب. وهذا الإسناد منقطع. الحسن لم يسمع هذا الحديث من عمران وأخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٣): كتاب الديات ـ باب المثلة في القتل حديث (٧٩٨٤) وأحمد (٤/ ٤٢٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٢٤٢) وأبو داود (٣/ ١٢٠) كتاب الجهاد ـ باب في النهي عن المثلة ـ حديث (٢٦٦٧) والبيهقي (٩/ ٦٩) كتاب السير ـ باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق دون المثلة. كلهم من رواية قتادة عن الحسن عن الهياج بن عمران عن عمران بن حصين قال: «كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة. واللفظ لأبي داود وقال أحمد: كان يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة.

ـ وحديث سمرة:

أخرجه أحمد (٥/ ١٢، ٢٠) وأبو داود (٣/ ١٢٠)، كتاب الجهاد باب في النهي عن المثلة حديث (٢٦٦٧) والبيهقي (٩/ ٦٩) من قتادة عن الحسن عن الهياج بن عمران البرجمي أن عمران أبق له غلام فجعل لله عليه لئن قدر عليه ليقطعنَّ يده فأرسلني لأسأل له فأتيت سمرة بن جندب فسألته فقال: «كان رسول الله يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة» فأتيت عمران بن حصين فسألته فقال مثل ذلك.

ـ وحديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٢/ ١٣، ١٠٣) والبخاري (٩/ ٦٤٣) كتاب الذبائح والصيد باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة حديث (٥٥١٥) والحاكم (٤/ ٢٣٤): كتاب الذبائح ـ باب النهي عن مثلة الحيوان. والبيهقي (٩/ ٨٧): كتاب السير ـ باب تحريم قتل ماله روح إلا بأن يذبح فيؤكل. من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: «لعن رسول الله ﷺ من مثل الحيوان».

وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين يخرجاه بهذه السياقة ووهم في ذلك فإنه عند البخاري بهذا اللفظ.

ـ وحديث عبد الله بن يزيد:

أخرجه البخاري (٩/ ٦٤٣)، كتاب الذبائح والصيد ـ باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة ـ حديث (٥٥١٦) والبيهقي (٩/ ٦٩) كتاب السير ـ باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق =

بالكلب العقور، إما أن رجع الضمير في ﴿فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ﴾ إلى صبرهم وهو مصدر

= دون المثلة وأحمد (٤/٣٠٧) عنه «أن رسول الله ﷺ نهى عن النهبة والمثلة».
- حديث أنس:
أخرجه النَّسائي (٧/١٠١) كتاب تحريم الدم - باب النهي عن المثلة. من طريق عبد الصمد ثنا هشام عن قتادة عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة» ورواه أبو داود (٤/٥٣٥) كتاب الحدود - باب ما جاء في المحاربة حديث (٤٣٦٨) والبيهقي (٩/ ٦٩) كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار.. من رواية ابن أبي عدي عن هشام عن قتادة عن أنس في قصة العرنيين وقال في آخره (ثم نهى عن المثلة).
ورواه البخاري (٧/٤٥٨): كتاب المغازي - باب قصة عكل وعرينة حديث (٤١٩٢) طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بالقصة وفي آخره قال قتادة «وبلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة».
قال الحافظ في الفتح (٧/٤٥٨، ٤٥٩) وتبين بهذا أن في الحديث الذي أخرجه النَّسائي من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن هشام عن قتادة عن أنس إدراجاً وأن هذا القدر من الحديث لم يسنده قتادة عن أنس وإنما ذكره بلاغاً ولما نشط لذكر إسناده ساقه بوسائط إلى النبي ﷺ.
- حديث بريدة:
أخرجه أحمد (٥/٣٥٨) ومسلم (٣/١٣٥٧): كتاب الجهاد. باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث حديث (٣/١٧٣١) وأبو داود (٣/٨٣): كتاب الجهاد - باب في دعاء المشركين حديث (١٦١٢) والتِّرمذي (٣/٨٥) كتاب السير. باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال حديث (١٦٦٦). وابن ماجه (٢/٩٥٣): كتاب الجهاد - باب وصية الإمام - حديث (٢٨٥٨) والبيهقي (٩/٦٩): كتاب السير - باب قتل المشركين بعد الأسار بضرب الأعناق دون المثلة. عنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً»
وقال التِّرمذي حسن صحيح.
- حديث المغيرة:
أخرجه ابن أبي شيبة (٩/٤٢١): كتاب الديات - باب المثلة في القتل - حديث (٧٩٧٩) وأحمد (٤/٢٤٦) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/٢٤٨) عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المثلة».
- حديث أسماء بنت أبي بكر:
أخرجه الطبراني كما في المجمع (٦/٢٥٢) عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن المثلة».
وقال الهيثمي ورجاله ثقات
- وحديث علي:
رواه الطبراني كما في المجمع (٦/٢٥٢) ولفظه «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور». وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده منقطع.
وحديث ابن عباس تقدم.
- وحديث صفوان بن عسال:
أخرجه أحمد (٤/٢٤٠) وابن ماجه (٢/٩٥٣): كتاب الجهاد - باب وصية الإمام - حديث (٢٨٥٧). =

صبرتم، ويراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع

= من طريق عبيد الله بن خليفة عن صفوان بن عسال قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: سيروا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً».

وذكره البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٤٢١) وقال: هذا إسناد حسن.

- حديث جرير:

أخرجه أبو يَعلى (١٣/ ٤٩٣ - ٤٩٤) رقم (٧٥٠٥) والطبراني في الكبير (٢/ ٢١٣) رقم (٢٣٠٤) وفي الصغير (١/ ٤٤ - ٤٥) من طريق ابن لهيعة عن عبد ربه بن سعيد عن سلمة بن كهيل عن شقيق بن سلمة عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كان النبي ﷺ إذا بعث سرية قال: باسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تحثلوا ولا تقتلوا الولدان.

قال الطبراني: لا يروى عن جرير إلا بهذا الإسناد تفرد به ابن لهيعة.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٢٠) وقال: رواه أبو يَعلى والطبراني في الثلاثة وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات وله طريق في «الكبير» ضعيفه ا.هـ قلت: وهذا الطريق أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٠٥) وفيه عبد الغفار بن القاسم أبو مريم وهو متروك.

والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٢/ ١٥٠) رقم (٩٦٠) وعزاه إلى أبي يَعلى. وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٥١ - ١٥٢) رقم (١٩٤٨): سألت أبي عن حديث رواه أبو هارون البكاء عن ابن لهيعة عن عبد ربه بن سعيد عن سلمة بن كهيل عن شقيق بن سلمة عن جرير قال: كان رسول الله ﷺ إذا بايع بايع على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة لله ولرسوله والنصح لكل مسلم وإذا بعث سرية قال بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان. قال أبي ليس لهذا الحديث أصل بالعراق وهو حديث منكر.

وحديث أبي موسى الأشعري.

أخرجه البزار (٢/ ٢٦٧) رقم (١٦٧٤) والطبراني في «الصغير» (١/ ١٨٧) من طريق أحمد بن عثمان ابن حكيم الأودي ثنا عثمان بن سعيد المري ثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً. وقال الطبراني: لم يروه عن أبي إسحق إلا إسرائيل ولا عنه إلا عثمان تفرد به أحمد بن عثمان بن حكيم.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٢٠) وقال: رواه البزار والطبراني في الصغير والكبير ورجال البزار رجال الصحيح غير عثمان بن سعيد المسري وهو ثقة.

- حديث أبي أيوب:

أخرجه الطبراني كما في المجمع (٦/ ٢٥٣) من حديث يعقوب بن إسحاق الحضرمي ثنا شعبة بن عدي بن ثابت عن عبد الله بن يزيد الخطمي عن أبي أيوب الأنصاري قال: «نهى رسول الله ﷺ عن النهبة والمثلة» وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

- حديث زيد بن خالد:

أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤٩) من رواية ابن أبي ذئب عن مولى الجهينة عن عبد الرحمن بن زيد بن خالد عن أبيه عن النبي ﷺ «أنه نهى عن النهبة والمثلة»

وقال الهيثيم: وفيه رواه لم يسم.

- حديث يَعلى بن مرة: =

الصابرون موضع الضمير؛ ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر ـ وقد دل عليه صبرتم ـ ويراد بالصابرين جنسهم، كأنه قيل: وللصبر خير للصابرين؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾: أنت فعزم عليه بالصبر، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين؛ كقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾، وقرئ: «ولا تكن في ضيق»، أي: ولا يضيقن صدرك من مكرهم، والضيق: تخفيف الضيق، أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين، كالقيل والقول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: هو وليّ الذين اجتنبوا المعاصي، ﴿و﴾ ولي ﴿الذين هم محسنون﴾: في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ لَمْ يُحَاسِبْهُ الله بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمِ تَلاهَا أَوْ لَيْلَته، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَالَّذِي مَاتَ وَأَحْسَنَ الوَصِيَّة» (٨٤٥).

= رواه أحمد (٤/ ١٧٣) قال: حدثنا عفان ثنا وهيب ثنا عطاء بن السائب عن يَعلى بن مرة النقعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل لا تمثلوا بعبادي».

ورواه الطبراني من هذا الوجه أيضاً من رواية عطاء بن السائب كما في المجمع (٦/ ٢٥١) وقال: عطاء بن السائب اختلط حديث الحكم بن عمير وعائذ بن قرط.

رواه الطبراني في الكبير عنهما قالا قال رسول الله ﷺ: «لا تمثلوا بشيء من خلق الله فيه الروح».

وقال الهيثمي (٦/ ٢٥٢): رواه الطبراني وفيه سليمان بن سلمة الخبائري وهو متروك.

ـ وحديث عمر:

رواه الطبراني في الصغير (١/ ٢٣٣): قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عيسى المعدي أبو عبد الرحمن ثنا عبد الله بن يزيد ثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي ثنا يونس بن عبيد عن الحسن عن عمران بن حصين قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ فأمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة» قال الطبراني لم يروه عن الحسن عن عمران عن عمر إلا يونس بن عبيد ولا عنه إلا إسماعيل تفرد به عبد الله بن عمر بن يزيد، ورواه هشيم وغيره عن يونس عن الحسن عن عمران فقط.

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٢) رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفه.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

قلت روي ذلك عن جماعة من الصحابة.

٨٤٥ ـ ينظر حديث رقم (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

رواه الثعلبي وابن مردويه وقد تقدم سنده في آل عمران.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مَكِّيَّةٌ [إلاّ الآيَاتِ ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٥٧،
وَمِنْ آيةِ ٧٣ إِلَىٰ غَايَةِ آيَةِ ٨٠ فَمَدَنِيَّةٌ] وَآيَاتُهَا ١١١ [نَزَلَتْ بَعْدَ القَصَصِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

﴿سُبْحَٰنَ﴾: علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله[1]، و﴿أَسْرَىٰ﴾: وسرى لغتان، و﴿لَيْلًا﴾: نصب على الظرف.

فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى: ذكر الليل[2]؟

---

(١) قوله: «القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث من أفعال العباد وغيرها، خيراً كانت أو شرا، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون مقدوراً له، فيصح تكليفه به، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وهذا لا ينافي اختيار العباد في أفعالهم، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها، كما تقرر في علم التوحيد (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل... إلخ»؟ قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وكقوله تعالى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الإسراء يفيده تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكأن الإسراء لما دل على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً. أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبيهاً على أنه مقصود بالذكر. ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ولو اقتصر على قوله (إنما هو إله) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

قلت: أراد بقوله: (ليلاً) بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة؛ وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية؛ ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: «من الليل»، أي: بعض الليل؛ كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً﴾ [الإسراء: ٧٩]، يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسري منه فقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ فِي الحجْرِ عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَاليَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِالبُرَاقِ» (٨٤٦)، وقيل: أسري به من دار أم هانىء بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن/ ١٩٨أ عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فأسري به(١) ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانىء بثوبه فقال: مالك؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبوني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلم فحدّثهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان قد آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك (٨٤٧)؛ فسمي الصدّيق، وفيهم من

---

٨٤٦ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٤٤٥) ـ كتاب بدء الخلق (٥٩) ـ باب ذكر الملائكة عليهم السلام (٦) ـ (٣٢٠٧). ومسلم (١/ ٤٩٠ ـ نووي) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب الإسراء برسول الله ﷺ (٢٦٤) والتِّرمذي (٥/ ٤٤٢) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ سورة «ألم نشرح» (٣٣٤٦) مختصراً والنَّسائي (١/ ٢١٧) ـ كتاب الصلاة (٥) ـ باب فرض الصلاة ـ (٤٤٨). وفي الكبرى (١/ ١٣٨) ـ كتاب الصلاة الأول (٢) ـ باب فرض الصلاة (١) ـ (٣١٣) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٥٣) ـ كتاب الصلاة ـ باب بدء فرض الصلوات الخمس (٣٠١).
وقال الحافظ في الكشاف: متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولاً. انتهى.

٨٤٧ ـ قال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.
وأخرجه النَّسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨) ـ كتاب التفسير ـ سورة الإسراء ـ (١١٢٨٥) من طريق عوف بن أبي جميلة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس مرفوعاً «لما كان ليلة أسري. .» وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٦ ـ ٧٧) ـ كتاب معرفة الصحابة ـ من حديث عائشة وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٢) (١٠٥٩)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧) كلاهما من حديث أم هانئ من طرق مختلفة. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٥٨) لأبي يَعلى الموصلي في مسنده ولم أجده، فلعله من المفقود ـ والله المستعان ـ.
ونقل الزيلعي عن ابن دحية في كتابه المسمى «بالتنوير في مولد السراج المنير» قال: وقد ورد =

سافر إلى ماثمّ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً ـ أيضاً ـ بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل: كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «والله، ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه» (٨٤٨)، وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك، والمسجد الأقصى: بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وقرأ الحسن: «ليريه»: بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم، فقيل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن: «ثم من آياتنا»، «ثم إنه هو»، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لأقوال محمد ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾: بأفعاله، العالم بتهذبها وخلوصها، فيكرمه ويقرّبه على حسب ذلك.

= حديث الإسراء من رواية عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة، وأبي ليلى الأنصاري، وعبد الله بن عمرو، وجابر الأنصاري وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وعائشة وأختها أسماء، وأم هاني. منهم من رواه بطوله ومنهم من اختصره. أ.هـ

٨٤٨ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٦) (٢٢٠٣٣)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٨) لابن إسحاق، وذكره ابن هشام في سيرته (٢/ ٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١١٠).
قلت: وهذا متن منكر، فقد صحت الروايات المرفوعة والموقوفة بالإسراء جسداً وروحاً.
وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:
ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند، وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، ثم رأيته من رواية جرير عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم والبيهقي عنه، لكن لم يسبق لفظه. وقد رواه النَّسائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس، وأورده ابن سعد وأبو يَعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولاً. انتهى.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾: قرئ بالياء على: «لئلا يتخذوا»، وبالتاء على: أي لا تتخذوا؛ كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا، ﴿وَكِيلًا﴾: ربا تكلون إليه أموركم، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾: نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ: ﴿لا تتخذوا﴾: بالتاء على النهي، يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا، ﴿مَعَ نُوحٍ﴾: وقد يجعل (وكيلاً ذرية من حملنا) مفعولي تتخذوا، أي: لا تجعلوهم أرباباً؛ كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير ـ عليهم السلام ـ وقرئ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾: بالرفع بدلاً من واو (تتخذوا)، وقرأ زيد بن ثابت: «ذِرية»: بكسر الذال، وروي عنه أنه قد فسرها يولد الولد، ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق، ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن نوحاً ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار، عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجاً آثره به.

فإن قلت: قوله: «إنه كان عبداً شكوراً» ما وجه ملاءمته لما قبله؟

قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي؛ لأن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متصلون به، فاستأهلوا لذلك الإختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾: وأوحينا إليهم وحياً مقضياً، أي: مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلون، أي: يتعظمون ويبغون، ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في

التوراة، و﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾: جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون (لتفسدن): جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن، وقرئ: «لتفسدنّ»، على البناء للمفعول، «ولتَفسدن»: بفتح التاء من فسد، ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيي بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم، ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾: وقرئ: «عبيداً لنا»، وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده[1]، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت: قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة، وخربوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً.

فإن قلت: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة[2] على ذلك ويسلطهم عليه[3]؟

قلت: معناه: خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم، على أنّ الله ـ عزّ وعلا ـ أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩] وكقول الداعي،/ ١٩٨ب وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد، وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم، وقرأ طلحة: (فحاسوا): بالحاء وقرئ: «فجوّسوا»، وخلل الديار.

فإن قلت: ما معنى: ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾؟

قلت: معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، قيل هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم، ورجوع الملك إليهم، وقيل: هي قتل داود جالوت، ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: مما كنتم، والتنفير، من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعبيد والمعيز.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

---

(١) قوله: «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل، وبختنصر هو ابن ابنه، وكان من كتابه. كذا في الخازن (ع).

(٢) قوله: «فإن قلت كيف حاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك» مبني على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده. وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شرا، فلا سؤال (ع).

(٣) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة... إلخ» قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدري يوجب على الله تعالى بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة. وأما السني إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ والله الموفق.

أي: الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾: المرّة ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾: بعثناهم[1]، ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾: حذف لدلالة ذكره أوّلاً عليه، ومعنى ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها؛ كقوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [**المائدة**: ٢٧] وقرئ: «ليسوء» والضمير لله تعالى؛ أو للوعد، أو للبعث، «ولنسوء»: بالنون، وفي قراءة عليّ: «لنسوأنّ»، «وليسو أنّ» وقرئ: «لنسو أن»: بالنون الخفيفة، واللام في ﴿وَلِيَدْخُلُواْ﴾: على هذا متعلق بمحذوف، وهو: وبعثناهم ليدخلوا، ولنسوأن: جواب إذا جاء، ﴿مَا عَلَوْاْ﴾: مفعول ليتبروا، أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى: مدة علوّهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾: بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾: مرة ثالثة؛ ﴿عُدْنَا﴾: إلى عقوبتكم وقد عادوا، فأعاد الله إليهم النقمة، بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم، وعن الحسن عادوا فبعث الله محمداً، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة، ﴿وَجَعَلْنَا﴾: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطاً كما يبسط الحصير المرمول[2].

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها، أو للملة، أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه، وقرئ: «ويبشر»: بالتخفيف.

---

(١) قوله: «﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرة (الآخرة) بعثناهم: أي عبادنا وهم في هذه المرة؛ الفرس والروم، بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خروش. حتى دخل الشام بجنود فقتل وسبى. حتى كاد يفني بني إسرائيل، وبقي منهم بقايا حتى كثروا، وكانت لهم الرياسة في بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططوس بن أسبيانوس الرومي فخرب بلادهم وطردهم عنها، وبقي بيت المقدس خراباً إلى خلافة عمر بن الخطاب، فعمره المسلمون بأمره. اهـ من الخازن (ع).

(٢) قوله: «كما يبسط الحصير المرمول» أي المنسوج، أفاده الصحاح (ع).

فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟

قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي، وإما مشرك؛ وإنما حدث أصحاب المنزلة(١) بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قلت: علام عطف: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟

قلت: على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، كما يدعوه لهم بالخير؛ كقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ يونس: ١١]. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾: يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأني المتبصر، وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يئن بالليل، فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم(٢) القدّ، فأرخت من كتافه، فلما نامت، أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشأنه، فقال ﷺ «اللَّهُمَّ اقْطَعْ يَدَيْهَا» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ لَعْنَتِي وَدُعَائِي عَلَىٰ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ مِنْ أَهْلِي رَحْمَةً لأَنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ فَلْتَرُدَّ سَوْدَةُ يَدَيْهَا» (٨٤٩) ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء

---

٨٤٩ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٠): غريب من حديث سودة. وقال ابن حجر: لم أجده من هذه الجهة. قلت: وأخرج أحمد في المسند (٣/ ١٤١) ثنا زيد بن الحباب حدثني حسين بن واقد حدثني ثابت البناني حدثني أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ دفع إلى حفصة ابنة عمر رجلاً فقال احتفظي به. . . فذكر الحديث.

وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح وأخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٨٩) ـ كتاب السير ـ باب الأسير يوثق ـ من حديث عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير وعندها نسوة. . . وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف، للواقدي في كتاب المغازي،

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده من هذه الجهة، وقد أخرجه الواقدي في المغازي من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت: فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه فقلت: والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء =

---

(١) قوله: «وإنما حدث أصحاب المنزلة» يعني الفسقة. وإثبات الواسطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة، فإن الفسق لا يزيل الإيمان عندهم (ع).

(٢) قوله: «فشكا ألم القد» في الصحاح «القد» بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ (ع).

ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة، وكان الإنسان عجولاً، يعني: أن العذاب آتيه لا محالة، فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، فأجيب له، فضربت عنقه صبراً.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة.

والثاني: أن يراد: وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل، أي: جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلماً، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحوّ، وجعلنا النهار مبصراً، أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل: التي هي القمر؛ حيث لم يخلق لها شعاعاً كشعاع الشمس، فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء، ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم، ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾: باختلاف الجديدين، ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: جنس، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾: وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات، ولتعطلت الأمور، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم، ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾: بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم؛ وما تركنا لكم حجة علينا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: عمله، وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم:

= التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا. انتهى.

الموت/١٩٩أ في الرقاب، وهذا ربقة في رقبته، عن الحسن: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك، وقرئ ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾: بسكون النون، وقرئ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾: بالنون، و «يخرج»: بالياء، والضمير لله ـ عز وجل ـ ويخرج، على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر، أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب: ﴿كِتَٰبًا﴾: على الحال، وقرئ: «يلقّاه»: بالتشديد مبنياً للمفعول، و ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: صفتان للكتاب، أو (يلقاه): صفة و (منشوراً): حال من يلقاه، ﴿ٱقْرَأْ﴾: على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً، و ﴿بِنَفْسِكَ﴾: فاعل كفى، و ﴿حَسِيبًا﴾: تمييز، وهو بمعنى: حاسب كضريب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم: ذكرهما سيبويه، وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدى بعلى؛ لأن الشاهد يكفي المدّعي ما أهمه.

فإن قلت: لم ذكر حسيباً؟

قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، ويجوز أن يتأول النفس بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفس، وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

أي: كل نفس حاملة وزراً؛ فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾: وما صح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب[1] قوماً إلا بعد أن ﴿نَبْعَثَ﴾: إليهم ﴿رَسُولًا﴾: فتلزمهم الحجة.

فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف

---

(١) قال محمود: «معناه وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً حتى تلزمهم الحجة ببعث الرسول... إلخ» قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدري يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين. وأما السني فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإن العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم وتقوم الحجة، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها فتعتاص عليه وتسد طرق الحبل بين يديه، لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة لا في وجوبها، وبين الحصول والوجوب بون بعيد، والله الموفق.

الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب؛ لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان.

قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين، فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾: وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل، أمرناهم[1] ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً[2]، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك؛ لتسبب إيلاء النعمة فيه؛ وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاء أقوياء، وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قلت: هلا زعمت أن معناه: أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟

قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؛ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام، وأمرته، فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني، أو فلم يمتثل أمري؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به، وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

---

(١) قوله: «أمرناهم ففسقوا» في النسفي: أمرنا مترفيها: متنعميها وجبابرتها (ع).

(٢) قال محمود: «حقيقة أمرهم أن يقول لهم: افسقوا. ولا يكون هذا، فبقي أن يكون مجازاً... إلخ» قال أحمد: نص حسن إلا قوله أنهم خولوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه، على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة. والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير؛ دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟

قلت: لا يصح ذلك؛ لأن قوله (ففسقوا): يدافعه، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ونظير «أمر»: شاء، في أن مفعوله استفاض في الحذف لدلالة ما بعده عليه، تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد: لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت - وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة - لم تكن على سداد، وقد فسر بعضهم (أمرنا): بكثرنا، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته ففعل، كثبرته فثبر، وفي الحديث: «خَيْرُ المَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ وَمَهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ»(١) (٨٥٠) أي: كثيرة النتاج، وروي أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أمرك هذا حقيراً، فقال ﷺ: «إِنَّهُ سَيَأْمُرُ» (٨٥١). أي: سيكثر وسيكبر.

---

٨٥٠ - أخرجه أحمد (٣/٤٦٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/١٠٧) (٦٤٧٠ - ٦٤٧١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/٤٣٨ - ٤٣٩) (١٤٠٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٦١): رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف (٢/ ٦٥٥): أخرجه أحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والحارث، والطبراني، أبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير، عن سويد، عن النبي ﷺ فذكره. قال ابن إسحاق: ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه. أ.هـ قال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والحارث، والطبراني، وأبو عبيدة من رواية مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مهرة: قال ابن إسحاق: ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه. انتهى.
٨٥١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٢):
غريب جدا، ولو استشهد المصنف بحديث الصحيحين، لكان أولى؛ أخرجاه في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، وفيه قال أبو سفيان: فلما خرجنا قلت لأصحابي: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، والله ما زلت مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام... الحديث بطوله.
والمصنف استدل بهذا الحديث والذي قبله لمن فسر قوله «أمرنا مترفيها» بمعنى: كثرنا. أخرجاه عن ابن عباس، عن أبي سفيان.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله: «كثبرته فثبر، وفي الحديث خير المال سكة مأبورة» في الصحاح «ثبرته» أي حبسته. وفيه «السكة» الطريقة من النخل. وفيه «أبر نخلة» أي لقحه وأصلحه (ع).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

وقرئ: «آمرنا»: من أمر وأمره غيره، وأمرنا بمعنى: أمرنا، أو من أمر إمارة، وأمره الله، أي: جعلناهم أمراء وسلطناهم، ﴿كم﴾: مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: بيان لكم وتمييز له، كما يميز العدد بالجنس، يعني: عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، ونبه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

من كانت ١٩٩/ ب العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة[(١)]، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال: ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقى، فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظاً من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده، وقوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾: بدل من له، وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى: «من»، وهو في معنى الكثرة، وقرئ: «يشاء»، وقيل: الضمير لله تعالى، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد، على أن للعبد ما يشاء من الدنيا، وأن ذلك لواحد من الدهماء[(٢)] يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة، كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ح (٨٥٢) ﴿مَّدْحُورًا﴾: مطروداً من رحمة الله،

---

٨٥٢ ـ أخرجه البخاري (١/ ٩) كتاب بدء الوحي: باب كيف كان بدء الوحي حديث (١)، (٥/ ١٩٠)، =

---

(١) قال محمود: «أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة... إلخ» قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهو قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ فادخل «من» المبعضة على حرث الدنيا. ونحل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

(٢) قوله: «لواحد من الدهماء» في الصحاح «دهماء الناس» جماعتهم (ع).

﴿سَعْيَهَا﴾: حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة، اشترط ثلاث شرائط في كون

= كتاب العتق: باب الخطأ والنسيان حديث (٢٥٢٩)، (٧/ ٢٦٧)، كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة حديث (٣٨٩٨)، (٩/ ١٧) كتاب النكاح: باب من هاجر أو عمل خيراً لتزوج امرأة فله ما نوى حديث (٥٠٧٠)، (١١/ ٥٨٠)، كتاب الأيمان والنذور: باب النية في الأيمان حديث (٦٦٨٩)، (١٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، كتاب الحيل: باب من ترك الحيل حديث (٦٩٥٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥) كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات حديث (١٥٥/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١) كتاب الطلاق: باب فيما عنى به الطلاق والنيات حديث (٢٢٠١)، والنَّسائي (١/ ٥٨ ـ ٥٩) كتاب الطهارة: باب النية في الوضوء، والتِّرمذي (٤/ ١٧٩) كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فيمن يقاتل رياء حديث (١٦٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣) كتاب الزهد باب النية حديث (٤٢٢٧)، وأحمد (١/ ٢٥، ٤٣)، والحميدي (١/ ١٦ ـ ١٧) رقم (٢٨)، وأبو داود الطيالسي (٢/ ٢٧ ـ منحة) رقم (١٩٩٧)، وابن خزيمة (١/ ٧٣ ـ ٧٤) رقم (١٤٢)، وابن حِبان (٣٨٨، ٣٨٩ ـ الإحسان)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٦٤)، وابن المبارك في الزهد (ص ـ ٦٢، ٦٣)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ـ ١٠١) رقم (٢٠٦)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٤٠) رقم (٨٧١)، ووكيع في «الزهد» رقم (٣٥١)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ٣٦٩)، وابن أبي حاتم في «مقدمة الجرح والتعديل» (ص ـ ٢١٣)، والدارقطني (١/ ٥٠ ـ ٥١) كتاب الطهارة: باب النية حديث (١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٩٦) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٢) وفي «تاريخ أصبهان» (٢/ ١١٥، ٢٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٤٠٣ ـ تهذيب)، والقضاعي في «مسند الشهاب (١، ٢، ١١٧٢، ١١٧٣)، وابن حزم في «المحلى» (١/ ٧٣)، والبيهقي (١/ ٤١) كتاب الطهارة: باب النية في الطهارة، وفي «معرفة السنن والآثار» (١/ ١٥٢)، و«شعب الإيمان» (٥/ ٣٣٦) رقم (٦٨٣٧) و«الاعتقاد» رقم (٢٥٤) وفي «الزهد الكبير» (ص ـ ١٣٢) رقم (٢٤١) وفي «الآداب» رقم (١١٣٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٤٤، ٦/ ١٥٣، ٩/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، والقاضي عياض في الإلماع (ص ـ ٥٤ ـ ٥٥) باب ما يلزم من إخلاص النية في طلب الحديث وانتقاد ما يؤخذ عنه، وابن جميع في «معجم شيوخه» (ص ـ ١١٧) رقم (٦٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٥٤ ـ بتحقيقنا)، والرافعي في «تاريخ قزوين» (٤/ ٧٧)، والنووي في «الأذكار» (ص ـ ٣٣)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧٧٤)، والحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣) كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإن لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال التِّرمذي: هذا حديث حسن صحيح. إ.هـ

وقال أبو نعيم: هذا الحديث من صحاح الأحاديث وعيونها. إ.هـ وقال ابن عساكر: هذا حديث صحيح من حديث أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، وثابت من حديث علقمة بن وقاص الليثي، لم يروه عنه غير أبي عبد الله محمد بن إبراهيم التيمي، واشتهر عنه برواية أبي سعد يحيى ابن سعيد بن قيس الأنصاري، المدني القاضي، وهو ممن انفرد به كل واحد من هؤلاء عن صاحبه ورواه عن يحيى العدد الكثير والجم الغفير. أ.هـ

قال الحافظ في «التلخيص» (١/ ٥٥): وقال الحافظ أبو سعيد محمد بن علي الخشاب: رواه عن =

السعي مشكوراً: إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما

= يحيى بن سعيد نحو من مائتين وخمسين إنساناً، وقال الحافظ أبو موسى: سمعت عبد الجليل بن أحمد في المذاكرة يقول: قال أبو إسماعيل الهروي عبد الله بن محمد الأنصاري: كتبت هذا الحديث عن سبعمائة نفر من أصحاب يحيى بن سعيد. قلت ـ أي الحافظ ـ تتبعه من الكتب والأجزاء حتى مررت على أكثر من ثلاثة آلاف جزء فما استطعت أن أكمل له سبعين طريقاً. وقال البزار، والخطابي، وأبو علي بن السكن، ومحمد بن عتاب، وابن الجوزي وغيرهم: إنه لا يصح عن النبي ﷺ إلا عن عمر بن الخطاب... إ.هـ.

قلت: وقد روى هذا الحديث غير يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم؛ أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٣٦) من طريق الربيع بن زياد أبو عمرو الضبي، عن محمد بن عمرو، عن محمد ابن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال ابن عدي: وهذا الأصل فيه يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم، وقد رواه عن يحيى أئمة الناس، وأما عن محمد بن عمرو عن محمد بن إبراهيم لم يروه عنه غير الربيع بن زياد، وقد روى الربيع بن زياد عن غير محمد بن عمرو من أهل المدينة بأحاديث لا يتابع عليها إ.هـ.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة؛ وهم أبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وهزال بن يزيد الأسلمي.

١ ـ حديث أبي سعيد الخدري

أخرجه الخليلي في «الإرشاد» (١/ ٢٣٣)، والدارقطني في «غرائب مالك»، والحاكم في «تاريخ نيسابور» كما في «تخريج أحاديث المختصر» لابن حجر (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٤٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٧٧٣) كلهم من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد ثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات. ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال الخليلي: وعبد المجيد قد أخطأ في هذا الحديث الذي يرويه عن مالك في الحديث الذي يرويه مالك والخلق عن يحيى بن سعيد الأنصاري، وهو غير محفوظ من حديث زيد بن أسلم بوجه أ.هـ.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد المجيد عن مالك أ.هـ. وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك عن زيد، تفرد به عبد المجيد ومشهوره، وصحيحه ما في الموطأ مالك عن يحيى بن سعيد أ.هـ. وقد حكم ببطلان هذا الطريق أبو حاتم الرازي فقال ولده في «العلل» (١/ ١٣١) رقم (٣٦٢): سئل أبي عن حديث رواه نوح بن حبيب، عن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فقال أبي: هذا حديث باطل لا أصل له؛ إنما هو مالك عن يحيى بن سعيد، عن محمد ابن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص، عن عمر عن النبي ﷺ أ.هـ.

وقد أخرجه الحافظ ابن حجر في «تخريج المختصر» (٢/ ٢٤٧) من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز عن مالك عن زيد... به. وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال أيضاً: وعبد المجيد وثقه أحمد، وابن معين، والنَّسائي، وتكلم فيه أبو حاتم، والدارقطني، وقيل: إن هذا مما أخطأ فيه على مالك، والمحفوظ عن ماك عن يحيى بن سعيد بالسند المعروف المتقدم» أ.هـ. =

كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية،

= قلت: وقد حاول بعضهم إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب الراوي عن عبد المجيد كالبزار مثلاً. فقال الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٣٠٢): وقال ـ يعني البزار؛ في مسند الخدري: حديث روي عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال:
١ ـ الأعمال بالنية» أخطأ فيه نوح بن حبيب، ولم يتابع عليه، وليس له أصل عن أبي سعيد أ.هـ.
قلت: وفي كلام البزار نظر؛ أما إن الحديث ليس له أصل عن أبي سعيد فهذا صواب، أما إلصاق الخطأ بنوح بن حبيب ودعواه أنه تفرد به ولم يتابع عليه، فهنا الخطأ؛ فقد توبع نوح بن حبيب على هذا الحديث؛ تابعه إثنان وهما إبراهيم بن محمد بن مروان بن هشام عند الدارقطني في «غرائب مالك» وعلى بن الحسن الذهلي عند الحاكم في «تاريخ نيسابور» ينظر «تخريج المختصر» لابن حجر (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).
ومنه نعلم أن نوحاً لم يتفرد به، بل تابعه اثنان، وأن الذي تفرد به هو عبد المجيد بن عبد العزيز ابن أبي رواد، وهو الذي أخطأ في الحديث.
٢ ـ حديث أنس بن مالك:
أخرجه ابن عساكر في أماليه؛ كما في «تخريج المختصر» لابن حجر (٢/ ٢٤٦) وقال الحافظ: وفي سنده ضعف. وقال الحافظ العراقي في «طرح التثريب» (٢/ ٤): رواه ابن عساكر من رواية يحيى ابن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث غريب جدا، والمحفوظ حديث عمر.
٣ ـ حديث أبي هريرة:
قال العراقي في «طرح التثريب» (٢/ ٤): رواه الرشيد العطار في بعض تخاريجه، وهو وهم أيضاً. وقال ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ٢٤٦): أخرجه الرشيد العطار في فوائده بسند ضعيف.
٤ ـ حديث علي بن أبي طالب:
قال الحافظ العراقي في «طرح التثريب» (٢/ ٤): رواه محمد بن ياسر الجياني في نسخة من طريق أهل البيت، إسنادها ضعيف. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ٢٤٦): أخرجه أبو علي بن الأشعث، وهو واهٍ جدا.
٥ ـ حديث هزال بن يزيد الأسلمي:
أخرجه الحاكم في «تاريخ نيسابور» كما في «تخريج أحاديث المختصر» (٢/ ٢٤٨) في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد بن بالويه، من طريق محمد بن يونس، عن روح بن عبادة، عن شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن ابن هزال، عن أبيه عن النبي ﷺ . . . فذكره قال الحاكم: ذكرته لأبي على الحافظ، فأنكره جدا، وقال لي: قل لأبي بكر لا يحدث به بعد هذا. إ.هـ.
قال الحافظ: محمد بن يونس شيخه هو الكديمي، وهو معروف بالضعف، والمحفوظ بالسند المذكور قصة ماعز، فلعله دخل عليه حديث في حديث، وهزال هو ابن يزيد الأسلمي وهو صحابي معروف، واسم ابنه نعيم، وهو مختلف في صحبته إ.هـ.
قلت: مما سبق تبين أن حديث «إنما الأعمال بالنيات» لم يصح إلا من حديث عمر، قال الحافظ في الكشاف: متفق عليه من حديث عمر. انتهى.

وشكر الله: الثواب على الطاعة.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿كُلًّا﴾: كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه، ﴿نُّمِدُّ﴾ هم: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾: وفضله ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً، لا يمنعه من عاص لعصيانه.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿ٱنظُرْ﴾: بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ﴾: جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل، وكلها متفاوتة، وروي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر ـ رضي الله عنه ـ فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؛ ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر، وقرئ: «وأكثر تفضيلاً»، وعن بعضهم: أيها المباهى بالرفع منك في مجالس الدنيا، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَتَقْعُدَ﴾: من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى: صارت، يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: وأمر أمراً مقطوعاً به، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾: أن مفسرة ولا تعبدوا نهي، أو بألاّ تعبدوا؛ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وقرئ: «وأوصى»، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: و «وصى»، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: «وقضاء ربك»، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأن

المصدر لا يتقدم عليه صلته، ﴿إِمَّا﴾: هي «إن» الشرطية زيدت عليها «ما»؛ تأكيداً لها؛ ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت «إن»: لم يصح دخولها، لا تقول: إن تكرمن زيداً يكرمك، ولكن إما تكرمنه، و ﴿أَحَدُهُمَآ﴾: فاعل يبلغنّ، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف. الضمير الراجع إلى الوالدين، و ﴿كِلَاهُمَا﴾: عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قلت: لو قيل إما يبلغان كلاهما، كان كلاهما توكيداً لا بدلاً، فما لك زعمت أنه بدل؟

قلت: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للاثنين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله.

فإن قلت: لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما، فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما، علم أن التوكيد غير مراد، فكان بدلاً مثل الأول، ﴿أُفٍّ﴾: صوت يدل على تضجر، وقرئ: «أف»: بالحركات الثلاث منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم إتباع كمنذ.

فإن قلت: ما معنى عندك؟

قلت: هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه؛ وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما: أف، فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما؛ حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال / ٢٠٠ أ لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم: أخوات، ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾: بدل التأفيف والنهر، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلاً، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه، يا أماه، كما قال ابراهيم لأبيه: يا أبت، مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما؛ فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار[1]، قالوا: ولا بأس به في غير

---

(١) قوله: «وسوء الأدب وعادة الدعار» من الدعارة وهي الفسق والخبث والفساد. كذا في الصحاح (ع).

وجهه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نحلني أبو بكر كذا (٨٥٣). وقرئ: «جناح الذل»، والذل: بالضم والكسر.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾؟

قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك؛ كما قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول.

والثاني: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحاً خفيضاً، كما جعل لبيد للشمال[1] يداً، وللقوة زماماً، مبالغة في التذلل والتواضع لهما، ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾: من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما؛ لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك ذلك لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك.

فإن قلت: الاسترحام لهما إنمايصح إذا كانا مسلمين.

قلت: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان؛ وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبي ﷺ: «رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا» (٨٥٤) وروي: «يَفْعَلُ البَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَيَفْعَلُ العَاقُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ

---

٨٥٣ ـ يأتي تخريجه في سورة «فاطر»، وقال الحافظ في الكشاف: أخرجه في الموطأ عن الزهري، عن عائشة قالت: «إن أبا بكر كان نحلني جداد عشرين من ماله بالعالية فلما حضرته الوفاة، قال: ما من الناس أحب إليّ منك». انتهى.

٨٥٤ ـ أخرجه التِّرمذي (٤/ ٣١٠) ـ كتاب البر والصلة (٢٨) ـ باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين ـ (١٨٩٩)، وابن حِبان في صحيحه (٢/ ١٧٢) (٤٢٩)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠) (٣٣١٨)، كلهم من طريق خالد بن الحارث، عن شعبة، عن يَعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الرب. . .» الحديث فذكره مرفوعاً وأخرجه التِّرمذي (٤/ ٣١١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١١) حديث رقم (٢)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٤٢٩) (٣٣١٧) من طرق، عن شعبة، عن يَعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر موقوفاً. =

---

(١) قوله: «كما جعل لبيد للشمال يداً» في قوله [من الكامل]:

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع).

يَدْخُلَ الجَنَّةَ» (٨٥٥)، وروى سعيد بن المسيب: إن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: إن أبويّ بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: لا؛ فإنهما كان يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما (٨٥٦)، وشكا رجل إلى رسول الله أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به فإذا شيخ

= وقال التِّرمذي: وهذا أصح ـ أي الموقوف ـ وهكذا روى أصحاب شعبة عن شعبة، عن يَعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً ولا نعلم أحداً رفعه غير خالد بن الحارث، عن شعبة، وخالد بن الحارث ثقة مأمون. قلت: وفي كلام التِّرمذي نظر؛ فقد وجدت متابعات لـ «خالد بن الحارث»، فأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥١ ـ ١٥٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ثنا شعبة عن يَعلى بن عطاء به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٧٧) (٧٨٢٩ ـ ٧٨٣) من طريقين: الأولى: من طريق القاسم بن سليم الصواف، قال: شهدت الواسطيين أبا بسطام شعبة بن الحجاج، وأبا معاوية هشيم بن بشير يحدثان عن يَعلى بن عطاء عن أبيه به.

الثانية: من طريق الحسين بن الوليد نا شعبة عن يَعلى بن عطاء عن أبيه به.

وقال البيهقي: ورويناه أيضاً من حديث خالد بن الحارث وأبي إسحاق الفزاري وزيد بن أبي الزرقا وغيرهم مرفوعاً، ورواه آدم بن أبي إياس ومسلم بن إبراهيم، وجماعة عن شعبة موقوفاً. إ.هـ.

وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ٣٦٦) (١٨٦٥) من طريق عصمة بن محمد بن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عن النبي ﷺ قال..

وقال البزار: لا نعلم رواه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة، وعصمة هذا قال فيه الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣٩): متروك، وله طريق أخرى عند أبي نعيم في الحلية (٨/ ٢١٥).

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه التِّرمذي عن عبد الله بن عمرو قال: روى من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة مرفوعاً وكذا أخرجه الطبراني، والبيهقي من رواية القاسم بن سليم عن شعبة مرفوعاً. وللبيهقي أيضاً من رواية الحسين بن الوليد عن شعبة مرفوعاً. قال وروينا أيضاً من رواية أبي إسحاق الفزاري وزيد بن أبي الرها وغيرهم مرفوعاً. ورواية أبي إسحاق عند أبي يَعلى. وقال البخاري. في الأدب المفرد: حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة فذكره موقوفاً. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البزار وقال: تفرد به عصمة بن محمد الأنصاري عن يحيى بن سعيد. انتهى.

٨٥٥ ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١٥ ـ ٢١٦) في ترجمة أبي العباس الطوسي، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٥) للثعلبي في تفسيره من حديث أحمد بن غالب غلام الخليل بن أحمد ثنا محمد بن سلام السلمي ثنا محمد بن سماك الكوفي، عن حامد بن شريح، عن عطاء عن عائشة.

وقال ابن حجر: فيه أحمد بن محمد بن غالب غلام خليل، وهو كذاب. والحديث ذكره الهندي في كنز العمال (١٦/ ٤٧٦) (٤٥٥٢٨) وعزاه للحاكم في تاريخه.

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة. وفيه أحمد بن محمد بن غالب غلام الخليل. وهو كذاب، ولكن رواه أبو نعيم في الحلية من وجه آخر عن سحنون السماك بلفظ «فإني أغفر لك» وبلفظ «فإني لا أغفر لك» انتهى.

٨٥٦ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٥) (١ـ٧)، وقال ابن حجر، لم أجده.

يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله؛ فبكى ـ رسول الله ﷺ ـ: وقال: «مَا مِنْ حَجَرٍ وَلاَ مَدَرٍ يَسْمَعُ هٰذَا إِلاَّ بَكَىٰ»، ثم قال للولد: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ، أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ» (٨٥٧)، وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال: «لَمْ تَكُنْ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ حِينَ حَمَلَتْكَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ أَرْضَعَتْكَ حَوْلَيْنِ»؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ حِينَ أَسْهَرَتْ لَكَ لَيْلَهَا وَأَظْمَأَتْ نَهَارَهَا؟» قال: لقد جازيتها، قال: «مَا فَعَلْتَ؟» قال: حججت بها على عاتقي، قال: «مَا جَزَيْتَهَا وَلَوْ طَلْقَةً»[1] (٨٥٨). وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه، ويقول [من الرجز]:

إِنِّـي لَـهَـا مَـطِـيَّـةٌ لا تُـذْعَـرُ — إِذَا الـرِّكَـابُ نَـفَـرَتْ لاَ تَـنْـفِـرُ
مَـا حَـمَـلَـتْ وَأَرْضَـعَـتْـنِـي أَكْـثَـرُ — الـلَّـهُ رَبِّـي ذُو الـجَـلالِ الأَكْـبَـرُ[2]

تظنني جازيتها يا ابن عمر[3]؟ قال: لا، ولو زفرة واحدة (٨٥٩)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّ الجَنَّةَ تُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ، وَلاَ يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌ وَلاَ قَاطِعُ رَحِمٍ وَلاَ شَيْخٌ زَانٍ، وَلاَ جَارٌّ إِزَارَهُ خُيَلاَءَ؛ إِنَّ الْكِبْرِيَاءَ لِلَّهِ رَبِّ

---

٨٥٧ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٦) (٧٠٢)، وقال ابن حجر لم أجده. ثم قال: قلت: أخرجه البغوي في معجم الصحابة من طريق. وبيض له ولم يعزه، ولم يخرجه.

٨٥٨ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٦) (٧٠٣)، وقال ابن حجر: لم أجده.

٨٥٩ ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٢) حديث رقم (١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٠٩) (٧٩٢٦)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٧) لابن المبارك في كتاب البر والصلة ـ كلهم من طريق شعبة عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال: كان ابن عمر. . .
وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه ابن المبارك في البر والصلة: أخبرنا سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال: كان ابن عمر يطوف بالبيت فرأى رجلاً ـ فذكره. وهذا إسناد صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب في الخامس والخمسين، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصراً. انتهى.

---

(١) قوله: «قال ما جزيتها ولو طلقة» في الصحاح الطلق وجع الولادة اهـ فالطلقة المرة منه (ع).

(٢) أنشده ابن عمر عن رجل يحمل أمه في الحج: شبه نفسه بالمطية تشبيهاً بليغاً، و«إذا الركاب نفرت» صفة لها، يعني أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة، ولا يسأم منها كغيره، فإن حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها، وذعر يذعر كتعب يتعب: خاف وفزع، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والضجر وعدم إقراره على ظهره، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق.

(٣) قوله: «تظنني جازيتها يا ابن عمر» لعله ثم قال تظنني (ع).

الْعَالَمِينَ» (٨٦٠)، وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة[1]، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر، ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد، وعن حذيفة أنه استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين، فقال: دعه يليه غيرك (٨٦١)، وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: ألاَّ تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: ألاَّ ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزراً إليهما[2]، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما، فعن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ» (٨٦٢).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥)﴾

﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾: بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ﴾: قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم ـ في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام ـ هنة تؤدي إلى أذاهما، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها؛ فإن الله غفور، ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: للتوابين، وعن

---

٨٦٠ ـ أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢١٤٩) من حديث محمد بن الفرات عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي مرفوعاً «احذروا البغي...» وأعله بمحمد بن الفرات، وضعفه عن البخاري والنسائي وابن معين، ووافقهم، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣١٠) (٥٦٦٠) من طريق جابر الجعفي، عن أبي جعفر بن علي بن حسين عن جابر بن عبد الله... وجابر الجعفي هو أبو عبد الله الكوفي ضعيف؛ كما قال الحافظ في التقريب (١/ ١٢٣).

ـ وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن عدي من رواية محمد بن الفرات عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي بهذا وأتم منه. وفيه مسيرة خمسمائة بدل ألف. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر بن عبد الله فذكره بلفظ «ألف عام» وجابر ومحمد ابن الفرات متروكان. انتهى.

٨٦١ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٨) (٧٠٦)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين؛ فإنه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. وهم يحسبونه من الكفار، كما في صحيح البخاري، لكن نحو القصة المذكورة، وردت لأبي عبيدة بن الجارح. إ.هـ.

٨٦٢ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٥١ ـ نووي) ـ كتا البر والصلة والآداب (٤٥) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (٤) (٢٥٥٢) (١٣)، من حديث ابن عمر، وفيه قصة.

ـ قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً، وفيه قصة. انتهى.

---

(١) قوله: «لا يذهب بأبيه إلى البيعة» في الصحاح: البيعة بالكسر للنصارى (ع).

(٢) قوله: «ولا تنظر شزراً إليهما» هو نظر الغضبان بمؤخر العين، كذا في الصحاح (ع).

سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأواب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عامًا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته، لوروده / ٢٠٠ ب على أثره.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم: وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل موسراً: أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم: كأبناء العم، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة؛ وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوي القرابة من الحق: هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذي القربى أقرباء رسول الله ﷺ.

التبذير: تفريق المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوهها بما يقرب منه ويزلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مدا في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ»؟ قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نَعَمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ» ح (٨٦٣) ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: أمثالهم

---

٨٦٣ ـ أخرجه ابن ماجه (١/١٤٧) ـ كتاب الطهارة وسننها (١) ـ باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (٤٨) (٤٢٥)، وأحمد في المسند (٢/٢٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٠) (٢٧٨٨) ـ باب في الطهارات (٢٠) ـ كلهم من طريق ابن لهيعة عن حيي بن عبد الله المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مر بعد... وقال البوصيري في الزوائد (١/١٧٣) إسناده ضعيف؛ لضعف حيي بن عبد الله وعبد الله بن لهيعة. والحديث عزاه الزيلعي وابن حجر لأبي يعلى الموصلي في مسنده، ولم أجده، فلعله من المفقود لا سيما أنه من مسند عبد الله بن عمرو، وهو مفقود، والله أعلم.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي من حديثه. وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. انتهى.

في الشرارة وهي غاية المذمة؛ لأنه لا شر من الشيطان، أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد، ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾: فما ينبغي أن يطاع؛ فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء (٨٦٤). قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً؛ رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم، ابتغاء رحمة من ربك، أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط، أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردهم رداً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: (وإما تعرضنّ عنهم)؛ وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبي أن يعطى: أعرض بوجهه، يقال: يسر الأمر وعسر، مثل سعد الرجل ونحس[1] فهو مفعول، وقيل: معناه: فقل لهم رزقنا الله، وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم ييسر

---

٨٦٤ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٠): غريب. قلت: وأخرج ابن حبان في (١١/ ١٦٦) (٤٨٣٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٠)، من طريق حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن هوازن جاءت يوم حنين بالنساء والصبيان. . . الحديث وفيه «وكان لا يسئل شيئاً إلا أعطاه أو سكت».

وعند الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧) (٧٧٦٣) من حديث علي قال: «كان النبي ﷺ إذا سُئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد ألا يفعل سكت. . .» وفيه قصة طويلة. قال الحافظ ابن حجر: وإسناده ضعيف.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس: قال كان النبي ﷺ لا يسأل شيئاً إلا أعطاه أو سكت. وفيه قصة وفي الطبراني الأوسط عن علي ـ رضي الله عنه ـ «كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد ألا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء: لا. فذكر قصة، وإسناده ضعيف. انتهى.

---

(١) قوله: «مثل سعد الرجل ونحس» في الصحاح: سعل الرجل بالكسر فهو سعيد: مثل سلم فهو سليم. وسعد بالضم فهو مسعود (ع).

عليهم فقرهم؛ كأن معناه: قولاً ذا ميسور، وهو اليسر[1]، أي: دعاء فيه يسر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾: فتصير ملوما عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلاناً وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك: إذا احتجت فندمت على ما فعلت، ﴿مَّحْسُورًا﴾: منقطعاً بك لا شيء عندك، من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً، فقال: «مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ يَظْهَرُ، فَعُدْ إِلَيْنَا»، فذهب إلى أمه فقالت له قل له: إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة (٨٦٥). وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن[2]؛ فجاء عباس بن مرداس، وأنشأ يقول [من المتقارب]:

أَتجعلُ نهبِي ونَهبَ العُبَيْـ ... ـدِ بينَ عُيينَةَ والأَقْرعِ؟
وَما كَانَ حصنٌ ولا حابِسٌ ... يفوقَانِ جدِّيَ فِي مجمعِ
ومَا كنتُ دونَ امرِئٍ منهُما ... ومَن تضعِ اليومَ لا يُرفعِ[3]

فقال: يا أبا بكر، اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل (٨٦٦)؛ فنزلت.

---

٨٦٥ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧١) (٧١٠)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. قلت: ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٣٦) عن جابر بدون إسناد. انتهى.

٨٦٦ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٦٥) ـ كتاب الزكاة (١٢) ـ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام =

---

(١) قوله: «قولاً ذا ميسور وهو اليسر» في الصحاح: المعسور ضد الميسور. وهما مصدران. وقال سيبويه: هما صفتان (ع).

(٢) قوله: «مائة من الإبل وعيينة بن حصن» لعل بعده سقطاً تقديره: مائة.

(٣) للعباس بن مرداس رضي الله عنه يخاطب النبي ﷺ، روي أنه أعطى كلا من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الإبل تأليفاً لقلوبهما، فأنشأ العباس ذلك، فرفعه أبو بكر للنبي ﷺ فقال: اقطعوا عني لسانه، ففزع وفزع أناس وإنما أراد إعطاءه تأليفاً لقلبه أيضاً. والاستفهام للتعجب. ويحتمل أنه للإنكار، لكنه بعيد من الصحابي، أي: أتقسم نهبي ونهب العبيد فرسي بين هذين، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبي مرداس بمنع الصرف للضرورة. وقد يروى «العبيد» مصغراً. ويروى بدله «جدي» ويروى «شيخي في مجمع» من مجامع الحرب، وأنا لست أقل من واحد منهما، فنحن سواء أصلاً وفرعاً، فكيف تفاوت بيننا الآن؟ مع أن من تخفض قدره لا يرتفع عمره. وروي «منهمو» أي من الأربعة. وروي «ومن يخفض» مبنيا للمجهول. وفي ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأقرع: لف ونشر مرتب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم سلى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأن ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك؛ ولكن لأن مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها[١] تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، أما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه ـ عز وعلا ـ بسط لعباده أو قبض؛ فأنه يراعي أوسط الحالين، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه، فاستنوا بسنته.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

قتلهم أولادهم: هو وأدهم بناتهم[٢]، كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم، وقرئ (خشية): بكسر الخاء، وقرئ / ٢٠١ ا (خطأ) وهو الإثم، يقال: خطيء خطأ، كأثم إثماً، وخطأ وهو ضد الصواب، اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطأ كالحذر والحذر، و «خطأ» بالكسر والمد، و «خطاء» بالفتح والمد، و «خطأ» بالفتح والسكون، وعن الحسن: «خطا» بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَٰحِشَةً﴾: قبيحة زائدة على حد القبح، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: وبئس طريقاً طريقه، وهو

= (٤٦) (١٠٦٠/١٣٧) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩)؛ وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٠٦) وقال ابن حجر: وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد، وليس في شيء من فوقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاعة بن رافع عن رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل. وأعطي عباس بن مرداس دون ذلك. فقال عباس ـ فذكر الشعر. قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيره ـ فذكر القصة وقال في آخرها: اذهبوا فاقطعوا لسانه. فزادوه حتى رضي» وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد، وليس في شيء من عرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر. انتهى.

(١) قوله: «في بسط الأرزاق وقدرها» أي تضييقها. أفاده الصحاح (ع).
(٢) قوله: «هو وأدهم بناتهم» وأد البنت: دفنها في القبر وهي حية، كما في الصحاح (ع).

أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله[1].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلا بإحدى ثلاث: إلا بأن تكفر؛ أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان، ﴿مَظْلُومًا﴾: غير راكب واحدة منهن، ﴿لِوَلِيِّهِ﴾: الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه، ﴿سُلْطَانًا﴾: تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يثب بها عليه، ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الضمير: للولي، أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية: كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة، حتى قال مهلهل حين قتل بحير بن الحارث بن عباد: بؤ بشسع نعل كليب[2]؛ وقال [من الرجز]:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلَيْبَ غُرَّهْ ... حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ[3]

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: «فلا يسرف»: بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر، وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد: أن الضمير للقاتل الأول، وقرئ: «فلا تسرف»: على خطاب الولي أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبيّ: «فلا تسرفوا»، ردّه على: ولا تقتلوا؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾: الضمير إما للولي، يعني: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره[4] بمعونة السلطان. وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق، فلا يبغ ما وراء حقه، وإما للمظلوم؛ لأن الله ناصره، وحيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب، وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله؛ فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف.

---

(١) قوله: «وهو الصهر الذي شرعه الله» أي التزوج. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «بؤ بشسع نعل كليب» في الصحاح يقال بؤ به أي كن ممن يقتل به وفيه البواء: السواء. وفيه الشسع: واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها. وفيه الغرة: العبد أو الأمة (ع).

(٣) الغرة: الرقيق، يعني: كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤاً لمن قتلوه منا، حتى يصل قتلنا آل مرة فهم كفؤه.
ينظر: جمهرة اللغة ص (١٢٤)، الأغاني (٥/ ٥٢)، وبلا نسبة في لسان العرب (غرر)، تاج العروس (غرر)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٨١)، (كتاب العين (٤/ ٣٤٧).

(٤) قوله: «وبأن الله قد نصره» لعله أو أن (ع).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتثميره، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: مطلوباً يطلب من المعاهد ألاً يضيعه ويفي به[1]، ويجوز أن يكون تخييلاً، كأنه يقال للعهد: لم نكثت؟ وهلا وفى بك؟ تبكيتاً للناكث، كما يقال للموؤدة: «بأي ذنب قتلت؟» ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

وقرئ: ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾: بالضم والكسر، وهو القرسطون[2]، وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: وأحسن عاقبة، وهو تفعيل، من آل إذا رجع، وهو ما يؤول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: ولا تتبع، وقرئ: «ولا تقف»، يقال: قفا أثره وقافه، ومنه: القافة، يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال، والمراد: النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً؛ لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور، وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك، فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل، وسمعته، ولم تر ولم تسمع، وقيل: القفو شبيه بالعضيهة[3]، ومنه الحديث: «مَنْ قَفَى مُؤْمِناً بِمَا لَيْسَ فِيهِ حَبَسَهُ اللَّهُ فِي رَدْغَةِ الْخَبَالِ[4] حتَّى يَأْتِي بِالْمَخْرَجِ» (٨٦٧)؛ وأنشد [من الطويل]:

---

٨٦٧ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٢) (٧١٢)، وقال ابن حجر: لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً. =

---

(١) قال محمود: «أي يطلب من المعاهد أن يفي به ولا ينكثه... إلخ» قال أحمد: كلام حسن إلا لفظة التخييل فقد تقدم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل. والظاهر التأويل الأول، ويكون المجرور الذي هو «عنه» حذف تخفيفاً، وقد ذكر في بقية الآية ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ والله أعلم. وبعضد تأويل سؤال العهد نفسه على وجه التمثيل وقوف الرحم بين يدي الله وسؤالها فيمن وصلها وقطعها. وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(٢) قوله: «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أي القبان، كذا في النسفي (ع).

(٣) قوله: «وقيل القفو شبيه بالعضيهة» في الصحاح العضيهة البهيتة، وهي الإفك والبهتان (ع).

(٤) قوله: «حبسه الله في ردغة الخبال» في الصحاح الردغة ـ بالتحريك ـ: الماء والطين والوحل الشديد =

وَمِثْلُ الدُّمَى شُمُّ العرانِينِ ساكِنٌ   بِهِنَّ الحياءُ لاَ يُشِعْنَ التَّقَافِيا[1]

= قلت: وأخرج أبو داود في سننه (٣/ ٣٠٥) ـ كتاب الأقضية ـ باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ـ (٣٥٩٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧)، كلاهما من طريق عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من حالت شفاعته. . .» وفيه «ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج مما قال».

وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: وفي ذلك نظر؛ فإن «عمارة بن غزية» وثقه أحمد وأبو زرعة والعجلي، وقال: يحيى بن معين: صالح، وقال أبو حاتم: ما بحديثه بأس، كان صدوقاً. وقال النسائي: ليس به بأس، فالحديث حسن فحسب، والله تعالى أعلم.

فائدة: وقع تصحيف في المستدرك في اسم الصحابي، فوقع هناك «عبد الله بن عمرو» وكذلك عند الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٣) وابن حجر وليس كذلك، وإنما هو «عبد الله بن عمر»؛ فإن يحيى بن راشد لم يرو عن عبد الله بن عمرو ألبتة، وإنما يروى عن «عبد الله بن عمر» راجع تهذيب الكمال (٣١/ ٢٩٨) (٦٨٢٢). وله شاهد عند الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٨٨) (١٣٤٣٥) من حديث ابن عمر أيضاً مرفوعاً: «من قال سبحان الله والحمد لله. . . وفيه: «ومن بهت مؤمناً أو مؤمنة حبسه الله في ردغة الخبال يوم القيامة حتى يخرج مما قال، وليس بخارج».

قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٤): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح، غير محمد بن منصور الطوسي وهو ثقة. ووجدته عند أحمد أيضاً في المسند (٢/ ٨٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً: «ومن قفى مؤمناً أو مؤمنة، حبسه الله في ردغة الخبال. . .» وفي الباب حديث معاذ بن أنس. أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (ص ٢٣٩/ ٦٨٦) من طريق يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ . . فذكره.

ومن طريق ابن المبارك أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٤١). والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٩٤) (٤٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٠٩) (٧٦٣١)، وإسماعيل بن يحيى المعافري قال الحافظ في التقريب (١/ ٧٥): مجهول. ويحيى بن أيوب قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ. وعبد الله بن سليمان قال الحافظ: صدوق يخطئ.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً؛ وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب من قول حسان بن عطية، فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد والطبراني من رواية معاذ بن أنس ـ رفعه: «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر: «من قذف مؤمناً أو مؤمنة، حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج» وهو عند أبي داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ: «من قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج. وهو يخرج مما قال» وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رفعه: «من قال في مؤمن ما ليس فيه، حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج». انتهى.

وكذلك الردغة بالتسكين. وفيه الخبال: العناء والفساد وأما الذي في الحديث من قفا مؤمناً بما ليس فيه وقفه الله تعالى في ردغة الخبال حتى يجيء بالمخرج منه، فيقال: هو صديد أهل النار.

(١) يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى، جمع دمية بالضم، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة =

أي: التقاذف، وقال الكميت [من الوافر]:

ولاَ أَرْمِـي الـبَـرِيَّ بـغـيْـرِ ذَنْـبٍ ... ولاَ أَقْـفُـو الـحَـواصِـنَ إنْ قُـفِـينَـا[1]

وقد استدل به سبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به، ﴿فَأُوْلَتِكَ﴾: إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ كقوله [من الكامل]:

.... والـعَـيْـشَ بَـعْـدَ أُولـئِـكَ الأَيَّـامِ[2]

= بالجواهر والشم؛ جمع شماء كحمر وحمراء، والعرانين: الأنوف، أي مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن. أو كناية عن كونهن كرائم حرائر؛ لأن انخفاض الأنف خاص بالعبيد والإماء. وشبههن بالبيوت. وشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق المكنية والسكنى تخييل لذلك، وهو كناية ومبالغة في ملازمة الحياء لهن، لا يشعن: أي لا يظهرن التقافي، أي المتابعة بالقذف، من قفوته إذا اتبعته بالغيبة. وفي إشاعته: كناية عن نفيه، لأنها لا لازمة له، حيث إنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.

(١) يقال: حصنت المرأة بالضم حصانة، فهي حاصن وحصناء وحصان. والحواصن: جمع حاصن: أي عفت فهي عفيفة، يقول: لا أتهم البريء بشيء زور، بل بذنب محقق. والظاهر أن هذا في معنى الاستثناء المنقطع؛ لأن البريء ما دام بريئاً لا ذنب له، ولا أتبع العفائف وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفائف إن قفاهن الناس، فتكلموا فيهن فكيف إذا لم يتكلم فيهن أحد؟.

(٢) لـولا مـراقـبـة الـعـيـون أريـنـنـا ... مـقـل الـمـهـا وسـوالـف الآرام
هـل يـنـهـيـنـك أن قـتـلـن مـرقـشـاً ... أو مـا فـعـلـن بـعـروة بـن حـزام؟
ذم الـمـنـازل بـعـد مـنـزلـة الـلـوى ... والـعـيـش بـعـد أولـئـك الأيـام

لجرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد، يقول: لولا مراقبة النساء للعيون، أي الرقباء المتطلعين علينا، لبرزن لنا وأريننا عيونهن التي هي كعيون بقر الوحش، فمقل المها: استعارة مصرحة، وكذلك سوالف الآرام. والسالفة: مقدم العنق وصفحته. والآرام: جمع رئم بالكسر والهمز، وهو الغزال الأبيض، وأصله «أرآم» بهمز ممدود بعد الراء وزن أحمال، فقلب إلى ما قبلها. ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الغزال الأبيض، فهمز وقلب. وهل بمعنى قد. أو للتقرير. أي: أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرقشاً العاشق المشهور. أو فعلهن بعروة العاشق أيضاً. وذم: فعل أمر، كأنه تذكر محبوبته في تلك الديار وتلك الأيام، فقال: ذم المنازل كلها حال كونها بعد، أي: غير منزلة اللوى. أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم. واللوى: موضع بعينه من الرمل الملتوي، وذم الحياة كلها بعد حياتنا في تلك الأيام، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة، وأشار لها بما للعقلاء لعظمتها عنده، ولأن تخصصه بالعقلاء طارئ في الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل وللعيش وبعض النحاة جعل «ذم» مبنيا للمجهول، وما بعده مرفوع به على النيابة.
ينظر: ديوانه ص ٩٩٠ (وفيه «الأقوام» مكان «الأيام»)، وتخليص الشواهد ص ١٢٣، وخزانة الأدب ٥/ ٤٣٠، وشرح التصريح ١/ ١٢٨، وشرح شواهد الشافية ص ١٦٧، وشرح المفصل لابن يعيش، ولسان العرب (أولى)، والمقاصد النحويّة ١/ ٤٠٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/ ١٣٤، وشرح الأشموني ١/ ٦٣، وشرح ابن عقيل ص ٧٢، والمقتضب ١/ ١٨٥.

و ﴿عَنْهُ﴾: في موضع الرفع بالفاعلية؛ أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمسؤول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: (والفؤاد): بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد؛ ثم استصحب القلب مع الفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿مَرَحًا﴾: حال، أي: ذا مرح، وقرئ: (مرحاً)، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل؛ لما فيه من التأكيد، ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾: لن تجعل فيها خرقاً[1] بدوسك لها وشدة وطأتك، وقرئ: «لن تخرُق»؛ بضم الراء، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾: بتطاولك، وهو تهكم بالمختال، قرئ: «سيئة وسيئه»، على إضافة سيء إلى ضمير كل، و «سيئاً» في بعض المصاحف، و «سيئات»، وفي قراءة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «كان شأنه».

فإن قلت: كيف قيل: سيئه مع قوله مكروهاً؟

قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه، ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئاً؛ ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، ٢٠١ ب فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث.

فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن؛ ولذلك قرأ من قرأ: (سيئه): بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئة؟

قلت: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾: إلى هذه الغاية؛

(١) قال محمود: «معناه لن تجعل فيها خرقاً... إلخ» قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شدا طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل، والله ولي التوفيق.

وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى، أولها؛ لا تجعل مع الله إلهاً آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه، وإن بذ فيها الحكماء[(١)] وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾: خطاب للذين قالوا: (الملائكة بنات الله)، والهمزة للإنكار، يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ أدونهم وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم؛ فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويكون أردأها وأدونها للسادات، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾: بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم؛ حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم[(٢)] أدون خلق الله وهم الإناث.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: يجوز أن يزيد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكاناً للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد، «ولقد صرفناه»، يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير؛ لأنه معلوم، وقرئ: «صرفنا»: بالتخفيف، وكذلك، ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾؛ قرئ مشدداً ومخففاً، أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم، ﴿فما يزيدهم إلا نفورا﴾: عن الحق وقلة طمأنينة إليه، وعن سفيان: كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) قوله: «وإن بذ فيها الحكماء» في الصحاح «بذه» غلبه وفاقه (ع).

(٢) قوله: «وهم أعلى خلق الله وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل من الملاك (ع).

قرئ: «كما تقولون»؛ بالتاء والياء، و ﴿فَإِذًا﴾: دالة على أن ما بعدها، وهو (لابتغوا): جواب عن مقالة المشركين وجزاء لـ «لو»، ومعنى ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض؛ كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقيل: لتقربوا إليه؛ كقوله: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) [الإسراء: ٥٧]. ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾: في معنى: تعالياً، والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة، ومعنى وصف العلو بالكبر: المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال[1]؛ حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطلق بذلك؛ وكأنها تنزه الله ـ عز وجل ـ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟

قلت: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله؛ إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم، فكأنهم لم ينظروا ولم يقروا؛ لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قلت: من فيهن يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة[2] والثقلان، وقد عطفوا

---

(١) قال محمود: «المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع... إلخ» قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون. وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه ـ والله أعلم ـ من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه، مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته، وتيقظ لذلك حق التيقظ، لكاد أن لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق. فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

(٢) عاد كلامه. قال: إن قلت «من فيهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم نقلي عنه أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناولاً =

على السموات والأرض، فما وجهه؟

قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: ذا ستر؛ كقولهم: سيل مفعم ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) [فصلت: ٥] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهة أن يفقهوه، أو لأن قوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة): فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه، يقال: وحد يحد وحدا وحدة؛ نحو: وعد يعدو عدا وعدة، و ﴿وَحْدَهُۥ﴾: من باب رجع عوده على بدئه، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسد الحال، أصله: يحدو حده بمعنى واحداً؛ وحده، والنفور: مصدر، بمعنى: التولية، أو جمع نافر كقاعد وقعود، أي: يحبون أن تذكر معه آلهتهم؛ لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا، ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: من الهزوء بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و (به): في موضع / ٢٠٢ ا الحال؛ كما تقول: يستمعون بالهزوء، أي: هازئين، و ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾: نصب بأعلم، أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نجوى، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: بدل من إذ هم، ﴿مَّسْحُورًا﴾: سحر فجنّ، وقيل: هو من السحر وهو الرئة، أي: هو بشر مثلكم، ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾: مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون، ﴿فَضَلُّوا۟﴾: في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

= للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ، وقد يكون أراد ثم المجاز، والله الموفق.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ٥١﴾

لما قالوا: أئذا كنا عظاماً قيل لهم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾: فرد قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً؛ فإنه يقدر على إحيائكم، والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر ـ وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة ـ لكان قادراً أن يردكم إلى حال الحياة، ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ يعني: أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه؛ فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت، وقيل: السموات والأرض، ﴿فسينغضون﴾: فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون؛ وقوله ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾: حال منهم، أي: حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث؛ كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع، ستركبه وأنت حامد شاكر، يعني: أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسمح(١) الراغب فيه الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾: وترون الهول؛ فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾

﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾: وقل للمؤمنين، ﴿يَقُولُواْ﴾: للمشركين الكلمة ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾: وألين

(١) قوله: «المسمح» في الصحاح «أسمحت قروفته» أي ذلت نفسه وتابعته على الأمر (ع).

ولا يخاشنوهم؛ كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن، وفسر التي هي أحسن بقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: اعتراض، يعني: يلقي بينهم الفساد، ويغري بعضهم على بعض؛ ليقع بينهم المشارة والمشاقة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه؛ وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة؛ وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر ـ رضي الله عنه ـ: شتمه رجل فأمره الله بالعفو، وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله، وقرأ طلحة: «ينزغ»، بالكسر، وهما لغتان، نحو: يعرشون ويعرشون(1).

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبيًّا، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ **[الأنبياء: ١٠٥]** وهم محمد وأمته.

فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾؟.

قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً؛ لأنه بعض الزبور، كما سمى بعض القرآن قرآناً.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولو مثل بـ«يَنطِحُ»، و«يَنطَحُ» وكأنه يعني من حيث إن لام كل منهما حرف حلق، وليس بطائل. انتهى. الدر المصون.

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن؛ عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا، أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه، و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، و ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: صفته، و ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبره، يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله تعالى، و ﴿أَيُّهُمْ﴾: بدل من واو يبتغون، وأي: موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلق الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب، أو ضمن يبتغون / ٢٠٢ ب الوسيلة معنى: يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله؛ وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون، ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ﴾: حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرّب ونبيّ مرسل، فضلاً عن غيرهم.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾: بالموت والاستئصال، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾: بالقتل وأنواع العذاب، وقيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلداً بلداً، ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في اللوح المحفوظ.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة، و «أن» الأولى منصوبة، والثانية مرفوعة، تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، وقالوا: هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر

أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات ـ التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا ـ واحدة: وهي ناقة صالح؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم، ﴿مُبْصِرَةً﴾: بينة، وقرئ: «مبصرة»: بفتح الميم، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: فكفروا بها، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾: إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها، ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾: من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم، وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم؛ وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر: ٤٥]، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي ﷺ في العريش مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (٨٦٨) ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «واللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» (٨٦٩)، وهو يومىء إلى الأرض ويقول:

---

٨٦٨ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٤): غريب بهذا اللفظ. وقال ابن حجر: لم أجده هكذا.
قلت: وأخرج البخاري بعضه في صحيحه (٨/ ١٣) ـ كتاب المغازي (٦٤) باب قول الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...﴾ حديث رقم (٣٩٥٣) من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أَنْشُدُكَ عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعبد» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك...
لم أجده هكذا، فأما أوله ففي البخاري عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبته يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ انتهى.

٨٦٩ ـ أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) ـ كتاب الجهاد والسير (٣٢) باب غزوة بدر (٣٠) حديث رقم (٨٣/ ١٧٧٩) من حديث أنس قال: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان وفيه «هذا مصرع فلان» قال: ويضع يده على الأرض، ههنا وههنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

«هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ، هَذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ»، فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أري في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ»[1] جعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر، وما قدر الله حق قدره. من قال ذلك، وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق[2] في النار شجرة لا تحرقها، والمعنى: أن الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر، فما كان ما ﴿أَرَيْنَاكَ﴾: منه في منامك بعد الوحي إليك، ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾: لهم؛ حيث اتخذوه سخريًا وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾: التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾: فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات، وقيل: الرؤيا: هي الإسراء[3]، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين؛ حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها، وخيال خيل إليك؛ استبعاداً منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة؛ نحو قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩] وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

= أخرجه مسلم من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان، ويضع يده على الأرض ههنا». قال: فما ماط أحد عن موضع يده. انتهى.

---

(١) قال محمود: «افتتانهم بالشجرة أنهم حين سمعوا بقوله؛ إن شجرة الزقوم... إلخ» قال أحمد: والعمدة في ذلك أن النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة أنه يخلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار فلله تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(٢) قوله: «فما أنكروا أن يخلق» عبارة النسفي: فجاز أن يخلق (ع).

(٣) عاد كلامه. قال: «وأما الرؤيا فقيل الإسراء، وتعلق من جعله مناماً بهذه الآية. وقيل: إنما سماها رؤيا على زعم المكذبين... إلخ» قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ وقوله ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ والله أعلم.

فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟

قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأن الشجرة لا ذنب لها/ ٢٠٣
أ حتى تلعن على الحقيقة؛ وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن؛ لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون: القشب الممحوق[1]. وعن ابن عباس: هي الكشوت التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: أبو جهل، وقرئ: «والشجرة الملعونة»: بالرفع، على أنها مبتدأ محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿طِينًا﴾: حال، إما من الموصول والعامل فيه: أسجد، على: أأسجد له وهو طين، أي: أصله طين، أو من الراجع إليه من الصلة على: أأسجد لمن كان في وقت خلقه طيناً، ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: الكاف: للخطاب، و ﴿هَٰذَا﴾: مفعول به، والمعنى: أخبرني عن هذا، ﴿الذي كرمته﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي: فضلته، لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾: واللام: موطئة للقسم المحذوف، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾: لأستأصلنهم بالإغواء، من احتنك الجراد الأرض: إذا جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك؛ ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين، أي: أكلهما.

فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو الغيب؟

قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما

---

(١) قوله: «الطعام الملعون القشب الممحوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم. والممحوق المذاب حتى يذهب عينه. أفاده الصحاح. وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض، قال الشاعر:

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ... ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة، ﴿ٱذْهَبْ﴾: ليس من الذهاب للذي هو نقيض المجيء؛ إنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية، وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾، كما قال موسى ـ عليه السلام ـ للسامري: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧].

فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟

قلت: بلى؛ ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾، بما في ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ من معنى: تجازون، أو بإضمار تجازون، أو على الحال؛ لأن الجزاء موصوف بالموفور، والموفور الموفر، يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

استفزّه: استخفه، والفز: الخفيف، ﴿وَأَجْلِبْ﴾: من الجلبة وهي الصياح[1]، والخيل: الخيالة، ومنه قول النبي ﷺ: «يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي» (٨٧٠)، والرجل: اسم جمع للراجل؛

---

٨٧٠ ـ أخرجه الحازمي في كتابه «الناسخ والمنسوخ» (ص ٤٦٦) ـ باب المثلة ونسخها من طريق حمزة عن عبد الكريم، وسئل عن أبوال الإبل فقال: حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال: كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام فبايعوه وهم كذبة... وذكر قصة وفيها فأمر رسول الله ﷺ فنودي في الناس «يا خيل الله اركبي فركبوا لا ينتظر فارس فارساً...».
والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) موقوفاً على علي بن أبي طالب. وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وعزاه ابن حجر في تخريج الكشاف لابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد ابن بشير عن قتادة قال: «بعث رسول الله ﷺ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي «يا خيل الله اركبي» وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٥) للواقدي في كتاب الردة من قول خالد بن الوليد. وقال: وعجيب من السهيلي كيف عزا هذه اللفظة لمسلم، ذكره في الروض الآنف، في أول غزوة حنين... وقال: وأما أبو داود فإنه قال في كتاب الجهاد في سننه ـ باب النداء عند النفير «يا خيل الله اركبي» ثم روى بسنده عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا، خيل الله» وفيه نظر لمن تأمله. فقال ابن حجر: فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة، وهو ظاهر هنا؛ لأن المراد صحة هذه الإضافة.
أخرجه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال: «كان ناس أتوا النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام ـ =

---

(١) قوله: «من الجلبة وهي الصياح» في الصحاح: جلب على فرسه وأجلب عليه: صاح به من خلفه واستحثه للسبق اهـ (ع).

ونظيره: الركب والصحب، وقرئ: «ورجلك»؛ على أن فعلاً بمعنى: فاعل، نحو: تعب وتاعب، ومعناه: وجمعك الرجل، وتضم جيمه ـ أيضاً ـ فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس[١]، وأخوات لهما، يقال: رجل رجل، وقرئ: «ورجالك، ورجالك».

فإن قلت: ما معنى: استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟

قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته: بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله: كل راكب وماش من أهل العيث[٢]، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال، وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما، كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحارث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة، وغير ذلك، ﴿وَعِدْهُمْ﴾: المواعيد الكاذبة[٣]، من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة،

= وذكر القصة وفيها فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي: فركبوا، لا ينتظر فارس فارساً. وروى ابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي» وعزا السهيلي في الروض في غزوة حنين هذه اللفظة في صحيح مسلم. فينظر فيه. وقال أبو داود في السنن: باب النداء عند النفير: يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب «أن النبي ﷺ سمى خيلنا خيل الله» قلت: أشكل هذا على المخرج فقال: فيه نظر لمن تأمله. فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة. وهو ظاهر هنا؛ لأن المراد صحة هذه الإضافة. وقد وردت عن علي وخالد بن الوليد؛ ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة عن أسيد بن جابر، فذكر القصة، فقال في آخرها: فنادى علي: يا خيل الله اركبي» وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: «يا خيل الله اركبي، فركبوا وساروا إلى بني حنيفة» انتهى.

(١) قوله: «مثل حدث وحدث، وندس وندس» في الصحاح: رجل حدث وحدث، بضم الدال وكسرها أي حسن الحديث. وفيه: رجل ندس وندس، أي: فهم (ع).
(٢) قوله: «العيث» في الصحاح «العيث» الإفساد (ع).
(٣) قال محمود: «المراد وعدهم المواعيد الكاذبة... إلخ» قال أحمد: وهذا من تجري المصنف على السنة ومتبعيها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة =

وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة، وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً[1]، وإيثار العاجل على الآجل، ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾: يريد الصالحين، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: لا تقدر أن تغويهم، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك؛ ونحوه قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٣].

فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً، داعياً إلى الشر، صادًا عن الخير؟

قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ما شئتم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿يُزْجِى﴾: يجري ويسير، والضر: خوف الغرق، ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده؛ فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين، ويجوز أن يراد: ضل من تدعون/٢٠٣ ب من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده[2] على الاستثناء المنقطع.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾: الهمزة: للإنكار، والفاء: للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم،

= والجماعة التي وعد بها الصادق المصدوق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة وأمانيه الماحلة. اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(١) قوله: «بعد أن يصيروا حمماً» في الصحاح: الحمم: الرماد والفحم: الواحدة حممة، ثم ما أفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة في الكبائر، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة. وأهل السنة على خلاف ذلك، كما تقرر في علم التوحيد (ع).

(٢) قوله: «ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده» كأنه تكرار، وأسقطه الخازن في عبارته (ع).

فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قلت: بم انتصب ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾؟

قلت: بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، و (بكم): حال، والمعنى: أن يخسف جانب البر، أي: يقلبه وأنتم عليه.

فإن قلت: فما معنى ذكر الجانب؟

قلت: معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك؛ بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف؛ لأنه تغييب تحت التراب كما أن الغرق تغييب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: وهي: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر، ﴿وَكِيلًا﴾: من يتوكل بصرف ذلك عنكم، ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾: أن يقوّي دواعيكم، ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم، فينتقم منكم بأن يرسل: ﴿عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾: وهي: الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد، كأنها تتقصف أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته، ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾: وقرئ بالتاء، أي: الريح، وبالنون، وكذلك: نخسف، ونرسل، ونعيدكم، قرئت بالياء والنون، التبيع: المطالب، من قوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: مطالبة؛ قال الشماخ [من الوافر]:

.... كَمَا لاَذَ الغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ[1]

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي مصيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة، يريد: إعراضهم حين نجاهم.

---

(١) يلوذ ثعالب الشرقين منها ... كما لاذ الغريم من التبيع

للشماخ، يصف عقاباً تهرب منها ثعالب الشرقين، وهو اسم موضع، أو جهة الجنوب وجهة الشمال، كالمشرقين، كما لاذ: أي هرب والتجأ، الغريم: أي المدين، من التبيع: أي الدائن المطالب.

ينظر: ديوانه ص ٢٢٧، ولسان العرب (تبع).

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

قيل في تكرمة ابن آدم: كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل: بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد: أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه، ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾: هو ما سوى الملائكة[1]، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا[2] في كل شيء وكابروا، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك؛ وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأنى قربهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة انبيائه من أممهم، ثم جرهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منهم: «قالت الملائكة[3]: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة، فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له:

---

(١) قال محمود: «المراد فضلناهم على ما سوى الملائكة... إلخ» قال أحمد: وقد بلغ إلى حد من السفه يوجب الحد، ولسنا لمساجلته إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه. والقدر الذي تختص به هذه الآية أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر. ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم. والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشباهه كثير. وقد لمح الشاعر ذلك في قوله [من الطويل]:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إن المخلوق قسمان: بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشدق في سبهم وشقشق العبارات في ثلبهم، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، والله ولي التوفيق والتسديد.

(٢) قوله: «والعجب من المجبرة كيف عكسوا» يعني أهل السنة. وقوله: «تفضيل الإنسان» يعنون المؤمن. ويدل لمذهبهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ وأما الذين كفروا فهم شر البرية، ودعوى العكس من فرط التعصب للمعتزلة (ع).

(٣) قوله: «قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا» صدره كما في الخازن. لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة، وقوله: «خلقت بيدي» في الخازن: ونفخت فيه من روحي (ع).

كن فكان (٨٧١)، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن[١] أكرم على الله من الملائكة

---

٨٧١ ـ ورد من حديث ابن عمر وجابر بن عبد الله:
ـ أما حديث ابن عمر، فأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٩٩ ـ ١٠٠) (٦١٦٩) من طريقة طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا...» وقال: لم يرو هذا الحديث عن صفوان بن سليم إلا طلحة بن زيد...» قلت: وقع تصحيف في المطبوع من الأوسط «عبد الله بن عمرو» بدلاً من «عبد الله بن عمر» وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٦) وابن حجر للطبراني في الكبير وقال ابن حجر: ورجاله ثقات. وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٨٢) أنا معمر عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم...﴾ الآية: قال: قالت الملائكة... فذكره موقوفاً عليه، وقال الدارقطني في علله: روى عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «قالت الملائكة...» فذكره وقال: وقد رواه سريج بن يونس عن عبد المجيد فوقفه وهو أصح. أ.هـ.
ـ ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية كذلك، وقال: هذا حديث لا يصح، وكان الحميدي يتكلم في عبد المجيد، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويروي المناكير عن المشاهير؛ فاستحق الترك.
ـ وأما حديث جابر، فأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، والطبراني في مسند الشاميين؛ كما في «تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٢٧٧).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن ماهان: حدثنا طلحة بن زيد، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: رب، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها، ويشربون، ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، لا نأكل، ولا نشرب، ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان» قال: لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن ماهان. وعن أبي غسان حجاج الأعور؛ أخرج طريق حجاج في المعجم الكبير ورجاله ثقات. وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفاً عليه. وقال الدارقطني في العلل: روى عبد المجيد بن أبي داود، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر. فذكر نحوه قال: ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيدموقوفاً، وهو أصح، وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، والبيهقي في الأسماء والصفات من رواية عبد ربه بن صالح عن عروة بن رويح أنه سمعه يحدث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون، ويشربون، وينكحون، ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال تعالى: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» ومنها ما رواه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده» البيهقي في الشعب. من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً. وأخرجه ابن ماجه من هذه الطريق موقوفاً. وأبو المهزم متروك: وله شاهد أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من رواية عبيد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «ماشيء أكرم على الله =

---

(١) قوله: «قال لمؤمن أكرم على الملائكة» في الخازن: المؤمن (ع).

الذين عنده (٨٧٢)، ومن ارتكابهم أنهم فسروا: (كثيراً) بمعنى: «جميع» في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع ممن خلقنا، على أن معنى قولهم: «على جميع ممن خلقنا»: أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأنّ جبريل ـ عليه السلام ـ غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم[1].

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

قرئ: «يدعو»: بالياء والنون، ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: «يدعوا كل أناس»: على قلب الألف واواً في لغة من يقول: افعوا، والظرف نصب بإضمار

= يوم القيامة من بني آدم. قيل: ولا الملائكة. قال: ولا الملائكة. الملائكة مجبورون كالشمس والقمر» قال البيهقي: تفرد به عبيد الله بن تمام يروي أحاديث معاوية وهو ضعيف. انتهى.

٨٧٢ ـ روي موقوفاً ومرفوعاً.

أما المرفوع: فأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٠١ ـ ١٣٠٢) ـ كتاب الفتن (٣٦ ـ باب المسلمون في ذمة الله عز وجل (٦) (٣٩٤٧)، وابن حبان في كتاب الضعفاء (٣/ ٩٩)، كلاهما من طريق الوليد بن مسلم قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: سمعت أبا المهزم. سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره. وفي الزوائد للبوصيري (٣/ ٢٢٧): إسناد ضعيف؛ لضعف يزيد بن سفيان.

قال ابن حبان في «يزيد بن سفيان»: كان ممن يهم ويخطئ فيما يروى، فلما كثر في روايته مخالفة الأثبات، خرج عن حد العدالة. قد تركه شعبة. وضعفه يحيى بن معين وأبو حاتم، وقال النسائي: متروك. ينظر تهذيب الكمال (٣٤/ ٣٢٨) وعزاه الهيثمي في المجمع (١/ ٨٧) للطبراني في الأوسط وقال: فيه أبو المهزم وهو متروك.

وأما الموقوف:

فأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٤) (١٥٢)، وقال: كذا رواه أبو المهزم عن أبي هريرة موقوفاً وأبو المهزم متروك. وله شاهد أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ١٧٤) (١٥٣) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٠٣) (٤٨٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٤٥) كلهم من طريق عبيد الله ابن تمام السلمي، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. «ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم...».

قال ابن الجوزي: حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ؛ قال الدارقطني: عبيد الله بن تمام يروي أحاديث مقلوبة، وهو ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج بخبره، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٧): رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف.

---

(١) قوله: «فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم» في الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة في النفس (ع).

اذكر، ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع؛ كما في: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، والرفع مقدر كما في: يدعى، ولم يؤت بالنون؛ قلة مبالاة بها؛ لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة، ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾: بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين، أو كتاب، أو دين[1]، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، وفي قراءة الحسن: «بكتابهم»، ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الأباء رعاية حق عيسى ـ عليه السلام ـ وإظهار شرف الحسن والحسين، وألاَّ يفتضح أولاد الزنا، وليت/ ٢٠٤ أ شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظة أم بهاء حكمته[2]؟ ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾: من هؤلاء المدعوين، ﴿كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ قيل: أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع.

فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤون كتابهم.

قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أمام التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارىء لأهل المحشر: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ﴾، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء؛ كقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠]، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) قال محمود: «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبي أو كتاب أو دين... إلخ» قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأم المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإن خلقه من غير أب كان آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: «قلت: وهو معذور، لأن «أمًّا» لا تجمع على «إمام» هذا قول من لا يعرف الصناعة، ولا لغة العرب، وأما ما ذكروه من المعنى فإن الله تعالى نادى عيسى باسمه مضافاً لأمه في عدة مواضع من قوله: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وأخبر عنه كذلك نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وفي ذلك غضاضة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ـ وكرّم الله وجهه ـ قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يجوز أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، والفاء لشبهه بالشرط، وحمل على اللفظ أولاً، في ذلك قوله: «أوتي كتابه بيمينه»، فأفرد، وعلى المعنى ثانياً في قوله: «فأولئك» فجمع. انتهى. الدر المصون.

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك، ﴿وأضل سبيلا﴾: من الأعمى، والأعمى: مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة؛ فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى: التفضيل[1]، ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول: مما لا، والثاني مفخماً[2]؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام[3]؛ كقولك: أعمالكم، وأما الأول: فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

روي أن ثقيفاً قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبى[4] في صلاتنا، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربًا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره، فإذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني به، وجاءوا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله ﷺ ثم قالوا للكاتب: اكتب: ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فسل سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف، أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسنا نكلم إياك؛ إنما نكلم محمداً (٨٧٣)؛ فنزلت، وروي أن قريشاً قالوا له:

---

٨٧٣ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٩)، وقال ابن حجر: لم أجده، وذكره الثعلبي عن ابن =

---

(١) عاد كلامه. قال: «وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل... إلخ» قال أحمد: أي لأنه من عمي القلب لا من عمي البصر، فجاز أن ينبني منه أفعل.

(٢) عاد كلامه. قال: «ومن ثم أمال أبو عمرو الأولى وفخم الثانية... إلخ» قال أحمد: يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى، أي: فمن أوتي كتابه بيمينه فهو الذي يبصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك غير مبصر في كتابه، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين، والله أعلم.

(٣) قوله: «الواقعة في وسط الكلام» لعله الكلمة، كعبارة النسفي (ع).

(٤) قوله: «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي» في الصحاح «التجبية» أن يقوم الإنسان قيام الراكع. وقال أبو عبيدة: تكون في حالين، أحدهما: أن يضع يديه على ركبتيه، والآخر ينكب على وجهه باركاً وهو السجود، وفيه «وجّ» بلد الطائف: وفيه أيضاً: عضدت الشجر، أي قطعته (ع).

اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك؛ فنزلت، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾: إن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين، ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا، ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا﴾: لتقول علينا ما لم نقل، يعني: ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه، ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خَلِيلًا﴾، ولكنت لهم وليًا، وخرجت من ولايتي، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾: ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت، وفي ذلك لطف للمؤمنين، ﴿إِذًا﴾: لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة، ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين.

فإن قلت: كيف حقيقة هذا الكلام؟

قلت: أصله: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات، وهو عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار، والضعف يوصف به، نحو قوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، بمعنى: مضاعفاً، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات[١]، ثم حذف الموصوف

= عباس من غير سند. انتهى.

(١) قال محمود: المراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات... إلخ» قال أحمد: أما تقليل الكيدودة فالذي ينبغي أن يحمل عليه كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فعلم تعالى أن الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه. فإن ذلك لا يكون في الإخبار. ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير، لكان تقليله خلفاً في الخبر، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفظعه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتيا للقبح، فلزمهم على ذلك أن كل فعل استقبح من العبد استقبح من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان لله تعالى أن يفعله، وهو حسن بالنسبة إليه ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل. ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فرأوه حسناً، والله الموفق.

وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت، وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ـ دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد(1) ـ رضوان الله عليهم ـ نسبة المجبرة القبائح إلى الله ـ تعالى عن ذلك علوًا كبيراً ـ وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»/ ٢٠٤ ب (٨٧٤).

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِن كَادُواْ﴾: وإن كاد أهل مكة، ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم، ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: من أرض مكة، ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾: لا يبقون بعد إخراجك، ﴿إِلَّا﴾: زماناً ﴿قَلِيلًا﴾: فإن الله مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل، وقيل: معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه، وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ـ ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة، حتى يجتمع إليه أصحابه، ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام، لحرصه على دخول

---

٨٧٤ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٧٩) للثعلبي في تفسيره عن قتادة مرسلاً، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف: لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلاً. انتهى.

---

(١) قوله: «ومن ثم استعظم مشايخ العدل» يعني المعتزلة. ويريد بالمجبرة: أهل السنة. حيث قالوا: إن الخير والشر كلاهما من عند الله يخلقه وإرادته، ولو كان من فعل العبد ظاهراً (ع).

الناس في دين الله (٨٧٥)؛ فنزلت، فرجع، وقرئ: «لا يلبثون»، وفي قراءة أبيّ: «لا يلبثوا» على إعمال «إذا».

فإن قلت: ما وجه القراءتين؟

قلت: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل، وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الإسم، وأما قراءة أبيّ، ففيها الجملة برأسها التي هي: «إذاً لا يلبثوا»، عطف على جملة قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾، وقرئ: «خلافك»[1]؛ قال [من الكامل]:

عَـفَـتِ الـدِّيـارُ خـلافَـهـمْ فـكَـأَنَّـمـا   بَـسطَ الشَّـواطِـبُ بـيْـنـهُـنَّ حَـصِـيـرا[2]

أي بعدهم ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

دلكت الشمس: غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «أَتانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالتِ الشَّمْسُ، فصلَّى بِي الظُّهر» (٨٧٦). واشتقاقه من

---

٨٧٥ ـ بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٠)، وقال ابن حجر: لم أجده، وذكره السهيلي في الروض عن عبد المجيد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم «أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام... فذكر نحوه.. لكن قال: فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلمّا بلغ تبوك أنزل الله تعالى ـ فذكره وزاد: وأمره بالرجوع، وقال: «فيها محياك ومماتك ومنها تبعث» وحديث عبد الرحمن بن غنم عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٥٣) لابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

٨٧٦ ـ أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٤٠١) (٥١٨) من طريق أيوب بن عتبة، عن أبي بكر ابن أبي عمرو بن حزم، عن عروة بن الزبير عن ابن أبي مسعود الأنصاري، عن أبيه أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ﷺ حين دلكت الشمس... وقال: وأيوب بن عتبة ليس بالقوي وأخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٢٥) (٢٢٥٨١) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٦٣) (٧٢٤) مطولاً. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨١) لابن مردويه في تفسيره، وعزاه ابن حجر: لإسحاق في مسنده. كلهم من طريق يحيى بن سعيد، حدثني أبو بكر بن حزم، عن أبي =

---

(١) قوله: «وقرئ خلافك» كانت القراءة التي سبق تفسيرها: خلفك.

(٢) عفت: درست وهلكت، خلافهم: أي بعدهم. والشواطب: النساء يشققن شطب النخل: أي سعفه الأخضر، يعملنه حصيراً: يصف ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قمامتها لعدم كنسها.

الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال، فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب، فقد خرجت منها الظهر والعصر، والغسق: الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: صلاة الفجر، سميت قرآناً وهو القراءة؛ لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً، وهي حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن، ﴿مَشْهُودًا﴾: يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء؛ فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون: (وقرآن الفجر): حثًّا على طول القراءة في صلاة الفجر؛ لكونها مكثوراً عليها؛ ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: وعليك بعض الليل، ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: والتهجد: ترك الهجود للصلاة؛ ونحوه: التأثم والتحرج، ويقال ـ أيضاً ـ في النوم: تهجد، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجداً؛ لأن التهجد عبادة زائدة، فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم، ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: نصب على الظرف، أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً، أو ضمن يبعثك معنى: يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه، وكل من رآه وعرفه، وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل:

= مسعود الأنصاري.. فذكره وقال ابن حجر: وهذ منقطع. قلت: وذلك؛ لأن أبا بكر لم يسمع من أبي مسعود.

وبمعناه ما أخرجه البزار في مسنده (٢٢٢٧) من حديث عمر بن قيس، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «دلوك الشمس زوالها» وقال: إنما يروى هذا الحديث موقوفاً على ابن عمر، ولم يسنده عن الزهري إلاعمر بن قيس، وكان لَيِّن الحديث. أ.هـ.

وأخرج الطبري في تفسيره (٨/ ١٢٥) (٢٢٥٨٣) من حديث جابر بن عبد الله قال: دعوت نبي الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبي ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، قد دلكت الشمس».

وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عتبة، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عروة، عن ابن مسعود قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ حين دلكت الشمس ـ يعني حين زالت ـ فقال: قم فصل، فقام فصلّى الظهر» قال إسحاق في مسنده: حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن حزم عن أبي مسعود قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال له: قم فصل. وذلك لدلوك الشمس حين مالت. فقام فصلى الظهر أربعاً. ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه. وهذا منقطع. انتهى.

المراد: الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق: تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لأُمَّتِي» (٨٧٧). وعن حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول

---

٨٧٧ ـ ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة: فورد من حديث

١ ـ أبو هريرة، أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٣) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ باب «ومن سورة بني إسرائيل» ـ (٣١٣٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٤٤ ـ ٤٧٨)، والواحدي في تفسير الوسيط (٣/ ١٢٢)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٤) لابن أبي شيبة في مسنده، وابن مردويه في تفسيره كلهم من طريق داود بن يزيد الزَّغَافِرِيِّ عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ . . . قال الترمذي: حديث حسن، وداود الزغافري هو داود الأودي بن يزيد بن عبد الله قلت: وداود بن يزيد هو أبو يزيد الكوفي الأعرج، قال الحافظ في التقريب (١/ ٢٣٥): ضعيف.

٢ ـ وفي الباب حديث أنس

أخرجه البخاري في صحيحه (١٥/ ٣٨٣) ـ كتاب التوحيد (٩٧) ـ باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (٢٤) (٧٤٤٠) معلقاً.

٣ ـ وعن ابن عمر

وهو عند البخاري أيضاً (٩/ ٣١٦) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ باب قوله ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ (٤٧١٨).

٤ ـ وعن ابن مسعود

أخرجه النسائي في التفسير (٦/ ٣٨٢) (١١٢٩٦) مختصراً، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٦: ٤٩٨) مطولاً، كلاهما من طريق سلمة بن كهيل ثنا أبو الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال. . . وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قلت: وفي ذلك نظر، فإن أبا الزعراء ـ واسمه عبد الله بن هانئ الكندي ـ لم يرو عنه إلا سلمة بن كهيل. قال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ الترجمة ٧٢٠): لا يتابع في حديثه. وذكره العقيلي في الضعفاء وقال: سمع ابن مسعود، وفيه كلام ليس في حديث الناس، وساق له حديث الشفاعة بطوله، ووثقه العجلي وابن سعد. تهذيب الكمال (١٦/ ٢٤٠) وأخرج أحمد في المسند (١/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥) كتاب التفسير. كلاهما من طريق علي بن الحكم، عن عثمان بن عمير، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، وعن ابن مسعود، وعند الحاكم، عن عثمان، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: «جاء ابنا مليكة إلى النبي. . . فذكره». وفيه قال النبي ﷺ : «ما شاء الله ربي، وما أطعمني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». . . وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعثمان بن عمير هو ابن اليقظان. وتعقبه الذهبي فقال: «لا والله، فعثمان ضعفه الدارقطني، والباقون ثقات.

قلت: وقع تصحيف في المطبوع من تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٢٨٣)، فوقع «عثمان بن عمر أبي القطان» والصحيح ما تقدم.

٥ ـ حديث كعب بن مالك:

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣) ـ كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. =

مدعو محمد ﷺ فيقول: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالشرّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهديُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدكَ بَيْنَ يَدَيكَ وَبِكَ وَإِلَيكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ منجى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ» (٨٧٨)(١). قال: فهذا قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

= ٦ ـ حديث جابر

أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٠) ـ كتاب الإيمان (١) ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) (٣٢٠) عن يزيد الفقير، قال: كنت قد شغفني رأي. . . وفيه ـ قال جابر ـ «فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام. . .».

٧ ـ وحديث أبي سعيد الخدري

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) (٣١٤٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠) ـ كتاب الزهد (٣٧) ـ باب ذكر الشفاعة (٣٧) (٤٣٠٨)، كلاهما من حديث علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله. . . وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت: وتصحيح الترمذي فيه نظر؛ فإن علي بن زيد بن جُدعان ضعيف. التقريب (٢/ ٣٧).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والترمذي من طريق داود بن يزيد الأودي، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وسئل عنه فقال: «هي الشفاعة» وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد، وعن ابن عمر عنده في الزكاة. وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً. وعن كعب بن مالك عند الحاكم. وأصله عند مسلم وعن جابر عند أحمد والحاكم، واختلف في وصله وإرساله على الزهري. عن علي بن الحسين. وعن أبي سعيد عند الترمذي، وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولاً. وعن سعد بن أبي وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبي حنيفة، عن عبد العزيز بن ربيع، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: «سئل النبي ﷺ عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة». انتهى.

٨٧٨ ـ أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٨١) ـ كتاب التفسير ـ (١١٢٩٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٢٢٨ ـ منحة) (٢٨٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣١٩) (٣١٧٤٤)، والبزار كما في كشف الأستار (٤/ ١٦٧) والبيهقي في البعث والنشور (ص ١٣٤/ ٢١١)، والطبري في تفسيره (٨/ ١٣٢) (٢٢٦٣١) كلهم من طرق عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان موقوفاً قال: يجمع الناس في صعيد واحد فلاتكلم نفس. . .» وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، إنما أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن خراش ليخرجن من النار فقط. ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٠): رواه البزار موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح.

وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٣) من طريق ليث بن أبي سليم عن أبي إسحاق به مرفوعاً دون قول حذيفة: «فذلك المقام المحمود» وعزاه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٠) للطبراني في الأوسط، وقال: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة =

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

قرئ: «مدخل ومخرج»: بالضم والفتح، بمعنى: المصدر، ومعنى الفتح: أدخلني فأدخل مدخل صدق، أي: أدخلي القبر مدخل صدق: إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضيًا، ملقى بالكرامة، آمناً من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة ـ يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة ـ، وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر ـ وهو النبوة ـ وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل/ ٢٠٥ أ ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان، ﴿سُلْطَـٰنًا﴾: حجة تنصرني على من خالفني، أو ملكاً. وعزًّا قويًا ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه، فأجيبت دعوته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ليستخلفهم في الأرض﴾ ووعده لينزعن ملك فارس والروم، فيجعله له، وعنه ﷺ: أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة، وقال: «انْطَلِقْ فَقَدْ اسْتَعْمَلتُكَ عَلَى أَهْلِ اللَّهِ» ح، فكان شديداً على المريب، ليناً على المؤمن، وقال: «لاَ وَاللَّهِ، لاَ أَعْلَمُ مُتَخَلِّفاً يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاَةِ فِي جَمَاعَةٍ إِلاَّ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاَةِ إِلاَّ مُنَافِقٌ». فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على

= (ص ٣٦٧/ رقم ٧٨٩) من طريق حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار عن أبي إسحاق به مرفوعاً.

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢١٧) سألت أبي عن حديث رواه حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، عن النبي فذكره. قال: قال أبي: لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله بن المختار، وموقوفه أصح. قلت: قوله «لا يرفع هذا الحديث إلا عبد الله بن المختار» فيه نظر؛ لما تقدم من رواية ليث بن أبي سليم، فقد رفعه. وعزاه الحافظ في المطالب العالية (٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧) لمسدد ولابن أبي عمر، وأخرجه أيضاً ابن المنذر، وابن مردويه، والخطيب في المتفق، والمفترق كما في الدر (٤/ ٣٥٧).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي، والحاكم، وابن أبي شيبة، والطبري، وأبو يعلى، والبزار، وأبو نعيم في ترجمة حذيفة في الحلية؛ كلهم من طريق شعبة وإسرائيل، كلاهما عن أبي إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول: سمعت حذيفة يقول: «يجمع الناس» فذكره. انتهى.

أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيًا جافياً، فقال ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِيما يَرى النَّائِمُ كَأَنَّ عِتَابَ بْن أَسِيْدٍ أَتَى بَابَ الجنَّةِ، فَأَخَذَ بِحَلقةِ البَابِ فَقَلْقلهَا قُلْقَالاً شَدِيداً حتَّى فتحَ لَهُ فَدَخَلَهَا، فَأَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ لِنُصْرَتِهِ المُسْلِمِينَ علَى مَنْ يُرِيدُ ظُلمَهُمْ؛ فذلِكَ السُّلْطانُ النَّصيرُ» (٨٧٩).

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً صنم كل قوم بحيالهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله ـ عز وجل ـ فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك فأوحى الله إلى البيت: إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملأك خدوداً سجداً، يدفون إليك دفيف النسور[1]، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية. ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل ـ عليه السلام ـ لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنماً صنماً، وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر، فقال: يا علي، ارم به، فحمله رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ (٨٨٠) وشكاية البيت

---

٨٧٩ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٦) للثعلبي بإسناده إلى الكلبي، وابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي بإسناده عن الكلبي. قال: (سلطاناً مضيراً) عتاب ابن أسيد استعمله رسول الله ﷺ على أهل مكة، فذكره سواه، وأخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. دون هذا الحديث. انتهى.

٨٨٠ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٨٧) غريب. وقال ابن حجر: لم أجده، قلت: وأخرج النسائي في الكبرى (٥/ ١٤٢) ـ كتاب الخصائص ـ (٨٥٠٧)، وأحمد في المسند (١/ ٨٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٧)، وعزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه في مسنده؛ كلهم من طريق نعيم بن حكيم ثنا أبو مريم، علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «انطلقت مع رسول الله ﷺ حتى أتينا الكعبة. . .» فذكره. وليس فيه عند النسائي. أن ذلك كان في فتح مكة ولا تلاوة الآية. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله إسناده «صحيح والمتن منكر» وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٦) ونسبه لأحمد وابنه، وأبي يعلى، والبزار. وقال: ورجال الجميع ثقات. قلت: وفي تصحيح الحاكم للحديث والذهبي للإسناد، نظر؛
فإن: نعيم بن حكيم: قال فيه النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن خراش: صدوق لا بأس به، ووثقه العجلي ويحيى بن معين في رواية. وقال ابن حجر في التهذيب: ونقل الساجي عن ابن معين تضعيفه، وقال الأزدي أحاديثه مناكير. . . لا يقوم حديثه (١٠/ ٤٥٨)، وقال ابن حجر في التقريب =

---

(١) قوله: «يدفون إليك دفيف النسور» في الصحاح «الدفيف» الدبيب. وهو السير اللين، وفيه «العج» رفع الصوت، وقد عج يعج عجيجاً (ع).

والوحي إليه: تمثيل وتخييل، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: ذهب وهلك، من قولهم: زهقت نفسه، إذا خرجت، والحق: الإسلام، والباطل: الشرك، ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾: كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَنُنَزِّلُ﴾: قرئ بالتخفيف والتشديد، ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: من للتبيين؛ كقوله: من الأوثان، أو للتبعيض، أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيماناً، ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالقُرآنِ فَلاَ شَفَاهُ اللَّهُ» (٨٨١)، ولا يزداد به الكافرون ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: نقصاناً؛ لتكذيبهم به وكفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: بالصحة والسعة، ﴿أَعْرَضَ﴾: عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه، ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك من

= (٢/ ٣٠٥) صدوق له أوهام، وأما أبو مريم، وهو الثقفي واسمه قيس المدائني: قال الدارقطني: مجهول؛ كما في التهذيب (١٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وقال ابن حجر في التقريب (٢/ ٤٧١) أبو مريم الثقفي اسمه قيس المدائني مجهول، ووثقه الذهبي في الكاشف (٣/ ٣٧٦) (ت ٣٧٩).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: قال لم أجده. وروى النسائي والحاكم من طريق ابن أبي مريم عن علي. قال: «انطلقت مع النبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي: اجلس، فجلست. وصعد على منكبي فنهضت به فذكر الحديث» وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة. ولا تلاوة الآية وروى النسائي. انتهى.

٨٨١ ـ عزاه الزيلعي (٢/ ٢٨٨) وابن حجر في تخريج الكشاف للثعلبي. قلت: وذكره الهندي في كنز العمال (١٠/ ٩) (٢٨١٠٦) من حديث أبي هريرة، وعزاه للدارقطني في الأفراد، وله شاهد من حديث رجاء الغنوي عزاه الهندي في الكنز لابن القانع: وقال المناوي في فيض القدير (١/ ٤٩١) ـ رجاء الغنوي ـ واسمه منبه بن سعد بن قيس غيلان... وقد أشار الذهبي في تاريخ الصحابة إلى عدم صحة هذا الخبر. فقال في ترجمة رجاء هذا: له صحبة، نزل بالبصرة وله حديث لا يصح في فضل القرآن. أ. هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث الغساني. حدثنا ساكنة بنت الجعد، قالت: سمعت رجاء الغنوي يقول: قال رسول الله ﷺ . فذكره. انتهى.

عادة المستكبرين، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾: شديد اليأس من روح الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقرئ: «وناء بجانبه»: بتقديم اللام على العين؛ كقولهم: «راء» في: «رأى»، ويجوز أن يكون من «ناء» بمعنى: «نهض»، ﴿قُلْ كُلٌّ﴾: أحد، ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، من قولهم: «طريق ذو شواكل»، وهي: الطرق التي تتشعب منه؛ والدليل عليه قوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسدّ مذهباً وطريقة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان، سألوه عن حقيقته، فأخبر أنه من أمر الله، أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح (٨٨٢)، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل: جبريل ـ عليه السلام ـ وقيل: القرآن، و﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من وحيه وكلامه، ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح؛ فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين، وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم (٨٨٣)، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾:

---

٨٨٢ ـ ذكره الواحدي في الوسيط (٣/ ١٣٦) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٦٧) (٤٠٧) من طريق صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما تبلغ الجن والإنس والملائكة...» قلت وهذا إسناد ضعيف؛ فإن صالحاً هذا ضعيف كما في التقريب والحديث عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦٢) لابن أبي حاتم.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الواحدي في الوسيط عن عبد الله بن بريدة بهذا في حديث لم يسبق إسناده. انتهى.

٨٨٣ ـ أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٩، ٢٧١) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن مشركي قريش بعثوا...» وذكره ابن هشام في سيرته (١/ ٣٧٨) (٢٨٦) عن ابن إسحاق، وأورده القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٢٥) وكذا ابن كثير في البداية (٣/ ٥٢، ٥٣) قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق. والرواية الصحيحة في شأن سؤال النبي عن الروح ليس فيها ذكر لمشركي مكة.

أخرجها البخاري في صحيحه (١٥/ ١٩٤) ـ كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) ـ باب ما يكره من كثرة السؤال (٣) ـ حديث رقم (٧٢٩٧)، ومسلم (٩/ ١٥٠) ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ـ باب سؤال اليهود النبي عن الروح (٤) ـ حديث رقم (٢٧٩٤)، والترمذي (٥/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ حديث رقم (٣١٤١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٣) ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح﴾ (١١٢٩٩)؛ كلهم من طريق إبراهيم عن علقمة عن عبد =

الخطاب عام، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك: ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وساعة تقول هذا (٨٨٤)؛ فنزلت: (ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام) [لقمان: ٢٧]، وليس ما قالوه بلازم؛ لأن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها؛ إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾، فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾: جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط، واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور/ ٢٠٥ ب والمصاحف، فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾: بعد

= الله بن مسعود قال: . . . فذكر الحديث.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث. فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا. . . القصة بطولها». انتهى.

٨٨٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٤٣) (٢٢٦٨٧)، من طريق محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. . . وأخرجه أيضاً (١٠/ ٢٢١) (٢٨١٤٨) من طريق ابن إسحاق قال: ثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ وأورده ابن كثير (٣/ ٤٥١) عن ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس به، وعزاه في الدر المنثور (٤/ ٣٦١) لابن مردويه في تفسيره، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٩٠) ذكره الثعلبي في سورة لقمان هكذا من غير سند.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

ذكره الثعلبي في تفسير «لقمان» بغير سند ولا راوٍ، وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة، لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً. أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزل الله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾.

الذهاب ﴿بِهِۦ﴾: من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾: إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع، بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله ـ تعالى ـ ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم ألاَّ يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ، وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون: الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم؟ فقال: يسرى عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب (٨٨٥).

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَا يَأْتُونَ﴾: جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة؛ لجاز أن يكون جواباً للشرط؛ كقوله: [من البسيط]:

.... يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي ولاَ حَرِمُ(١)

لأن الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله،

---

٨٨٥ ـ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/٣٦٣) (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٤٥) (٣٠١٩٣) ـ كتاب فضائل القرآن، وأخرجه أيضاً (٧/٥٠٥) (٣٧٥٨٥) ـ كتاب الفتن، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٥٣) (٨٧٠٠)، والواحدي في الوسيط (٣/١٢٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٠٤) ـ كتاب الفتن؛ كلهم من طريق عبد العزيز بن رفيع عن شداد بن معقل قال: سمعت ابن مسعود يقول: «إن أول ما تفقدون...» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير شداد بن معقل وهو ثقة.
قال الحافظ بن حجرفي تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني، وأخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل، عن عبد الله بن مسعود وزاد في آخره: ثم قرأ عبد الله: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾. انتهى.

---

(١) تقدم.

والعجب من النوابت[١] ومن زعمهم أن القرآن قديم[٢] مع اعترافهم بأنه معجز[٣]؛ وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم، فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك، لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم[٤]: المكابرة وقلب الحقائق.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: رددنا وكررنا، ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: من كل معنى، هو كالمثل في غرابته وحسنه، والكفور: الجحود.

فإن قلت: كيف جاز: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، ولم يجز: ضربت إلا زيداً؟

قلت: لأن أبى متأول بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورا.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

---

(١) قوله: «النوابت» في الصحاح «النوابت من الأحداث» الأغمار. وفيه: رجل غمر: لم يجرب (ع).

(٢) قال محمود: «والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز... إلخ» قال أحمد: ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة التي طبقت طبق الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أدلتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم. والثاني: أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم. وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(٣) قوله: «ومن زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون: إن القرآن قديم، لكن لا بمعنى اللفظ الذي يسمعه بعضنا من بعض، فإن هذا حادث بل بمعنى كلام الله الذي هو صفة له قائمة بذاته تعالى، فهذا هو القديم، كعلمه تعالى وإرادته (ع).

(٤) قوله: «فإن رأس مالهم المكابرة» ليس كما قال غفر الله له، بل رأس مالهم التمسك بالكتاب والسنة، وتحري الحقائق (ع).

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فقالوا: لن نؤمن لك حتى.. وحتى ﴿تَفۡجُرَ﴾: تفتح، وقرئ: «تفجر»: بالتخفيف، ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: يعنون: أرض مكة، ﴿يَنۢبُوعًا﴾: عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، «يفعول»: من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء، ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾ يعنون: قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]. قرئ: «كسفاً»: بسكون السين جمع كسفة، كسدرة وسدر، وبفتحه، ﴿قَبِيلًا﴾: كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته، والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قبيلاً؛ كقوله [من الطويل]:

...... كُــنْــتُ مِــنْــهُ وَوَالِــدِي بَــــــرِيًّــــــا........[1]

[ومن الطويل]:

.... فَــإِنِّــي وقَــيَّــارٌ بِــهَــا لَــغَــرِيــبُ[2]

أو مقابلاً، كالعشير بمعنى: المعاشر؛ ونحوه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١]، أو جماعة حالاً من الملائكة، ﴿مِّن زُخۡرُفٍ﴾: من ذهب، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: في معارج السماء، فحذف المضاف، يقال: رقى في السلم وفي الدرجة، ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: ولن نؤمن لأجل رقيك، ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا﴾: من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد

---

(١) رمــانــي بــأمــر كــنــت مــنــه ووالــدي بــريًــا ومــن جــول الــطــوى رمــانــي
للفرزدق. يقول قذفني بأمر أنا بريء منه ووالدي، فكان: مجردة عن المضي، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه، والعطف من عطف الجمل. وبريا: في نية التقديم، فلم يلزم تقدم شيء من المعطوف عليه على المعطوف: هذا رأي الجمهور. وأجاز بعضهم أن «والدي» عطف على اسم كان، فيكون «بريا» خبره، وخبر اسمها محذوفاً أو بالعكس، والعطف من عطف المفردات. ويجوز أن «بريا» خبر عنهما؛ لأن فعيلاً يقال للواحد والمتعدد، لموازنته المصدر: كصهيل وضجيج ونحيب ونسيب، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلاً. وجول الطوى ـ بالضم ـ: جانب البئر المطوي. والمعنى: أنه رماني بأمر يرجع عليه هو، كأنه رماني وهو في أسفل البئر بحجر فيرجع عليه، كناية عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به. ويجوز أن الأمر الذي رماه به متصف به الرامي، وهو أنسب بالتشبيه. ويروى من أجل الطوى. فليحرر.
ينظر: ديوانه (ص ١٨٧)، الدرر (٢/ ٦٢)، شرح أبيات سيبويه (١/ ٢٤٩)، الكتاب (١/ ٧٥)، لسان العرب (حول).

(٢) تقدم.

واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحجر: ١٤] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه ـ بل هي أعظم ـ لم يكن إلى تبصرتهم سبيل، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾، وقرئ: «قال سبحان ربي»، أي: قال الرسول، و (سبحان ربي): تعجب من اقتراحاتهم عليه، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا﴾: رسولاً كسائر الرسل، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلي؛ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها عليّ.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿أن﴾ الأولى نصب مفعول ثان لمنع، والثانية رفع فاعل له، و ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾: الوحي، أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾: للإنكار، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأن قضية حكمته ألاّ يرسل ملك الوحي إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾: على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء[1]، فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه، ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: ساكتين في الأرض قارّين، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾: يعلمهم الخير ويهديهم المراشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة؛ إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشراً وملكاً، منصوبين على الحال من رسولاً؟ قلت: وجه حسن، والمعنى له أجوب.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾/ ٢٠٦أ: على أني بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتم وعاندتم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾: المنذرين والمنذرين، ﴿خَبِيرًۢا﴾: عالماً بأحوالهم، فهو

(١) قال محمود: «معناه لو كانوا يمشون مشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء... إلخ» قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر، وهو قول القائل: إن مجرد وجود الملائكة في الأرض يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة؟ فيكون جوابه ما تقدم، والله الموفق.

مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيداً: تمييز أو حال.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: ومن يوفقه ويلطف به، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾: ومن يخذل، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: أنصاراً، ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدامِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يمشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ» (٨٨٦)، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾: كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك: لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم(١)، ولا ينطقون بما يقبل منهم، ومن كان في هذه أعمى فهو في

---

٨٨٦ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٥) ـ كتاب تفسير القرآن (٤٨) ـ حديث رقم (٣١٤٢)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٦٣)، والبيهقي في البعث والنشور (ص ٧٢/ ١١١) مختصراً. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٩٠) لإسحاق بن راهويه والبزار؛ كلهم من طريق علي بن زيد، عن أوس بن أوس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف...».
وقال الترمذي: حديث حسن. قلت: «وليس كذلك؛ فإن فيه علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف، ولكن للحديث شواهد، فأخرج البخاري في صحيحه (٩/ ٤٣٧) ـ كتاب التفسير (٦٥) ـ حديث رقم (٤٧٦٠)، ومسلم (٩/ ١٦٣) ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ـ حديث رقم (٢٨٠٦) عن أنس بن مالك أن رجلاً: قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».
وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الترمذي، وأحمد، وإسحاق، والبزار من حديث أبي هريرة بهذا في حديث. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البزار: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفيع عن أنس مثله، وأصله في الصحيحين عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»؟
قوله «ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح: لذذت الشيء ـ بالكسر ـ: وجدته لذيذاً. انتهى.

---

(١) قوله: «ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح: لذذت الشيء ـ بالكسر ـ: وجدته لذيذاً (ع).

الآخرة أعمى، ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤون ويتكلمون، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾: كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها، بدلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث؛ ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد؛ وقد دل على ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ إلى قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

فإن قلت: علام عطف قوله: (وجعل لهم أجلاً)؟

قلت: على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ لأن المعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهن، كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: وهو الموت أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

(لو): حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بد من فعل بعدها في: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾، وتقديره: لو تملكون تملكون، فأضمر تملك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو: أنتم؛ لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم: فاعل الفعل المضمر، وتملكون: تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان، فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ؛ ونحوه قول حاتم:

لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي

وقول المتلمس [من الطويل]:

ولَوْ غيرُ أَخوالي أرادوا نَقِيصتي[1] ....

(١) ولو غير إخواني أرادوا نقيصتي ... جمعت لهم فوق العرانين ميسما
وهل كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى عليه تقدما؟
للمتلمس خال طرفة بن العبد، و«لو» من حروف الشرط، فمتى كان في حيزها فعل فهي أحق به، =

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر، برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر، ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها، ﴿قَتُورًا﴾: ضيقاً بخيلاً.

فإن قلت: هل يقدر (لأمسكتم): مفعول؟

قلت: لا؛ لأن معناه: لبخلتم، من قولك للبخيل: ممسك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل (٨٨٧)، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات: مكان الحجر، والبحر، والطور (٨٨٨)، وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب، فذكر اللسان والطمس[(١)]، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا، أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه، فإذا بيض مكسور بنصفين، وجوز مكسور، وفوم[(٢)] وحمص وعدس، كلها حجارة، وعن صفوان بن عسال أن بعض اليهود سأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسى:

---

٨٨٧ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٥٥) (٢٢٧٣٨)، من طرق عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله «تسع آيات بينات»... وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧٠) لـ «سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم».

٨٨٨ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٩١)، ومن طريقه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩١).

= فغير إخواني فاعل لمحذوف يفسره المذكور، أي: ولو أراد غير إخواني. ويروى: أخوالي، نقيصتي: أي ظلمي، لو سمهم بالذل وسماً ظاهراً، كأنه فوق الأنوف، وخصها لأنها لا تخفى. والميسم: آلة الوسم بالنار، والمراد أثره وهو السمة. وهل: استفهام إنكاري، أي: لو كافأت إخواني لا أكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى، والكف يذكر ويؤنث؛ فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى. والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخواني بالنون.
وهو للمتلمس في ديوانه ص٢٩، والأصمعيات ص ٢٤٥، وخزانة الأدب ١٠/ ٥٩ واللامات ص ١٢٨، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٤٩٠، ولسان العرب (نقص)، (وسم)، والمقتضب ٣/ ٧٧.

(١) قوله: «فذكر اللسان والطمس» لعله العقدة التي كانت بلسانه فحلها كما عده الخازن. وأما الطمس: فهو إجابة دعائه في قوله ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ ويشير إلى ذلك ذكر ما في الجواب (ع).

(٢) قوله: «وفوم» في الصحاح «الفوم» الثوم. ويقال له: الحنطة (ع).

أَنْ قُلْ لبنِي إِسْرَائيل: لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلاَ تسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، ولاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّم اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تمْشُوا بِبريءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقتُله، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحصَنَةً، ولاَ تَفِرّوا منَ الزَّحْفِ، وَأَنْتُمْ يَا يَهُود خَاصَّةً لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ» (٨٨٩). ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فقلنا له: سل بني إسرائيل، أي: سلهم من فرعون[1] وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو: سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم، أو: سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك؛ وتدل عليه قراءة رسول الله ﷺ: «فسال بَني إِسْرَائيلَ»: على لفظ الماضي بغير همز، وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام، وأصحابه عن الآيات؛ ليزدادوا يقيناً وطمأنينة قلب؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت، كان ذلك أقوى وأثبت؛ كقول إبراهيم: (ولكن

---

٨٨٩ ـ أخرجه الترمذي(٥/ ٣٠٥) ـ كتاب التفسير (٤٨) ـ باب «ومن سورة بني إسرائيل» (٣١٤٤)، والنسائي(٧/ ١١١) ـ كتاب تحريم الدم (٣٧) ـ باب السحر (١٨) (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢١) ـ كتاب الأدب (٣٣) ـ باب الرجل يقبل يد الرجل (١٦) (٣٧٠٥)، مختصراً. وأحمد في مسنده (٤/ ٢٣٩ و٢٤٠)، والحاكم في مستدركه (١/ ٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٨٣ ـ ٨٤) (٧٣٩٦)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٥٦ ـ ١٥٧) (٢٢٧٤٧) (٢٢٧٤٩) وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) (٢٢٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٧ ـ ٩٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٦٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٢٨) (٣٦٥٤٣)؛ كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسال: أن يهوديين قال: أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله... وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: حديث صحيح لا نعرف له علة بوجه من الوجوه، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.
قلت: وهذا التصحيح فيه نظر؛ فإن «عبد الله بن سلمة» وهو المُرَادي الكوفي أبو عالية؛ قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال أبو حاتم: تعرف وتُنكر، وقال الدارقطني في السنن (٢/ ١٢١) ضعيف، وقال ابن عديّ: أرجو أنه لا بأس به، وقال الذهبي في الكاشف. صويلح وقال العجلي تابعي ثقة، وقال ابن حجر في التقريب: صدوق تغير حفظه. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الحديث أعلى درجاته أنه حسن، والعلم عند الله تعالى. قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٢٩٣)... والحديث فيه إشكالات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وأبو يعلى، والطبراني: كلهم من رواية عبد الله بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فقال: لا تقل له نبي، فإن سمعك صارت له أربعة أعين. فأتيا النبي ﷺ فسألاه. فذكر الحديث. ولم يقل أحد منهم «أوحى إلى موسى أن قل لبني إسرائيل» والباقي سواء. عبد الله بن سلام كبر، فساء حفظه، وكان المسؤول عنه العشر كلمات؛ لأن عددها عشرة لا التسع آيات، لأن العشر وصايا كهذه، والتسع حجج على فرعون وقومه. انتهى.

---

(١) قوله: «سلهم من فرعون» يعني اطلبهم منه (ع).

ليطمئن قلبي).

فإن قلت: بم تعلق: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾؟

قلت: أما على الوجه الأول فبالقول المحذوف، أي: فقلنا لهم: سلهم حين جاءهم، أو بسأل في القراءة الثانية، وأما على الأخير: فبآتينا، أو بإضمار اذكر، أو يخبروك، ومعنى (إذ جاءهم): إذ جاء آباءهم، ﴿مَسْحُورًا﴾: سحرت فخولط عقلك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾: يا فرعون، ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الآيات إلا الله، عز وجل، ﴿بَصَآئِرَ﴾: بينات / ٢٠٦ ب مكشوفات، ولكنك معاند مكابر؛ ونحوه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقرئ: (علمتُ): بالضم، على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر، وأن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض، ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك؛ ﴿مَثْبُورًا﴾: هالكاً، وظني أصح من ظنك؛ لأن له أمارة ظاهرة، وهي: إنكارك ما عرفت صحته؛ ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك: فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري: إني لأظنك مسحوراً: قول كذاب؛ وقال الفرّاء: (مثبوراً): مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك؟ وقرأ أبيّ بن كعب: «وإن إخالك يا فرعون لمثبوراً»: على: إن المخففة واللام الفارقة، ﴿فَأَرَادَ﴾: فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه، ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: التي أراد فرعون أن يستفزكم منها، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: قيام الساعة، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾: وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة؛ لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق، محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط

الشياطين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: إلا لتبشرهم بالجنة، وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾: منصوب بفعل يفسره ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾، وقرأه أبيّ: «فرّقناه»: بالتشديد، أي: جعلنا نزوله مفرّقاً منجماً، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قرأ مشدداً وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة، يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب، ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾: بالفتح والضم: على مهل وتؤدة وتثبت، ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾: على حسب الحوادث.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾: أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، ألاّ يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه؛ وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل ـ وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع ـ قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله؛ تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا . . . وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ تعليل لماذا؟

قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾، وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطييب نفسه، كأنه قيل: تسلّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن[1] به من هو خير منكم.

فإن قلت: ما معنى الخرور للذقن؟

قلت: السقوط على الوجه؛ وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين؛ لأن الساجد أول

---

(١) قوله: «لقد آمن» لعله «فقد» (ع).

ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن.

فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت: خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال [من الوافر]:

.... فخرَّ صريعاً لليدين وللفم[1]

قلت: معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص.

فإن قلت: لم كرّر يخرون للأذقان؟

قلت: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر، وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الإسم؛ فنزلت، والدعاء بمعنى: التسمية، لا بمعنى: النداء، وهو يتعدى إلى مفعولين، تقول: دعوته زيداً، ثم يترك أحدهما؛ استغناء عنه فيقال: دعوت زيداً، والله والرحمن، المراد بهما: الإسم، لا المسمى، وأو للتخيير،

(١) فيوم الكلاب قد أزالت رماحنا شرحبيل إذ آلى ألية مقسم
لينتزعن أرماحنا فأزاله أبو حنش عن ظهر شنقاء صلدم
تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعاً لليدين وللفم

لجابر الثعلبي. وقيل: البيت الثالث لشريح العبسي. وقيل: لزهير. والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة. وآلى: أي حلف. والشنقاء: الطويلة من الخيل. والصلدم ـ بكسر المهملتين ـ: القوية. ويروى: ثم اثّنى له. وأصله: انثنى، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء في الثاء. ولو قرىء: ثم ائتني، من أتاني وتمهل لجاز. ويروى: دلفت له بالرمح من تحت بزه. ويروى: شققت له بالرمح جيب قميصه. ولعل اختلاف الروايات لاختلاف القائل. والتناول: الأخذ، فالمعنى: لحقه فطعنه بالرمح، كأنه أخذه، ثم انثنى له: أي طعنه مرة أخرى، فسقط مطروحاً، وجعل ذلك ليديه وفمه؛ لأنها التي يستقبل بها الأرض أولاً حين سقوطه على وجهه، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النحاة، وإن أنكره النحاس. ودلف دلفاً كتعب تعباً: إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه. وجيب قميصه: كناية عن صدره؛ لأنه إذا شق طوق القميص بالرمح فقد شق الصدر.

وهو لجابر بن حني في شرح اختيارات المفضل ص ٩٥٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٦٢، وللأشعث الكندي في الأزهية ص ٢٨٨، ولربيعة بن مكدم في الأغاني ١٦/ ٣٢، ولعصام بن المقشعر في معجم الشعراء ص ٢٧٠، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥١١. والجنى الداني ص ١٠١ ورصف المباني ص ٢٢١، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩١، ومغني اللبيب ١/ ٢١٢.

فمعنى: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾: سموا بهذا الإسم أو بهذا، واذكروا إما هذا وإما هذا، والتنوين في ﴿أَيّٗا﴾: عوض من المضاف إليه، و﴿ما﴾: صلة للإبهام المؤكد لما في أيّ، أي: أيّ هذين الإسمين سميتم وذكرتم، ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: والضمير في (فله): ليس براجع إلى أحد الإسمين المذكورين، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأن التسمية للذات لا للإسم، والمعنى: أيًّا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: (فله الأسماء الحسنى)؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الإسمان؛ لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء، أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم، ﴿بصلاتك﴾: بقراءة صلاتك على حذف المضاف؛ لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر، والمخافتة: صفتان تعتقبان/٢٠٧ أ على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين، ﴿وَلَا تُخَافِتۡ﴾: حتى لا تسمع من خلفك، ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ﴾: الجهر والمخافتة، ﴿سَبِيلٗا﴾: وسطاً، وروي أنّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته، ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض (٨٩٠) قليلاً، وقيل: معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، وابتغ

---

٨٩٠ ـ ورد من حديث أبي قتادة، وأبي هريرة وعلي.
ـ أما حديث أبي قتادة:
فأخرجه أبو داود (٢/٣٧) ـ كتاب الصلاة ـ باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل حديث رقم (١٣٢٩)، والترمذي (٢/٣٠٩ ـ ٣١٠) ـ كتاب أبواب الصلاة ـ باب ما جاء في قراءة الليل ـ (٤٤٧)، والحاكم في مستدركه (١/ ٣١٠) ـ كتاب صلاة التطوع، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠) (١١٦١)، وابن حبان في صحيحه (٣/٦ ـ ٧) (٧٣٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٨) (٢٦١٢) وقال هذا مرسل وقد رويناه موصولاً من حديث أبي قتادة كلهم من طريق يحيى بن إسحاق السيلحيني قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة أن النبي ﷺ مر بأبي بكر وهو يصلي... وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حديث غريب، وإنما أسنده يحيى بن إسحاق عن حماد بن سلمة، وأكثر الناس إنما رَوَوْا هذا الحديث عن ثابت عن عبد الله بن رباح مرسلاً.
وقال ابن أبي حاتم في علله: سألت أبي عن حديث رواه يحيى بن إسحاق السيلحيني، عن حماد، عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة أن النبي ـ صلى العشاء... فذكر الحديث فقال أبي: أخطأ فيه السيلحيني، والصحيح، عن عبد الله بن رباح أن النبي ﷺ مرسلاً. قلت: ويحيى بن إسحاق البجلي أبو زكريا، ويقال: أبو بكر السَّيلحيني، قال أحمد بن حنبل: شيخ صالح ثقة، سمع من الشاميين ومن ابن لهيعة، وهو صدوق، وقال يحيى بن معين: صدوق المسكين، وقال الذهبي في الكاشف: ثقة، وقال ابن حجر في التقريب: صدوق.
وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة:

بين ذلك سبيلاً: بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار، وقيل: (بصلاتك): بدعائك، وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، وابتغاء السبيل: مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾: ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد[1]؟

قلت: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية (٨٩١).

= أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٧ ـ ٣٨) (١٣٣٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ . . وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٨) (٢٦١٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٦٩) (٢٢٨٣٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧٤) لسعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد ابن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا قرأ خفض. . . وله شاهد آخر من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ.
أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٠٩) ورجاله ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السيلحيني عن حماد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن أبي قتادة بمعناه. وليس فيه قوله «قد علم حاجتي» وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبي ﷺ عن ذلك؛ قال الترمذي: رواه أكثر الناس فلم يذكروا أبا قتادة. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه لفظاً: فيه يحيى بن إسحاق، والصواب مرسلاً، وفي الباب عن علي أخرجه البيهقي في الشعب. وعن أبي هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر. وعن أبي سلمة عنه مختصراً. وأخرجه الطبري من رواية محمد بن سيرين قال «نبئت أن أبا بكر فذكره» وقال فيه: أناجي ربي وقد علم حاجتي. انتهى.

٨٩١ ـ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣٣٤) (٧٩٧٦) عن ابن عيينة، عن عبد الكريم أبي أمة. قال: =

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك. . . إلخ» قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسبها، فإنك لو قلت ابتداء: الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ بَني إِسرائِيلَ فرقَّ قَلْبُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الوَالِدَيْنِ كَانَ لَهُ قِنطَارٌ فِي الجنَّةِ، والْقِنْطَارُ: أَلْفُ أَوْقِيَةٌ وَمَائَتَا أَوْقِيَةٍ»، رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم (٨٩٢).

= كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام. . . وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٥٣) ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب في الصبيان متى يتعلمون القرآن ـ (٣٠٢٧٩) حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب قال: كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علمه النبي ﷺ . . وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٣٧٧).

وقال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق. قالا: أخبرنا ابن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. انتهى.

٨٩٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

سُورَةُ الكَهفِ

مكّيَّةٌ [إلاَّ آية ٣٨ ومِنْ آية ٨٣ إلَى غَايَةِ آيَةِ ١٠١ فمدَنِيَّةٌ]

وَآيَاتُها ١١٠ [نَزَلَتْ بَعْدَ الغاشِيَةِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم، وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾: ولـم يجعل له شيئاً من العوج قط، والعوج في المعاني: كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه.

فإن قلت: بم انتصب: ﴿قَيِّمًا﴾؟

قلت: الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأن قوله: (ولـم يجعل): معطوف على «أنزل»، فهو داخل في حيز الصلة، فجاعله حالاً من الكتاب، فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولـم يجعل له عوضاً جعله قيماً؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة.

فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الآخر؟

قلت: فائدته: التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح، وقيل: قيماً على سائر الكتب: مصدقاً لها، شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع، وقرئ «قيماً»، «أنذر»: متعد إلى

مفعولين؛ كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] فاقتصر على أحدهما، وأصله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾: الذين كفروا، ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾: والبأس من قوله: (بعذاب بئيس)، وقد بؤس العذاب، وبؤس الرجل بأساً وبآسة، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: صادراً من عنده، وقرئ: «من لدْنِه»: بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون، ﴿وَيُبَشِّرَ﴾: بالتخفيف والتثقيل.

فإن قلت: لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟

قلت: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجب الاقتصار عليه؛ والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾: متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به، كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾: استغناء بتقدم ذكره، والأجر الحسن: الجنة، ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد أو باتخاذه، يعني: أن قولهم هذا لم يصدر عن علم، ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته[(١)] آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قلت: اتخاذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم[(٢)]؟

قلت: معناه: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به، قرئ: «كبرت كلمة»، وكلمة: بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب؛ كأنه قيل: ما أكبرها كلمة، و ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: صفة للكلمة تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوّراً[(٣)] من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: «كبْرت» بسكون الباء مع إشمام الضمة.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في كبرت؟

---

(١) قوله: «وقد اشتملته» لعله: استملته، بإهمال السين وسكون الميم (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت اتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل لهم... إلخ» قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أن ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل. ونظيره:

ولا يرى الضب بها ينجحر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفي إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع وإن كان ممكناً، والله أعلم.

(٣) قوله: «تشورا من إظهاره» أي تباعدا من إظهاره، كأنه عورة. وفي الصحاح «الشوار» الفرج. ومنه قيل: شور به، كأنه أبدى عورته (ع).

قلت: إلى قولهم: (اتخذ الله ولداً)، وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم / ٢٠٧ ب وتلهفاً على فراقهم، وقرئ: «باخع نفسك»: على الأصل، وعلى الإضافة: أي قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ: «إن لم يؤمنوا»، وللمضي فيمن قرأ: «أن لم يؤمنوا»، بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾: بالقرآن، ﴿أَسَفًا﴾: مفعول له، أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً، والأسف: المبالغة في الحزن والغضب، يقال: رجل أسف وأسيف.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ۝١١﴾

﴿مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها، ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾: وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا﴾: من هذه الزينة، ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته، وإماطة حسنة، وإبطال ما به كان زينة: من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق[1] فوقها من الأجناس التي لا حصر لها، وإزالة ذلك كله كأن لم يكن، ثم قال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة، والكهف: الغار الواسع في الجبل، ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: اسم كلبهم؛ قال أمية بن أبي الصلت [من الطويل]:

وَلَيْسَ بِهَا إلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِراً   وَصِيدَهُم وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمَّدُ[2]

---

(١) قوله: «مما خلق» لعله بما «خلق» (ع).

(٢) لأمية بن أبي الصلت، والرقيم: كلب أصحاب الكهف. والوصيد: فناء البيت وبابه وعتبته، والبيت يحتملها. والهمد: جمع هامد، أي: راقد. والقوم: عطف على الرقيم. يقول: ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاوراً لفناء غارهم، وإلا لقوم حال كونهم رقوداً في الكهف: أي الغار.

وقيل: هو لوح من رصاص، رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف، وقيل: إن الناس رقموا حديثهم نقراً في الجبل، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجبل، وقيل: قريتهم، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين، ﴿كَانُوا﴾: آية، ﴿عَجَبًا﴾: من آياتنا وصفاً بالمصدر، أو على: ذات عجب، ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء؛ ﴿وهيء لنا من أمرنا﴾: الذي نحن عليه من مفارقة الكفار، ﴿رَشَدًا﴾: حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله؛ كقولك: رأيت منك أسداً، ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع، يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته، يريدون: بنى عليها القبة، ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾: ذوات عدد، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده؛ كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**، وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعدّ، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

﴿أي﴾: يتضمن معنى الاستفهام، فعلق عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾: فلم يعمل فيه، وقرئ: «ليعلم»، وهو معلق عنه ـ أيضاً ـ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه، وفاعل «يعلم»: مضمون الجملة، كما أنه مفعول «نعلم»، ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾: المختلفين منهم في مدة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك؛ وذلك قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ **[الكهف: ١٤]** وكان الذين قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم: هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم، و ﴿أَحْصَىٰ﴾: فعل ماض، أي: أيهم ضبط[1]، ﴿أَمَدًا﴾: لأوقات لبثهم.

فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟

قلت: ليس بالوجه السديد؛ وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس؛ ونحو: «أعدى من الجرب»، و «أفلس من ابن المذلق»: شاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن (أمدا) لا يخلو: إما أن ينتصب بأفعل[2]، فأفعل لا يعمل،

---

(١) قال محمود: أحصى فعل ماض، أي: لنعلم أيهم ضبط أمداً... إلخ» قال أحمد: وقد جعل بعض النحاة بناء أفعل من المزيد فيه الهمز قياساً، وادعى ذلك مذهباً لسيبويه، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تعويض همزة بهمزة.

(٢) عاد كلامه. قال: «وأيضاً فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمداً إما بأفعل... إلخ» قال أحمد: =

وإما أن ينصب بلبثوا، فلا يسد عليه المعنى، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى؛ كما أضمر في قوله [من الطويل]:

.... وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوانِسَا[1]

على: نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب؛ حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً، ثم رجعت مضطرًا إلى تقديره وإضماره.

= ولقائل أن ينصبه على التمييز، كانتصاب العدد تمييزاً في قوله تعالى ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ويعضد حمله على أفعل التفضيل وروده في نظير الواقعة واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث، وذلك في قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ فأمثلهم طريقة: هو أحصاهم لما لبثوا عدداً. وكلا الوجهين جائز، والله أعلم.

(1)
فلم أر مثل الحي حياً مصبحاً ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمي للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا ... صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل حالت عن صريع نكرها ... عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

للعباس بن مرداس السلمي، والحي بنو زبيد من اليمن. وأكر: أشد كراً. وأحمي: أشد حماية. والحقيقة: ما يستحق الذب عنه من عرض ومال. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس الفرس. والمذاكي: الخيل العناق العتاق التي أتى عليها بعد قروحها سنة، جمع المذاكي اسم مفعول. والمداعس: الرماح الصم التي يطعن بها. والدعس بالتحريك الأثر، والمداعسة المطاعنة. والمدعس: الرمح الأصم الذي يطعن به. ويروى: جالت، بدل حالت أي: مالت إلى جول بالجيم أي ناحية. وأما الحول بالحاء فهو التحول. والصريع: الطريح على الأرض، ونكرها: نرجعها. والعوابس: كالحات الوجوه من الجري في الغبار. وحيا مصبحاً، أي: مأتيا في الصباح مفعول. ومثل الحي: حال، على أن رأى بصرية. أو مفعول ثان، على أنها علمية، وأكر: بدل من حيا، ولا يصح جعله صفة أو مفعول ثان؛ لأنك لو قلت: ما رأيت مثل زيد رجلاً أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية؛ لأن المماثلة تنافي المفاضلة، إلا أن تكون المماثلة في صفة والمفاضلة في أخرى، فلامانع منه حينئذ. وأضرب: أفعل تفضيل، بدل من فوارس على ما تقدم، فهو لف ونشر مرتب. وأفعل التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به، بل حكى الإجماع على ذلك، فالقوانص نصب بمحذوف، أي: يضرب القوانس أي الرؤوس، لكن قال محمد بن مسعود في كتابه البديع: غلط من قال: إن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، واستشهد بهذا البيت وغيره. وبين مدح الفريقين بقوله: إذا شددنا عليهم مرة قابلونا بالخيل العتاق والرماح الجيدة، فهم شجعان. وبقوله: إذا مالت خيلنا أو تحولت عن قتيل منا، نرجعها عليهم لأجل الثأر، فما ترجع إلا كوالح، فنحن أشجع منهم.

ينظر: ديوانه ص ٦٩، والأصمعيات ص ٢٠٥، وحماسة البحتري ص ٤٨، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٩، ٣٢١، وشرح التصريح ١/٣٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٤٤١، ١٧٠٠، ولسان العرب (قنس)، ونوادر أبي زيد ص ٥٩، خزانة الأدب ٧/ ٢١٠، والأشباه والنظائر ١/ ٣٤٤، ٤/ ٧٩، وأمالي ابن الحاجب ١/ ٤٦٠، وشرح الأشموني ١/ ٢٩١، ومغني اللبيب ص ٢/ ٦١٨، الكشاف ٤/ ٤٢٩، الدر المصون ١/ ١٨٠.

فإن قلت: كيف جعل الله ـ تعالى ـ العلم بإحصائهم المدة غرضاً في الضرب على آذانهم؟

قلت: الله ـ عز وجل ـ لم يزل عالماً بذلك؛ وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم، ليزدادوا إيماناً واعتباراً، ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفاره.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: بالتوفيق والتثبيت، ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام، ﴿إِذْ قَامُوا﴾: بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم، ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . . شَطَطًا﴾: قولاً ذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد، ومنه: أشط في السوم وفي غيره، ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾: مبتدأ، و ﴿قَوْمُنَا﴾: عطف بيان، ﴿اتَّخَذُوا﴾: خبر، وهو إخبار في معنى: إنكار، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾: هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف، ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾: وهو تبكيت؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه/٢٠٨ أ لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت، ﴿أفترى على الله كذبا﴾: بنسبة الشريك إليه.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وإذ اعتزلتموهم﴾: خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾: يجوز أن يكون استثناء متصلاً، على ما روي: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة، وأن يكون منقطعاً، وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله ـ تعالى ـ عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله، ﴿مِّرْفَقًا﴾: قرئ بفتح الميم وكسرها، وهو ما يرتفق به: أي ينتفع، إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم، لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، وإما أن يخبرهم به نبيّ في عصرهم؛ وإما أن يكون بعضهم نبيًا.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تمايل، أصله: تتزاور، فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها، وقد قرئ بهما، وقرئ: تزور، وتزوار: بوزن تحمرّ وتحمار، وكلها من الزور وهو الميل؛ ومنه: زاره إذا مال إليه، والزور: الميل عن الصدق، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: جهة اليمين، وحقيقتها: الجهة المسماة باليمين، ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم؛ قال ذو الرمة [من الطويل]:

إِلَـى ظُـعُـنٍ يَـقْـرِضْـنَ أَقْـوازَ مُـشْـرِفٍ ... شِـمَـالاً وعَـنْ أَيْـمَـانِـهِـنَّ الـفَـوَارِسُ(١)

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: وهم في متسع من الكهف، والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما صنعه الله بهم - من ازورار الشمس وقرصنها طالعة وغاربة - آية من آياته، يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم؛ اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقنأة(٢) أبداً، ومعنى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أن شأنهم

---

(١) نـظـرت بـجـرعـاء الـسـبـيـة نـظـرة ... ضحى وسواد العين في الماء شامس
إلـى ظـعـن يـقـرضـن أقـواز مـشـرف ... شـمـالاً وعـن أيـمـانـهـن الـفـوارس
لذي الرمة. وجرعاء السبية: اسم موضع، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل. وضحى: ظرف، وسواد العين... إلخ. جملة حالية، في الماء، أي: الدمع شامس، أي كثير الحركة والاضطراب. يقال: شمس الفرس والرجل شموساً، إذا ساء خلقه، والظعينة: المرأة في الهودج أو المطية عليها امرأة أو لا، أو الهودج فيه امرأة أو لا. والجمع ظعن وظعن وأظعان وظعاني ويقرضن أي يقطعن. وأقواز مشرف: أعالي جبل مشرف. ويروى أجواز جمع جوز بمعنى المجاز والطريق، أي: يفصلنه عنهن، وشمالاً: جهة الشمال، والفوارس: اسم موضع، وجعله جمع فارس، كما قيل: تبعده المقابلة.
ينظر: ديوانه ص ١١٢، ولسان العرب (قوز)، (فرس)، (قرض) وكتاب العين ٥/ ٥٠، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٤٢، وأساس البلاغة (قرض)، وتاج العروس (قوز)، (فرس)، ١٩/ ١٥، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٣٨، المخصص ١٢/ ١١٤، وديوان الأدب: ٢/ ١٦٨.

(٢) قوله: «فهم في مقنأة» في الصحاح: قال أبو عمرو «المقنأة، والمقنؤة» الذي لا تطلع عليه الشمس. وقال: غير مقناة. ومقنوة. بغير همز: نقيض المضحاة (ع).

وحديثهم من آيات الله، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾: ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة، ومن تعرّض للخذلان، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾: بكسر السين وفتحها: خطاب لكل أحد، والأيقاظ: جمع يقظ، كأنكاد في نكد، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقيل: لهم تقلبتان في السنة، وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء، وقرئ: «ويقلبهم»: بالياء، والضمير لله تعالى، وقرئ: «وتقلبهم»: على المصدر منصوباً، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾؛ كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم، وقرأ جعفر الصادق: «وكالبهم»، أي: وصاحب كلبهم، ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾: حكاية حال ماضية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة؛ كغلام زيد، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية، والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة، وقيل: الباب، وأنشد [من الطويل]:

بِأَرْضِ فَضَاءٍ لاَ يُسَدُّ وَصِيدُهَا ... عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرِ[1]

وقرئ: «ولملّئت»: بتشديد اللام للمبالغة، وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء، و ﴿رُعْبًا﴾: بالتخفيف والتثقيل، وهو الخوف الذي يرعب الصدر، أي: يملؤه؛ وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم، وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ليس لك ذلك، قد منع الله ـ تعالى ـ منه من هو خير منك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله

---

(١) لزهير. والوصيد: الفناء والباب والعتبة. يقول: نزلت في أرض خالية من البناء، تصلني فيها الضيفان والقفاة، ليس فيها بناء له وصيد. فيسد علي فتنحجب عني الضيفان كأهل الحضر، فنفي السد كناية عن نفي الوصيد من أصله، وإحساني بها معروف لا ينكره أحد من الناس.
ينظر: تاج العروس (فضل).
ينظر: في ديوانه ١٠٧ والدرر ٥/ ٢٤٤، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٨٤، ولسان العرب (رجم)، وشرح قطر الندى ص ٢٦٢، وهمع الهوامع ٢/ ٩٢، الخزانة ٣/ ١٠، الدر المصون ١/ ٤٩.

عليهم ريحاً فأحرقتهم (٨٩٣)، وقرئ: «لو اطلعت»: بضم الواو.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم؛ إدّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً؛ ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ـ تعالى ـ ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ، ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أن المدة متطاولة، وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله، وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك.

فإن قلت: كيف وصلوا قولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟﴾ بتذاكر حديث المدة؟

قلت/ ٢٠٨ب: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك؛ لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم، والورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث أن عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب[1] فاتخذ أنفاً من ورق فأنتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب (٨٩٤)، وقرئ: «بوَرْقكم»: بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة، وقرأ

---

٨٩٣ ـ أخرجه الواحدي في تفسيره (٣/ ١٤٠)، وذكره الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشاف، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد، وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم، وعبيد بن محمد، وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وإسناده صحيح. انتهى.

٨٩٤ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٩٢): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٢)، والترمذي (٤/ ٢٤٠): كتاب اللباس: باب ما جاء في شد الأسنان بالذهب، حديث (١٧٧٠)، =

---

(١) قوله: «يوم الكلاب» في وقعة الكلاب، وهو بالضم: اسم ماء كانت عنده الواقعة، أفاده الصحاح (ع).

ابن كثير: «بورِقكم»: بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز؛ لالتقاء الساكنين لا على حده، وقيل: المدينة طرسوس، قالوا: وتزوّدهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم: دليل على أن حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله، دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات؛ ومنه قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه ـ: أوثق عليك نفقتك (٨٩٥)، وما حكي عن بعض صعاليك العلماء[1] أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله، وتعولم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيآن: شدّ الهميان، والتوكل على الرحمن، ﴿أيها﴾ أيّ: أهلها، فحذف الأهل؛ كما في قوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: وليتكلف اللطف والنيقة[2] فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: يعني: ولا يفعلنّ ما يؤدي من

= والنسائي (٨/ ١٦٣ ـ ١٦٤): كتاب الزينة: باب من أصيب أنفه هل يتخذ أنفاً من ذهب، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٥/ ٢٣). كلهم من طرق عن عبد الرحمن بن طرفة عن جده عرفجة بن أسعد فذكره.

قال الترمذي (٤/ ٢٤١): هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن طرفة، وقد روى سلم بن زرير عن عبد الرحمن بن طرفة، نحو حديث أبي الأشهب، وقد روى غير واحد من أهل العلم أنهم شدوا أسنانهم بالذهب، وفي هذا الحديث حجة لهم وقال عبد الرحمن بن مهدي: سلم بن وزير وهو وهم، وأبو سعيد الصنعاني اسمه محمد بن ميسر.

وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣) عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة عن أبيه عن جده فذكره. وأخرجه أبو داود (٤/ ٩٢): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٢) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٤٢)، (٥/ ٢٣) من طرق عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة بن أسعد أن جده عرفجة بن أسعد أصيب أنفه.. فذكره مرسلاً.

وأخرجه أبو داود (٤/ ٩٢): كتاب الخاتم: باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، حديث (٤٢٣٤) عن عبد الرحمن بن طرفة بن عرفجة بن أسعد عن أبيه عن جده، فذكر معناه مرسلاً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة. عن عرفجة. وفي رواية بعضهم «أن عرفجة».

٨٩٥ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب المناسك كما في تخريج الكشاف (٢/ ٣٠٢) وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عنهما بذلك. انتهى.

(١) قوله: «عن بعض صعاليك العلماء» أي فقرائهم (ع).

(٢) قوله: «والنيقة» أي: الإتقان (ع).

غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنه سبب فيه الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾: راجع إلى الأهل المقدر في (أيها): ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم، وكانت عادتهم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾: أو يدخلوكم، ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾: بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها، والعود في معنى: الصيرورة أكثر شيء في كلامهم، يقولون: ما عدت أفعل كذا، يريدون ابتداء الفعل، ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾: إن دخلتم في دينهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: وكما أنمناهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو البعث؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث، و ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾: متعلق بأعثرنا، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح؛ ليرتفع الخلاف، وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت، ﴿فَقَالُواْ﴾: حين توفى الله أصحاب الكهف، ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفهم؛ لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم، ومحافظة عليها، كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾: من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾: على باب الكهف، ﴿مَّسْجِدًا﴾: يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم، وقيل: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم؟ فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنياناً، روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها، وممن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني، أنا أحب أحباء الله، فناموا وأنا أحرسكم، وقيل: مرّوا براع معه كلب فتبعهم[١] على دينهم، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون

---

(١) قوله: «وقيل: مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم» لعل بعده سقطاً تقديره: وتبعهم الكلب، كما في الخازن (ع).

الله فيه، ثم ضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته، وأغلق بابه، ولبس مسحاً، وجلس على رماد، وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سدّ به فم الكهف؛ ليتخذه حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس: اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً، ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾: من كلام/ ٢٠٩ أ المتنازعين؛ كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم، أو هو من كلام الله ـ عز وجل ـ ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾: الضمير: لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله ﷺ عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم؛ فنزلت، إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أنا من أولئك القليل، وروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبيًا: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطوريًا: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين؛ وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل ـ عليه السلام ـ وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: هم سبعة نفر أسماؤهم: يمليخا، ومكشليتيا، ومشلينيا: هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشادنوش، وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم: أفسوس، واسم كلبهم: قطمير.

فإن قلت: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟

قلت: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين؛ كما تقول: قد أكرم وأنعم، تريد: معنى التوقع في الفعلين جميعاً؛ وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له، ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾: رمياً بالخبر الخفي وإتياناً به؛ كقوله: (ويقذفون بالغيب) [سبأ: ٥٣] أي: يأتون به، أو وضع الرجم موضع الظنّ، فكأنه قيل: ظناً بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين؛ ألا ترى إلى قول زهير [من الطويل]:

.... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المرَجَّمِ[1]

أي: المظنون، وقرئ: «ثلاث رابعهم»: بإدغام التاء في تاء التأنيث، و ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة، وكذلك: ﴿خَمْسَةٌ﴾، و ﴿سَبْعَةٌ﴾، و ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة؛ وكذلك: ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأولين[2]؟

---

(١) وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

لزهير من معلقته، ينهي عبساً وذبيان عن القتال. يقول: ليست الحرب إلا التي علمتموها وجربتموها، وشبهها بمطعوم مكروه على طريق الكناية والذوق تخييل، وما هو: أي الحديث عن الحرب، ولما كان الضمير عائداً على المصدر في المعنى صح تعلق المجرور به، ويبعد تعلقه بما بعده. والترجيم: الرمي بالرجام وهي الحجارة الصغار، استعير لإلقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التصريحية.

(٢) قال محمود: إن قلت «لم دخلت الواو في الجملة الأخيرة... إلخ»؟ قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها واو الثمانية فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم، ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة. وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو، وربما عدوا من ذلك ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو الثامن من قوله (التائبون) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط. ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما، كقوله ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وكقوله ﴿وامر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فنقول: ثيبات أبكاراً، لم يستد الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر: ٤]، وفائدتها: تأكيد لصوق الصفة بالموصوف؛ والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم، وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أنّ الله ـ سبحانه ـ اتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾، وأتبع القول الثالث قوله: (ما يعلمهم إلا قليل)، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: حين وقعت الواو انقطعت العدّة، أي: لم يبق بعدها عدة عادّ يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقيل: إلا قليل من أهل الكتاب، والضمير في (سيقولون): على هذا لأهل الكتاب خاصة، أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظنّ وتخمين، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم؛ كما قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾: ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فتردّه عليه وتزيف ما عنده؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ﴾: ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه، ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾: الشيء، ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصة، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل؛ لأنه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة الله دون[1] فعله؛ وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين:

---

(١) قال محمود: «كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله... إلخ» قال أحمد: ولا بد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين، ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأي: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كأن المعنى: إلا أن تعترض المشيئة دونه، معتقداً أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال فتركت، وكم شاء من التروك ففعلت على زعم القدرية، فلا معنى على =

أحدهما: ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله، بأن يأذن لك فيه.

والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال، يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث، وهو: أن يكون (إن شاء الله)[1] في معنى كلمة تأبيد، كأنه قيل: ولا تقولنه أبداً؛ ونحوه قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله، وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف / ٢٠٩ ب، وذي القرنين، فسألوه، فقال: ائتوني غداً أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مشيئة ربك، وقل: إن شاء الله، إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر[2]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ولو بعد سنة ما لم تحنث، وعن سعيد بن جبير: ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، وعن طاوس: هو على ثنياه[3] ما دام في مجلسه، وعن الحسن نحوه، وعن عطاء: يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة، وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً، ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه: فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك؛ إنك لتأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه ورضي عنه (٨٩٦)، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر[4] ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء؛ تشديداً في البعث

---

٨٩٦ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٣) من حديث الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: . . . فذكره، وقال الحاكم وكان الأعمش يأخذ بها، وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أ.هـ. وأخرجه الطبراني في معجمه الوسط كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٣٠٣).

= أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً وهو غير متعلق بها وقوعاً، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا إلا أن يشاء الله أن أفعله: كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح، لأن الله تعالى لا يشاؤه على زعمهم الفاسد، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع فسحقاً سحقاً.

(١) قوله: «إن شاء الله» لعله أن يشاء الله (ع).

(٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي كلمة الاستثناء ثم تنبهت لها، فتداركها بالذكر. وعن ابن عباس: ولو بعد سنة ما لم تحنث إلى قوله: وعند عامة الفقهاء. . . إلخ» قال أحمد: أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول. وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها، والله أعلم.

(٣) قوله: «هو على ثنياه» في الصحاح «الثنيا» بالضم: الاسم من الاستثناء (ع).

(٤) قال محمود: «ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح. . . إلخ» قال أحمد: ويؤيد هذا التأويل =

على الاهتمام بها، وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به؛ وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها، و ﴿هَٰذَا﴾: إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف، ومعناه: لعل اللّه يؤتيني من البينات والحجج على أني نبيّ صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك؛ حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدلّ، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه، ﴿رَشَدًا﴾: وأدنى خيراً ومنفعة، ولعل النسيان كان خيرة؛ كقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين﴾: يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة، وهو بيان لما أجمل في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾، ومعنى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾: أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به، وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب، و (قل الله أعلم): رد عليهم، وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا، وسنين: عطف بيان لثلثمائة، وقرئ: «ثلثمائة سنين»: بالإضافة، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز؛ كقوله: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، وفي قراءة أبيّ: «ثلثمائة سنة»، ﴿تِسْعًا﴾: تسع سنين؛ لأن ما قبله يدل عليه، وقرأ الحسن: «تسعاً»: بالفتح، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به، وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات؛ للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر، ﴿مَا لَهُم﴾ الضمير: لأهل السموات والأرض، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: من متول لأمورهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾: في قضائه، ﴿أَحَدًا﴾: منهم، وقرأ الحسن: «ولا تشرك»: بالتاء والجزم على النهي.

= بقوله تعالى أول القصة ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عده من عجائب آيات الله، ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل في الآية والله أعلم.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها؛ إنما يقدر على ذلك هو وحده، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحِّ هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن، وهم: صهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]؛ فنزلت: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: واحبسها معهم وثبتها؛ قال أبو ذؤيب [من الكامل]:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ[(١)]

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾: دائبين على الدعاء في كل وقت، وقيل: المراد: صلاة الفجر والعصر، وقرئ: «بالغدوة»، و «بالغداة»: أجود؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال، وإدخال اللام على تأويل التنكير؛ كما قال [من الطويل]:

.... وَالزَّيْدُ زَيْدُ المَعَارِكِ[(٢)]

---

(١) لأبي ذؤيب في مرثية بنيه، وصبرت: أي حبست نفساً عارفة لذلك البلاء، وضمن عارفة معنى صابرة فعداه باللام، جسرة: أي قوية صلبة. ويروى: حرة، بضم الحاء، أي جيدة. ترسو: تطمئن وتسكن، إذا تطلع نفس الجبان وتجزع كأنها تريد الفرار وأصله تتطلع، حذف منه إحدى التاءين تخفيفاً.

نسب هذا البيت لعنترة ينظر: ديوانه (٤٩). وينظر: البحر المحيط ٥/ ٢٢٥ واللسان (صبر) وروح المعاني ١٢/ ٥٧، والتهذيب ٢/ ٣٤٤، والدر المصون ٤/ ١٠٠.

(٢) وقد كان منهم حاجب وابن أمه ... أبو جندل والزيد زيد المعارك

دخلت «أل» المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى بزيد، ولذلك أضافه للمعارك، أي أمكنة الحروب. يقول: وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه، أي أخوه أبو جندل والمسمى يزيد، المعد للحروب. وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس.

ونحوه قليل في كلامهم، يقال: عداه إذا جاوزه ومنه قولهم، عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيداً؛ وإنما عدى بعن؛ لتضمين عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه: إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعل عيناك عنهم؟

قلت: الغرض فيه: إعطاء مجموع معنيين؛ وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ؛ ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي: ولا تضموها إليها آكلين لها، وقرئ: «ولا تعد عينيك»، «ولا تعدّ عينيك»[(١)]: من أعداه وعدّاه نقلاً بالهمزة وتثقيل الحشو؛ ومنه قوله [من البسيط]:

فَـعَـدِّ عَـمَّـا تَـرَى إِذْ لاَ ارْتِـجَـاعَ لَـهُ ....[(٢)]

---

(١) قال السمين الحلبي: وردّ عليهما الشيخ: بأنه لو كان تعديه في هاتين القراءتين بالهمزة، أو التضعيف لتعدي لاثنين، لأنه قبل ذلك متعد لواحد بنفسه. وقد أقر الزمخشري بذلك، حيث قال: «يقال: عَدّاه إذا جاوزه، وإنما عُدِّي بـ«عَنْ» لتضمنه معنى: عَلا، ونَبَا، فحينئذٍ يكون «أَفْعَل، وفَعَّل» مما وافقا المجرد» وهو اعتراض حسن. قوله: «تُرِيدُ» جملة حالية، ويجوز أن يكون فاعل «تُرِيدُ» المخاطب، أي: تريد أنت، ويجوز أن يكون ضمير العينين، وإنما وُحِّدَ، لأنهما متلازمان يجوز أن يخبر عنهما خبر الواحد.

قال الشيخ: وصاحب الحال أنْ قدر عيناك، فكأن يكون التركيب تريدان. «قُلْتُ: غَفَلَ عَن القاعدة، التي ذكرتها من أن الشيئين المتلازمين يجوز أن يخبر عنهما إخبار الواحد. ثم قال: وإن قدّر الكاف فمجيء الحال من المجرور بالإضافة مثل هذا فيه الإشكال، لاختلاف العامل في الحال وذي الحال، وقد أجاز ذلك بعضهم إذا كان المضاف جزءاً أو كالجزء، وحسن ذلك أن المقصود نَهْيُهُ هو - عليه السلام - وإنما جيء بقوله: «عيناك» والمقصود هو، لأنهما بهما يكون المراعاة للشخص والملفت له. قُلْتُ: وقد ظهر لي وجه حسن لم أرَ غَيْرِي ذكرهُ وهو: أن يكون «تَعْدُ» مسنداً لضمير المخاطب ﷺ و«عَيْنَاكَ» بدل من الضمير بدل بعض من كل، و«تُرِيدُ» على وجهيها من كونها حالاً من «عَيْنَاكَ»، أو من الضمير في «تَعْدُ»، إلاَّ إن جعلها حالاً من الضمير في «لاَ تَعْدُ» ضَعْفاً، من حيث إنّ مراعاة المبدل منه، بعد ذكر البدل قليل جدا، تقول: الجاريةُ حُسْنُهَا فَاتِنٌ، ولا يجوز: فَاتِنَةٌ. انتهى. الدر المصون.

(٢) فـعـد عـمـا تـرى إذ لا ارتـجـاع لـه وانـم الـقـتـود عـلـى عـيـرانـة أجـد
للنابغة الذبياني. ونما ينمى نمياً: زاد وارتفع. ونماه ينميه نمياً: رفعه وزاده. ونما ينمو نموا من باب دخل. ونماه ينموه نموا أيضاً، لكن الواوي قليل. والقتود: جمع أقتاد، جمع قتد: وهي عيدان الرحل بلا أداة. والعيرانة: الشبيهة بالعير في سرعة السير. والأجد: الصلبة الموثقة الخلق. يقول: انصرف عما ترى من آثار الديار، أو عما تظن رجوعه؛ لأنه لا تدارك له أو لا رجوع له، وارفع عيدان الرحل على ناقة سريعة صلبة، كناية عن أمره بالسفر؛ لأن شد الرحال لا يكون إلا له. =

لأن معناه: فعد همك عما ترى، نهي رسول الله ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحاً إلى زيّ الأغنياء وحسن شارتهم[1]، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: في موضع الحال، ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾/ ٢١٠أ: من جعلنا قلبه غافلا[2] عن الذكر بالخذلان[3]، أو وجدناه غافلا عنه؛ كقولك: أجبنته وأفحمته[4] وأبخلته، إذا وجدته كذلك، أو من أغفل إبله إذا تركها[5] بغير سمة، أي: لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم المجبرة[6] بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، وقرئ: «أغفلنا قلبه»، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه غافلين؛ من أغفلته إذا وجدته غافلاً، ﴿فُرُطًا﴾: متقدماً للحق والصواب[7]، نابذاً له وراء ظهره من قولهم: «فرس فرط»: متقدم للخيل.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

= ينظر: ديوانه ص (١٦)، ولسان العرب (قتد)، (نمى)، كتاب العين (٢/ ٢١٥)، مقاييس اللغة (١/ ٦٢) (٤/ ٢٥١)، تهذيب اللغة (١٥/ ٥١٧)، تاج العروس (قتد) (نمى)، الدر المصون (٤/ ٤٤٩).

(١) «قوله: «وحسن شارتهم» في الصحاح: الشوار والشارة: اللباس والهيئة (ع).

(٢) قال محمود: «معناه جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر... إلخ» قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد خلقنا له، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه، فإن حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل للمصادفة، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم.

(٣) قوله: «غافلاً عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة في قلبه؛ لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله: توهم المجبرة. ثم إن اتباعه هواه لا ينافي خلق الله الغفلة في قلبه، لجواز أن يكون ذلك ناشئاً عن الغفلة (ع).

(٤) قوله: «كقولك أجبنته وأفحمته» في الصحاح «أفحمته» وجدته مفحماً لا يقول الشعر (ع).

(٥) عاد كلامه. قال: «ويجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا... إلخ» قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية ولطافة معنى، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه، لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة في القلب فلا يأبى عدم كتب الإيمان، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.

(٦) عاد كلامه. قال: «وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: واتبع هواه» قال أحمد: قد تقدم في غير ما موضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره، ولا تنافي بين الإضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه، فلامحيص له عنها بوجه.

(٧) قوله: «متقدماً للحق والصواب» أي سابق له ومجاوز له، وفي الصحاح: أمر فرط، أي مجاوز فيه الحد. ومنه قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: الحق خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: جاء الحق وزاحت العلل[1]، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك، وجيء بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين، شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط، وبيت مسردق: ذو سرادق، وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من نار يطيف بهم[2]، ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾؛ كقوله [من الكامل]:

....فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ[3]

وفيه تهكم، والمهل: ما أذيب من جواهر الأرض، وقيل: درديّ الزيت، ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾: إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته، عن النبي ﷺ: «هُوَ كَعُكْرِ الزيتِ، فَإِذَا قُرِّبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ» (٨٩٧)، ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾: ذلك، ﴿وَسَآءَتۡ﴾: النار،

---

٨٩٧ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥): كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، حديث (٢٥٨١)، و(٥/ ٤٢٦): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة سأل سائل، حديث (٣٣٢٢)، من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري به. وقال الترمذي (٤/ ٧٠٥): هذا حديث لانعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلم فيه. وقال أيضاً في (٥/ ٤٢٦): هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥) رقم (٧٤٧٣) والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥٠١) كلهم من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أحمد (٣/ ٧٠ ـ ٧١)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢١) رقم (١٣٧٥/٤٠١) من طريق الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٠٠) وزاد نسبته إلى سعيد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان. وفي الباب عن أبي أمامة:

أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والترمذي (٤/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦) كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار حديث (٢٥٨٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٦) رقم (٧٤٦٠)، كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة به. قال الترمذي (٤/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦): هذا =

---

(١) قوله: «والمعنى جاء الحق وزاحت العلل» في الصحاح «زاح الشيء» بعد وذهب. وأزحت علته فزاحت (ع).

(٢) قوله: «يطيف بهم» الذي يفيده الصحاح: طاف يطوف حول الشيء: دار حوله، وطاف يطيف بالشيء: جاءه وألم به، فتدبر.

(٣) تقدم.

﴿مُرْتَفَقًا﴾: متكأ من المرفق؛ وهذا لمشاكلة قوله: (وحسنت مرتفقا)، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، إلا أن يكون من قوله [من البسيط]:

إنِّي أَرِقْتُ فَبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً كَأَنَّ عَيْنِيَ فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحُ(1)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: خبر إن، و ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾: اعتراض، ولك أن تجعل: (إنا لا نضيع)، و (أولئك): خبرين معاً، أو تجعل: (أولئك): كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

فإن قلت: إذا جعلت: (إنا لا نضيع): خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟

قلت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ينتظمهما معنى واحد، فقام: (من أحسن): مقام الضمير، أو أردت: من أحسن عملاً منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم، من الأولى؛ للابتداء، والثانية: للتبيين، وتنكير: ﴿أَسَاوِرَ﴾؛ لإبهام أمرها في الحسن، وجمع بين السندس: وهو ما رقّ من الديباج، وبين الاستبرق: وهو

= حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث. وقد روى صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بسر صاحب النبي ﷺ غير هذا الحديث، وعبد الله بن بسر له أخ قد سمع من النبي ﷺ وأخته قد سمعت من النبي ﷺ، وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو هذا الحديث، رجل آخر ليس بصاحب.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد واستغربه، وقال: لا يعرف إلا من حديث رشدين ابن سعد وتعقب قوله: بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث. انتهى.

---

(1) لأبي ذؤيب الهذلي. ويروى بدل الشطر الأول: مقام الخلي وبت الليل مشتجراً. والارتفاق: الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد. والاشتجار: وضع اليد تحت الشجر وهو ما بين اللحيين والاتكاء عليها، وهي هيئة المتحزن المتحسر. والأرق؛ السهر. والصاب: نبت مر كالحنظل. والمذبوح: المشقوق. وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع.
ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ١٢٠، ولسان العرب (صوب)، (شجر)، (حرف)، والتنبيه والإيضاح ١/١٠٦، وتاج العروس (شجر)، ومجمل اللغة ٣/٢٥٤، وتهذيب اللغة ٤/٤٧١، ٤٧٤، وأساس البلاغة (ذبح)، وللهذلي في تاج العروس (صوب)، وبلا نسبة في لسان العرب (ذبح)، ومقاييس اللغة ٣/٢٤٧، ٣٢٧، وديوان الأدب ٢/٤٠٢، وتاج العروس (ذبح).

الغليظ منه، جمعاً بين النوعين، وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي: ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه: قطروس، والآخر مؤمن اسمه: يهوذا، وقيل: هما المذكوران في سورة «والصافات»، في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها، فاشترى الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم، إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدّق به، ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم، إني أشتري منك داراً في الجنة بألف، فتصدّق به، ثم تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم، إني جعلت ألفاً صداقاً للحوار، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم، إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدّق به، ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمرّ به في حشمه، فتعرض له، فطرده ووبخه على التصدق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله ﷺ وكافر وهو: الأسود بن عبد الأشد، ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾: بستانين من كروم، ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين[1] في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه: إذا أطافوا به، وحففته بهم، أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعدّ إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً؛ كقولك: غشيه، وغشيته به، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السيح بالنهر الجاري فيها، والأكل: الثمر، وقرئ بضم الكاف، ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾: ولم تنقص، وآتت: حمل على اللفظ؛ لأن (كلتا) لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتتا على المعنى، لجاز. وقرئ: وفجرنا، على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنتين آتى أكله بردّ الضمير على كل، ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي:

(١) قوله: «الدهاقين» أحده دهقان (ع).

أنواع من المال، من ثمر ماله[1] إذا كثر، وعن مجاهد: الذهب والفضة، أي: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة[2] من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ يعني: أنصاراً وحشماً، وقيل: أولاداً ذكوراً؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث، يحاوره: يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحار كلمة.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يعني: قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه.

فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟

قلت / ٢١٠ ب: معناه: ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: وهو معجب بما أوتي مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرّض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم، إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته؛ لطول أمله واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾: إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعم صاحبه، ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا؛ تطمعاً وتمنياً على الله، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه؛ كقوله: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، وقرئ: «خيراً منهما»؛ ردًّا على الجنتين، ﴿مُنقَلَبًا﴾: مرجعاً وعاقبة، وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه؛ لأنها فانية وتلك باقية.

---

(١) قوله: «من ثمر ماله» الذي في الصحاح: أن الثمر جمع ثمار، ككتب وكتاب. وأن الثمر أيضاً: المال المثمر، ويخفف ويثقل. وأثمر الرجل: إذا كثر ماله، وثمر الله ماله، أي: كثره. وعبارة الخازن: وكان له ثمر. قرئ بالفتح جمع ثمرة، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما. وفي النسفي: له ثمر، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء، وبضم الثاء وسكون الميم، وبضمهما (ع).

(٢) قوله: «الأموال الدثرة» الكثيرة. أفاده الصحاح (ع).

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك، لأن خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له، ﴿سَوَّىٰكَ﴾: عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه؛ لشكه في البعث، كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافراً

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله: لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النونان فكان الإدغام؛ ونحوه قول القائل [من الطويل]:

وتَرمِينَني بالطَّرْفِ أيْ أنتَ مُذنِبٌ ... وتَقلِينَني لكِنَّ إيَّاكِ لاَ أَقْلِي[1]

أي: لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربي، والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه: ياء الضمير، وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعاً، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة، وغيره لا يثبتها إلا في الوقف، وعن أبي عمرو أنه وقف بالهاء: لكنه، وقرئ: «لكن هو الله ربي»: بسكون النون وطرح أنا، وقرأ أبيّ بن كعب: «لكن أنا»: على الأصل، وفي قراءة عبد الله: لكن أنا لا إله إلا هو ربي.

فإن قلت: هو استدراك لماذا؟

قلت: لقوله: (أكفرت) قال لأخيه: أنت كافر بالله؛ لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا

---

(١) يقول: وترمينني يا محبوبة بطرفك، أي: تشيرين إلي به. فالرمي: استعارة مصرحة، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. ويجوز أن الباء للآلة، فالمرمي محذوف فسره بقوله: أي أنت مذنب، فأي تفسيرية، يعني أن ما رمته به هو ادعاؤها أنه مذنب. وقلاه يقليه، وقليه يقلاه. وقد يقال: قلاه يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض، ولكن أصله: ولكن أنا، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت، ثم أدغمت النون في النون بعدها، وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ. ولو أجري الوصل مجرى الوقف لثبتت، وقدم المفعول وهو «إياك» للاهتمام ببراءتها من قلاء وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء.
ينظر: تذكرة النحاة ص ٢٣، والجنى الداني ص ٢٣٣، وجواهر الأدب ص ٢١٨، ٤١١، وخزانة الأدب ١١/٢٥٥، ٢٩٩، والدرر ٤/٣١، ٥/١٢١، وشرح شواهد المغني ١/٢٣٤، ٢/٨٢٨، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/١٤١، ومغني اللبيب ١/٧٦، وهمع الهوامع ١/٢٤٨، ٢/٧١.

وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: يجوز أن تكون (ما): موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما شاء الله، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أي شيء شاء الله كان، ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر: ما شاء الله؛ اعترافاً بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده: إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خرّبها، وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى، وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب، فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج، من قرأ (أقلّ): بالنصب، فقد جعل أنا فَضلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّه خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لترني. وفي قوله: ﴿وَوَلَدًا﴾؛ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله: (وأعز نفرا)، والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة، ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾: ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك، والحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، بمعنى: الحساب، أي: مقداراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها، وقال الزجاج: عذاب حسبان؛ وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك، وقيل: حسباناً مرامى الواحدة حسبانة وهي الصواعق، ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أرضاً بيضاء، يزلق عليها لملامستها زلقاً، و﴿غَوْرًا﴾: كلاهما وصف بالمصدر.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَأُحِيطَ﴾: به عبارة عن إهلاكه، وأصله: من أحاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط به، فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلياً عليهم، وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر؛ لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدّي تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: أنفق في عمارتها، ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعني: أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم، قيل: أرسل الله

عليها ناراً فأكلتها، ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: تذكر موعظة أخيه، فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان، وقرئ: (ولم يكن): بالياء والتاء، وحمل (ينصرونه): على المعنى دون/ ٢١١ ب اللفظ؛ كقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم﴾ [آل عمران: ١٣].

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟

قلت: معناه: يقدرون على نصرته من دون الله، أي: هو وحده القادر على نصرته، لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾: وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: بالفتح: النصرة والتولي، وبالكسر: السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه؛ تقريراً لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]، أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه، أو: في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطرّ، يعني: أنّ قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾: كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها، ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدّق قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ويعضده قوله: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقيل: (هنالك): إشارة إلى الآخرة، أي: في تلك الدار الولاية لله؛ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، وقرئ: (الحق): بالرفع والجر صفة للولاية والله[(١)]، وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد؛ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم، وقرئ: (عقبا): بضم القاف

---

(١) قال محمود: «قرئ بالرفع والجر صفة للولاية والله تعالى... إلخ» قال أحمد: وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول فإنه يوهم أن القراءات موكولة إلى رأي الفصحاء واجتهاد البلغاء، فتتفاوت في الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع. والحق: أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلاً بفلق إليه ﷺ منزلاً كذلك من السماء، فلاوقع لفصاحة الفصيح، وإنما هو ناقل كغيره، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة، فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية، فمن ثم أثنى عليه.

وسكونها، وعقبي على فعلى، وكلها بمعنى: العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: فالتفّ بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً، وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف[١] رفيفاً؛ وكان حق اللفظ على هذا التفسير: فاختلط بنبات الأرض، ووجه صحته: أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه، والهشيم: ما تهشم وتحطم، الواحدة هشيمة، وقرئ: «تذروه الريح»، وعن ابن عباس: «تذريه الرياح»: من أذرى: شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء؛ بحال النبات يكون أخضر وارفاً[٢]، ثم يهيج، فتطيره الرياح كأن لم يكن، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: من الإنشاء والإفناء: ﴿مُّقْتَدِرًا﴾.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا، وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله، ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: ما يتعلق بها من الثواب، وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قرئ: «تسير»: من سيرت، «ونسير»، من سيرنا، «وتسير»: من سارت، أي: تسير في الجو، أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثًا، وقرئ: «وترى الأرض»: على البناء للمفعول، ﴿بَارِزَةً﴾: ليس عليها ما يسترها مما كان عليها، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: وجمعناهم إلى الموقف، وقرئ: «فلم نغادر»: بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه

---

(١) قوله: «ورف رفيفاً» في الصحاح: رف لونه رفا ورفيفاً: برق وتلألأ. وشجر رفيف: إذا تندت أوراقه (ع).

(٢) قوله: «بحال النبات يكون أخضر وارفاً» في الصحاح: ورف النبت، أي: اهتز من نضارته، فهو وارف، أي: ناضر رفاف شديد الخضرة (ع).

الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل، وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان، ﴿صَفًّا﴾: مصطفين ظاهرين، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم: لقد جئتمونا، وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير، ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر، والمعنى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أوّلاً؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]. فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟

قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك، ﴿مَّوْعِدًا﴾: وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: للجنس وهو صحف الأعمال، ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: هنة صغيرة ولا كبيرة، وهي عبارة عن الإحاطة، يعني: لا يترك شيئاً من المعاصي إلا أحصاه، أي: أحصاها كلها، كما تقول: ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً؛ لأن الأشياء إما صغار وإما كبار، ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر، وقيل: لم يجتنبوا الكبائر، فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة، وعن ابن عباس: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة: المسيس، والكبيرة: الزنا، وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر، ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾: إلا ضبطها وحصرها، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾: في الصحف: «عتيداً»، أو جزاء ما عملوا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾: فيكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله[١] في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

(١) قوله: «كما يزعم من ظلم الله» لعله بالتشديد، أي: نسب إليه الظلم (ع).

﴿كَانُوا﴾/ ٢١١ب: كلام مستأنف[1]، جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: والفاء للتسبيب ـ أيضاً ـ جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؛ لأنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله؛ لأنّ الملائكة معصومون البتَّة، لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس؛ كما قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وهذا الكلام المعترض تعمد من الله ـ تعالى ـ لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمده الله، وبين قول من ضادّه وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة، فعصى، فلعن ومسخ شيطاناً، ثم ورّكه[2] على ابن عباس، ومعنى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: خرج عما أمره به ربه من السجود؛ قال [من الرجز]:

فَـوَاسِـقـاً عَـنْ قَـصْـدِهَـا جَـوَائِـرَا[3]

أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله: ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾: الهمزة: للإنكار، والتعجب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه، ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾: وتستبدلونهم بي، بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعته، ﴿ما أشهدتهم﴾، وقرئ: «ما أشهدناهم»، يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة؛ وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لأعتضد بهم في خلقها[4]، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض؛ كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ بمعنى: وما كنت متخذهم، ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعوانا، فوضع المضلين موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟ وقرئ: «وما كنت»: بالفتح: الخطاب لرسول الله ﷺ والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم، وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ: وما كنت متخذاً المضلين، بالتنوين على الأصل، وقرأ الحسن: «عضْداً»: بسكون الضاد، ونقل ضمتها إلى العين، وقرئ: «عَضْداً»: بالفتح وسكون

---

(١) قال محمود: «قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لفسوقه. . . إلخ» قال أحمد: والحق معه في هذا الفصل غير أن قوله: «تعمده الله تعالى» لفظة لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفاً من يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمداً، فاجتنابها في حق الله تعالى واجب، والله الموفق.

(٢) قوله: «ثم ورّكه» أي اتهمه به (ع).

(٣) تقدم.

(٤) قوله: «لأعتضد بهم في خلقها» أي لأستعين بهم (ع).

الضاد، «وعضداً»: بضمتين، «وعضداً»: بفتحتين: جمع عاضد، كخادم وخدم، وراصداً ورصد، من عضده: إذا قواه وأعانه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿يَقُولُ﴾: بالياء والنون، وإضافة الشركاء إليه على زعمهم؛ توبيخاً لهم وأراد الجن، والموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقاً، ووبق يوبق وبقاً: إذا هلك، وأوبقه غيره، ويجوز أن يكون مصدراً كالمورد والموعد، يعني: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً، وعن الحسن: (موبقا): عداوة، والمعنى: عداوة هي في شدتها هلاك؛ كقوله: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً، وقال الفراء: البين: الوصل، أي: وجلعنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة، ويجوز أن يريد: الملائكة، وعزيراً، وعيسى، ومريم، وبالموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الأشواط لفرط بعده؛ لأنهم في قعر جهنم، وهم في أعلى الجنان، ﴿فَظَنُّوٓا﴾: فأيقنوا، ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾: مخالطوها واقعون فيها، ﴿مَصْرِفًا﴾: معدلاً؛ قال [من الكامل]:

أَزُهَيْرَ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ .... (١)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد؛ خصومة ومماراة بالباطل، وانتصاب: (جدلا) على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء، ونحوه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) أزهير هل عن شيبة من مصرف ... أم لا خلود لباذل متكلف
لأبي كبير الهذلي. والهمزة للنداء. وزهير ترخيم زهيرة اسم امرأة. والاستفهام إنكاري، أي: لا انصراف عن الشيب أو لا مهرب ولا مفر منه. وأم للإضراب الانتقالي والاستفهام الإنكاري، أي: بل لا ينتفي خلود الكريم الباذل لما عنده المتكلف غير طاقته في قرى الضيفان؛ لأن البذل لا يمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والعقر، فأجابها بذلك. وفيه دلالة على غاية الكرم.
ينظر: شرح أشعار الهذليين ص (١٠٨٩)، ولسان العرب (٩/ ٤٤)، (صرف)، (٩/ ٣٠٧)، (كلف)، وتاج العروس (١٥/ ٢٣١) (عزز)، (٢٣/ ١٣٢) (حرف).

﴿أَن﴾: الأولى: نصب، والثانية: رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾: الإيمان والاستغفار، ﴿إِلَّآ﴾: انتظار، ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: وهي الإهلاك، ﴿أَوْ﴾: انتظار أن ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: عذاب الآخرة، ﴿قُبُلًا﴾: عياناً، وقرئ: (قبلا): أنواعاً[1]: جمع قبيل، و (قبلا): بفتحتين: مستقبلاً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾: ليزيلوا ويبطلوا، من إدحاض القدم، وهو إزلاقها وإزالتها عن موطئها، ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾: يجوز أن تكون (ما): موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أنذروه من العذاب، أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم، وقرئ: «هزأ»: بالسكون، أي: اتخذوها موضع استهزاء، وجدالهم: قولهم للرسل، ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وما أشبه ذلك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾: بالقرآن؛ ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر، ﴿وَنَسِىَ﴾: عاقبة، ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: من الكفر والمعاصي، غير مفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ من، ومعناه: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾: فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم، ﴿أَبَدًا﴾: مدة التكليف كلها، و ﴿إِذًا﴾: جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول، بمعنى: أنهم/ ٢١٢ أ جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقيل: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) قوله: «قبلا عياناً. وقرئ قبلاً أنواعاً» هذه القراءة بكسر ففتح. والثانية بضمتين، كما يفيده الصحاح (ع).

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: البليغ المغفرة، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾: وهو يوم بدر، ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾: منجى ولا ملجأ، يقال: «وأل» إذا نجا، و «وأل إليه»: إذا لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريد: قرى الأوّلين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا، (تلك): مبتدأ، و (القرى): صفة؛ لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، و ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: خبر، ويجوز أن يكون: (تلك القرى): نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: مثل ظلم أهل مكة، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك: الإهلاك ووقته، وقرئ: (لمهلكهم): بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أي: لهلاكهم أو وقت هلاكهم، والموعد: وقت، أو مصدر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا
نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿لِفَتَىٰهُ﴾: لعبده، وفي الحديث: ليقل أحدكم: فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدي وأمتي (٨٩٨)، وقيل: هو يوشع ابن نون؛ وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه،

---

٨٩٨ ـ أخرجه البخاري (٥/ ٤٨٥): كتاب العتق: باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي، حديث (٢٥٥٢)، ومسلم (٨/ ٩ ـ النووي) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، حديث (١٥/ ٢٢٤٩) وأبو داود (٤/ ٢٩٤): كتاب الأدب: باب لا يقول المملوك «ربي» و«ربتي»، حديث (٤٩٧٥)، والنسائي في «سننه الكبرى»: (٦/ ٦٩): كتاب عمل اليوم والليلة: باب النهي عن أن يقول الرجل لجاريته أمتي ولغلامه عبدي، حديث (١٠٠٧٠)، وباب النهي عن أن يقول المملوك لمالكه: مولاي حديث (١٠٠٧١ ـ ١٠٠٧٢) كلهم من طرق مختلفة عن أبي هريرة ؓ.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به وأتمّ منه. انتهى.

وقيل: كان يأخذ منه العلم.

فإن قلت: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ إن كان بمعنى: لا أزول ـ من برح المكان ـ فقد دل على الإقامة لا على السفر، وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بد من الخبر.

قلت: هو بمعنى: لا أزال، وقد حذف الخبر؛ لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غاية مضروبة تستدعى ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف، ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان، ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر ـ عليهما السلام ـ وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل: طنجة، وقيل: أفريقية، ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين في العلم، وقرئ (مجمع): بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل، ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾: أو أسير زماناً طويلاً، والحقب ثمانون سنة، وروي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى ـ عليه السلام ـ وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى، وقيل: إن موسى سأل ربه: أيّ عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدل على هدى، أو ترده عن ردى، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه، قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، قال: يا رب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام، فعرّفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلما ركبا السفينة

جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء، فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر، ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة، وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطىء عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت، وروي: أنهما أكلا منها، وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش، ووقع في الماء ﴿سَرَبًا﴾: أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه/ ٢١٢ب مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب[١] معجزة لموسى أو للخضر، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: الموعد، وهو: الصخرة؛ لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه، ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى في حياته ووقوعه في البحر، وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه؛ وقوله: ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾: إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك، ومثله لا ينسى[٢]؛ لكونه أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها، ولكونه معجزتين ثنتين، وهما: حياة السمكة المملوحة المأكول منها ـ وقيل: ما كانت إلا شق سمكة ـ وقياء الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه، ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد، وحتى طلب موسى ـ عليه السلام ـ الحوت؟

قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه، فذهب بفكره كل مذهب، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى ـ عليه السلام ـ من العجائب،

---

(١) قوله: «في مثل السرب» في الصحاح «السرب» بيت في الأرض. تقول منه. انسرب الوحش في سربه. وانسرب الثعلب في جحره (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى... إلخ»؟ قال أحمد: وقد ورد في الحديث: أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده الله تعالى له، فلعل الحكمة في إنساء الله تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات: أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونا بيناً، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلاً وآجلاً، والله أعلم.

واستأنس بإخوانه فأعان الإلف[1] على قلة الاهتمام، ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى: أخبرني.

فإن قلت: ما وجه التئام هذا الكلام؟ فإن كل واحد من: (أرأيت)، و ﴿إِذْ أَوَيْنَآ﴾، و﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾: لا متعلق له؟

قلت: لما طلب موسى ـ عليه السلام ـ الحوت، ذكر يوشع ما رأى منه، وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى ـ عليه السلام ـ عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإني نسيت الحوت، فحذف ذلك، وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت، و ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾: بدل من الهاء في: (أنسانيه)، أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفي قراءة عبد الله: «أن أذكركه»، و﴿عَجَبًا﴾: ثاني مفعولي اتخذ؛ مثل: (سربا)، يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجباً، وهو كونه شبيه السرب، أو قال: عجباً في آخر كلامه؛ تعجباً من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾: اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وقيل: إن (عجبا): حكاية لتعجب موسى ـ عليه السلام ـ وليس بذاك، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ذلك الذي كنا نطلب؛ لأنه أمارة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر ـ عليه السلام ـ وقرئ ﴿نَبْغِ﴾: بغير ياء في الوصل، وإثباتها أحسن؛ وهي قراءة أبي عمرو، وأما الوقف، فالأكثر فيه طرح الياء؛ اتباعاً لخط المصحف، ﴿فَٱرْتَدَّا﴾: فرجعا في أدراجهما[2]، ﴿قَصَصًا﴾: يقصان قصصاً، أي: يتبعان آثارهما اتباعاً، أو فارتدا مقتصين، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: هي الوحي والنبوة، ﴿مِن لَّدُنَّا﴾: مما يختص بنا من العلم، وهو الإخبار عن الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿رَشَدًا﴾: قرئ بفتحتين، وبضمة وسكون، أي: علماً ذا رشد، أرشد به في ديني.

فإن قلت: أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه ـ كما قيل ـ موسى بن ميشا، لا موسى بن عمران؛ لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟

قلت: لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبيّ مثله؛ وإنما بغض منه أن يأخذه ممن دونه، وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر

---

(١) قوله: «فأعان الإلف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع، لرؤيته العجائب عند موسى (ع).

(٢) قوله: «فرجعا في أدراجهما» الدرج: الطريق، والجمع الأدراج. ومنه قولهم: رجعت أدراجي، أي: رجعت في الطريق الذي جئت منه، كذا في الصحاح (ع).

ليس بصاحب موسى، وأنّ موسى هو: موسى بن ميشا، فقال: كذب عدوّ الله (٨٩٩).

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد[1]، كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير، والرجل الصالح ـ فكيف إذا كان نبيًا ـ لا يتمالك أن يشمئز ويتمعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار، و ﴿خُبْرًا﴾: تمييز، أي: لم يحط به خبرك بمعنى: لم تخبره، فنصبه نصب المصدر.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

﴿ولا أعصي﴾: في محل النصب، عطف على: (صابراً)، أي: ستجدني صابراً وغير عاص، أولاً في محل؛ عطفاً على ستجدني، رجا موسى ـ عليه السلام ـ لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، بريّ من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

---

٨٩٩ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٩١): كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث (٣٤٠١)، ومسلم (٨/ ١٤٨ ـ النووي) كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر عليه السلام حديث (١٧٠/ ٢٣٨٠)، والترمذي (٥/ ٣٠٩) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الكهف، حديث (٣١٤٩) كلهم من طريق عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى... الحديث. وأخرجه محمد بن إسحاق في سيرته كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٣٠٤).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن الحسن بن عمارة عن الحاكم عن سعيد بن جبير بهذا ـ وساق قصّته كلها في الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد. انتهى.

---

(١) قال محمود: «نفي الاستطاعة على وجه التأكيد... إلخ» قال أحمد: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق: أنه قال حين خرق السفينة: أخرقتها لتغرق أهلها، ولم يقل لتغرقنا، فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي، لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق؛ فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قرئ ﴿فَلَا تَسْـَٔلَنِّي﴾: بالنون الثقيلة، يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً ـ وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت[1]، وأنكرت في نفسك ـ ألاَّ تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقَا﴾: على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبا، قال أهلها: هما من اللصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء، وقيل: عرفوا / ٢١٣ ا الخضر فحملوهما بغير نول؛ فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسدُّ الخرق بثيابه ويقول: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وقرئ: «لتغرِّق»، بالتشديد، و «ليغرق أهلها»: من غرق وأهلها مرفوع، ﴿جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: أتيت شيئاً عظيماً، من أمر الأمر: إذا عظم؛ قال [من الرجز]:

داهِيَـــــةً دَهْـــيَـــاءَ إِدًّا إِمْـــرا[2]

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿بِمَا نَسِيتُ﴾: بالذي نسيته، أو بشيء نسيته، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي، أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان، يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار، وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذب، مع التوصل إلى الغرض؛ كقول ابراهيم: هذه أختي، وإني سقيم، أو أراد بالنسيان: الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة، يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه، أي: ولا تغشني، ﴿عُسْرًا﴾: من أمري، وهو اتباعه إياه، يعني: ولا تعسر عليّ متابعتك، ويسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: «عُسُرا»: بضمتين.

---

(١) قوله: «فحميت» في الصحاح «حميت عليه» بالكسر. غضبت (ع).

(٢) لـقـد لـقـي الأقـوام مـنـي نـكـرا داهـيـة دهـيـاء إدا إمـرا

النكر: المنكر. والداهية: الحادثة المكروهة من شدائد الدهر. والدهياء: مبالغة في شدتها. والإد: المنكر كل الإنكار. والأمر: الشيء العظيم. يقال: إمر الشيء ـ بالكسر ـ: عظم، يصف نفسه بشدة النكاية للأعداء. ويجوز أن الكلام من قبيل التجريد.

ينظر: لسان العرب (٤/٣٣) (أمر)، وتاج العروس (١٠/ ٧٥) (أمر).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: كان قتله فتل عنقه، وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين.

فإن قلت: لم قيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغير فاء؟ و (حتى إذا لقيا غلاماً فقتله): بالفاء؟

قلت: جعل خرقها جزاء الشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه، والجزاء: (قال أقتلت).

فإن قلت: فلم خولف بينهما؟

قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام، وقرئ: «زاكية»، و «زكية»، وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: لم تقتل نفساً فيقتص منها، وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (٩٠٠) ﴿نُّكْرًا﴾، وقرئ بضمتين، وهو المنكر، وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، وقيل: معناه: جئت شيئاً أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد، وهذا لا سبيل إلى تداركه.

فإن قلت: ما معنى زيادة: ﴿لك﴾؟

قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

---

٩٠٠ ـ أخرجه مسلم (٣/ ١٤٤٤ ـ ١٤٤٥) كتاب الجهاد: باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم حديث (١٣٧/ ١٨١٢) من طريق يزيد بن هرمز قال: كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن العبد والمرأة يحضران المغنم هل يقسم لهما... الحديث.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرج أبو يعلى نحوه، وقال في آخره: «وكان لك ذلك» وفي رواية له: «فقلت ولكنك لا تعلم» فاجتنبهم وأصله في مسلم بغير هذا السياق. وأوله: كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان ـ الحديث» وفيه: «وسألتني عن قتل الولدان، فإن رسول الله ﷺ لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله. انتهى.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿بَعْدَهَا﴾: بعد هذه الكرة أو المسألة، ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾: فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، وقرئ: (فلا تصحبني): فلا تكن صاحبي، وقرئ: (فلا تصحبني) أي: فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك، ﴿مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾: قد أعذرت، وقرئ: «لدُني»: بتخفيف النون، و «لدْني»: بسكون الدال وكسر النون؛ كقولهم في عضد: عضد، وعن رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى اسْتَحْيَا فَقَالَ ذلك (٩٠١)، وقَالَ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ أَعْجَبَ الأَعَاجِيبِ[1]» (٩٠٢).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾: هي أنطاكية، وقيل: الأبلة، وهي أبعد أرض الله من السماء، ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وقرئ: «يضيفوهما»، يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً، وحقيقته: مال إليه، من ضاف السهم عن الغرض؛ ونظيره: زاره، من الإزورار، وأضافه وضيفه: أنزله وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ: «كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئاماً»[2] (٩٠٣). وقيل: شر القرى التي لا

---

٩٠١ ـ أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في تخريج الكشاف (٢/ ٣٠٥) من طريق داود بن أبي هند عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبي هند، عن عبد الله بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فذكر القصة. وفيها: «رحمة الله علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك. فقال: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ـ الآية﴾. انتهى.

٩٠٢ ـ أخرجه أبو داود (٤/ ٣٣) كتاب الحروف والقراءات حديث (٣٩٨٤)، والترمذي (٥/ ٤٦٣) كتاب الدعاء: باب ما جاء أن الداعي يبدأ بنفسه حديث (٣٣٨٥) مختصراً، والنسائي في «التفسير» (٣٣٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢١٩) رقم (٩٢٧٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨٦)، والحاكم (٢/ ٥٧٤) من طريق أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب به، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣٠)، وزاد نسبته لابن مردويه.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان ومن رواية حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ. في أثناء حديث وأصله من مسلم. انتهى.

٩٠٣ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٧)، وعزاه للنسائي، وتقدم في صحيح مسلم: فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجلس..

يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه، ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهمّ والعزم لذلك؛ قال الراعي [من الكامل]:

فِـي مَـهْـمَـهٍ قَـلِـقَـتْ بِـهِ هَـامَـاتُـهَـا قَـلَـقَ الـفُـئُـوسِ إِذَا أَرَدْنَ نُـصُـولاَ(١)

وقال [من الوافر]:

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ وَيَـعْـدِلُ عَـنْ دِمَـاءِ بَـنِـي عَـقِـيـلِ(٢)

وقال حسان [من الخفيف]:

إِنَّ دَهْـراً يَـلُـفُّ شَـمْـلِـي بِـجُـمْـلٍ لَـزَمَـانٌ يَـهُـمُّ بِـالإِحْـسَـانِ(٣)

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ، وإذا كان القول، والنطق، والشكاية، والصدق، والكذب، والسكوت، والتمرد، والإباء، والعزة، والطواعية، وغير ذلك، مستعارة للجماد ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال [من الرجز]:

إِذْ قَـالَـتِ الأَنْـسَـاعُ لِـلْـبَـطْـنِ الْـحَـقِـي(٤)

= قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ قال: «كانوا أهل قرية لئاماً» وهو في مسلم بلفظ: «فانطلقا حتى أتيا أهل قرية لئاماً». انتهى.

---

(١) للراعي يصف الإبل بأنها في مهمه: أي مفازة، قلقت: أي تحركت فيه هاماتها: أي رؤوسها. قلق الفؤوس: أي كتحرك الفؤوس جمع فأس وهي آلة الحفر، إذا أردن: أي الفؤوس، نصولاً: أي قرن منه، فالأرد مجاز مرسل، ونصولها: خروج الحديدة من المقبض. والنصول في كل شيء: الخروج، والإنصال: الإخراج، ولقد شبه رؤوس الإبل مع أعناقها بالفؤوس.
ينظر: ديوانه ص (٢٢٢)، ولسان العرب (٣/ ١٨٩) (رود).

(٢) الإرادة هنا مجاز عن التوجه. ويجوز أن الإسناد مجاز، لأن المريد صاحب الرمح. والأوجه أنه شبه الرمح بإنسان على طريق المكنية، وإسناد الإرادة والعدول إليه تخييل، أي: يريد أن يشرب من صدر أبي براء، لا من دماء هؤلاء.
ينظر: لسان العرب (٣/ ١٨٩) (رود).

(٣) لحسان بن ثابت، ولففت الشيء: طويته وأدرجته، من باب رد. والشمل. المتفرق، ويطلق على المجتمع من الأمور. وجمل: اسم محبوبته. ويروى: بسعدى. يقول: إن الدهر الذي يجمع شملي بمحبوبتي لدهر يهم بالإحسان ويريده، وهم من باب رد أيضاً، أي: دهر يريد الإحسان لا الإساءة كعادة الدهر، فشبه الزمان بإنسان يصح منه إرادة الإحسان على طريق المكنية، والهم تخييل. ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلي كإسناد اللف، وهما في الحقيقة لله.
ينظر: لسان العرب (٤/ ٢٩٣) (دهر)، وتهذيب اللغة (٦/ ١٩٢)، وديوان الأدب (١/ ١٠٧)، وتاج العروس (١١/ ٣٤٦) (دهر).

(٤) تقدم.

[ومن الرجز]:

تَـقُـولُ سِـنِّـي لِـلـنَّـوَاةِ طِـنِّـي

[ومن البسيط]:

.... لاَ يَنْطِقُ اللَّهْوُ حَتّى يَنْطِقَ العُودُ(1)

[ومن الكامل]:

.... وَشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ(2)

[ومن الطويل]:

فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقاً وَهْوَ صَادِقِي ....(3)

(ولما سكت عن موسى الغضب) [من الطويل]:(4)

.... تَمَرَّدَ مَارِدٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ(5)

ولبعضهم: [ومن الكامل]:

---

(1) فاستنطق العود قد طال السكوت به ... لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

لأبي نواس، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية. أو شبه العود بإنسان على طريق المكنية والنطق تخييل، والسين والتاء للطلب، والسكوت ترشيح لذلك؛ لأنه ضد التكلف. والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه، فهو من باب المشاكلة، وهل هي حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع؟ خلاف بين القوم بين في البيان.

(2) فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

لعنترة بن شداد من معلقته، يصف فرسه بأنه ازور أي مال من وقوع الرماح بلبانه، وهو موضع اللبب من صدره، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل، والعبرة: البكاء. والحمحمة: صوت الصهيل يشبه الحنين، لو كان يعلم ما هي المحاورة والمخاطبة لاشتكى إليّ وخاطبني حقيقة، وإنما يشكو إلي بالعبرة والتحمحم فقط. وفسره بقوله: ولكان مكلماً لي لو علم الكلام، وذلك مبالغة في شدة الحرب.

(3) لهفي على القوم الذين تجمعوا ... بذي السيد لم يلقوا علياً ولا عمرا

فإن يك ظني صادقاً وهو صادقي ... بشملة يحبسهم بها محبساً وعرا

لكنز أم شملة بن برد المنقري، وذو السيد ـ بالكسر ـ: موضع المعركة، والسيد: الذئب. وقولها «وهو صادقي» اعتراض. وبشملة: متعلق بظني. تقول: يا تلهفي على القوم الذين اجتمعوا في ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين، فقتلوا برداً أبا شملة. فإن يك ظني به صادقاً مع أن عادته يصدقني، يحبسهم شملة في تلك المعركة حبساً صعباً فيأخذ ثأر أبيه. ويجوز أن محبساً ظرف يدل من بها. وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية، والصدق تخييل لذلك. أو المعنى: فإن يك ظني مطابقاً للواقع.

(4) وقد قالت الزبا لحصن سموءل ... تمرد مارد وعز الأبلق

مارد: هو حصن دومة الجندل. والأبلق: حصن سموأل، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا =

يَـأْبَـى عَـلَـى أَجْـفَـانِـهِ إِغْـفَـاءَهُ هَـمٌّ إِذَا انْـقَـادَ الْـهُـمُـومُ تَـمَـرَّدَا[1]

[ومن الكامل]:

أَبَـتِ الـرَّوَادِفُ وَالـثُّـدِيُّ لِـقُـمْـصِـهَـا مَـسَّ الـبُـطُـونِ وَأَنْ تَـمَـسَّ ظُـهُـورَا[2]

(قالتا أتينا طائعين): ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله - تعالى - ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخضر؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتمحل ليردّه إلى / ٢١٣ ب ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز، وانقض: إذا أسرع سقوطه، من انقضاض الطائر وهو يفعل، مطاوع قضضته، وقيل: افعلّ من النقض، كاحمرّ من الحمرة، وقرئ: «أن ينقض» من النقض، و «أن ينقاص»؛ من انقاصت السن إذا انشقت طولا؛ قال ذو الرمة [من البسيط]:

= عليها، فقالت ذلك، وصار يضرب مثلاً. وقوله: لحصن سموأل، أي: ولحصن دومة الجندل. تمرد: صار أملس ناعماً، ومرد مردا ومرودة، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه، أو تمرد بمعنى تشيطن، وفعل أهله فعل المردة من الجن، فهو لا يستطيع أحد طلوعه. وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعدياً بمعنى غالب، وإن كان بكسرها كان لازماً بمعنى امتنع. والمعنى: أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلهما.

(١) للزمخشري. والهم: ما يهتم به، وهو فاعل. والإغفاء: النوم الخفيف، وهو مفعول، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم. وانقياد الهموم: مجاز عن سكونها، وتمرد الهم مجاز عن تزايده وكثرة خطوره بالبال. أو شبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية، والتمرد ضد الانقياد، وهما تخييل.

(٢) أبـت الـروادف والـثـدي لـقـمـصـهـا مـس الـبـطـون وأن تـمـس ظـهـورا
وإذا الـريـاح مـع الـعـشـي تـنـاوحـت نـبـهـن حـاسـدة وهـجـن غـيـورا

الإباء: المنع الاختياري فشبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والإباء تخييل. والأقرب أنه مجاز مرسل، والمراد به مطلق المنع، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر ردفيها وضمور خصريها. وفيه لف ونشر غير مرتب، لأن مس البطون يرجع للثدي، ومس الظهور يرجع للروادف. وعبر بالجمع عن غيره مجازاً. أو اعتبر الأجزاء، فالتجوز في مفرد الجمع. والثدي بالتشديد: جمع ثدي بالتخفيف. والقمص: جمع قميص. وتناوح الجبلان. تقابلا، فالمراد بالتناوح: التقابل، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضه من خلفها، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره، فتنبه الحاسدة لها، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح. وهاج الشيء: هام، وهاجه: هيمه، وهيجه: هيمه. وما هنا من الوسط. ويجوز أنه شبه على طريق المكنية. أو شبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت، ومع: بمعنى في.
البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة في الشعر المنسوب إليه (٤٩٢) وفي الحماسة (٢/ ٩٣) ورصف المباني ص (٤٣٢).

. . . . مِنْـقَـاصٌ وَمُـنْـكَـثِـبُ[1]

بالصاد غير معجمة، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، قيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيده فقام واستوى، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً؛ فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وطلبت على عملك جعلاً حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة، وقرئ: «لتخذت»، والتاء في «تخذ»: أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه، كاتبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

فإن قلت: ﴿هَٰذَا﴾: إشارة إلى ماذا؟

قلت: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى ـ عليه السلام ـ: «إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه، كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون «هذا»: إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل: هذا فراق بيني وبينك، وقد قرأ به ابن أبي عبلة، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمنى، وخمسة يعملون في البحر، ﴿وَرَآءَهُم﴾: أمامهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقيل: خلفهم، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو: «جلندي»[2].

---

(١) يغشى الكناس بروقيه ويهدمه ... من هائل الرمل منقاص ومنكثب

لذي الرمة يصف ثوراً وحشيا. والكناس: بيت الوحش. وروقاه: قرناه. والمنقاص ـ كالمختار ـ: المتساقط من جانب طول الكناس. والمنكثب ـ بالمثلثة :ـ المجتمع. وروي: منقاض، بالمعجمة. والمعنى واحد، أي: يحفر الكناس بقرنيه، ليستتر من المطر، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهايل.

ينظر: ديوانه ص ٨٨، وأساس البلاغة (قيص)، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٧، وتاج العروس (قيص)، وبلا نسبة في كتاب العين ٥/ ١٨٥.

(٢) قوله: «وهو جلندي»: في الخازن: وكان اسمه الجلندي الأزدي، وكان كافراً. وقيل: كان اسمه حرد بن برد (ع).

فإن قلت: قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب[1]، فلم قدّم عليه؟

قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده؛ ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم، وقيل في قراءة أبيّ وعبد الله: «كل سفينة صالحة».

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

وقرأ الجحدري: «وكان أبواه مؤمنان»، على أن «كان»: فيه ضمير الشأن، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾: فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين؛ طغياناً عليهما، وكفراً؛ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله، فيرتدا بسببه، ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته، وفي قراءة أبيّ: «فخاف ربك»، والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره، ويجوز أن يكون قوله: (فخشينا): حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا؛ كقوله: (لأهب لك)، وقرئ: «يبدّلهما»: بالتشديد، والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب، والرحم: الرحمة

(١) قال محمود: «إن قلت قوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها... إلخ» قال أحمد: وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً والنية تأخيره، والله أعلم. ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً. ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله ﴿فأردنا أن يبد لهما وبهما﴾ ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى، لأن المراد ثم عيب، فتأدب ثم نسب الإعابة إلى نفسه. وإما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبرنا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع وينبو عنها، ثم انفجرت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

والعطف، وروي أنه ولدت لهما جارية تزوّجها نبي، فولدت نبيًّا هدى الله على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبيًّا، وقيل: أبدلهما ابنا مؤمناً مثلهما، قيل: اسما الغلامين: أصرم، وصريم، والغلام المقتول: اسمه الحسين، واختلف في الكنز، فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة (٩٠٤)، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله (٩٠٥)، وقيل: صحف فيها

---

٩٠٤ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣١٣) كتاب التفسير: باب ومن سورة الكهف حديث (٣١٥٢)، والحاكم (٢/ ٣٦٩) من طريق يزيد بن يوسف عن يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الحاكم: صحيح.

وتعقبه الذهبي فقال: يزيد بن يوسف متروك، وإن كان حديثه أشبه ما روي في تفسير الكنز، والحديث ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٧) وعزاه أيضاً للطبراني في معجمه والبزار، ونقل قول البزار: إسناده حسن، ويزيد بن يوسف ليس به بأس، ومن قبله وبعده ثقات أ.هـ.

قلت: وكلام البزار ـ رحمه الله ـ فيه نظر؛ فالجمهور على تضعيف هذا الرجل، وقال الذهبي في «الكاشف» (٣/ ٢٨٨): واه، وقال في «ديوان الضعفاء» (٤٧٥٤): تركوه. وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٧٢): ضعيف. وينظر «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٧٣).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي، والحاكم، والبزار، والطبراني، وابن عديّ من طريق مكحول، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، وفيه يزيد بن الصنعاني وهو ضعيف.

٩٠٥ ـ رُوي هذا مرفوعاً، وموقوفاً. أما المرفوع فأخرجه البزار كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٧)، وقال: لا نعلمه يروى عن أبي ذر إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وورد مرفوعاً أيضاً من حديث أنس بن مالك أخرجه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٢ ـ بتحقيقنا) من طريق ضرار بن صرد ثنا محمد بن مروان ثنا أبان عن أنس به مرفوعاً. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: وأبان والسُدِّيُّ الصغير متروكان. ومن طريق محمد بن مروان السدي أخرجه ابن شاهين في كتاب الجنائز؛ كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٠٩) وورد مرفوعاً أيضاً من حديث علي بن أبي طالب أخرجه ابن مردويه؛ كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٨) أما الموقوف:

فورد عن ابن عباس، أخرجه الطبراني في «الدعاء» كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٨) من طريق رشدين بن سعد عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً، وله طريق آخر أخرجه الدارقطني في غرائب مالك. من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر سئل ابن عباس به.

وقال الدارقطني: هذا باطل عن مالك وجعفر بن محمد ومحمد بن صالح مجهولان.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه البزار من رواية ابن حجيرة عن أبي ذر مرفوعاً بهذا، وأتم منه، وقال: لا نعلمه عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد. وروى الدارقطني في غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: «سئل ابن عباس عن الكنز. فذكره ـ وقال: هذا باطل عن مالك. وروى ابن عديّ. من رواية أبين بن سفيان والطبراني في الدعاء، من رواية رشدين بن سعد =

علم، والظاهر لإطلاقه: أنه مال، وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا: أراد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما، وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء، وعن الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنهما - أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدّي خير منه، فقال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول له، أو مصدر منصوب بأراد ربك؛ لأنه في معنى: رحمهما، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾: وما فعلت ما رأيت، ﴿عَنْ أَمْرِي﴾: عن اجتهادي ورأيي؛ وإنما فعلته بأمر الله.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

ذو القرنين: هو الإسكندر الذي ملك الدنيا، قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين، وسليمان، وكافران: نمروذ، وبختنصر (٩٠٦)، وكان بعد نمروذ، واختلف فيه، فقيل: كان عبداً صالحاً، ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة، وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل: نبيًّا، وقيل: ملكاً من الملائكة، وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم، غفراً ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة، وعن عليّ - رضي الله عنه -: سخر له السحاب، ومدّت له الأسباب، وبسط له

= كلاهما عن أبي حازم عن ابن عباس نحوه، وعن علي مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقي في الشعب من رواية جويبر عن الضحاك، عن النزال بن سبرة عنه. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن علي مرفوعاً. ورواه ابن شاهين في الجنائز. والواحدي من رواية محمد بن مروان السدي الصغير: عن أبان عن أنس مرفوعاً أيضاً. وأبان والسدي الصغير متروكان. انتهى.

٩٠٦ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣٠٩): رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفضائل بسنده عن مجاهد.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجاهد. قال: «لم يملك الأرض منها إلا أربعة: مؤمنان، وكافران فذكره». انتهى.

النور، وسئل عنه، فقال: أحبه الله فأحبه / ٢١٤ أ، وسأله ابن الكوّا: ما ذو القرنين؟ أملك أم نبيّ؟ فقال: ليس بملك ولا نبيّ، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله، قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى، وعن النبي ﷺ: «سُمِّي ذَا القَرْنَيْنِ لأَنَّهُ طَافَ قَرْنَي الدُّنْيَا» (٩٠٧). يعني: جانبيها شرقها وغربها، وقيل: كان له قرنان، أي: ضفيرتان، وقيل: انقرض في وقته قرنان من الناس، وعن وهب: لأنه ملك الروم وفارس، وروى: الروم والترك، وعنه: كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: كان لتاجه قرنان، وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك؛ لشجاعته، كما يسمى الشجاع: كبشاً؛ لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره، والسائلون: هم اليهود، سألوه على جهة الامتحان، وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه، والخطاب في: ﴿عَلَيْكُم﴾: لأحد الفريقين، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من أسباب كل شيء، أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه، ﴿سَبَبًا﴾: طريقاً موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾: يوصله إليه حتى بلغ؛ وكذلك أراد المشرق، فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السدّين فاتبع سبباً، وقرئ: «فأتبع»، قرئ: «حمئة»: من حمئت البئر: إذا صار فيها الحمأة، وحامية بمعنى: حارّة، وعن أبي ذر: كنت رديف رسول الله - ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ هٰذِهِ؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ» ح (٩٠٨)، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة، وابن

---

٩٠٧ - قال الزيلعي (٢/٣٠٩): غريب. ورواه الدارقطني في كتاب «المؤتلف والمختلف» من قول الزهري، فقال: حدثنا مسلم بن عبد الله الحسيني ثنا الخضر بن داود ثنا الزبير بن بكار ثنا إبراهيم ابن المنذر ثنا عبد العزيز بن عمران عن سليمان بن أسيد عن الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها فسمي ذا القرنين. أ.هـ.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه الدارقطني في المؤتلف. من رواية عبد العزيز بن عمران. عن سليمان ابن أسيد عن الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها. انتهى.

٩٠٨ - قال الحافظ بن حجر: كذا في نسخ الكشاف: على جمل، والذي في كتب الحديث على حمار ولم يصرح فيه بالإرداف. أ.هـ. والحديث أخرجه أبو داود (٤/٣٧) كتاب الحروف والقراءات: باب (١) حديث (٤٠٠٢) والحاكم (٢/٢٤٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
كذا في نسخ الكشاف «على جمل». والذي في كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه =

عمر، وابن عمرو، والحسن، وقرأ ابن عباس: «حمئة»، وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: «حامية»، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار، كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، وروي: في ثأط، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل، فأنشد قول تبع [من الكامل]:

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِهَا ... فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَأطٍ حَرْمَدِ[1]

أي: في عين ماء ذي طين وحمإ أسود، ولا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن

= بالإرداف. عن أبي داود، والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنت مع رسول الله ﷺ وهو على حمار، والشمس عند غروبها فقال: «هل تدري أين تغرب هذه»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تغرب في عين حامية» زاد الحاكم: «غير مهموزة». ورواه ابن أبي شيبة، وأحمد وأبو يعلى، والبزار، وزاد: «وتنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش، فإذا كان خروجها أذن الله لها وإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها، فيقول. اطلعي من حيث غربت. فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها» وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم. ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمي. وهو في الصحيحين دون قوله «تغرب في عين حامية» وأوله «كنت مع النبي ﷺ جالساً» الحديث. انتهى.

---

(١) قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند مآبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد

لتبع الأكبر اليماني المذكور في القرآن، يفتخر بجده اسكندر ذي القرنين بن فيلسوف اليوناني. ويروى: مرءاً، بدل جدي. وتدين أي تنقاد. وروي بدله: «علا في الأرض غير مفند» أي غير مكذب، فلا عيب في القافية والخلب ـ بضمتين ـ: الحمأة وهي الطين. والثأط: الحمأة المختلطة بالماء، فتزيد رطوبة وتفسد. والحرمد: الطين الأسود. مدح ذا القرنين ثم قال: إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها، يبتغي من الله أسباباً توصله لمقصده، فرأى محلى غيار الشمس عند مآبها، أي رجوعها إليه. ويروى مآب الشمس عند مغيبها: أي غيبوبتها. وفي عين: متعلق بغار. أو بمحذوف، أي: رآها تغرب في عين. ويجوز أنه حال من المغار؛ لأن العين أوسع منه، أي في عين ماء ذي طين أسود مختلط بماء، وهذا موافق لظاهر الآية. وأولها أبو علي الجبائي بأن ذلك على سبيل التخييل، كما أن من لم ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأبيض، لأن الأرض كروية.
وهو لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٢٦، ولسان العرب (حرمد)، (ثأط)، ومقاييس اللغة ١/ ١٥٤، وتهذيب اللغة ٧/ ٤١٨، وتاج العروس (أوب)، (حرمد)، (ثأط)، ولتبع في تاج العروس (خلب)، ولسان العرب (أوب)، (خلب)، (حرمد)، و كتاب العين ٤/ ٢٧٠، ٨/ ٤١٧، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٣٠، ١٤/ ٥، ١٥/ ٦٠٧، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١/ ٣٩٨، وجمهرة اللغة ص ١١٤٠.

تكون العين جامعة للوصفين جميعاً، كانوا كفرة فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم، فقال: أما من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك؛ فذلك هو المعذب في الدارين، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ﴾: ما يقتضيه الإيمان، ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه إحساناً في مقابلة القتل، (فله جزاء الحسنى): فله أن يجازي المثوبة الحسنى، أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة، وقرئ: «فله جزاء الحسنى»، أي: فله الفعلة الحسنى جزاء، وعن قتادة: كان يطبخ من كفر في القدور، وهو العذاب النكر، ومن آمن أعطاه وكساه، ﴿مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك، وتقديره: «ذا يسر»؛ كقوله: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، وقرئ: «يُسُراً»: بضمتين.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

وقرئ: مطلع، بفتح اللام وهو مصدر، والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس؛ كقوله [من الطويل]:

كَأَنَّ مَجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَهَا .... (1)

يريد: كأن آثار مجر الرامسات؛ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قيل: هم الزنج، والستر: الأبنية؛ وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب؛ فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم، وعن بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فسألت عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس

---

(1) كأن مجر الرامسات ذيولها ... عليه قضيم نمقته الصوانع

للنابغة، والمجر ليس مكان الجر، وإنما هو مصدر بمعنى الجر، لأنه لو كان اسم مكان لما عمل النصب، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الإخبار عنه بأنه قضيم أي موضع مجر، أي كان المحل الذي تجر الرياح الرامسات ذيولها عليه قضيم، أي جلد أبيض نمقته وحسنته الصوانع للكتابة. وسميت الرياح رامسات من الرمس أي التغييب؛ لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفنها. واستعار الذيول لما يلي الأرض من الرياح على طريق التصريح. ويجوز أن تشبه الرياح بنساء لثيابهن ذيول طويلة يحررنها على الأرض، والذيول تخييل.

ينظر: ديوانه ص ٣١، وجمهرة اللغة ص ٩٧٧، وخزانة الأدب ٢/ ٤٥٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ١٧٤، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٦، وشرح المفصّل لابن يعيش ٦/ ١١٠، ١١١، ولسان العرب، (ذيل)، (قضم)، وتاج العروس (نمق)، (ذيل)، (قضم)، وبلا نسبة في شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ١٦، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٣٣.

الأخرى، ومعي صاحب يعرف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة[1]، فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم، وقيل: الستر: اللباس، وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كذلك، أي: كما وصفناه تعظيماً لأمره، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾: من الجنود والآلات وأسباب الملك، ﴿خُبْرًا﴾: تكثيراً لذلك، وقيل: لم نجعل لهم من دونها ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف، وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها، وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني: أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾: بين الجبلين، وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما، قرئ: بالضم والفتح، وقيل: ما كان من خلق الله ـ تعالى ـ فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأن السد بالضم فعل بمعنى: مفعول، أي: هو مما فعله الله تعالى وخلقه، والسد ـ بالفتح ـ: مصدر حدث يحدثه الناس، وانتصب (بين): على أنه مفعول به مبلوغ، كما انجرّ على الإضافة في قوله: (هذا فراق بيني وبينك)، وكما ارتفع في قوله: (لقد تقطع بينكم)؛ لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق، ﴿مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾: هم الترك ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾: لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة، ونحوها كما يفهم البكم، وقرئ: يفقهون، أي: لا يفهمون السامع / ٢١٤ ب كلامهم ولا يبينونه؛ لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

---

(١) قوله: «إذ سمعنا كهيئة الصلصلة» في الصحاح «الصلة» واحدة الصلال، وهي القطع من الأمطار المتفرقة يقع منها الشيء بعد الشيء، وصلصلة اللجام: صوته إذا ضوعف (ع).

﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾: اسمان أعجميان؛ بدليل منع الصرف، وقرئا: مهموزين، وقرأ رؤبة: آجوج وماجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل والديلم[1]، ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديداً، وعن النبي ﷺ في صفتهم: «لاَ يَمُوتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى أَلْفِ ذَكَرٍ مِنْ صُلْبِهِ، كُلّهُمْ قَدْ حَمَلَ السِّلاَحَ» (٩٠٩). وقيل: هم على صنفين، طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر، قرئ: «خرجا»، و «خراجا»، أي: جعلا نخرجه من

---

٩٠٩ ـ أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٦/ ٣٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٦ ـ بتحقيقنا)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٩)، وابن مردويه والثعلبي كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣١١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٠٦)؛ كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن محمد بن إسحاق عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة مرفوعاً، وقال ابن عديّ: هذا حديث منكر موضوع، ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي، وإنما هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن عكاشة بن محيصن الأسدي. وقال ابن الجوزي: ومحمد بن إسحاق هو العكاشي قال يحيى بن معين: كذاب. وقال الدارقطني: يضع الحديث.

قال الحافظ بن حجر في «تخريج الكشاف» وذكره ابن الجوزي من هذا الوجه في الموضوعات، فلم يصب؛ فإن له طريقاً أخرى في صحيح ابن حبان عن ابن مسعود. أ.هـ. أما الشاهد الذي ذكره الحافظ فأخرجه ابن حبان (١٩٠٧ ـ موارد) من طريق زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود مرفوعاً. وله شاهد آخر من حديث أوس. أخرجه النسائي في «التفسير» (٣٥٣).

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه ابن عديّ، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والثعلبي وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة قال: «سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قال ابن عديّ: هذا موضوع. ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازي، وإنما هو العكاش وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه، فلم يصب، فإن له طريقاً أخرى؛ ففي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفاً» وفي النسائي عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه: «أن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاؤوا. ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وفي المستدرك عن عبد الله بن عمرو رفعه: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً» انتهى.

---

(١) قوله: «من الجيل والديلم» كذا عبارة النسفي أيضاً، ولعله «من جيل الديلم» وفي الصحاح: جيل من الناس، أي: صنف، الترك جيل، والروم جيل. وفيه: الديلم جيل من الناس (ع).

أموالنا؛ ونظيرهما: النول والنوال، وقرئ: «سدا»، و «سدا»: بالفتح والضم.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾: ما جعلني فيه مكينا من كثرة المال واليسار، خير مما تبذلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، كما قال سليمان، صلوات الله عليه: (فما آتاني الله خير مما آتاكم)، قرئ بالإدغام وبفكه، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾: بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات، ﴿رَدْمًا﴾: حاجزاً حصيناً موثقاً، والردم: أكبر من السد، من قولهم: ثوب مردم، رقاع فوق رقاع، قيل: حفر الأساس[1] حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر. والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب[2] والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، صب النحاس المذاب على الحديد المحمي فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً، وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ، وقرئ: «سوّى»، و «سووي»، وعن رسول الله ﷺ أنّ رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال: «كالْبُرْدِ[3] المُحْبِرِ طَرِيقة سَوْدَاء وَطَرِيقَة حَمْرَاءَ». قال: «قد رأيته» (٩١٠) والصدفان ـ بفتحتين ـ: جانبا الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي: يتقابلان، وقرئ:

---

٩١٠ ـ أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٨٥) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به مرسلاً، وأخرجه أيضاً ابن مردويه، والطبراني في «مسند الشاميين»، والبزار كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

---

(١) قوله: «قيل حفر الأساس» لعله: للأساس (ع).

(٢) قوله: «بينهما الحطب» لعله: بينها (ع).

(٣) أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لي قال: كالبرد المحبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته» ورواه ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة. أنه قال للنبي ﷺ، رأيت الردم فذكر نحوه، ورواه الطبراني في مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فذكر نحوه، لكن قال «طريقة حمراء من نحاس: وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبي مريم الحنفي. قال «بينما أنا قاعد مع أبي بكرة إذ جاء رجل فسلم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت؟ قال تعلم رجلاً أتى النبي ﷺ فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدثنا. قال: انطلقت حتى أتيت أرضاً ليس لهم إلا الحديد يعلمونه». فذكر القصة والحديث. وقال: لا نعلم له رواية عن النبي ﷺ غير أبي بكرة.

«الصدفين»؛ بضمتين، و «الصدفين»: بضمة وسكون، و «الصدفين»: بفتحة وضمة، والقطر: النحاس المذاب؛ لأنه يقطر، و ﴿قِطۡرٗا﴾: منصوب بأفرغ، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول، لدلالة الثاني عليه، وقرئ: قال: ائتوني، أي: جيئوني، ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾: بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: «فما اصطاعوا»: بقلب السين صاداً، وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء، فملاق بين ساكنين على غير الحد، ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾: أن يعلوه، أي: لا حيلة لهم فيه من صعود، لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلابته وثخانته.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾

﴿بِهَٰذَا﴾: إشارة إلى السد، أي: هذا السد نعمة من الله، و: ﴿رَحۡمَةٞ﴾: على عباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾: يعني: فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد، ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: مدكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك، ومنه: الجمل الأدك: المنبسط السنام، وقرئ: دكاء، بالمد، أي: أرضاً مستوية، ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾: آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾

﴿وَتَرَكۡنَا﴾: وجعلنا، ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾: بعض الخلق، ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ أي: يضطربون ويختلطون-إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد، وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس،

= أخرجه الطبري من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. قال «ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال انعته لي قال، كالبرد المحبر. طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته، ورواه ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة. أنه قال للنبي ﷺ، رأيت الردم فذكر نحوه، ورواه الطبراني في مسند الشاميين. وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشير عن قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فذكر نحوه، لكن قال طريقة حمراء من نحاس: وطريقة سوداء من حديد» وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبي مريم الحنفي. قال «بينما أنا قاعد مع أبي بكرة إذ جاء رجل فسلّم عليه. فقال له أبو بكرة من أنت «قال تعلم رجلاً أتى النبي ﷺ فأخبره أنه رأى الردم. فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدثنا. قال: انطلقت حتى أتيت أرضاً ليس لهم إلا الحديد يعلمونه. فذكر القصة والحديث. وقال: لا نعلم له رواية عن النبي ﷺ غير أبي بكرة.
قوله «ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم» أي دودا، أفاده الصحاح.

ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم[1] فيدخل في آذانهم فيموتون.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾: وبرّزناها لهم فرأوها وشاهدوها، ﴿عن ذكري﴾: عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها؛ ونحوه: صم بكم عمي، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني: وكانوا صماً عنه، إلا أنه أبلغ؛ لأنّ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم[2]، فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾: هم الملائكة، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء؛ كما حكى عنهم: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، وقرأ ابن مسعود: أفظن الذين كفروا، وقراءة علي ـ رضي الله عنه ـ: «أفحسب الذين كفروا»، أي: أفكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو على الفعل والفاعل؛ لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل؛ كقولك: «أقائم الزيدان»، والمعنى: أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا، وهي قراءة محكمة جيدة، النزل: ما يقام للنزيل وهو الضيف، ونحوه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾: ضاع وبطل وهم الرهبان، عن علي ـ رضي الله عنه ـ (٩١١) كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾ [الغاشية: ٣] وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن

---

٩١١ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٥٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

---

(١) قوله: «ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم» أي دوداً، أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «كأنهم أصميت أسماعهم» في الصحاح في مادة صمم: أصمه الله فصم. وفي مادة صما بالألف: أصميت الصيد إذا رميته فقتلته، فقوله: أصميت، لعله بمعنى أهلكت بالمرة بحيث لا يمكن أن تسمع (ع).

ابن الكوّا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء (٩١٢)، وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾: فنزدري بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار، وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين، وقرئ: «فلا يقيم»: بالياء.

فإن قلت: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟

قلت: الأوجه أن يكون في محل الرفع، على: هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصباً على الذم، أو جرا على البدل، ﴿جَهَنَّمُ﴾: عطف بيان لقوله: (جزاؤهم)[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

الحول: التحول، يقال: حال من مكانه حولاً؛ كقولك: عادني حبها عوداً، يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم، وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح للطرف إلى أرفع منه، ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

المداد: اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السماد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها، والمراد بالبحر: الجنس، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾: الكلمات، ﴿وَلَوْ جِئْنَا﴾: بمثل البحر مداداً لنفد ـ أيضاً ـ والكلمات غير نافدة، و ﴿مَدَدًا﴾: تمييز؛ كقولك: لي مثله رجلاً، والمدد مثل المداد، وهو ما يمدّ به، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: بمثله مداداً، وقرأ الأعوج: «مِدداً»: بكسر الميم، جمع: مدّة، وهي: ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ:

---

٩١٢ ـ ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٥٦) وعزاه لابن مردويه.

---

(١) قوله: «عطف بيان لقوله جزاؤهم الحول» كذا في النسفي أيضاً، لكن المتجه أنه بيان لقوله (ذلك) الذي هو إشارة لما مر في قوله ﴿إنا اعتدنا جهنم للكافرين﴾ (ع).

«ينفد»: بالياء، وقيل: قال حييّ بن أخطب: في كتابكم، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ثم تقرؤون: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فنزلت، يعني: أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾: فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو: أفمن كان يخاف سوء لقائه، والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة: أن لا يرائي بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره. وقيل: نزلت في جندب بن زهير قال للنبي ﷺ: «إني أعمل العمل، فإذا اطلع عليه سرني، فقال: إن الله لا يقبل ماشورك فيه» (٩١٣). وروي أنه قال: «لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية» (٩١٤)، وذلك إذا قصد أن يقتدي به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء» (٩١٥). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من

---

٩١٣ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٣١٣) غريب. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٦٠٤).

٩١٤ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٥٩٤) كتاب الزهد: باب عمل البر حديث (٢٣٨٤) وابن ماجه (٢/ ١٤١٢) كتاب الزهد: باب الثناء الحسن حديث (٤٢٢٦) والطيالسي (٢/ ٢٨ ـ منحة) رقم (١٩٩٩) وابن حبان (٦٥٥ ـ موارد) وابن عديّ في «الكامل» (٣/ ١٢٠٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وقد روى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن النبي ﷺ مرسلاً وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه عن أبي هريرة. أ.هـ. وصححه ابن حبان. وله شاهد من حديث أبي مسعود الأنصاري أخرجه الطبراني كما في «تخريج الكشّاف» (٢/ ٣١٤). وشاهد آخر من حديث أبي ذر. أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٢).

٩١٥ ـ أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد.
قال الزيلعي: رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب، من حديث أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه: ثنا دعلج بن أحمد، ثنا حامد بن محمد، ثنا سريج بن يونس، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... ذكره سواء.
وبهذا الإسناد رواه الثعلبي في تفسيره سواء. ورواه ابن مردويه في تفسيره في سورة الرعد: ثنا دعلج بن أحمد به سنداً ومتناً، وكذلك رواه في هذه السورة.
وروى أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد ـ هو الطبراني ـ: ثنا أحمد بن حماد بن رغبة، ثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا ابن لهيعة، عن عمارة بن غزية، عن يعلى بن شداد بن أوس، عن أبيه قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر.
وروى الدارقطني في غرائب مالك، من حديث عبد الرحمن بن محمد بن سلام: ثنا إسحاق بن عيسى الطباع، عن مالك بن أنس، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا =

آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه. ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء» (٩١٩) وعنه ﷺ: «من قرأ عند مضجعه (قل إنما أنا بشر مثلكم) كان له من مضجعه نور يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ» (٩١٧) / ١ / ٢١٥ أ والله أعلم.

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

= رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». انتهى. ثم قال: غريب من حديث مالك، تفرد به إسحاق الطباع، وهو ثقة، ولا أعلم رواه عنه غير عبد الرحمن بن محمد بن سلام، وهو من الثقات. انتهى.

ورواه أحمد: ثنا يونس، ثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو به.

ورواه البيهقي في شعب الإيمان، في الباب الخامس والأربعين، من حديث ابن أبي مريم: ثنا ابن أبي الزناد، عن عمرو بن أبي عمرو به».

٩١٦ ـ أخرجه أحمد (٤٣٩/٣) من حديث معاذ بن أنس. وفي سنده ابن لهيعة.

وأخرجه أيضاً ابن السني في «عمل اليوم والليلة» والبغوي والطبراني والثعلبي وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣١٦/٢).

٩١٧ ـ أخرجه البزار (٣١٠٨ ـ كشف) من حديث عمر بن الخطاب. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه والثعلبي وابن مردويه.